جيلبرت سينويه



إن شاء الله - 1

أريج الياسمين

ترجمة: محمد جليد

منشورات الجمل

رواية

جيلبرت سينويه

إن شاء اللّه - 1

أريـج الياسمين

رواية

ترجمة: محمد جليد

منشورات الجمل

جيلبرت سينويه: روائي فرنسي ولد بالقاهرة ١٩٤٧. درس بمصر ثم أكمل دراسته الموسيقية بباريس حيث تحصل على شهادة الأستاذية في آلة القيثارة. صدر له عن منشورات الجمل: **ابن سينا أو الطريق إلى أصفهان**، رواية (١٩٩٩)؛ **المصرية**، رواية (٢٠٠٥)؛ **ابنة النيل**، رواية (٢٠٠٧)؛ **اللوح الأزرق**، رواية (٢٠٠٨)؛ **أخناتون - الإله اللعين**، رواية (٢٠١١)؛ **الفرعون الأخير**، رواية (٢٠١٢)؛ **أنا، يسوع**، رواية (٢٠١٢)؛ **بريفان**، رواية (٢٠١٢)؛ **صمت الآلهة**، رواية (٢٠١٥)؛ **البكباشي والملك - الطفل**، رواية (٢٠١٥)؛ **الملكة المصلوبة**، رواية (٢٠١٦).

جيلبرت سينويه: **إن شاء الله - 1، أريج الياسمين**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: محمد جليد

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Gilbert Sinoué: Inch' Allah - 1, Le souffle du jasmin

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى محمد طربوش وباسل وندى

شخصيات الرواية

أسرة شهيد الفلسطينية:

حسين: الأب

نادية: الأم

مراد: الابن البكر

سليمان: الابن

سامية: البنت الصغرى

لطيف الوكيل: ابن خال حسين شهيد

ليلى الوكيل: زوجة لطيف

أسرة لطفي المصرية:

فريد لطفي باي: الأب

أميرة: الأم

تيمور: الابن البكر

منى: الأخت الصغرى

أسرة الصافي العراقية:

نضال الصافي: الأب

سلمى: الزوجة
شمس: الابن
دنيا: أخت نضال غير الشقيقة

أسرة مرقس اليهودية:
يوسف مرقس: الأب
إرينا: ابنته المتزوجة من صامويل برونشتاين
أفرام: طفل

أسرة طربوش: الأسرة الفلسطينية الثانية:
مروان: الأب
لبنى: الأم
قاسم: الابن البكر
وسام: الابن الثاني
ليلى: البنت البكر
ياسمينة: البنت الصغرى

أحمد ذو الفقار: صديق أسرة لطفي
نور ذو الفقار: الأخت الصغرى زوجة تيمور

الشرق شرق، والغرب غرب، ولن يلتقيا أبداً.

موشح الشرق والغرب

رادیرد كيبلينغ

القسم الأول

(١)

كلٌّ من يقود تمرُّد الضعفاء على أسيادهم إلى النجاح، لا بدّ أن يخرج من ذلك مدنساً أكثر من أي شيء في العالم، ثم لا يستطيع أبداً أن يتخيل أنه نقي.

«ت. إ. لورنس»، *أركان الحكمة السبعة*[١].

لندن، ١٦ مايو/ أيار ١٩١٦

بصم «لورد غراي»، الوزير البريطاني للشؤون الخارجية، توقيعه في أسفل الورقة الأخيرة. مد القلم إلى الجالس بجواره، «بول كامبون»، سفير فرنسا في لندن.

- تفضل، يا صديقي!

تصنع «كامبون» ابتسامة، وقع على صفحات الوثيقة قبل أن يدون اسمه إلى جانب اسم الوزير. تأمل للحظة الإمضاءين؛ أحدهما جاف ومتوتر، والآخر، هو إمضاؤه، طيِّع وأنيق. كانا يعكسان بلا شك صورة المستقبل: الأسوأ أو الأفضل. فهل يشرع هذان الاتفاقان الموقعان في سرية تامة بين فرنسا وإنجلترا - بمباركة روسيا القيصرية - أبواب الجنة، أم أبواب الجحيم؟

---

(١) *Les Sept Piliers de la Sagesse.*

صاح «وليام بويدنز»، مستشار «لورد غراي»، كأنه قرأ أفكار الدبلوماسي الفرنسي:

- تهانيَّ أيها النبيلان! فقد أشرق يومٌ جديد على وطنينا. سيكون يوم نصر بلا شك.

لم ينتظر. سار نحو طاولة عليها زجاجة شمبانيا. قدم كأسا للوزير، وثانية للسفير، ثم مد كأسا ثالثة لشخص ذي وجه نحيل، وشعر أشقر، وقوام فارع، في سن الثامنة والعشرين على الأكثر. فمنذ أن حلّ بمكتب «لورد غراي»، لم ينبس هذا الشاب ببنت شفة. هل كان ذلك بسبب القلق الذي اخترق عينيه الزرقاوين الداكنتين، أم بسبب ملل الصابر على المطر اللندني طيلة أسبوع؟

- هيا، السيد «لوفون»، أرح نفسك! كان الأمر شاقاً. أعترف بذلك، لكن صبر مفاوضينا أتى ثماره.

أيّد الشاب قوله، دون حماس.

- «لوفون». «جان فرنسوا لوفون». هذا هو اسمك الحقيقي، حسبما أعتقد؟

- نعم، السيد الوزير.

- أن تدعى «لوفون»[1] في الوقت الذي تشغل فيه منصب الكاتب المساعد في شؤون الشرق... فذاك قدر مرتب منذ الأزل.

التفت إلى سفير فرنسا:

- ألا ترون ذلك؟

- ألا تعتقدون أنه أحسن القول؟ قال «كامبون» مؤيدا. ليس

---

(١) تطلق كلمة Levent في اللغة الفرنسية على الشرق. من هنا، كانت هذه المصادفة التي يشير إليها المتحدث «جان فرنسوا لوفون» في هذه الجملة. (المترجم).

أمامنا إلا أن نتحقق من مدى معرفة «جان فرنسوا» باللغات الشرقية. فهو يتكلم العربية بطلاقة تكاد تكون أشبه بإتقانه الفرنسية، وهو معجب بمعرفة هذه المنطقة من العالم. وإذا سمحت لنفسي، سأقول إنه ربما «لورنسنا» بالرغم من صغر سنه.

- آه! أذكركم أن «لورنسنا» لم يبلغ الثلاثين. في أيامنا هذه، يبدو الشباب أكثر نضجاً مما كنا نحن.

رفع الوزير كأسه:

- من أجل فرنسا! من أجل إنجلترا!

- من أجل فرنسا! من أجل إنجلترا!

- بخصوص «لورنس» الغالي هذا، تابع «بول كامبون»، أين هو الآن؟

- تقول آخر الأخبار إنه دخل القاهرة بعد أن حاول التفاوض مع المسؤولين العثمانيين - دون جدوى - بشأن مخرج مشرف لجنرالنا الشقي «تاونسهاند» ورجاله المحاصرين قرب البصرة في العراق[1].

ختم «لورد غراي» متمتماً:

- تلقينا ضربات متواصلة هناك...

- إلا أن الاستيلاء على إقليم البصرة يبقى أولوية مطلقة، قال «وليم بويدنز» مذكرا إياه.

- على أية حال، يبدو أننا أخطأنا بالاستخفاف بالمقاومة التركية. ظاهرياً، ما زالت الإمبراطورية العثمانية قائمة.

- لكن أيامها صارت معدودة، قال «كامبون» ملاحظاً.

---

(١) لأسباب تتعلق بالوضوح، نستعمل عن قصد الاسم الحديث لهذا البلد الذي لم يوجد في حدوده الحالية إلا ابتداء من سنة ١٩١٨ باسم العراق. إذ كانت المنطقة تحمل قبل هذا التاريخ اسم بلاد الرافدين.

جازف «لوفون» بالتدخل:

- اسمحوا لي بأن أطرح سؤالاً: هل أنتم مقتنعون بأن العرب سيبقون مكتوفي الأيدي عندما تنتهي هذه الحرب؟

- أظن ذلك، رد «لورد غراي»، أنكم تشيرون إلى الاتفاقات التي وقعناها للتو؟

أيد «لوفون» رأيه. فهذه الاتفاقيات، التي أضحت تسمى بـ«سايكس - بيكو» - نسبة إلى الدبلوماسييْن «مارك سايكس» و«جورج بيكو» اللذين تفاوضا بشأنها - يمكن أن توجز كما يلي: بعد الحرب، تقتسم فرنسا وإنجلترا الكعكة العثمانية. إذ يخضع إقليما بغداد والبصرة لبريطانيا العظمى، ويعود ساحل سورية ولبنان وقيليقية[1] إلى فرنسا. أما ولاية[2] الموصل، فتقسم إلى شطرين، حيث ينتهي الشطر الأول، الذي يضم مدينة الموصل، إلى الهيمنة الفرنسية، والشطر الثاني، الذي يضم مدينة كركوك، إلى الهيمنة الإنجليزية. وتشكل منطقة دولية في فلسطين. ولن تحرم روسيا القيصرية من الكعكة، حيث تمنحها الاتفاقات مضايق البوسفور وأربع مناطق عثمانية قريبة من القوقاز.

بجرة قلم، وفي غفلة من السكان المعنيين، انتقلت منطقة في هذا العالم من محتل إلى آخر.

أطلق «لورد غراي» ابتسامة ساخرة.

- هل قلتم العرب؟ يا عزيزي، تعلمون جيداً أن العرب لا يوجدون بوصفهم وطناً. فهم ليسوا سوى مزيج من القبائل. ثم إذا لم نخطئ التقدير، فإنهم سيبقون كما هم، نسيجاً من الفرق الصغيرة يحسدُ بعضُها بعضاً، ولا يستطيعون الانسجام.

---

(١) إقليم جنوب آسيا الصغرى الواقعة في تركيا.

(٢) مصطلح تركي يطلق على شعبة، أو منطقة، أو إقليم.

كرَّر كلامه غير مبالٍ بما قاله:

- مزيج بائس من القبائل.

رد «لوفون»، مندهشاً من الازدراء:

- لقد نجح وكيلكم القبطان «لورنس»، على كل حال، في توحيدهم وإقناعهم بخوض الحرب نيابة عنكم وعوضاً عن العدو التركي داخل الجزيرة العربية، وهو ما يقومون به بشجاعة مدهشة.

- صحيح، رد «لورد غراي» موافقاً.

- في مقابل ذلك، ألم تَعِدُوهم بالسيادة على أراضيهم المحررة بكل استقلالية؟ ألم تضمنوا لزعيمهم، شريف مكة[1] الحسين بن علي، الحصول على رئاسة الاتحاد العربي؟ ألم تلتزم إنجلترا صراحة بتتويج فيصل ابن شريف مكة البكر حاكما على العراق وسورية، وابنه الثاني عبد الله على الأراضي الواقعة بين ضفة نهر الأردن الغربية وفلسطين؟ كثيرة هي الوعود التي قدمت باسم التاج البريطاني بتزكية فرنسا[2]. أنا...

رفع «لورد غراي» يده فجأة، وكشف وجهه بغتة عن توتر.

- لحظة، السيد «لوفون». هل سمعت جيداً؟ باسم إنجلترا؟ أم فرنسا؟

حاصر «بول كامبون» بعبارة أرادها متجاوزة الحد:

- هل أنتم على علم بمجرى الأمور؟ هل قدمت حكومتنا وحكومتكم وعوداً كهذه؟

---

(١) لقب منحه المسلمون قديما لخادم الأماكن المقدسة في مكة والمدينة المنورة. غير أن هذه الوظيفة انمحت سنة ١٩٢٤، عندما أخضع ابن سعود المنطقة لنفوذه.

(٢) *أركان الحكمة السبعة*، (*Les Sept piliers de la sagesse*)، «ت. إ. لاورونس»، منشورات «فيبوس».

تنحنح سفير فرنسا.

- لم أسمع أبداً بهذا الكلام.

التفت «لورد غراي» جهة «لوفون»، وافترَّ ثغرُه عن ابتسامة عريضة.

- أرأيتم؟

- ومع ذلك، القبطان «لورنس»...

- وعود القبطان «لورنس» لم تلزم أبداً أحداً إلا هو. أما أخبرتمونا بالأحرى بغايتكم؟

- السيد الوزير على حق، قال «كامبون» مزايداً. أنا لا أوافقكم.

خطر في بال السفير، وهو يلفظ هذه الكلمات، أن مهنة الدبلوماسي لم تكن وظيفة مسلّية بالتأكيد. كان يدرك تمام الإدراك خفايا اتفاقية «سايكس - بيكو»، ولم يواجه أبداً، على امتداد مجراها الطويل، مؤامرةً رهيبة كهذه. إلا أنه ردَّدَ:

- لا أوافقك.

- أنا... أنا... تمتم «لوفون»، كان واعياً بالتوتر المباغت الذي حصل في الغرفة. معاليكم، لم أفعل سوى أنني ذكرتكم ببعض الأحداث. فهي تبدو لي تشغل البال.

- «تشغل البال»؟ تساءل «وليام بويدنز».

- نعم، سيدي.

- بل أيضاً...

ظل «لوفون» صامتاً.

- تكلَّموا. لا داعي للقلق، أصرّ «لورد غراي».

- كما لاحظتم معاليكم، لست على دراية واسعة بالمنطقة. فهذا التقسيم، الذي تم في مكاتب وزارتي الخارجية البريطانية والفرنسية،

لا يأخذ في الحسبان الوقائع. ثمة احتمالات قوية أن تولّد هذه الاتفاقية الموقعة في غفلة من العرب، والتي تحرمهم من حقوقهم كلها، إحباطاً رهيباً. ولا شيء أسوأ من الإحباط. رجال ماتوا، ورجال سُفكت دماؤهم بموجب ما وُعِدوا به. لن ينسوا ذلك، مهما كانوا بَدْواً.

توقف قليلاً قبل أن يؤكِّدَ:

- سنزرع في هذه المنطقة من العالم باروداً، بل أسوأ من ذلك، قنابل موقوتة لم يشهدها التاريخ أبداً.

- لنتخيل الأمر كذلك، رد «لورد غراي». فنحن من سيحتفظ بمراقبة إطلاق النار.

- آمل أن تكون على حق، السيد الوزير، وإلا . . .

- نعم؟

- مخطط «سايكس بيكو» هذا، مع احترامي لشخصك. . .

- نعم؟

- سينفجر بين أيدينا . . .

(٢)

على هذه الأرض سيدة الأرض، أم البدايات أم النهايات، كانت تسمى فلسطين. صارت تسمى فلسطين.

محمود درويش

حيفا، ٢ سبتمبر/ *أيلول* ١٩١٨

اقتربت عقارب الساعة من الثامنة صباحاً.

توجه حسين شهيد نحو النافذة. كانت أمواج البحر الأبيض تتلألأ. احتشد عشرات الجنود الإنجليز على الرصيف. يرافقهم رجل بزيٍّ مدني. وغير بعيد، تظهر شاحنة مغطاة.

داعب حسين لحيته التي وخطها الشيب. تذكر أنه سمع كلاماً عن فوج بريطاني مرّ بالمدينة قبل بضعة أسابيع، متجهاً إلى الشمال. تذكر ذلك جيداً، لأنه كان في ذلك يوم يراقب بياراته.

انحنى ليفحص المشهد جيداً. أليس هذا المدني، الذي يتحدث مع الجنود، هو ابن خاله لطيف الوكيل؟ نعم، بالطبع. سيعرفه من بين ألف رجل، بشاربه الكث، وكتفيه الشبيهين بكتفي مصارع، وجمجمته الصلعاء. ما الذي يفعله مع هؤلاء الجنود؟

ها قد مضى عام على اجتياح الإنجليز أرض فلسطين، بعد الحرب التي ضربت العالم والمنطقة.

في ديسمبر/ كانون الأول، دخل جنرال إنجليزي ذو اسم غريب، الله نبي - أو «ألنبي» - القدسَ وطرَد الأتراك الذين وُجِدوا هناك نحو لأربعة قرون. بعد بضعة أشهر، أي في سبتمبر/ أيلول من السنة ذاتها، استولى على حيفا. وفي أكتوبر/ تشرين الأول، أحكم قبضته على دمشق. سقطت بيروت وحلب بدورهما. محارب حقيقي، هذا الله نبي... وفي الوقت الحاضر، ها هي فلسطين تسقط تحت الاحتلال مرة أخرى.

مسكينة فلسطين! تمزقت في الأزمان القديمة بين الكنعانيين والغزاة العبرانيين، ثم اقتسمتها مملكة يهوذا وإسرائيل، ودكّها الآشوريون، واحتلها بالتناوب الفرس والإغريق والرومان والعرب والصليبيون والأتراك، والإنجليز اليوم! مسكينة فلسطين...

أشار ضابط إلى البواخر الراسية، حيث تكلفت بعض القوارب بنقل البضائع، من بينها ثلاثة في ملكية حسين.

فجأة شعر بالتعب، فجلس ثانية إلى مكتبه، وأمسك رأسه. كم كان عمره؟ عشرين؟ ثلاثين؟ أم مائة؟ كم هو عبثي هذا الحساب الزمني الذي ابتكره الرجال؟ هل يمكن أن يكون مراهق القلب وشيخ الجسد؟ رفع رأسه ولمح انعكاسه في المرآة المعلقة أمامه على الحائط. بعد ثمانية أيام، سيبلغ عامه الأربعين. غزت التجاعيد وجنتيه وجبهته المحترقة بالشمس، لكن عينيه الرماديتين الداكنتين احتفظتا بنور شبابهما.

حمل يده إلى صدره، كأنه يحبس ألماً. من أين حلّ به هذا القلق؟ منذ أن أصبح الإنجليز أسياد فلسطين، بدا كل شيء هشّاً! كان حسين يعرف،.وهو مالك بيارات وبساتين قرب المدينة فضلاً عن ممتلكات أخرى، حق المعرفة مصير الضعفاء الذين يعتمدون على نزوات الأقوياء. لو تعلق الأمر بمصيره الشخصي على الأقل،

لتحمل! لكنه ربّ أسرة تتكون من زوجته نادية، وثلاثة أبناء! ابنان وابنة. فالبنت الصغرى سامية بالكاد بلغت عامها الثالث عشر. بينما احتفل سليمان بسنوات عمره الست عشرة قبل أسبوع، ودخل ابنه البكر مراد سنته التاسعة عشرة. ثلاثة أبناء. ثلاث حيوات عليه أن يواصل حمايتها والإبحار بها إلى المرفأ الآمن. كيف يمكنه أن ينسى أن يجد نفسه ثانية، غداة الهجمة الإنجليزية التي انطلقت عقب تدمير السكة الحديد في الحجاز، مضطراً إلى بيع مئات الأوقيات[1] من البضائع بسعر رخيص قبل أن تتعفن؟ إنها خسارة فادحة!

انتزعته بعض ضربات حلقة باب الدور الأرضي من أفكاره. تجلّد. لن يتأخر خادمه في فتح الباب.

سمع وقع خطى. ظهر رجل بدين، ذو قامة متوسطة، تغطي خدّيه لحية كثة شيباء.

- لطيف!

مدّ حسين ذراعيه نحو ابن خاله.

- سعيد برؤيتك! أو بالأحرى برؤيتك ثانية، لأنني لمحتك مع الإنجليز قبل قليل.

- السلام عليك، يا أخي. هل أنت بخير؟

- الحمد لله.

تهاوى على كرسي.

- أموت عطشاً.

نادى حسين على خادمه، وطلب كأسا كبيرة من عصير الليمون المنعش.

- إذن؟ ما الأخبار؟

---

(١) قياس تركي ـ مصري قديم. الأوقية الواحدة تساوي ١٢٨٩ كيلوغراما.

تمهّل لطيف الوكيل في إشعال سيجارته قبل أن يجيب:

- اعتقل الإنجليز كامل باي.

- كامل باي؟ قائم مقام[١] مقاطعة حيفا؟ ولماذا اعتقلته؟

- أليس تركيّاً؟ في نظر الإنجليز، الأتراك كلهم رعايا أعداء. لدي لك خبر يهمّنا مباشرة. تصور أن البريطانيين طلبوا مني أن أحلّ محلّه.

- أنت؟ حاكماً؟

- حاكم كلمة رنّانة. الآن وقد صار رعايا جلالته هم الذين يباشرون المهمة، لم يعد للوظيفة المعنى ذاته بتاتاً. هَبْ أنني سأصبح وسيطا مسؤولاً بين السكان والضباط الإنجليز.

- هل قبلتَ؟

- بالطبع.

- شخصية بارزة وفلسطينية؟ هل ستتعاون معهم؟

كان لطيف يهم بالردّ، عندما دخل مُراد، ابن حسين البكر، الغرفة. طوله فارع، ممشوق أهيف. عيناه متقدتان. وجهه ذو ملامح مكتملة. حيّا الرجلين باحترام.

- قاطعتكما.

- أخبرني ابن خالك، أوضح حسين، توا باعتقال كامل باي. خمّنْ من فاتحه الإنجليز بتعويضه؟

- أنا، أعلن لطيف الوكيل بلهفة. لكن المسألة، كما قلت لأبيك، لا تكمن في أن أكون حاكماً. لا. سأكون حامل شكاوينا فقط.

- هل يجب أن أهنئك أم أشفق عليك؟

---

(١) تعني حاكم إقليم في الإمبراطورية العثمانية.

- لا هذا، ولا ذاك. اشكرني فقط.

- أشكرك على التعاون مع المحتل الجديد؟

قال حسين مزايداً:

- هي الملاحظة ذاتها التي كنت أبديها له.

- هيا! صاح لطيف. إذا كنت قد أبديت موافقتي، فليس من أجل المجد! تعرف جيداً أنه بصرف النظر عن تجارتي في الفخار، انخرطت دائماً في تدبير المدينة إلى جانب الأتراك. واليوم، لا أرى أي مانع في العمل مع الإنجليز. هكذا، يمكنني تقديم طلباتنا وخدمة مجتمعنا بشكل أفضل.

هزّت ضحكة ساخرة مراد:

- مجتمعنا؟ ما تبقى منه! ألا تنظر إلى ما يحدث في حيفا؟ عشرون ألفا، أربعة وثمانون في المائة من المسلمين، وخمسة في المائة من اليهود. كُنْ على يقين أن هذه النسب ستنقلب غداً.

- ستنقلب؟ ماذا تحكي؟ هتف حسين.

من أجل إجابة واحدة، أشرع مراد قطعة من صحيفة وقرأ:

لندن، ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧

عزيزي لورد روتشايلد،

يسرني أن أبلغكم باسم حكومة جلالته، التصريح التالي الذي ينطوي على العطف على أماني الصهيونية[١]، وقد عرض على الوزارة وأقرته.

---

(١) حركة سياسية ودينية تروم تأسيس، ثم تمتين دولة يهودية (صهيون الجديد) في فلسطين.

«إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى».

وسأكون ممتنا إذا أحطتم الاتحاد الصهيوني بهذا التصريح.

توقيع: أرثر جيمس بلفور.

تلعثم حسين:

- ما هذه القصة؟ من هذا البلفور؟ ومن أين حصلت على هذا المقال؟

- أرسله لي صديقي تيمور لطفي من القاهرة، منذ شهور. ولم أتوصّل به إلا البارحة.

- تيمور لطفي؟ الفتى الذي التقيناه قبل الحرب، أثناء عطلتنا الصيفية في الإسكندرية؟ أعتقد أن والده شخص ثري جداً. ألا يشتغل في القطن؟

رد مراد بالإيجاب.

- حسناً! كنت أجهل أنكما بقيتما على اتصال.

- لم نتوقف عن المراسلة. لقد باعدت الحرب بين مراسلاتنا. هذا كل ما في الأمر.

غيّر الموضوع، وهو يستدير نحو ابن خاله:

- إذن؟ ما رأيك في هذه الرسالة؟

- إنها ببساطة إهانة!

- وطن قومي *لليهود*؟ تمتم حسين. هنا؟ مستحيل!

- لكن، رد مراد، النص يقول بوضوح ما يلي: «إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين».

- أستغرب هذا الأمر، علق لطيف. في نظر الإنجليز، وفي نظر العالم الغربي عموماً، نحن غير موجودين. يتخيل هؤلاء الأشخاص أن فلسطين أرض خلاء، خالية من كل حضارة. لقد أخفوا فكرة أن أجدادنا الكنعانيين عاشوا هنا أكثر من أربع آلاف سنة، ويفترضون أن السكان السبعمائة وخمسين ألفاً[1] ممن يعمرون مدننا وقرانا هم أشباح. مدارسنا، وكنائسنا، ومساجدنا، ومكتباتنا، وحقولنا، ومعامل نسيجنا، ومزارعنا - محوا كل شيء بجرة قلم - ، كل شيء هباء!

- يا الله! قال حسين صارخاً. هل يشرح لي أحدكم من هذا البلفور؟

- الوزير البريطاني في الشؤون الخارجية، شرح لطيف.

- أي عقرب لدغته؟ هل هو يهودي؟

- لا. فهو لا يقوم سوى بتطبيق سياسة حكومته. كُنْ على يقين أنها سياسة لا تستلهم حب الإنجليز للمجتمع اليهودي. إذ تكمن وراء هذا المشروع حسابات نجهلها. أعتقد، والحال هذه، أنه يجب ألا نضخم الأشياء. لنعد قراءة نصَّ الرسالة. فهو ينصُّ على أنه *لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية*. و...

---

(١) التقدير الأقرب، حيث يقوم على الإحصائيات العثمانية الصادرة آنذاك، وعلى الإحصاء الذي أنجزته الحكومة البريطانية سنة ١٩٢٢.

- أنت تسبح في الوهم!قال مراد مستهزئاً. انظر حولك. لا يمضي يوم دون أن تصل عائلات يهودية.

- هيا، هيا، اهدأ؟ لا شيء تخلخل بعد. اسمعوني جيداً، في بضعة شهور، سينصب الأمير فيصل، ابن شريف مكة، ملكاً على سورية. فالأمرُ مقرَّر.

- وماذا بعد؟

- ستصبح فلسطين[1] تحت سلطته. وسيحيا وعد السيد بلفور ما تحياه الوعود التي يعد بها أغلب السياسيين. سيندثر.

قطّب حسين حاجبيه.

- تعتقد جازماً أن الإنجليز سيعترضون على ذلك!

- لن يستطيعوا ذلك، قال لطيف معترضاً. لقد قاتلت جيوش فيصل مثل الأسود إلى جانب الجنرال «ألنبي»، تحت قيادة ضابط إنجليزي نسيت اسمه...

- لورنز؟ اقترح مراد.

- إن لم يكن لورنس. مهما يكن، لقد التزم الحلفاء رسميا بمساندة الاستقلال العربي. فالواجب الذي تعهدت به الحكومة البريطانية تجاه فيصل كبير. هكذا، عندما سيحين الوقت، سنساهم في توطيد سلطته.

- نحن؟ استغرب حسين.

- نعم. نحن. ثم سنؤسس هذه الدولة الفلسطينية التي حرمنا منها التاريخ منذ قرون طويلة.

تساءل حسين ساخراً.

---

(١) في تلك الفترة، كانت فلسطين ولبنان يشكلان جزءا من منطقة واحدة اعتاد الناس على تسميتها بسورية.

- ما أنتم فاعلون بالرسالة التي حررها هذا البلفور؟

- ستنتهي في قمامة! لن يسمح العالم أبداً أن ترتكب هذه المظلمة. فضلاً عن ذلك، لن يسمح إخواننا العرب بارتكاب ذلك. ونحن أيضا! سترى. ألسنا أغلبية على هذه الأرض؟ إذ لا يتجاوز مجموع السكان اليهود عشرة في المائة. والنسبة ذاتها تقل أو تزيد بالنسبة إلى المسيحيين. ما الذي سنخشاه؟ طالما حافظنا على التوازن الديموغرافي، لا أرى ما يمكن أن يطرح مشكلة. زد على ذلك، ها هي الأعوام تمضي ومجتمعاتنا تتعايش دون صدامات. فبأي سبب يجب أن تتغير الأمور؟

- هذا أحسن القول، قال حسين موافقاً. وليس صديقي القديم يوسف مرقس من سيناقضك.

أمسك لطيف الوكيل فجأة بذراع ابن خاله بقوة.

- حسين، أنا في حاجة إليك. أحتاج إلى أشخاص أثق فيهم.

- كيف يمكنني أن أخدمك؟

- لم أعرف بعد... لكن أحب أن أعرف أنك إلى جانبي.

- لم أكن متفقاً، أنا والسياسة، أبداً.

- لا يتعلق الأمر بالسياسة فقط. يتعلق بمستقبلنا.

- لست إلا تاجراً!

- تماما. وواحد ممن يحظون باحترام أكبر. يحسب لك حساب، وكلمتك مسموعة.

في مرات عدّة، مرَّر راحة يده على طول صلعته. لم يعجبه الطلب البتة. لكنه صدر عن ابن خاله. فالعائلة تبقى أمراً مقدَّساً بالنسبة إليه.

- موافق، قال متنهداً، طالما هي أمنيتك.

- شكرا، صديقي.

اخترق شعاع شمس الغرفة.

- نواياك جديرة بالثناء، أعلن مراد فجأة، وهو محدق في ابن خاله. للأسف، أخشى أن تغلط فينا أو تبالغ في تقديرنا.

- ماذا تريد أن تقول؟

- لن يتحدد مصير فلسطين هنا.

- أين، إذن؟

أشار مراد إلى نقطة غير مرئية، وتمتم خائب الأمل:

- هناك. في الجهة الأخرى من البحر. في الغرب.

(٣)

ليست الحياة سوى حلم! لكن
أرجوك لا توقظني.

مجهول

حيفا، ١٥ سبتمبر/ أيلول ١٩١٨

كان يوسف مرقس قصيراً جداً. بدا مغموراً في بيته. وجهه الخمسيني مغضن. وشارب ناعم أصهب يعلو شفته العليا. سحب أنفاساً من سيجارته. استنشقها ملء رئتيه، قبل أن ينفث دخانها نحو السقف.

- إذن؟ سأل حسين، وهو يطبطب على بطنه الشبعان. ألم أؤكد لك أن زوجتي تطبخ المقلوبة[١] أفضل من أي امرأة؟

انحنى مرقس أمام زوجة الفلسطيني الجالسة على يساره.

- كما يقال عندكم: «تِسْلم يداك».

أشرق وجه نادية شهيد الممتلئ بابتسامة متواضعة.

---

(١) طبق فلسطيني خالص يقتضي وضع طبقة من الخضر، وطبقة من اللحم، وثالثة من الأرز، وطبخها وفق هذا الترتيب، وقلبها في صحن أكبر بعد طبخها. من هنا، جاء مصطلح «المقلوبة».

- شكرا، يا يوسف. حضورك يُبهجنا.

مالت إلى طفلة تصغرِ ابنتها سامية، ذات السنوات العشر، بسنتين.

- وأنت، عزيزتي، هل أحببتها؟

أجابت إرينا - وكان هذا اسمها - بالإيجاب، مومئة برأسها خجلاً.

- هيا صغيرتي! صاح يوسف مرقس. ألا نقول شكرا؟

احتجت نادية شهيد.

- لا تكن صارماً هكذا، يا يوسف. فالبنت مازالت صبية.

- تماماً، ففي هذه السن يجب أن نغرس فيهم السلوكات الحسنة.

مطت نادية شفتيها، وأمرت ابنيها اللذين مازالا متحلقين حول المائدة:

- سامية! سليمان! هيا، ساعداني على تنظيف بقايا الطعام.

لولا فارق السن، لاعتُبِرت الأم والابنة أختين. تتشابهان في العيون اللوزية السوداء، والشعر الكحيل اللامع، والوجه الدائري، والشفاه اللحيمة. أما الولد، فهو يشبه والده بالأحرى، تطبعه بدانة خفيفة، وإن كان ما يزال في سن السادسة عشرة.

وجه مرقس إشارة تشجيع إلى إرينا.

- أنت أيضاً، يمكنك المساعدة، يا عزيزتي. هيا.

- آه! دعها عنك في هدوء، تمتمت نادية. إنك مستبد حقيقي.

أمسكت البنت من يدها، وجرتها معها.

- تعالي حبيبتي، سنجعل والدك يغار منك. سأقدم لك الفاكهة قبله.

تأمل مرقس الأطفال الثلاثة، وهم يحملون الأطباق إلى المطبخ. نفث دفعة دخان جديدة وتمتم:

- يبدو أن استئناف الملاحة التجارية في البحر المتوسط الشرقي وشيك. يمكنك أن تروج ليمونك وحوامضك من جديد. ويبدو أن شركة «*حسين شهيد وأبناؤه، شيبشاندلرز*» بدأت تنبعث من رمادها.

اجتاحت المرارة ملامح الفلسطيني.

- «*حسين شهيد وأبناؤه، شيبشاندلرز*»... «السلاح البحري»! أي ادعاء زعمته يوم نصبت هذه اللوحة فوق مخازني! ثمة كلمات مفخمة جداً تطلق على مسألة متواضعة جداً، لأن حيفا، كما تعرف أفضل مني، ليست لا السويس، ولا مرسيليا. ومع ذلك، أنت على حق. فالأعمال تُستأنف بالفعل. حمدا لله! فهذه التجارة الصغيرة تسمح لي بأن أتكسب على نحو صحيح، وأن أدخر بعض المال، شريطة ألا يتعكر صفو الأشياء، بالطبع.

توقف عن الكلام، لينادي نادية.

- عزيزتي! هل يمكن أن تقدمي لنا قهوة بيضاء؟

ضحك يوسف.

- قهوة بيضاء!توضع وردة البرتقال في الماء الساخن! ليس هناك إلا أنتم، الشرقيون، من يبتكرون هذا النوع من التجسيد.

تجاهل حسين التعليق وتابع:

- لا أبالي بالمال. إني منشغل بمستقبل أولادي على الخصوص. من الضروري أن يدرك مراد وسليمان معنى المسؤولية بسرعة. بالطبع، مازال سليمان صغيراً، فهو في السادسة عشرة. فوق ذلك، إنه حالم يتعذر إصلاحه. فعقله غارق دائماً في أشعار الحب لدى ابن عربي والمتنبي، أو في كتابات أبي نواس، هذا الفاسق

الذي يتفاخر صراحة بحب الخمر والغلمان - وهو ما لم يعد يروقني. كان من المفروض أن يشنقوه! أما مراد. . . آه! مراد هو نقيض شقيقه تماما. مندفع سريع التأثر. أظن أنه يكره الانشغال ببياراتي. لم يلمس أبداً في نفسه روح المزارع، وبشكل أقل روح التاجر. لا يشغله إلا شغف واحد: السياسة. وأنا لا أحب السياسة. . .

- من قال إنها لم تكن سوى مسلك سمح لرجال عديمي البصيرة بحكم رجال فقدوا ذاكرتهم؟ هيا، يا صديقي، لا تقلق. مع مرور الزمن، من الأكيد أن ابنيك سينضجان. إذ سيتخلى سليمان عن عالم التخيلات، وسيخرج شقيقه الأكبر من ورطة السياسة. أما سامية، فستتزوج عندما يحين الوقت، كما ستفعل ابنتي إرينا، وكل الفتيات الشابات.

- *إن شاء الله*! آمل أن أكون هنا حينما يحين ذلك اليوم. من يدري كم سينعم الله تعالى عليّ بالحياة؟ لقد بدأ العد العكسي.

- لا تقل هذه التفاهات! لنا العمر ذاته، حيث لم أشعر بشبابي كما أنا اليوم!

- نعم، لكنك مغامر. وهذا يبقيك سالماً!

- تنسى أني أربي إرينا وحدي. إنها مهمة جسيمة!

أمال الفلسطيني رأسه جانباً، وتفحص مرقس، كأنه يراه أول مرة.

- صحيح. أنسى أحيانا أنك تفتقد عزيزتك ليزا. تعرف أننا نفتقدها أيضاً. كنا أنا ونادية نحبها.

- أعرف، يا صديقي. أعرف.

رفع يوسف عينيه إلى السماء. علت محياه ملامح قدرية.

- للربّ أحيانا سلوكات لا أفهمها. بالكاد بلغت عامها

الثلاثين، عندما انتزعها مني في اليوم ذاته الذي أعطاني فيه إرينا. حياة بحياة. ستحل ذكرى وفاتها بعد بضعة أيام.

- مكتوب، يا أخي. يعلم الله ما نجهل.

سادت لحظة صمت. تساءل حسين:

- ألم تشعر بالحاجة إلى أن تتزوج مرة ثانية، وتمنح ابنتك أخاً أو أختاً؟

- لا، يا حسين. لم تكن أي امرأة جديرة بأن تحل محل ليزا. ثم، سأبدو لك كئيباً، بلا شك، لكنني لم أعد أؤمن كثيراً بحكمة الرجال، وبشكل أقل بكرمهم. ما فائدة الأطفال إذن!

- الأطفال هم السعادة!

- بالطبع، يا صديقي. لكن من نحن؟ ما الذي نمنحهم في المقابل؟ عالما طائفياً؟ عالماً تمثل فيه المساواة بين الكائنات خدعة؟

صمت اليهودي لحظة. اسودَّتْ ملامحه.

- لا تعرف كيف هي حياة يهوديٍّ في أوربا، سواء كان رجلاً، أو امرأة، أو طفلاً. نحن حثالة العالم. يشار إلينا بالبنان. لا يؤبه لنا. إنه على كل حال سبب من السببين اللذين جعلاني أرحل من بولونيا وأستقر هنا.

- والسبب الآخر؟

- إنه وجداني.

ابتسم حسين.

- كآبة الزمن الذي حكم فيه ملكك سليمان.

- لا تستهزئ. فأنا واعٍ بالطابع غير العقلاني في مشاعري. لكني لا أستطيع لها شيئا؛ عندما أكون أمام حائط المبكى، يغمرني فيض من المشاعر. يهتزّ كياني. وفي الآن ذاته، لا أستطيع إلا أن أبتسم لفكرة أني، أنا اليهودي، أضطرب أمام أطلال صرحٍ بناه،

بإيعاز من أدومي[1]، الملكُ هيرودس، الذي تزوج عربية وثنية، وطلقها ليتزوج زوجة شقيقه. إنه أمر غريب، أليس كذلك؟

- لا. أنت عاطفي. هذا كل ما في الأمر. لا تنس أبداً أن حيواتنا تتشكَّلُ من رموز فقط. فضلاً عن ذلك، أفهم. عندما أزور القدس قصد الصلاة في مسجد قبة الصخرة، أشعر أنا أيضاً بهذه الحماسة. أفترض أن المسيحيين الذين يزورون كنيسة القبر المقدس لابدَّ أن يشعروا كما نشعر نحن. وهكذا. رموز، كل شيء رموز. هل هي لعنة؟ أم بركة؟ لا أعرف.

وضع يده في يد صديقه.

- تعرف، يا يوسف، يجب أن نحمد القدير كلَّ مساء. نعيش في أرض مقدسة، أرض فريدة وجليلة.

كانت نادية قد عادت إلى الغرفة. قدمت للرجلين نقعاً مرفقاً بصحن حلوى محشوة بالفستق.

- سأزداد بدانة! تمتم اليهودي. لكن كيف أقاوم هذه العجائب؟

- اطمئن، يا يوسف. فأنت لم تقترب بعد من البدانة! أنا...

توقفت لتطلق صرخة فرح.

- مراد! تأخرت في العودة، يا ابني!

طبع الشاب قبلة على خد والدته، ومدّ يده إلى اليهودي.

- السلام عليكم، السيد مرقس. أمي على حق. بالمقارنة مع أبي، أنت أشبه بنبتة هليون.

- شالوم، مراد.

- هل أقدم لك الطعام؟ سألت نادية. لقد أعددت المقلوبة.

---

(١) الأدوميون هم سلالة شعب أدوم، جدهم المؤسس هو عيسو، أخ يعقوب، وهو عدو إسرائيل التاريخي.

- لا ، حقا . لست جائعاً .

- ألست مريضاً ، على الأقل؟

- لا ، لا .

- ألا تعاني من الحمى؟ هل أنت متأكد؟

رفع حسين كفيّه إلى السماء .

- توقفي، يا ابنتي! توقفي عن إزعاجه . إذا قال لك إنه ليس جائعاً ، فلأنه ليس جائعاً .

مال نحو يوسف، ثم قال :

- إنه جنون، أليس كذلك؟ هذا الهوس عند الأمهات الشرقيات عندما يطعمن أبناءهن كالإوزات! هل يفعلن الشيء ذاته عندكم في بولونيا؟

أجاب يوسف بالنفي، ورفع رأسه نحو مراد .

- هل أنت بخير؟ تبدو منهكا .

- لقد ظللت واقفا منذ الساعة الخامسة صباحاً . أمضيت اليوم في البيارات .

- أترى، لاحظت نادية، هذا ما كنت أقوله! أنت تتعب نفسك كثيراً .

- آه، أماه!

- ممتاز! أنت مريض، لا تأتي إلي لتشتكي ، اذهب إلى أبيك!

بينما هي تنصرف، وهي تدمدم، جلس مراد على السجاد وأعلن لوالده :

- لم يعجبني كثيراً لون ليموناتنا .

- أعرف، يا ولدي . فهي شاحبة جداً . هذه السنة، كانت الليالي حارة على نحو غير مألوف .

- وما علاقة ذلك؟ تساءل يوسف .

- أنت مثقف جيد، أنت! اعلم إذن أن الليمون لا يتخذ لونه... البرتقالي إلا إذا كانت الحرارة الليلية منخفضة على نحو كاف، وفاحت مادة الكلوروفيل. فإذا كان تقلب الحرارة بين النهار والليل ضعيفاً جداً، تبقى هذه الحوامض خضراء.

تكلم الفلسطيني بلهجة ساخرة:

- قل إنك تريد أن تنطلق في الفلاحة، هناك في كفو... كفو... كيف تسميها؟

- «كفوتزا»

- «كفوتزا»؟ كرر مراد.

- إنها كلمة تعني *«المجموعة»*. لقد استقر مهاجرون شباب، ينحدرون مثلي من أوربا الشرقية، على ضفاف بحيرة طبريا، في ضيعة سمّوها ديغانيا[1]. ثمة تجمع آخر حديث العهد، يدعى «كينيريت»، يوجد على ضفاف نهر الأردن. لكنه منعزل في نظري.

- وما هي غاية هذه «المجموعات»؟

- لا شيء سوى الابتذال. فكل مجموعة تقتسم الحقوق والواجبات بشكل متساوٍ.

- أليس الأمر مثالياً؟ لاحظ حسين. من حيث المبدأ، فالطبيعة ظالمة.

- بدون شك، لكن أليس من واجبنا أن نحاول معالجة هذا الحيف؟

ساد صمتٌ قصير. قال مراد فجأة:

- هل قرأ أحدكم الأخبار الأخيرة؟

---

(١) تعتبر «أم الكيبوتسيم».

- تعرف جيداً أني لا أشتري الجرائد أبداً، ردّ حسين. كلام فاضي! أنت الوحيد الذي يسعد تجار الورق!

أخرج مراد من جيبه عدداً من صحيفة *فلسطين* المقدسية التي تصدر باللغة العربية، ومدّه إلى والده.

- اقرأ.

وضع الفلسطيني نظارته.

المقال معنون بـ«الخيانة». إذ كشف أن فرنسا وإنجلترا قسمتا الشرق الأوسط والأدنى، بموجب اتفاق وقّعه دوبلوماسيان: فرنسي وإنجليزي قبل سنتين في سرية تامة. اكتشف حاكمُ بيتروغراد الوثيقةَ في أرشيفات وزير الشؤون الخارجية الروسية، وحملها على الفور إلى الحكومة العثمانية. وما كاد الأتراك، الذين ثاروا، يعلمون بها، حتى سارعوا إلى نقل نسخة منها إلى الأمير حسين، شريف مكة، الذي وعده البريطانيون بمملكة عربية كبرى. وبدوره، نقلها الأمير حسين، الذي اشمأز وهو يقرأ النص، إلى الحكومة البريطانية، مع طلب تقديم تفسيرات.

- إنها حماقة، ندّد حسين، وهو ينزع نظارته. كيف أمكنهم أن يفعلوا شيئا مماثلاً؟ بأي حق؟

- قانون المنتصر، ببساطة.

هزّ يوسف رأسه، واجماً.

- يصعب عليّ تصديق الأمر. بينما كان إخوانكم يقاتلون ويسقطون تحت رصاص الأتراك، كان هؤلاء السادة يقتسمون أراضيكم.

- ما كتب جيد.

- مستحيل. لا يستطيع البريطانيون أن يعدلوا عن الأمر!

- نعم، زايد حسين. يوسف على حق. هذا الاتفاق لن يطبق.

تحسر مراد.

- اسمح لي، السيد مرقس، وأنت أيضاً يا والدي. إنكما تريان العالم كما تحلمان به. عمري ثمانية عشرة سنة، لكني أراه كما هو.

تحت أنظار الرجلين الحائرة، استدار وغادر الغرفة.

*

مثلما جرت العادة في كل المساءات تقريباً، اتخذت العائلة مكانها فوق سطح البيت تحت صفاء النجوم الطاغي. سحب حسين نَفَسَاً شرهاً من نرجيلته. ازدادت البقبقات. نشطت نادية أمام نول حياكة عمودي نسج عليه سجاد صغير متعدد الألوان يوشك على الانتهاء. بينما ركز مراد، المتكئ على الجدار الذي يحيط بالسطح، على نقطة بعيدة في اتجاه الميناء. وعلى مقربة منه، كان سليمان يخربش على ورقة. أما الصغيرة سامية، فقد نامت القرفصاء على فخذ أبيها. كان شذا الياسمين والورد، الذي تهدهده الرياح، يتراقص على جوانب جبل الكرمل.

- هل أقرأ عليكم قصيدتي الأخيرة؟ سأل سليمان فجأة.

ودون أن ينتظر الموافقة، أنشد المراهق:

«قوس قزح في يدي أمضّني.
لا أطلب من الشمس إلا ليمونة
والذهب الذي يسيل من الآذان.
هنا، على منحدرات التلال،
أمام الغروب، قرب الضيعات في الظل المقطوع
أحتضر أملا».

- أأنت كاتب هذه الأبيات؟ هتفت نادية.

رد المراهق بالإيجاب.

- هيا، هيا، دمدم حسين. كن جادّاً.

- وحياة الله! أؤكد لكم أني أقول الحقيقة. كتبتها توّاً.

- يقول الحقيقة، أكد مراد. رأيته يفعل ذلك. القصيدة قصيدته.

قرَّرَ حسين أن يفلت أنبوب النرجيلة.

- في سن السادسة عشرة؟ أين تبحث عن جمل كهذه؟

- في لا مكان. إنها تسكنني، كأنها صوت يحدثني. ولا أقوم إلا باستنساخ ما يمليه عليّ.

- ستصبح مسكوناً بجنّ.

- لا تنصت إلى والدك، يا ولدي، الجنُّ يسكن رأسه.

دنت نادية منه وداعبت شعره.

- جيد، حبيبي. أنت شاعر كبير. ستصبح شاعر فلسطين.

- نعم، استهزأ حسين. سيقتات قصائده، وسيأكل أولاده الهواء.

- أبدا، يا أبي، ردّ الطفل بابتسامة عريضة. سأتغذى بليموناتنا. وكذلك أبنائي.

- بليموناتي! صحح حسين. ففي الوقت الراهن، هي بياراتي!

- بالطبع، يا أبي، لكنك لن تترك ابنك يموت جوعاً، أليس كذلك؟

- توقف عن هذه المهزلة، هتف مراد. أنت سخيف.

غيّر الموضوع فجأة، رافعاً يده في اتجاه مجموعة بيوت تقع غير بعيد عن الميناء، ظل يراقبها طيلة المساء.

- هل تعرفون لِمَ جاء هؤلاء الألمان إلى حيفا؟

- هل تقصد أسرة هوفمان؟ تساءلت نادية.

- نعم، يقال إن أموراً غريبة تجري عندهم. إنهم يضحون بالحيوانات.

- أمر بليد! ألتقي دائماً الأم وابنتها عندما أذهب إلى السوق. بل دعياني يوماً، لأشرب القهوة عندهم. إنهم رائعون.

- ألا يدعون «أناس الهيكل»[1]، أو أي شيء من هذا النوع؟

- أظن، نعم. بحسب ماغدالينا، المرأة، جاؤوا إلى فلسطين من أجل التأهب لعودة يسوع، ويريدون أن يعيشوا كما فعل المسيحيون الأوائل في الماضي.

- ليبتلعهم الشيطان! شتم حسين. يقضون وقتهم في إنشاء مزارع فلاحية! لقد أنشأوا واحدة بجزريل في الجليل، وأخرى قرب يافا، وأخرى لا أدري أين!

توقف ورفع عينيه نحو مراد.

- بالمناسبة، سترافقني غداً صباحاً إلى الميناء لمساعدتي على إعداد الشحنة إلى بيروت.

طأطأ الشاب رأسه موافقاً، دون حماسة.

طوت نادية نول الحياكة، ووضعته في ركن من أركان السطح، ثم أخذت بين ذراعيها الصغيرة سامية التي ما زالت نائمة ملء جفنيها.

- سأنوّمها.

تابعت قولها، وهي تقصد سليمان:

- وأنت أيضاً، سيدي الشاعر، تعالَ. لقد تأخر الوقت.

ما أن أصبحا وحيدين، حتى وضع حسين أنبوب نرجيلته وسأل مراد:

- ماذا يجري؟ لم تجبني إن كل شيء يسير بشكل جيد. ألاحظ وأرى جيداً أن مزاجك منحرف. إذن؟

---

(١) جماعة فرسان الهيكل. يتعلق الأمر بتيار ديني بروتستانتي في ألمانيا، تأسس في أواسط القرن التاسع عشر.

- صحيح، يا أبي. ها قد مضى عام - منذ أن غادرت المدرسة - وأنا أعمل إلى جانبك. و. . . لقد ضجرت، بل اختنقت.

- وأنا، ها هي قد مضت أربعون سنة، دمدم حسين الذي فوجئ باعتراف ابنه وانزعج منه. ولم تتح لي الفرصة، مثلك، لإنهاء دراستي. عندما توفي جدُّك، بالكاد بلغت الرابعة عشرة. كنت الابن الوحيد. وكان علي أن أكافح من أجل الحفاظ على الإرث والاستثمار فيه. وحيدا. واليوم، إذا كانت أراضينا تجاوزت آلاف الدونمات[1]، فبفضل عنائي.

- أعرف ذلك، يا أبي. وأعلم أنني معجب بك. لكن أين كتب أنه إذا عانى الآباء، على الأبناء أن يعانوا أيضاً؟

- بلا فلسفة! هلا شرحت لي بالأحرى ما الذي تريده فعلاً؟

- أحب أن أستأنف دراساتي.

كبح حسين انتفاضة.

- دراسات؟

- نعم، يا أبي.

- في الحقيقة، تفاجئني دائماً. إنها فكرة ممتازة. وبقدر ما هي ممتازة، افتتحت جامعة أبوابها في نابلس.

- *النجاح*. أنا على علم بها. لكنها تبدو متعثرة. فكرت بالأحرى في مؤسسة ذات سمعة راسخة.

- أتصور أنك فكرت في الأمر منذ زمن؟

- الجامعة المصرية[2].

- الجامعة المصرية! هل فقدت عقلك؟

---

(١) وحدة قياس تستعمل في فلسطين. الدونم = ١/ ١٠ هكتار.

(٢) سميت فيما بعد بـ«جامعة القاهرة».

- لقد باتت أفضل مركز تعليم في الشرق. فضلاً عن ذلك...

- هل أنت واعٍ بجسامة طلبك؟ هل تريد أن ترحل؟ أن تغادر عائلتك؟

- أبدا! سأعود بانتظام إلى هنا. العطل...

- وأين ستسكن؟

- عند صديقي تيمور. تيمور لطفي. المصري الذي يشتغل والده في القطن...

- ذلك الذي بعث لك رسالة هذا الإنجليزي... بلفور.

- بلفور، نعم. إنه مسرور لاستقبالي. وقد تحدث مع والديه في الأمر، وهما موافقان.

- حسب قولك، قرارك محسوم، وهو لا يعود إلى البارحة، قال حسين بمرارة. لقد فكرت مليّاً في الأمر، حسبما أرى.

- أبي، أنصت إلي، ولا تكن حزيناً. الأمر مهم: أنا في حاجة إلى إغناء ذاتي والالتقاء بأشخاص آخرين. أحتاج إلى التعلم.

- التعلم، التعلم! هل اخترت مادة على الأقل؟

- القانون. القانون العام بالضبط.

- القانون العام. سيقودك إلى أين، هذا القانون العام؟

- إلى الدفاع عن الصالح العام بشكل أفضل. وربما عن صالح بلدنا، يوم يصبح قائماً.

ساد صمت ثقيل بين الرجلين. في نهاية المطاف، قرّر حسين تجاوز مخاوفه.

- نحن الآن في نوفمبر/ تشرين الثاني. هل يمكنك أن تلتحق في بحر السنة؟

- نعم. أكد لي صديقي تيمور ذلك. لقد حصل على موافقة المدير. هو ابن خال والده.

قلّب حسين لحيته تلقائياً.

- هل لي أن أختار؟ نعم، لي الخيار! ألست والدك؟ عمرك الآن ثماني عشرة سنة، وستبلغ سنتك التاسعة عشرة بعد أسبوع. أنا الذي يقرر، وسأقرر طالما بقيت حيًّا.

- أفهم، يا أبي. وما قرارك؟

بعد صمت جديد بدا لامنتهيا، انطلق الجواب:

- نعم.

قفز مراد نحو حسين، وقبّل يده بحرارة.

- بارك الله فيك!

- أنا في حاجة ماسة إلى ذلك، خاصة عندما سأعلن الخبر لوالدتك.

(٤)

لو نقل قلبي من اليسار إلى اليمين، أو تحرك
الأهرام من مكانه المكين أو تغير مجرى النيل،
فلن أتغير عن المبدأ.

مصطفى كامل باشا

طنطا، مصر السفلى، ٢ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٨

طربوشه مائل قليلاً إلى الجانب، فتح فريد لطفي باي، البالغ من العمر ستة وأربعين عاماً، ببطنه البارز تحت قميص حريري عاجي وشاربه الأشيب، علبة سجائر «سيمون أرزت» ذات العقب المذهب. أخرج سيجارة ودسّها بين شفتيه.

سارع مصطفى، المشرف على الضيعة، إلى قَدْح عود ثقاب قصد إشعال السيجارة الثمينة، ثم أطفأها، ووضع أمام سيده منفضة نحاسية منقوشة، وتراجع ثلاث خطوات إلى الوراء.

بقامته النحيلة والمهيبة، وشاربيه الملتويين، ولباسه الأوربي، بسترة وطوق خشن وربطة عنق سوداء معقودة مسبقاً، وقف متأهباً ينتظر معرفة سبب استدعائه. شعر بالضيق، وقف مائلاً قليلا، منتصباً وسط هذا الصالون الكبير المؤثث بمفروشات ذات طلاء ذهبي مفرط، وسجادات حريرية، وستائر استبرق. عناصر كثيرة لا تتوافق نهائياً مع مناخ المنطقة.

كان مائة فلاح منشغلين في الحقول. يقطفون كل الباقات البيض التي توجت الشجيرات، ويدسّونها في أكياس قُنَّب. بعد ذلك، كانت غلة القطن، التي تعد في حزم من ٤٢٥ رطلاً، تنقل بحراً إلى المغازل الأوربية الكبرى.

سحب لطفي باي نَفَساً من السيجارة، ونفثه عبر المنخرين والفم، مما أضفى عليه في لحظة ما مظهر تنين متأهب للانقضاض على فريسته.

- كان ينبغي معاودة رش مبيد الحشرات بعد هذا المطر، دمدم بنبرة منزعجة.

كان المطر في مصر قليلاً، بل كان متقطعاً، لكن تهاطلت زخات مدرارة متتالية قبل أسبوع على المنطقة، مذيبة المسحوق الثمين الخاص بمكافحة دودة القطن، الذي اشترته الضيعة بثمن باهظ من شركة *الصناعات الكيميائية الإمبراطورية* البريطانية الكبرى.

- هو ما فعلته، يا باي[1]، ما أن جفّت الأرض. لكن لم يتبق الشيء الكثير من المبيد.

تنحنح لطفي باي.

- ما هي الخسائر في تقديرك؟

- أقل من خمسة في المائة.

كانت هذه الدودة الملعونة، وهي تقرض الوردة، تجعل الألياف عديمة النفع تقريباً، إلا لصناعة اللباد. والحال أن قطن مزارع مبروكة - وهو اسم ضيعة لطفي باي - عرف في العالم كله بطول أليافه. وقد

---

(١) ذكرى ثلاثة قرون من الاحتلال التركي. إذ كان يحمل لقبَ «الباي» من قبل الضباط السامين في الجيش العثماني والموظفين والكبار. واستمر في مصر حتى إلغاء الملكية.

راكم مالكها ثروة طائلة بفضل هذه الخصوصية - التي سميت بـ «قطن جوميل».

- أحملك مسؤولية هذا التقدير، لاحظ لطفي باي، وهو يمرق الوكيل بنظرة طويلة.

- يا باي، احتج الآخر مذعوراً، إنه مجرد تقدير.

- إذن، كن دقيقاً أكثر.

- لا . . . لا أستطيع.

- كيف توصلت، إذن، إلى هذا التقييم بأقل من خمسة في المائة؟

- لقد جبت ثلاثة فدادين[1] مشياً. لكن ثمة اثنين وثمانين فداناً آخر، باركهم الله. . . ربما أقل أو أكثر بقليل.

- هل نتفق على خمسة في المائة؟

استرخى الوكيل التعيس. ارتأى لطفي، الذي شعر فجأة بشهامته، أنه من المناسب التوقف عن تعذيبه.

- أثق فيك، أعلن.

استعاد الوكيل تورُّده.

- باسم النبي . . .

- لا تقسم، دمدم لطفي باي، وهو يميل ليطلع على عِدْل قرب قدميه. ها هو الراتب والنفقات، مائة وخمسة جنيهات. عُدّها.

تناول الوكيل الكيس، أخرج منه حزمة أوراق مالية، بلّل أصبعه، وعدّها.

- كما قال السيد، تمتم.

- ممتاز!

---

(١) الفدان = نحو ٤٢٠٠ متر مربع.

وقف لطفي باي. صافح الرجل وطلب السائق. سارع هذا الأخير، الذي هرع بواقية غبار بيضاء، إلى فتح أبواب سيارة «ولسلي» المركونة أمام درج المدخل. انتظر إلى أن استقر سيده، ثم اندسَّ وراء المقود. بعد هنيهة، انطلقت السيارة على طريق القاهرة، تحت أزيز محركاتها الثمانية، ودفعات الغاز الزرقاء التي ينفثها العادم تهدد بخنق المارة.

في ثلاث ساعات، كان من المفروض أن يقطع رجل القطن ثلاثمائة كيلومتر التي تفصله عن فيلاه الكبيرة في الجيزة، شريطة ألا يصطدم، بالطبع، بحمار أو جاموسة، أو تهوي السيارة في ترعة.

كان هذا المساء بالغ الأهمية. إذ ينظم فريد لطفي باي استقبالاً على شرف ممثلي مغازل مانشستر الذين يشترون محصوله. وما لم يحدث طارئ عام، سيشرّف رئيس حجاب السلطان فؤاد الأمسية بزيارة قصيرة، وستكون المناسبة ليهمس له بأن لقب الباشا يناسب أكثر رجلاً مثل لطفي الذي يساهم في ثروة البلاد.

وكان العاهل السابق حسين كامل، شقيق فؤاد البكر، قد صمّ أذنيه، متحججاً أن لقب الباشا يناسب الجنود بدل تجار القطن. لكنه توفي خلال شهر أكتوبر/ تشرين الأول من السنة الماضية، رحمه الله. ومع مجيء فؤاد، أحسّ لطفي أن حظوظه في الحصول على مبتغاه بات أكبر. ألم تنسج زوجته أميرة شبكة صداقات مؤثرة؟ فبما أنها كاتبة العمل الخيري في «الهلال الأحمر»، باتت مقرّبة من الدائرة الملكية المعروفة بالعمل الخيري.

ومن بين الضيوف المدعوين، سيحضر كذلك «بيرسي ويثربورن»، كاتب المفوضية البريطانية العليا، والجنرال السير «ريجينالد وينغايت»، والمستشار في الشؤون الشرقية بسفارة فرنسا. كما وعده سفير إيطاليا، العزيز على قلب فؤاد المعجب، المتحمس

للثقافة الإيطالية، بالحضور هو الآخر. باختصار، ستحضر نخبة المجتمع. الأحرى أن نقول إن لطفي باي كان يسبح في المرح.
أخرج سيجارة من جيبه، قبل أن يقدح عود ثقاب بنفسه، وهو ينظر إلى المنفضة المرصعة داخل المسند. منفضة داخل المسند! بالطبع، عرف هؤلاء الإنجليز فنَّ العيش وصناعة السيارات. لا يهم أن تحمل السيارة اسم الجنرال - «السير غارني ولسلي» - الذي هزم عرابي باشا[1] الكبير في التل الكبير. إذ تسيّد الإنجليز العالم، مما جعل الأمر لا مفر منه. فالمال والسلطة شيئان يؤخذان في الحسبان على هذه الأرض. بالطبع، لم يكن كل شيء ورديًّاً في هذه الأرض المصرية التي احتلها جنود جلالته جورج الخامس منذ قرابة ستة وثلاثين عاماً. لكن لا بدَّ من التعايش مع الأمر الواقع.

*

عند وصول فريد إلى مدخل فيلته، سمع أولا صوت فونوغراف. توقف فجأة. ثم تلته أصوات صاخبة. عرف صوتي ابنه البكر تيمور وابنته منى.

لمح الفتى في الصالون بمظهر كئيب، وابنته بشفتين مزمومتين وأسارير مشدودة. كلاهما ظلا واقفين أمام قاعدة تمثال تربعت عليها علبة كبيرة ذات كرنك، يعلوها بوق نحاسي.

- ماذا يجري؟

شرح تيمور، البالغ من العمر عشرين سنة، ذو الهيئة الرياضية، والشعر الأسود المقصوص قصة الفرشاة:

---

(١) قاد أحمد عرابي، الجنرال ورجل السياسة المصري، الثورة الأولى ضد الهيمنة الغربية. ففي يوم ١٣ سبتمبر/ أيلول ١٨٨٢، نزل ٣٥ ألف جندي إنجليزي بقيادة الجنرال السير غارني ولسلي، التل الكبير، الذي يقع شمال القاهرة على بعد ١١٠ كيلومترات، فهزموا القوات الوطنية المصرية.

- كنت أقول لأختي العزيزة إنه ليس وقت اللعب بالفونوغراف. إذ يمكن للجيران أن يسمعونا.

كانت منى، البالغة من العمر ثماني عشرة سنة، بفستانها الطويل ذي موصلي حريري مخملي، تمثل عن حق المرأة الشرقية: انحناءات وهاجة، وشعر أسود طويل، وشفتان ناضجتان. امرأة شهوانية يحسبها المرء مطبوعة بالحشمة والوقار، ما يجعلها مثيرة أكثر. لا تقدم أي تعليق، لكن نرى في التوتر التي يسكن وجهها أن ما يجول في خاطرها ليس أدنى من ذلك.

رمشت عينا لطفي باي. قال ملاحظاً:

- دعوني أعرف. اللعب بالفونوغراف ليس جريمة.

- يبدو أنك لم تطلع على الأحداث الأخيرة. انقلبت المدينة كلها رأسا على عقب!

- مرة أخرى؟

- طالب سعد زغلول «ريجينالد وينغايت»، المندوب السامي البريطاني، باستقلال مصر.

- ماذا؟ زغلول؟

تهاوى لطفي باي فوراً على أريكة.

سعد زغلول... اشتهر هذا الرجل، ابن أسرة فلاحية في مصر، في الأوساط الشعبية والبورجوازية الصغيرة خاصة. إذ بات هذا القائد الوطني يثير القلاقل على نطاق واسع في السلم الاجتماعي. ألم يشارك في ريعان شبابه، وهو بعد في سن الثانية والعشرين، في ثورة عرابي باشا ضد الإنجليز سنة ١٨٨٢؟ بعد ذلك، ولج الوظيفة في وزارة التربية والعدل. في نهاية المطاف، وبعد أن اشمأز من الفساد الذي استشرى حوله، استقال ليلتحق بالمقاومة.

كيف يطالب الإنجليز باستقلال مصر؟ هل فقد عقله؟ اعتبر

لطفي، خطأ أو صواباً، أنه لم يعد من حقّ أيٍّ أحد التشكي، منذ فرضت بريطانيا العظمى «انتدابها» - كلمة محتشمة تعني الاستيلاء - على مصر، باستثناء الخديوي[1] عباس حلمي، الذي مقت البريطانيين. ثم إن هؤلاء انتقموا منه بأن خلعوه. إذ كانت إدارة المندوب السامي الأول «السير هنري ماكماهون» مثالية، وكذلك كانت إدارة خلفه «السير ريجينالد وينغيت». منذ ذلك الحين، لِمَ هذا التململ في الإدارة؟ ذلك أن استقلال مصر لا يخدم الأعمال، ولا التجارة، ولا حفل الاستقبال المرتقب هذا المساء!

مرّر يده على جبهته، وتكلم بصعوبة:

- يا بني، هل يمكن أن تشرح لي بالضبط ماذا جرى؟

قبل أن يجيب، أمر الشاب أخته بنبرة جازمة:

- أرجوك أن تدعينا وحدنا؟

فتحت الشابة فاها كي تحتج، لكنه كّرر أمره:

- إنه حديث لا يعني النساء.

غادرت تحت النظرات الداعمة لوالدها الذي ظَلَّ بارد الأعصاب. انسحبت غاضبة.

وما كادت تخرج حتى واصل الكلام:

- زار زغلول الإقامة البريطانية، مصحوباً بثلاثة برلمانيين. والتمس أن يستقبله المندوب السامي، وطلب أن تضع إنجلترا حدّاً لتدخلها، وتعود إلى جزيرتها، لا أقل ولا أكثر. كما التمس الترخيص برفع هذه القضية أمام مؤتمر السلام الذي سينعقد في غضون شهرين في باريس.

هزّ لطفي باي رأسه مرات عديدة. لم تخطر بباله فكرة التشكيك

(١) لقب حمله نائب الملك (أو الباشا) في مصر بين ١٨٦٧ و١٩١٤.

في أقوال ابنه. ها قد مضى وقت منذ أن نسج تيمور، على مقاعد الجامعة المصرية، روابط صداقة مع أحمد ذو الفقار، ابن أخت زغلول. إذن، كانت معلوماته موثوقة. كما تصور لطفي أن يكون ابن خاله، مدير الجامعة، متواطئاً مع هؤلاء الوطنيين الغامضين.

- ماذا أجاب وينغيت؟

- ماذا تعتقد؟ صرفهم بخشونة قائلاً: «كثرة الغذاء تثير عسر الهضم لدى الطفل!»

- والقصر؟ ما هو رد فعل سلطاننا؟

- فؤاد؟

هزت ابتسامة الشاب.

- بدا فؤاد حانقاً على خطوة زغلول. كل ما يأمله ألا يثير أزمة مع أصدقائه البريطانيين. فهو لا يرغب في أن يشهد مصير أسلافه ذاته! عرشه هو أهم شيء في نظره.

لم تكن هذه القصة تعني، في نظر لطفي باي، سوى شيء واحد: لن يحضر «السير بيرسي ويثيربورن» الحفل على الأرجح، وكذلك رئيس الحجاب. وذلك أنكى. لقد تلاشت آماله في أن يشفع له لدى فؤاد!تبخر لقب الباشا!

بدا منهكا فجأة. تنهد تنهيدة عميقة.

- ليحفظنا الله...

ثم تساءل:

- أين والدتك؟

- فوق، في غرفتها. تتجمل لأمسيتك.

سرعان ما خطر ببال المصري مَثَل تركي قديم: «الذيل جمال الفرس». ثم خانته الابتسامة.

- ألا تزفّ لي أخباراً سارَّة؟

- بلى. توصلت برسالة من مراد. كما اتفقنا، سيصل بعد أسبوعين. سأذهب لملاقاته في المحطة.

- من؟

- مراد! مراد شهيد، صديقي الفلسطيني. تعرفنا عليه عندما كان يمضي هو وعائلته العطلة في الإسكندرية. وقد طلبت منك، منذ وقت، السماح بإيوائه خلال مدة دراسته في الجامعة، وقد وافقت على طلبي.

- آه!

هل فقد عقله فعلا؟ فهو لم يعد يتذكر ذلك. غير أنه تظاهر بذلك.

- نعم، نعم. بالطبع. مرحباً به.

نهض وغادر الغرفة، محدودب الكتفين، متسائلاً من يكون مراد هذا.

(٥)

قال العظم للكلب: «إنني صلب».
يجيب الكلب: «لي كامل الوقت».

مثل عربي

القاهرة، ١٦ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٨

كانت الأبواق تذيع صوت الخطيب في الزوايا الأربع من الميدان الفسيح أمام جامعة الأزهر، مستعيراً فصاحة زعيم شعبي. بدا رجلا ذا قامة فارعة وجلال مهيب، وملامح قوية ومنحوتة بدقة، وصوت بذبذبات مكملة.

- من أجل كرامتنا وكرامة أبنائنا، نطالب باسم الشعب المصري بأن يفي الإنجليز وشركاؤهم بالوعود التي قطعوها أمام العالم! إذ التزموا باحترام استقلال الشعوب التي تحررت بانهيار الإمبراطورية العثمانية! لقد احتلوا ترابنا لمحاربة أعدائهم، فاستقبلناهم بكرمنا المعهود. أما وقد انهزم أعداؤهم اليوم، فإننا لا نريد إذن أن يعاملنا المنتصرون كما يعاملون المنهزمين!

تعالت الهتافات من آلاف الصدور. أصبحت ضاجّة، فطارت أسراب حمام مرعوبة من فوق المئذنة.

يمكن أن نتصور أن أفراد الشرطة أنفسهم الذين كانوا يراقبون المشهد شعروا بالاضطراب؛ كان بإمكانهم الانضمام لولا وجود

رؤسائهم الضباط، الذين يخضعون هم أنفسهم لمراقبة العمداء الإنجليز.

لم يكن الخطيب غير سعد زغلول.

- نحن أحرار! أحرار ككل العرب الذين ولدوا أحراراً، لا يعرفون سيداً غير الله. وليس من حق أي شعب أن يهيمن على شعب آخر!

تعالت هتافات جديدة.

- يحيا زغلول! يعيش البطل!

بدا مراد، الذي وقف جنب تيمور، متأثراً على نحو لا يصدق.

هكذا، وجد رجال غير مستعدين للركوع! وهكذا، أمكن رفض القدر، وهذا اللامعقول في الشرق!

بعد وداع ممزّق (حيث غشي على والدته التي كانت تذرف الدموع، وهي تراه يركب الباخرة المتجهة إلى الإسكندرية)، وبعد رحلة عبور كابوسية (حيث أشعره البحر بألم في الأمعاء)، كان عليه أن يتحمل الارتجاجات العنيفة لقطار الإسكندرية - القاهرة. وحالما وضع حقيبته، لم يترك له صديقه الوقت ليتنفس.

البطل! سيتكلم البطل! لا يمكن أن يفوتنا مثل هذا الحدث!

البطل؟ أي بطل؟

كان على تيمور أن يشرح له من يكون زغلول، وأي معركة يقودها من أجل أن يقرر الإنجليز تسليم مصر للمصريين في نهاية المطاف.

أعاره والده سيارته عن طيب خاطر. وعلى متن سيارة «ولسلي»، عبرا المدينة، تحت أنظار المارة المصعوقة، إلى أن بلغا هذا المكان التعليمي العالي العامر، «سوربون» الشرق الأوسط.

هناك، من على المنصة المؤقتة، انصرف البطل. عما قليل ستبتلعه حشود المعجبين الذين يتزاحمون حوله.

- لنذهب إلى البيت، اقترح تيمور.

شقّا طريقاً بين الحشد، واتجها نحو خان الخليلي حيث السيارة في انتظارهما. بغرابة، لم ينجح هذا، ولا ذاك في كبح الصمت، ولم يأملا في ذلك بدون شك.

في نهاية المطاف، وبينما صارا قبالة مسجد الحسين، تمتم مراد:

- أنا ممتنٌّ لك بأن جعلتني أعيش هذه اللحظات. فجأة، وأنا أنصت إلى زغلول، بدا المستحيل ممكناً. والمنال الصعب في متناول اليد. تفهمني، أليس كذلك؟

- بالطبع. أشاطر وجهة نظرك. إن الرجال من هذه الطينة هم من يسمحون بالاعتقاد أن القانون والعدل قد ينتصران.

بعد صمت، تابع بصوت ضعيف:

- من المؤكد أن الإنجليز سيرحلون عن مصر يوماً ما.

وأضاف بحماسة، وهو يمسك يد رفيقه:

- ومن فلسطين أيضاً. غداً، يا صديقي، غداً!

*

- أين كنتما؟ لقد بدأت تنتابني الشكوك!

وقفت أميرة لطفي أعلى الأدراج، أمام مدخل الفيلا، مكتوفة اليدين. تلكأ تيمور ليشكر السائق، وسار نحو والدته بابتسامة تعلو شفتيه. بينما كررت هي سؤالها، احتضنها بين يديه.

- أحبك، يا أمي! أما زلت تهتمِّينَ بي وأنا أكاد أبلغ سنتي الحادية والعشرين؟

استدار نحو مراد، وتابع:

- أليست أجمل الأمهات؟

في الواقع، وضع الابن إعجابه جانباً، حيث تبين أن جمال أميرة لطفي، ولقبها الأصلي «خزام»، لا يقبلان الجدال. فهي تنتمي إلى الأقباط، هذه الطائفة المسيحية المصرية، التي ظلت تسعى، منذ الفتح العربي، جاهدة إلى أن تبقى وفية لعقيدتها. وكل مقاومة تتعرض لمحنة قاسية؛ ذلك أن الجزيرة المنغرسة وسط المحيط كانت تضربها الأمواج بانتظام.

كان على أميرة، لتتزوج فريد المسلم، أن تبذل جهداً لاعتناق الإسلام، حتى ترضي عائلته. لم تفعل شيئاً من ذلك. وأمام الاحتجاجات (الضعيفة)، اكتفت بالتذكير بكل هدوء أنه جائز تماماً في نظر النبي أن يتزوج مسلم امرأة من «أهل الكتاب»، يهودية أو مسلمة، دون أن تضطر هذه الأخيرة إلى التخلي عن دينها. وفي كل الأحوال، كانت تدرك أن فريد لم يكن يسعى إلى مخاصمتها، حيث يحدث، وهو المسلم السنِّي شأنه شأن أغلب أصدقائه، أن يشرب ويلعب الورق. ومهما يكن، فإنَّ الله حرَّمَ شرب الخمر في أوقات كان فيها جنود النبي يخوضون الحرب في الصحراء العربية في أجواء قائظة. إذن، كان التحريم حكيماً. وبعد ألف وثلاثمائة سنة، لم يعد الأمر مجدياً. ذلك أن الخلفاء، وهم رجال حرب، لم يحرموا أنفسهم مع ذلك من أمسيات السكر. وهنا في مصر، ألم يسنّ واحد منهم، هو: «الظاهر» مرسوماً يسمح باستهلاك النبيذ؟ ألم يمتدح أعظم الشعراء العرب، من جانبهم، مزايا شراب الآلهة؟ إذن!

أما بالنسبة إلى ابني الزوجين، تيمور وأخته منى، فقد تربَّيا في بيئة تقبل بالآخر، فكانا يشعران أيضاً باحترام الإسلام والمسيحية واليهودية. وعلى أي حال، كان سلوكهما ينسجم تماما مع روح التسامح التي سادت حينها في مصر: كان «راديو شالوم»يذيع أخباره

اليومية، ولم يكن كنيس شاعر هشمايم، المنتصب في شارع عدلي باشا، في قلب حي العاصمة الراقي، يخلو من رواده خلال أيام العيد. كانت نواقيس الميلاد تمتزج بالأذان، والجيران المسلمون يشاركون في عشاء الفصح، وعلى نحو متبادل، كان آل ليفي يشاركون آل عبدالله كبش عيد الأضحى.

- إذن، كررت أميرة، أين كنتما؟

- في الجامعة، أجاب تيمور. من أجل تسجيل صديقي.

أشار إلى الفلسطيني الذي وقف محتشماً أسفل الأدراج.

- مراد. مراد شهيد. تتذكرينه، أليس كذلك؟

- حمداً لله على السلامة. كيف حال أبويك؟ تعالا، تعالا، ادخلا إذاً.

تابعت أميرة، وهي تتوجه نحو الصالون:

- لك أخت، أعتقد؟ ما اسمها؟

- سامية، سيدتي.

دعت الفلسطيني للجلوس على أريكة مغطاة بمخمل أرجواني. الأثاث مبالغ فيه على غرار أثاث مزرعة مصر السفلى. طلاءات ورخام، وستائر سندسية ومائدة مرمرية، ومصابيح حريرية. هكذا هي الموضة. إذ يكاد يوجد الديكور ذاته في أغلب الشقق البورجوازية في القاهرة حيث تتلألأ الكراسي، التي تحاكي كراسي لويس السادس عشر، تحت بريق البلور البكاري[١] الحقيقي أو المزيف.

- هل تشرب شيئاً؟

قبل أن يجيب مراد، أمسكت جرساً صغيراً وأطنّته مرات. سرعان ما ظهر خادم على العتبة.

---

(١) بكارا قرية فرنسية مشهورة ببلورها الفريد.

- أربع ليمونادات، يا أحمد. باردة جداً.

اعترض مراد.

- بالنسبة إلي، قهوة تركية، مضبوطة[1].

- تحدثنا عن والديك، استأنفت أميرة. يسكنان القدس، أليس كذلك؟

- لا، سيدتي. نعيش في حيفا. جدَّايَ مَنْ يعيشان في القدس.

- توقف عن مناداة أمي بسيدتي، احتجَّ تيمور. أنت من العائلة!

- معه حق، وافقت أميرة.

- أشكرك، يا خالتي[2].

استفسرت:

- كانت المدينة هادئة، اليوم؟

- كانت كذلك، ردّ تيمور. لكنه ليس في نظري سوى هدوء ظاهر.

- ظاهر؟ هل تسعى إلى إقلاقي؟ هل أصدقاؤك الأنذال هم الذين سيزرعون البلبلة؟

رفعت أصبعها، مهددة ابنها، وهي تضيف:

- لطالما كرّرها والدك. ستفعل خيراً لو تتوقف عن التردد على أبناء الزبالة هؤلاء! إنهم يقودون البلاد إلى الفوضى.

أشهدت مراد:

- لا يمكنك أن تتصور الهواجس التي يسببها لنا. أنت صديقه. يجب أن تحاول إرشاده.

---

(١) قهوة بسكر عادي. *الريحة* بسكر قليل. سكر *زيادة* هي قهوة محلاة جدا. صدى بدون سكر. كلها طقوس خاصة بالقهوة

(٢) في مصر، كل الأطفال والشباب والشابات ينادون على أباء أصدقائهم بكلمة «عم» أو «خالة».

كاد الفلسطيني يجيب. لكن القدّ النسائي الذي ظهر على العتبة لم يترك له أي وقت.

- صباح الخير، يا أمي!

عبرت منى، بخطوتها الرشيقة، الصالون وقبّلت أميرة.

- هل أنت بخير، يا عزيزتي؟

استعدّت كي تحيي شقيقها عندما بادرها بعين ناقدة:

- كان عليك أن تبدلي ملابسك قبل العودة إلى البيت! ابنة العائلة المحترمة لا تظهر بلباس قصير.

- إنه لباسي الرياضي الخاص بلعبة المضرب! لعبنا لدى سلوى، حيث رافقني سائقها!

- حجة أخرى! وحيدة مع رجل في سيارة! ماذا سيقول الناس؟

- قل لي، يا تيمور، هل أنت زوجي؟ أبي؟

- أنا أخوك. من حقي...

- حق؟ أي حق؟ لم أعد فتاة صغيرة. عمري ثماني عشرة سنة! متى ستقرر العيش في القرن العشرين؟ عما قريب، ستطلب مني أن ألبس الحجاب كالفلاحات اللواتي ينزلن المدينة! إنه العبث!

- لا تحدثيني بهذه النبرة...

- اهدآ! تدخلت أميرة. تتصرفان مثل صبيين! ماذا سيظن ضيفنا؟

أشارت إلى ابنتها:

- هو ذا مراد شهيد. صديق أخيك. جاء من فلسطين، وسيقضي معنا بضعة شهور.

مدّت منى يدها. كان الفلسطيني قد وقف. أمعنت النظر فيه. هذا الرجل، هل تعرفه؟ كان بودّها أن تقسم أن نعم. غير أنها كانت

متأكدة أنها لم تره أبداً من قبل. صافحها. أجبرتها حدَّة نظرته على خفض عينيها. لم تتخيل أن النار ذاتها التهمته في هذه اللحظة ذاتها.

- سعيد، آنستي.

تنحنحت وأجابت:

- مرحباً.

(٦)

تحت عنوان «كتاب التاريخ»، نعلّم أبناءنا
التقويم الإجرامي للعالم.

أوسكار وايلد

بغداد، ديسمبر/ كانون الأول ١٩١٨

كانت الشمس تغرق في بركة ذهبية. رشّاتها التراجيدية تتدفق في الأسفل، على مياه دجلة، أسفل الشرفة المزينة بالزهور في إقامة نضال الصافي.

بغداد... المدينة المدورة.

إذا كانت المدينة قد فقدت رونقها الخليفي الأسطوري منذ قرون، فإنها نجحت في الحفاظ على سلامة مقامها المقدس. في كل سنة، يخف إليها الحجيج بالآلاف، ليؤدوا فروضهم الدينية ويحملوا قرابينهم إلى المزارات المشهورة. إذ لا يفوت شيعة فارس وكردستان أن يتوقفوا في الكاظمية، حيث يزورون قبر الإمام موسى، قبل أن يكملوا رحلتهم إلى كربلاء والنجف. ويجلّ الأفغان خاصة قبر السلطانة زبيدة، زوجة عالي المقام هارون الرشيد المدهش.

عندما يرخي الليل سدوله، قلما تدخل المدينةَ، عبر بابها الشرقي، قوافل جمال سرية، يقودها رجال بأزياء بيض. إذ تنقل

عائلات فارسية مرموقة فَقْداها إلى المدينة المقدسة، ملفوفين في زرابي ثمينة، بغية دفنهم قرب الحسين[1] وأولياء الشيعة الكبار.

مضى عام وتسعة أشهر منذ دخول القوات البريطانية بغداد بقيادة الجنرال «ستانلي مود». سقطت كركوك، والموصل أيضاً. الآن، لم يعد الأتراك المنهزمون والمنكسرون يملكون أكثر من فدان أرض في العراق، الاسم الجديد لبلاد الرافدين القديمة. بعد هذه المواجهات الدامية كلها، أصبح المشهد هادئا ثانية إلى هذا الحد. يا للمعجزة.

- لا تخرج نساؤكم إذن أبداً؟ سأل «السير بيرسي كوكس» مضيفه نضال الصافي بنبرة ساخرة.

- يعرف «بيرسي» الشرق حق المعرفة، ردّ العراقي بالنبرة ذاتها، ليتجاهل أبيات شاعرنا القديم: «لا تظهر جواهرك للشمس أبداً، فإن لصا لن يتأخر». أما إذا كنت تلمح إلى زوجتي، يؤسفني أن أقول لكم إنها تكره الحياة الاجتماعية. وبالنسبة إلى أبنائي، ليس لي ابنة، فقط ابن واحد هو شمس الغائب.

نطق هذا الاسم بصوت متوتر. لكن الإنجليزي لم يلاحظ ذلك.

بدا العراقي شاباً في دشداشته الزرقاء الزاهية، تغطي رأسه كوفية وعقال. ولولا هذه الخصلات البيض في صدغه، لما عرف أحد أنه في الخامسة والأربعين من العمر.

ابتسم «السير جيمس بيرسي»، وحرّك طرف شاربه الفضي بالإبهام والسبابة، ثم حّول نظره نحو الصالونات، حيث كانت صفوة من المجتمع العراقي وممثلي الجسم الدبلوماسي تستعد لأن تتحلق حول المائدة. لم يكن هناك سوى رجال، ماعدا نساء قليلات - من بينهن زوجة «السير بيرسي» - في سن الأربعين.

(١) الحسين (٦٢٦ ـ ٦٨٠)، هو الابن الأصغر للصحابي علي بن أبي طالب وفاطمة (ابنة الرسول)، يعتبره الشيعة ثالث أئمة الإسلام.

ما الذي كان يأمله إذن هذا العجوز البريطاني المنهك؟ فكّر نضال الصافي. هل سيزين العراقيون بناتهم وأخواتهم، استجابة لشهوته؟

- لو يكلف «السير بيرسي» نفسه، قال في قرارة نفسه. أكد على أقواله بحركة مجاملة، داعيا ضيفه ليسبقه.

رُشّت طريق الإنجليزي بماء الخزامى «ياردلي» الفواح. شرّف الصالون بدخوله، مدّ يدا متوترة ورخوة، في الآن ذاته، نحو هؤلاء رعايا الإمبراطورية العثمانية السابقة الذين «حررتهم شجاعة جنود جلالته من نير الباب العالي». بل تساءل عن عدم استقبال العراقيين القواتِ البريطانيةَ بالزغاريد وأكاليل الورود. وفي يوم وصوله إلى بغداد، سارع الجنرال «مود» إلى الإعلان عالياً: «إلى سكان ولاية بغداد. باسم ملكي وباسم رعاياه من الشعوب، أخاطبكم لأقول لكم ما يلي: إن الغاية من عملياتنا العسكرية دحرْ العدو وطرده من هذه الأراضي. اعلموا أن الإنجليز جاؤوا إلى العراق محررين، لا غزاة أو أعداء! لا يرغبون في فرض هيمنة خارجية على البلد!»

كان العشاء لذيذاً وغنياً. ولولا حضور هذا الدبلوماسي الفرنسي، «جان فرنسوا لوفون»، لكان كل شيء على ما يرام. تالله ما الذي يفعله في بيت العراقي؟ كان نضال الصافي شخصية من شخصيات بغداد البارزة وتجارها ووجهائها الأثرياء. بلا شك، كان مبعوث «كي دورساي» يسعى إلى أن يلفت النظر إلى أفضاله. قصد ماذا؟ ألم يكن يعرف أن الأمر قضي منذ زمن طويل، ولا مجال للتفكير في أن يلعب دوره ثانية؟

لم يكدّر صفوه سوى لوفون. هذا الفرد، هذا الشاب المتعجرف الذي وضعوه أمامه، من باب الاستفزاز، ما اسمه؟ الغلرني؟ الغلالي؟ أي سبب غامض يجعل العرب يطلقون دائماً على أنفسهم

أسماء تستعصي على النطق؟ لم يحفظ بيرسي إلا اسم هذا المتهكم: رشيد. وعلى منوال مضيفه، كان هو الآخر يرتدي زياً على الطريقة العربية، لكنه كان يلفّ على رأسه عمامة سوداء.

- هل تنوي أن تبقى بيننا طويلاً؟ قال له العراقي.

- لا، للأسف. سأعود إلى لندن بعد نحو ثمانية أيام.

- وحيداً؟

قطّب «السير بيرسي» حاجبيه.

- وحيداً؟

- أقصد هل ستأخذ في حقائبك أبناءك، أم أنك ستهجرهم على ضفاف دجلة؟

ثم سرعان ما تابع الشاب - الذي يبلغ من العمر خمساً وعشرين أو ستاً وعشرين سنة - قوله: هي مجرد مزحة.

- تملك حساً ساخراً، سيد...؟

- الكيلاني. رشيد الكيلاني.

كان الأمر هكذا إذا. اسمٌ عصي على النطق، فكّر «السير بيرسي».

تابع رشيد كلامه كأنه قرأ أفكاره:

- يمكنك أن تدعوني رشيد.

أومأ الإنجليزي برأسه.

- هل تشغل منصباً رسمياً في بغداد؟

- لا، ليس في اللحظة الراهنة. أتابع سنتي النهائية في دراسة القانون.

ختم بابتسامة متكلفة:

- فيما بعد، سأكرس نفسي للقانون.

لم يكن للسير بيرسي الوقت ليستفسر عن معنى الجملة. تساءل العراقي ثانية:

- كيف حال مفوضنا؟ ألا يشعر «السير أرنولد ويلسون»بالغربة بعيداً عن «كليفتن كوليج»، ورماة البنغال، والمحافظة الهندية؟ أن يجد نفسه بين عشية وضحاها مطالباً بتسيير بلد مثل العراق، لابد أن يكون الأمر. . . (تردد في استعمال الكلمة) مربكا؟

- بلد؟ اندهش «السير بيرسي».

ضحك رشيد، قلده الدبلوماسي الفرنسي الذي بدا عليه الابتهاج بوضوح. تدخل هذا الأخير الكلمة قائلاً:

- «السير بيرسي»، لا أقصد إهانتكم إذ أذكركم أن العراق يشبه الفسيفساء. أولا، لديكم أعراق: عرب وأكراد وتركمان وأتراك، بل وفرس. ثم هناك طوائف: سنة وشيعة ومسيحيون ونسطوريون[١] ويهود. فالسنة يضمرون حقداً عنيفاً على الشيعة؛ والتركمان يتخلصون من الأكراد؛ واليهود والمسيحيون متسامحون. يتسامحون عند الضرورة. امزجوا الجميع لتحصلوا على أمة. أنتم الإنجليز تسمون هذا، حسب اعتقادي، بالبلد البوتقة[٢]. وأن تدخل إلى العراق دون معرفة تعرجات ماضيه وحاضره، فكأنك تقود رجلاً أعمى داخل متاهة غزتها العقارب. ننتهي بالخروج منها، لكن الأقدام إلى الأمام.

هل يريد أن يعاقبه بدرس في التاريخ؟

ردّ «السير بيرسي» بازدراء:

- عزيزي «السيد لوفون»، هل يجب أن أذكركم بأقوال الجنرال

---

(١) النسطورية مذهب مسيحي يؤكد أن شخصين، أحدهما رباني، والثاني بشري، يتعايشان في المسيح عيسى.

(٢) Melting - pot

«مود»؟ «جاء الإنجليز إلى هنا محررين، لا غزاة. نحن ملتزمون (توقف هنيهة عن الكلام بشكل مقصود للتأكيد على ما سيأتي) *إلى* جانب بلدكم *فرنسا* لإرساء حكومة وطنية وإدارة محلية منتخبة بشكل حرّ ومساعدة السكان في هذا المسعى. ثم سننسحب».

- يا له من سخاء! سخر الكيلاني.

قطّب الدبلوماسي الإنجليزي جبينه، ثم استدار نحو ضيفه، منهياً هذه المناقشة المغيظة.

عند انتهاء العشاء، طمأن - شكلياً - مضيفيه بالترحيب بهم في إقامة «السير أرنولد ويلسون»، إذا رغبوا في إبداء رأيهم حول مشروع استفتاء ستشهده البلاد.

- كل شيء يقوم على هذه المسألة، قال ضيف.

- ثمة ثلاثة أشياء. أولا، هل أنتم موافقون على دستور دولة عربية تخضع للمراقبة البريطانية، وتضم ولايات الموصل وبغداد والبصرة؟ ثانياً، إذا حدث ذلك، هل ترغبون في أن يسير أمير عربي هذه الدولة؟ ثالثا، سؤال أخير: من هو هذا الأمير الذي تقلدونه أموركم؟

تلا صمت طويل أقوال الإنجليزي. لم ينخدع أحد. هذا الاستفتاء سيخدم فقط شرعنة الوجود الإنجليزي. فضلا عن ذلك، لا يشكل سكان الولايات المذكورة كياناً سياسياً واجتماعياً منسجماً، بل عدداً من الجماعات الاجتماعية المتنافرة.

كسر رشيد الكيلاني الصمت:

- استفتاؤكم مصير الفشل، «السير بيرسي». في لحظتنا هذه، لعن العلماء الشيعة كل من سيصوت لصالح البريطانيين.

وقف الإنجليزي، بعد أن لسعه مجرى النقاش، داعياً زوجته أن تعقب خطاه.

- هذا ما سنراه، قال بصوت بارد. واحسرتاه، لا أملك كرة بلورية مثلكم.

عندما همّ باجتياز بوابة الإقامة، سمع صوت الشاب المتعجرف وهو يقول:

- «السير بيرسي»! هل تعلم، بخصوص البلاد البوتقة، كيف يسمي الناس المفوضية العليا؟

أخذ العراقي كامل وقته، ليعلن بنظرة خبيثة:

- طاغية الفوضى[1].

أمسك الإنجليزي بذراع زوجته، ودلف إلى سيارة «رولس رويس»، وضعتها سلطات جلالته رهن إشارته. تمتم: ثقب الدبر!

*

وقف «جان فرنسوا لوفون» على الشرفة المطلة على دجلة، مستغرقاً في التفكير. تابع السيارة بعينيه إلى أن التهمها الظلام. خلال ثوانٍ، خامره السؤال عن المستنقع الذي أوفده إليه «ستيفان بيشان»، وزير الشؤون الخارجية. «بيشان» دبلوماسي مستقيم، لكنه قلما كان ناجعاً. «سترحل عزيزي «جان فرنسوا». ستزور الشرق الأدنى والأوسط. لاحظ وأصخ السمع واكتب لنا تقريراً مفصلاً عن الوضع. راقب الإنجليز!» منذ أسبوعين ولوفون «يراقبهم». بدأ يشعر بمرور الوقت بطيئاً.

- إذن، «السيد لوفون»! هل تتأمل؟

جَفَل الدبلوماسي المستغرق في التفكير. لم ينتبه لاقتراب مضيفه.

---

(١) The despot of the mess - pot

- هل أجرؤ على القول، أضاف نضال الصافي بابتسامة متآمرة، إن فخامته لم ينزعج كثيراً بهذه الوجبة.

- صراحة يا صديقي، فخامته، الذي لا يملك وجبة بالمناسبة، منزعج. من حسن الحظ، حضر صديقك الكيلاني، الذي بعث الروح في الأجواء.

واصل الحديث:

- من هو بالضبط؟

- رشيد من عائلة سنية عراقية عريقة. وكما لاحظت، فالشخص وطني متّقد. وهو كذلك بن أخ عبد الرحمن الكيلاني، نقيب أشراف بغداد. وهو كما تعلم ربما...

- رئيس الأشراف لأنه سليل النبي. أعرف. والنقباء يشغلون وظيفة رفيعة في الإدارة الدينية لكل مدينة. فأنا أتكلم العربية، هل نسيت ذلك، و...

- ... عشت في القاهرة خلال شبابك، عندما كان والدكالعارف بأمور تدبير المياه، يعمل لفائدة الشركة العالمية لقناة السويس. لا تخف، فإني لا أنسى أبداً.

تنهد العراقي.

- لنعد إلى رشيد وعمّه. عندما ستعلم أن هناك في العاصمة ما لا يقل عن واحد وعشرين شريفا ينحدرون من خمس عائلات فقط، منهم ستة عشر من آل الكيلاني وحدهم، ستدرك مدى نفوذ هؤلاء الناس. إلا أنه يوجد فرق هام بين العم وابن أخيه. وعلى نحو مفارق، فالأول لا يبالغ في معاداة الوجود الإنجليزي، بحيث يرى فيه أداة تسمح له بإخراس الشيعة، الذين يمقتهم مثلما يمقت اليهود... وأنتم الفرنسيون للأسف.

هزّ لوفون كتفيه.

- يفتقد نقيب أشرافكم إلى الرصانة.

ضحك نضال الصافي ضحكة مكتومة.

- وكيف وجدت «السير بيرسي»؟ أليس رجلاً وسيماً؟

اسودت عينا «الوفون».

- أنصت إليّ، يا نضال. لا أعرف إذا كنت واعياً، لكنك وقعت في الفخ الإنجليزي. لقد بات العراقُ شأناً لندنياً، من الآن فصاعداً.

- إذا لم أخطئ، فالفرنسيون لا يبتعدون كثيراً من بغداد.

- مجرد افتراض، يا صديقي، افتراض.

استنشق نفحة هواء، ثم قال بصوت خفيض:

- فرنسا مخدوعة، يا عزيزي، مخدوعة.

حملق نضال الصافي.

- أستسمحك؟

- نعم، أعرف أنني أفاجئك. وإذا كنا هنا، فبسبب اتفاقات سايكس - بيكو الشهيرة. ففي الوقت الذي حاربنا فيه الألمان، أدرك الإنجليز، قبل الجميع، أن نمط إمبراطوريتهم يقوم على الحرب. كان عليهم أن يؤمّنوا طريق الهند المقدسة وشرق البحر المتوسط وقناة السويس. في نهاية المطاف، تبيّن أن هذا المغامر «مارك سايكس» تاجر سجاد أفضل من هذا المسكين «بيكو». تاجر لن تملكوا مثله أبداً في أسواقكم... السلام على روحه! لقد انتقمت أنفلونزا خبيثة لفرنسا[1].

---

(١) على سبيل المستملحة، مات سايكس سنة ١٩١٨ عن سن تناهز الأربعين بسبب= =الأنفلونزا الإسبانية (فيروس H1N1) ودفن في تابوت رصاصي. وفي سنة ٢٠٠٧، حصل عالم فيروسات من مستشفى لندن الملكي من ورثته على حق نزع عينات من قبر الدبلوماسي، على اعتبار أن فيروس H1N1 قريب جداً من أنفلونزا الطيور (H5N1). إذ قال العالم لقناة «بي بي سي»:

انفجر نضال الصافي ضاحكاً، وهو يقول في نفسه إن الصراحة وصلت متأخرة إلى الفرنسيين.

- هلا قدمت لنا كأساً أخرى من نبيذ الأناضول الجيد الذي ترك منه الأتراك بضع قنينات. سأكون شاكراً لك. دمدم لوفون.

صفق نضال الصافي بيديه ووجه أوامره. ثم اقترح وهو يستدير نحو الدبلوماسي:

- تابع، أرجوك.

- «سايكس» وعد، إذن، «بيكو» باجتراح المعجزات: أن نغمر أنفسنا بهدايا الشرق، وأن يؤسس الإنجليز إمبراطورية عربية كبيرة يمتدُّ مجالُها بين البحر الأبيض المتوسط والحدود الفارسية. لكن سيكون لنا نصيب من الكعكة. سنحصل هكذا على ما نسميه بالمنطقة الزرقاء من الإمبراطورية العثمانية، أي على سورية وقيليقية وولاية الموصل. وستصبح الإسكندرون[1] ميناء حرّاً خاصا بالتجارة الإنجليزية. كان بودنا أن نمنح روسيا المضائق. أما وأنها قد أنجزت ثورتها اليوم، فسنقصيها من توزيع المكافآت. أما بالنسبة إلى فلسطين، فهي قضية أخرى. إذ ينتظرنا الأسوأ.

عاد الخادم. قدّم كأساللوفون وانسحب. تابع الفرنسي قائلاً:

- واليوم، نرى أننا حصلنا على الكلام المعسول. لن نحصل على ولاية الموصل، حيث أدركت بريطانيا العظمى أن هناك نفطا

= «يمكننا أن نحصل على أجوبة عن أسئلة مهمة جدا». أجوبة من شأنها أن تسمح بتطوير العلاجات المقترحة على المرضى ومساعدة المجتمع الدولي على الاستعداد لمواجهة وباء محتمل. ومن آخر الأخبار أن جثمان الطرف الثاني في هذا الاتفاق الأكثر فسادا في التاريخ احتفظ بسرّه.

(١) أنطاكية سابقا. مازالت المنطقة موضوع خلاف بين تركيا (التي تطالب بها) وسورية.

ربما في الشمال. وهي تطالب، إذن، بهذا الإلحاق لتؤمن على حد قولها القدرة الاقتصادية لـ«انتدابها» على العراق. أما سورية - التي سأزورها عما قريب -، فسنحتفظ بها، حسب رأيي، إذا تكرم الإنجليز بتسليمنا مفاتيحها. بعد قرون من التأثير والحماية الدينية في الشرق، جرّبنا الإهانة بدخول الجيوش البريطانية دمشق، ثم دخول جيوش فيصل سيء الحظ. هذا الشقي الذي لا يتكلم كلمة واحدة من الإنجليزية. وعدوه بأن يُصبح ملكاً على اتحاد عربي مستقل. فإذا قرَّرَ الإنجليز احترام اتفاقات سايكس - بيكو، فإنهم سيتركوننا نواجه الأمير، ولنا أن نشرح أن التاريخ خدع هذا الرجل المسكين، وأن عليه أن يلوذ بالفرار. يا له من ألعوبة!

أطرق نضال وتقوس فجأة.

- مهزلة... مهزلة التهمت، وستلتهم عدداً من الأرواح البشرية.

يستشعر من نبرة صوته أنه لم يعبر عن أمور شاملة، بل عن شيء شخصي. إذ لم يغفل الدبلوماسي الفرنسي عن قصد آخر في كلامه.

- هل فقدت أحداً في هذه الحرب؟

- لا أعرف.

- وأنت...

- ابني، شمس. في بداية الحرب، جُنّد قسراً في كتيبة تركية. كان حينها في عامه العشرين. ذكر في رسالته الأخيرة أنه رُقّي إلى مرتبة ضابط، في مركزه بدمشق. حدث ذلك قبل سنة. بعد ذلك، لا شيء. الصمت. في غضون ذلك، انهزم العثمانيون، ودخل فيصل المدينة. ما الذي حلّ به؟ إما قُتل، وإما سُجن. الله وحده يعلم.

- هذا محزن جداً. سأحاول الحصول على بعض المعلومات. وفي كل الأحوال، لم توعد فرنسا بسورية؟ وكما أخبرتك، يجب أن

أزور دمشق خلال الأيام المقبلة. سأحاول معرفة ما حصل لابنك. أعدك بذلك.

هزّ العراقي رأسه، مخفياً تأثره.

- أشكرك. قبل سفرك، سأطلعك على المعلومات الشحيحة التي في حوزتي. من يعرف؟ نحن الشرقيين نؤمن بالقدر كثيراً. ربما هو الذي وضعك في طريقي؟ الآن، لنعد إلى قضيتنا. كيف تفسر أن الإنجليز تغلبوا على بلدك؟

- أمام وجود قوات عسكرية كبيرة في الميدان قوامها مليون رجل، ما يشهد على حجم التغلغل البريطاني في الشرق، لم تنزل أعدادنا الهزيلة بثقلها. ثم، لا تنسَ أن الإنجليز أصبحوا أسياد فن «فرّق تسد». هل تعلم ما أخبرني به أحد عملائنا البارحة فقط؟ الأقوال التي أدلى بها «مارك سايكس» سرّاً، كما يقول الصحافيون. لقد قال: «سننفر فرنسا من السوريين، والسوريين من فرنسا».

وختم بنبرة متعبة:

- مخدوع. تقول إنني...

نضبت ذلاقة لسان الفرنسي. أهو أثر الخمر أم سويداء أقواله؟ كما تجهَّمَ وجه نضال الصافي. كان «لوفون» على حق. لقد بات العراقيون، منذ الآن، في قبضة الإنجليز. جاء ضيوفه لينتزعوه من حديثه الثنائي، ويستأذنوه في الانصراف، شاكرين له هذه الأمسية التي تشبه آماسي الزمن الماضي. تأهب «لوفون» للانصراف هو الآخر، عندما أوقفه صوت نسائي:

- هل لديك ولاّعة؟

استدار. على مقربة منه ظهرت امرأة في الثلاثينيات، تحمل سيجارة في اليد. جسد مدهش، يكاد يكون خنثوياً. شعر أصهب،

قصير جداً. لها جيد طويل يرسو فوقه وجه ذو سحنة شاحبة. نهدان فتيّان بارزان تحت عباءة سوداء، مطرزة بخيوط ذهبية.

مالت قليلاً على شعلة الولاعة.

- أشكرك، يا سيدي.

كبت انتفاضة. لقد عبرت عن نفسها بلغة فرنسية جيدة.

- سيدتي...؟

- اسمي دنيا.

- دنيا. *العالم*. *الكون*. أي الكلمات تليق بك أكثر؟

- أترك لك الحكم.

تأملها لحظة كأنه يقيسها، ثم قال:

- إذن سيكون الاسم هو *الكون*.

أفصحت:

- أنا أخت نضال.

تبين تفاصيلها وهو يقطب جبينه. ثمة فارق خمس عشرة سنة بين الأخ وأخته. لا بد أنها أدركت اندهاشه، لأنها أوضحت:

- نضال وأنا لم نولد من رحم أم واحدة. أمه توفيت عند ولادته. انتظر والدنا - رحمه الله - اثنتي عشرة سنة قبل أن يتزوج ثانية.

وختمت برخامة طارئة:

- إنه من المهمومين الذين يمهرون القلب.

- أين تعلمت الحديث بهذه الفرنسية المدهشة.

- عندكم، في فرنسا. كان والدي عاشقا لبلدكم. لقد تحلى بالشجاعة ليبعثني لدراسة العزف على البيانو بالمعهد الموسيقي في باريس. فإرسال فتاة شابة، شرقية فوق هذا، وحدها إلى الخارج يمثل فعلاً جريئاً في حد ذاته. وتشجيعها على تعلم الموسيقى كان

أكثر جرأة. يمكنني أن أؤكد لك أن سفري كان له أثر الزلزال. لكن عندما يكون مديرك من طينة السيد «غابرييل فوري»، وأستاذك في البيانو عبقري مثل السيد «ألفريد كورتو»، فإننا نسخر من الزلازل.

اخترقت بارقة إعجاب حدقة عيني الدبلوماسي.

- هل تعزفين أحيانا فوق المنصة؟

- في بغداد؟ لا بد أنك تمزح، السيد «لوفون». لا. أعزف فقط لإمتاع أصدقائي أو لإغاظتهم. لكني أكرس معظم وقتي للتعليم.

- يوجد إذن معهد موسيقى، هنا؟

- لا. لكن تصور أنني عثرت على منصب في حلب، في مدرسة كاثوليكية أرمينية، يديرها مجمع الإخوة المريميين، مدرسة الشمبانيا.

كرَّرَ وهو يشدِّد على الكلمات، مشككاً:

- مدرسة كاثوليكية أرمينية يديرها إخوة مريميون؟

- قد يفاجئ هذا الأمر فعلاً. لقد قدموا إلى سورية منذ اثنتي عشرة سنة، وهم يعملون منذ ذلك الحين مع اليسوعيين في مؤسسة أخرى بالمدينة العتيقة.

- أنت مسلمة، كما أفترض.

- تماماً.

فكّر في التعريف الذي أطلقه الكيلاني المتوقد خلال العشاء: البلد البوتقة!

استفسرت بدورها:

- وأنت السيد لوفون؟ هل تستمتع في الشرق؟

- لنقل إنني لا أشعر أني غريب فيه. وهو ما يمثل شجاعة عندما ندرك التعقد المخيف لهذه المنطقة. لقد عشت بضع سنوات في القاهرة. بعد ذلك، كتب لي أن أزور سورية وفلسطين.

- تعقد هذه المنطقة أم غناها؟ كل شيء يقوم على النظرة التي

نلقيها عليها. أثناء إقامتي في فرنسا، أمكنني أن أدرك أن الخطأ الأكثر شيوعاً بين الغربيين هو التفكير في وجود شرق. والشرق هو وجه بألف واجهة، و. . .

قاطعهما صوت نضال.

- أرى أنكما تعرفتما على بعضكما.

جذب أخته إليه باندفاع عاطفي.

- هل تعرف كم أغبطها. فهي تملك المواهب كلها. تعزف على البيانو بشكل مدهش، وتلعب النرد أفضل من الرجال، وتتحدث الفرنسية أفضل من مواطنة فرنسية.

زايدت دنيا وهي تضحك:

- والإنجليزية مثل. . . فرنسية.

مدّت يدها إلى «لوفون».

- أترككما لحديث الرجال. فالنوم يغالبني.

تلعثم الدبلوماسي الذي أخذ على حين غرة:

- سعيد بالتعرف عليك. آمل أن. . .

- نعم، أي نعم، السيد لوفون. سنلتقي بلا شك.

أشارت بيدها إشارة صغيرة، ثم اختفت من زاوية الشرفة.

- أليست رائعة؟ علّق نضال. إنها عائلتي الوحيدة أو تكاد تكون كذلك، وعلى نحو متبادل. لقد غادرنا آباؤنا منذ إحدى عشرة سنة. وكنت لها الأب والأخ الأكبر. أحبّها.

- إنها جميلة بالفعل.

جميلة؟ تعبير *لطيف*، فكّر لوفون. لم تكن دنيا تغادر عقله.

- توفي آباؤكما خلال السنة ذاتها؟ استدرك قائلاً.

- في ظروف لا أحبّ الحديث عنها.

غيّر نضال الموضوع:

- عندي أخبار سارة لك. سمح لي صديقنا رشيد الكيلاني بأن أصحبك إلى اجتماع من الاجتماعات السياسية التي اعتاد هو وأنصاره عقدها.

انشرحت أسارير الفرنسي:

- خبر سار بالفعل. أين؟ ومتى؟

حرّك العراقي رأسه، بطريقة غامضة.

- ستعرف. غداً. وربما بعد غدٍ... أو خلال عشرة أيام. إن شاء الله.

اقترب من «لوفون» وهمس في أذنه:

- يرى اللّهُ النملةَ السوداء في الليلة الظلماء، على الصخرة الصمّاء...

القسم الثاني

(٧)

القاهرة، ١٠ مارس/ آذار ١٩١٩

والداي العزيزان،

آمل أن تجدكما رسالتي هذه في كامل سعادتكما وصحتكما. عائلة تيمور لطيفة بالطبع. لا تستاؤوا مني، ولكني أشعر في اللحظة الراهنة أنني أعيش هنا في بيتي الثاني. إذ يتحلى الجميع بلطف كبير، رغم أن لطفي باي يبدو أحياناً متذمراً قليلاً. ورغم مظهره الفظّ، إلا أنني مقتنع أن باطنه طيب. زوجته أميرة امرأة طيبة. وإذا سمحت لنفسي، فإنني سأقول إنها جميلة مثل أمي تقريباً. تقريباً. انتبهي أمي، فالفارق هام. أما منى، أخت تيمور، فهي كائن نادر. أنا متأكد أنكما ستحبانها كثيراً. لقد أسرّت لي أنها ترغب في دراسة التمريض. للأسف، يعترض أبواها على ذلك، حيث يعتبران أن الأمر لا يتعلق هنا بمهنة تليق بابنة عائلة محترمة. أعترف أنني أعجز عن التفكير. لكن لا بدَّ من نساء - مهما كان نسبهن - ينذرنَ أنفسهنَّ لمعالجة المرضى. ثم، وعلى الخصوص، هل لنا الحق في معاكسة ميل طبيعي؟ في الحقيقة، تُعَد منى في نظر الجميع هنا امرأة عصرية. فهي لا تخفي إعجابها بشخصية تثير، منذ مدة غير يسيرة، القيل والقال عنها في مصر، تدعى هدى الشعراوي. تخيَّلا أنها

أسست، وهي في عمر الأربعين تقريباً، مجلة نسائية باللغة الفرنسية تحت عنوان *المصرية*، وأنشأت الاتحاد النسائي! هذا الكائن المدهش لا ينشغل فقط بحقوق النساء، بل يكافح أيضاً من أجل استقلال مصر. فمنذ أيام خلت، استجابت ثلاثمائة امرأة لدعوتها إلى الاحتجاج في شوارع القاهرة ضد النفي الذي تعرض له الوطني سعد زغلول، وهو شخصية رمزية أخرى في البلد. إذ يمكن أن نرى مسلمين وأقباطاً يسيرون جنباً إلى جنب، متحدين في الصف الواحد. وقد كنت جزءاً من الحركة.

وحتى تفهما ما جرى فهماً أفضل، عليكما أن تعرفا أن الإنجليز اختطفوا الوطني المصري مع اثنين من رفاقه ونفوهم إلى جزيرة مالطا، بعدما أعيتهم تظلماته. هل يمكنكما أن تتصوَّرا فعلاً شنيعاً كهذا؟ اعتقال رجل يطالب بحرية بلده؟ وزجه في السجن وطرده من أرضه؟ والآن، تفهمان بشكل أفضل لماذا لم أمنع نفسي من رد الفعل والمشاركة في الاحتجاجات. فهذه الأخيرة لن تنتهي عما قريب. إنها تتضاعف في القاهرة والإسكندرية ومدن الأقاليم. إذ يتحدث لطفي باي عن «أزمة أعصاب الشعب»، لكنه أخطأ في حسابه. وكأن قنبلة فجرت سدَّاً وحرَّرتْ محيطاً، حيث انبثقت مصر برمتها. وأعمال الشغب، التي خلفت نحو ثمانمائة قتيل، تشلّ الحياة كل يوم في أحياء بكاملها، بينما تتوالى الإضرابات.

في غاردن سيتي، اضطرت كتيبة شرطة إلى حماية إقامة المفوضية العليا، وكذلك سفارة فرنسا في الجيزة. حاول محتجون اختراقها لمناشدة السفير لنقل شكاواهم إلى مؤتمر السلام الذي افتتح بباريس منذ ثلاثة شهور، دون حضور ممثلين عن مصر. لا أحد! كما وجه أعضاء الحزب الوطني للحكومة

الفرنسية عشرات البرقيات، وكذا عرائض وبرقيات يرفض موظفو البريد المصري إرسالها.

وانضم عمال مغازل التل الكبير بدورهم إلى الحركة، وسار على نهجهم عمال شركة الكهرباء «ليبون». وبالأمس، حلّ الدور على عمال السكك الحديدية المصرية. بل إن مؤونة العاصمة باتت رهينة الصدفة. لا، أخطأ لطفي باي الحساب. فالأمر لا يتعلق بأزمة أعصاب، بل بنهاية العالم! إذ لا بد أن ينتهي الإنجليز إلى الاستسلام!

وعليه، فقد تأخر الوقت. إنها حوالي الساعة الثانية، وغداً يجب أن أستيقظ فجرا، لأصحب منى وأخاها إلى حواجز قصر السلطان فؤاد لنصرخ بغضبنا. آمل أن نكون بالآلاف!

ابنكما الذي يحبكما ويفتقدكما.

مراد.

- لِيَلْوِ الله عنقه! صاح حسين شهيد، وهو يرمي رسالة ابنه أرضاً.

ضربت نادية خدّيها على الفور مرات عديدة، علامة على التضامن مع زوجها.

- ليرحمنا الله! احتجاجات؟ مواجهات مع الشرطة؟ أصبح ابننا مشاغباً! هل يرغب في موتنا؟

- هيا! تدخل سليمان ذو السابعة عشرة التي احتفل بها بالأمس، اهدأوا! لم يحدث أي شيء خطير. فهو لا يزال على قيد الحياة، ويتمتع بصحة جيدة، وإلا لم تكونوا لتتلقوا هذه الرسالة.

- أنت! زمجرت نادية. اهتم بما أنت فيه! أخوك مجنون! فقد عقله.

- لا، لا. إنه شغوف. هذا كل ما في الأمر.

هذه المرة، تدخل ابن الخال الوكيل، مضيفا:

- ما يزعجني هو قصص حقوق الإنسان هذه. هل تتخيلون؟ امرأة تنظم حركات احتجاج! من حسن الحظ أن زوجتي لا تحضر هذا النقاش! وما هذه المجلة - طوى شفتيه ليظهر ازدراءه - *النسائية*؟ هنا الخطر! إن أشخاصاً على هذه الشاكلة هم الذين يجب نفيهم إلى مالطا أو إلى أي مكان آخر، لا الوطنيين!

جلست الصغيرة سامية أرضاً بتعقل، وهي تعانق دمية من القماش. كانت تراقب الجميع في صمت. لم تفهم من صخبِ الكبار الشيء الكثير، لأنهم جعلوا الفهم عسيراً بالفعل.

- ودراساته، صاح حسين. لم يقل عنها كلمة واحدة! من يدفع الثمن؟ أنا! بليموناتي.

- ألم تلاحظوا شيئاً؟ لاحظت سامية متسائلة.

- ماذا إذن؟ تساءلت أمها.

- ألم تلاحظوا شيئاً في محتوى الرسالة؟

- ما الذي ترغبين في ملاحظته فضلاً عن هذا؟ إنها مصيبة!

- إنه عاشق.

- ماذا؟

- إنه عاشق، كررت الطفلة بابتسامة خبيثة. لقد كتب: «أما منى، أخت تيمور، فهي كائن نادر. أنا متأكد أنكم ستحبونها كثيراً».

هزّت نادية كتفيها.

- وماذا بعد؟

- لن يقول «أنا متأكد أنكما ستحبانها كثيراً» لو لم يَنْوِ تقديمها للعائلة.

بدأ لطيف يضحك:

- لا لوم على هذه الصغيرة.

بدَّدَ حسين الهواء بحركة منزعجة.

- وما الجدوى!

- يجب أن أكتب له قصيدة لعشيقته، قال سليمان متحمساً.

- نعم، بالطبع، هتف حسين. لا تملك في الحقيقة أفضل من ذلك! أنت...

أوقفته طرقات على الباب.

- من؟ تساءلت نادية.

وقف لطيف هو الأول، وذهب ليفتح الباب. تعرف حالاً على الرجل الواقف أمام العتبة، بهيئة مائلة. كان المسؤول عن أهم بيارة من البيارات الست التي يملكها حسين، تلك التي توجد في وادي جزريل.

- صباح النور، يا سيد لطيف، هل الرئيس موجود؟

- صباح الياسمين يا كرم. نعم. ادخل.

قلق حسين عند رؤيته. إذ كان حضور الرجل إلى حيفا غريباً. فإذا كان قد قطع هذه الكيلومترات كلها، فلأن شيئاً ما قد حدث.

- ماذا هناك، يا كرم؟

- حسين أفندي[1]. جرت أحداث خطيرة. وقد أبيت إلا أن أطلعك شخصياً. أنا...

- توقَّفْ عن اللفِّ والدوران! اشرح.

---

(١) كان هذا اللقب يُعطى عادة، في الإمبراطورية العثمانية، للعلماء والوجهاء والقضاة والمتعلمين. ومع مرور الوقت، حتى بعد سقوط الإمبراطورية، ظل اللقب يطلق على الأعيان عموما. ولازال اللقب سائدا في مصر إلى يومنا هذا.

- تعلم أنه توجد حقول «إلياس سرسق» غير بعيدة عن بيارتك.

- بالطبع! ها قد مضت سنوات وأنا أسعى إلى حيازتها. رفض ذلك دائماً. وقد واجهني برفض شركائه البيروتيون آل التويني وآل مدور. هل تدرك ذلك؟ وحدهم هؤلاء الأشخاص يمتلكون نحو سبعمائة ألف دونم. إنها ثروة! وفي السنة التي سبقت الحرب، قيل لي إنهم صدّروا من يافا أكثر من ١,٦ مليون صندوق من الليمون، تقدر بنحو ثلاثمائة ألف جنيه استرليني! أقول كم أشعر أنني صغير...

تنهّد ثم دعا عامله إلى متابعة كلامه.

- صباح أمس، نزل عشرات الرجال إلى ملكية آل سرسق. يحمل بعضهم البنادق. اقترب أحدهم من الفلاحين. قال إنه يدعى أوسوفيتسي أو أوسوستي...

- لا يهم! تابع!

- وأضاف أنه كان محامياً، وأنه يمثل الملاكين الجدد.

- الملاكون الجُدُد؟

- نعم. يهود جاؤوا من روسيا. أطلعهم على عقد بيع موقع طبق الأصول. لكن الفلاحين لا يعرفون القراءة، كما تعلم. وفي كل الأحوال لا يعرفون الروسية.

- هل باع إلياس سرسق؟

رفع حسين يده إلى صدره، وأصاب وجهه شحوبٌ غريب. وكرّر:

- هل باع لصهيونيين؟

- مستحيل، تمتمت نادية مذهولة.

- إنها الحقيقة، للأسف. ثم إن هذا السيد المحامي طلب من الفلاحين أن يغادروا الملكية فورا لأنهم سيعوضون بفلاحين يهود.

تخيلوا الوضع الذي وجد عليه هؤلاء التعساء. في البداية، التزموا الصمت، كأنَّ السماء مادَتْ بأرجلهم. ثم انفجر الغضب. لقد انقضُّوا على الغرباء، ساعين إلى طردهم بالهراوات والحجارة. لكن كما قلت، كان الغرباء مسلحين، حيث أطلق أحدهم النار. فمات أحد الفلاحين. فما كان أمام الآخرين، الذين شعروا بالرعب، إلا الفرار. رأيت كل شيء. كنت حاضراً هناك...

- رجال مسلحون؟ تمتمت نادية مذعورة.

شرح لطيف الوكيل:

- يظهر أنهم يمثلون جزءاً من مجموعة «هاشومر» (الحارس). إنها حركة صهيونية شبه عسكرية مكلفة بالحراسة في حقول المستوطنات الجديدة في الجليل، حيث حصل المستوطنون من السلطات العثمانية على رخصة التسلح. وخلقت تنظيماً آخر، هو بار غيورا[1]، شعاره: «بالنار والدم استسلمت مملكة يهودا، وبالنار والدم ستنبعث».

التزم ابن خال حسين الصمت برهةً قبل أن يستأنف:

- بلا شك نسيت مأساة مماثلة جرت منذ بضع سنوات، قبل الحرب، وفي الظروف نفسها تقريباً.

- إنه أمر مرعبٌ، أنّت نادية. إذا تحدثت الأسلحة بدل الرجال، ماذا سيكون حالنا؟

كررت قولها:

- كيف سيكون حالنا؟

رفع حسين يده علامة على التهدئة.

- لنهدأ. فمجموع هذه البيوع لا يمثل حتى واحداً في المائة من

---

(١) أنشئ يوم ٢٨ سبتمبر/ أيلول ١٩٠٧.

كل الأراضي. والباعة هم تجار عرب، جلّهم لم تطأ أقدامهم فلسطين أبداً. وليست تصرفاتهم هي التي ستغلب الكفة الديموغرافية لصالح القادمين الجُدُد.

- لن نلبث إلا قليلاً حتى نقاتل، أنذر لطيف. لهذا تم إقرار برنامج عمل خلال اجتماع جرى منذ أيام قليلة في القدس. سنؤسس جمعيات للدفاع عن المصالح المادية والمعنوية المشتركة لكل عرب فلسطين. وسيكون هناك مجلس إدارة يقوده رئيس وأمين مال وكاتب عام. وستصل المساهمات السنوية إلى عشرة قروش. كما سننشئ بنكا عربياً. وسيكون لكل مكتتب بخمسة آلاف جنيه من الأسهم الحق في الانضمام إلى مجلس الإدارة. وبفضل الأموال التي سنجمعها سننشئ جامعتين، واحدة للبنين، والثانية للبنات. ترى أن التعليم سيمثل أيضاً شكلاً من المقاومة. فهؤلاء الناس الذين يأتون من أوربا لا يعرفون استعمال الأسلحة فحسب، لكنهم يدرسون أيضاً. كيف تريد أن ينافسهم فلاحونا، وأغلبهم من الأميين؟ بعضهم لم يزوروا حتى المدينة القريبة إلى قراهم!

أمسك لطيف بيد ابن خاله، وشعلة حماس تجتاح نظراته:

- سترى. سننتصر.

التزم حسين الصمت. لكنَّ حزناً لا متناهيا كان بادياً في عينيه. سيذهب للقاء يوسف مرقس، ما أن تسنح له الفرصة.

*

القاهرة، نهاية مارس/ آذار ١٩١٩

الشابة المكمّمة والموثقة ألقى بها خاطفوها على السكة الحديدية، قلبت عينيها البيضاوين. دخان القاطرة يرتفع فوق الأشجار، على بعد بضع مئات الأمتار من هنا.

أطلقت منى أنّة.

فجأة، انتفض رجل، وأمسك بإبطي الفتاة، وهو ينحّيها جانباً.

بعد ثوان، مرّ الوحش الفولاذي، وهو يجر قافلة طويلة.

أصابع منى تقبض على ذراع جارها.

فكّ الرجل كمامة السجينة، وحرّر شعرها ويديها. تبادلا نظرة طويلة. ثم خارت بين أحضان محررها.

ظهرت نهاية القصة بحروف بيضاء على الشاشة السوداء، مع ترجمة عربية: «تزوجا وأنجبا العديد من الأبناء».

انفجرت التصفيقات. وأشعلت الأنوار من جديد داخل قاعة سينما الميترو. تبادل المتفرجون النظرات، وتنفَّسوا الصعداء. ورغم أن الفيلم صامت، إلا أنه لم يغير النَّفَسَ الدرامي وإيقاع الحركة.

سحب مراد يده التي وضعها على يد منى لطفي. لم تغبْ تلك الحركة عن أنظار تيمور، الذي كان جالساً على يمين الشابة. ها قد مضى زمان وهو يراقب الثنائي. لم تكن منى تنظر إلى مراد. كانت تلتهمه بعينيها، ولم تمنعه من أن يفعل الأمر ذاته. عما قريب تكتمل ستة أشهر منذ أن بدأ الاثنان يحومان حول بعضهما مثل حمامتين في حديقة الأزبكية. وعلى نحو غريب، لم يكن تيمور يرتاب في صديقه، بل في أخته. بأفكارها المعاصرة، لا أحد يعلم ما هي قادرة عليه!

- أدعوكما إلى العشاء في مطعم صفار، اقترح تيمور عندما وجدوا أنفسهم في الشارع.

إنه مطعم سوري يقع على بعد مائة متر من هنا. نزل الشباب الثلاثة الشارع المحاط بالعمارات ذات الأسلوب الهوسماني[1].

---

(١) أثناء زيارته المعرض الدولي في فرنسا سنة ١٨٦٧، أعجب الخديوي إسماعيل كثيراً بالأعمال التي كانت جارية في باريس تحت إدارة البارون =

اقترب تاجر أطواق ياسمين من الثلاثة، عارضاً البضاعة المحنطة على رسغه الآبنوسي. اشترى مراد واحدة من هذه الحلي العابرة، وأهداها لمنى التي طأطأت رأسها خجلاً.

عض تيمور شفتيه، يتنازعه الانزعاج والسخرية.

بعد عشرين دقيقة، جلس الثلاثة إلى المائدة أمام المازة وقضبان لحم حمل مشوي.

- إذن، استفسر مراد، ما رأيك في التطورات الأخيرة لقضية زغلول؟ يبدو أن الأمور هدأت، مع تعيين هذا المفوض الجديد، الجنرال «ألنبي».

- في الظاهر، أمر الرجل بتحرير بطلنا ورفاقه من أجل تهدئتنا، ورخص لهم بالذهاب إلى مؤتمر السلام الذي افتتح في باريس. هناك سيتحدَّد مصير المنطقة كلها. وربما مصير فلسطين أيضاً.

- مع فارق أنه لم يُستدعَ أيّ وفد فلسطيني إلى طاولة المفاوضات.

- أنا متفائل مع ذلك. انظر إلى ما يجري في سورية، إذ يستعد الإنجليز لمغادرة البلاد.

- صحيح. لكنك لا تعلم أنه وفق اتفاقات «سايكس - بيكو» الشهيرة، يجب أن تسقط دمشق في قبضة فرنسا. عاجلاً أو آجلاً، سيأتي الفرنسيون ليأخذوا حقهم.

- لا. لن يفعل الفرنسيون أي شيء. سورية سيحكمها فيصل. صبراً...

= «هوسمان». وبمجرد أن عاد إلى مصر، استلهمه ليطلق أعمالاً واسعة النطاق في القاهرة. واليوم، ورغم أنها تهدمت على نحو محزن، إلا أننا يمكن أن نعثر في العاصمة المصرية على آثار هذا المعمار «الباريسي».

- أخي على صواب، تمتمت منى. صبراً...

انفلتت من مراد ضحكة ساخرة.

- الصبر؟ هل رأيتما عدوّاً هزمه الصبر؟

أجابت منى:

- الصبر مفتاح الأشياء كلها. لتحصل على الكتاكيت، هل يجب أن تفقس البيض أم تحضنها؟ وهل يمكن أن تشيِّدَ بيتاً ما لم تكن التربة راسخة؟

- لا لوم عليك. إنما للصبر حدود؛ فعندما نقبل بتخطيها، يصبح الصبر جبنا.

اكتفت الشابة بابتسامة رقيقة.

- اطمئن، يا مراد شهيد: فالجبن ليس من طبعك.

عندما عادوا إلى فيلا الجيزة، كانت عقارب الساعة تقترب من الواحدة ليلاً. نام تيمور، وهو يفكر في الرحلة المقبلة للوفد المصري إلى مؤتمر السلام في باريس. أما مراد، فبقي يطرد الأرق بلا نتيجة. شعر بجسده حارقاً، بينما كانت الكوّة الزجاجية مفتوحة على الحديقة، والغرفة تمتلئ بطراوة الليل.

في عقله، لم يكن تحرير زغلول، ولا الأسئلة المرتبطة برحيله هي التي تتعارك، بل وجه امرأة، تلك التي تنام في الطابق العلوي. ثم هل هي نائمة؟ نهض، وهو على حافة الاختناق. تمشّى في الحديقة. كان ألف أريج وأريج يندفع إلى صدره، يحملها غناء الصرار الليلي.

هزّ رأسه. اخترق سربُ حمام أبيض حقلَ نجوم.

- مراد؟

اخترقه الصوت مثل خنجر.

- منى؟

طرح السؤال، رغم أنه يعرف الجواب.

كانت هناك على بعد بضعة أمتار. خَطَتْ خطوةً أخرى.

- يا له من أمر غريب. هل تشمُّ هذا الأريج؟

كذب:

- نعم.

كيف يعترف لها أن أريجها يخلع كل هذا الخليط من الأريج الآخر عن عرشه؟

شرحت:

- إنها ورود الفريزيا التي زرعها أبي هذا الخريف. وقد استقدم بصلاتها على الخصوص من هولندا. جنون.

وقف قريباً جدَّاً منها، حتى شعر بنفَسَها الدافئ والمنتظم. انتابته الرغبة في استنشاقه ومقايضته بنفسه، والموت بعدها. تمنى أن تبتعد. تضرع إلى الله والآلهة الأخرى. لكن لا بدَّ أن الربّ انشغل بشيء ما هذا المساء. ولا إله أنصت إلى تضرع مراد. وقتئذ تجرأ على الفعل الذي لم يخطر على باله. وضع راحته المرتجفة على خدِّ الشابة. لم يدرك، في اضطرابه، أنها فعلت الأمر ذاته. مال أحدهما على الآخر في النزوة ذاتها. توهجت مشاعرهما. وفي ضباب خفيف، دفعها إلى باحة - وهي أصالة أخرى للطفي باي - شيدت وسط الحديقة. جثا على ركبتيه، ففعلت الأمر ذاته. جسدان عابدان. شرعت تشرب من شفتي مراد. شرب من شفتيها. كانا يدركان ألاّ ماء يمكنه أن يروي عطشهما. طرحها أرضاً، ورفع تنورتها الأورغندية بانفعال إلى منتصف الفخذين، كاشفا بشرة بيضاء زادها نور القمر بياضاً. همست لاهثة: «مراد، مراد».

انقبض، حذراً ومضطرباً. فهذا الاسم الذي همست به قد يكون له معنى آخر غير تعبير الرغبة. ربما كان تضرعاً بعدم الذهاب أبعد.

ألم تولد منى مثله في هذا الشرق، حيث الحرام يروم إجهاض الحلم وكل أهواء الجسد خارج الزواج؟ هل من حقه تخطي المبادئ العتيقة والتقاليد؟ كانت تحته، بثغر باسم، موهوبة له، كأنها ثمرة. حاصر وجهها. فجأة، تخلى عن معانقتها تحت وطأة الارتباك.

صرخت فوراً:

- لا تتركني!

أطبقت ذراعيها على قامة الشاب، كأنها غريقة تفقد قدميها في بحر هائج.

- حبيبتي، يجب ألا... لا ينبغي...

- لا تتركني... لا. لا تتركني.

شمّرت حينها تنورتها بتشوق، وهي تمسك بيد مراد، ثم وضعتها على أسفل بطنها. كان فرجها يخفق محموماً مثل نبض.

تضرعت إليه. لا. أمرته.

- خذ قلبي. خذ روحي. خذ ما هو لك.

وفي اللحظة التي تلت، اخترقها، وبينما هي تئنُّ، عاضة شفتيها حتى لا تصرخ، كان هو يعرض أمام ناظريها الحياة، والموت، والجنة، والجحيم.

خطر ببالها طيف مياه النيل، وهي تغمر ضفتيه أثناء الفيضان.

(٨)

أعطانا الرب يدين، لكنه لا يبني الجسور.

مجهول

كيبوتس ديغانيا، أبريل/ نيسان ١٩١٩

عاين حسين شهيد الفلاحين المنهمكين في الحقول. أطلق تنهيدة إعجاب.

- بالفعل، يا مرقس، تتعلم بسرعة.

أشار إلى قطيع الماشية التي ترعى في مكان قريب.

- لا تطمئن إلى الزراعة. جيد، يا صديقي. أعترف أنك موهوب.

- نبذل ما بوسعنا من جهد. لكن الأمر لا يتعلق سوى بقرية. والأهم هو الحفاظ على الروح الجماعية حتى يكدَّ كل واحد في سبيل رفاهية الجميع.

- كم من أسرة تعيش هنا؟

لطيف هو من طرح السؤال. لم يجرؤ حسين على أن يقطع وحده راكباً عربته الكيلومترات الخمسين الفاصلة بين حيفا وطبرية. إذ شدَّدَ على أن يرافقه ابن خاله، وهو يدرك أيضاً أن لطيف يعرف

مثله قصص هؤلاء الصهاينة، وكذا قصص الهجرة التي تغيب عن ذهنه، وكان لا بدَّ أن يعترف بذلك.

- كم من أسرة؟ كرَّرَ يوسف. نحو عشرين.

صبّ الشاي في كأسين صغيرتين وقدمهما للفلسطينيين.

- إذن، ما الذي تستحقه مني متعة زيارتك؟

- تجري أشياء خطيرة، يا يوسف. خطيرة جداً.

أعلن لطيف الوكيل:

- قتل رجل في وادي جزريل، على أرض آل سرسق.

- أخبروني بذلك. إنها كارثة. لقد أصبح العالم مجنوناً.

- لا يتعلق الأمر بالعالم، يا سيد مرقس، اعترض لطيف، بل بصهاينة. هل تتذكر ما جرى منذ سنتين؟ لقد تشبث أعضاء في جماعتك بالاحتفال بما سمّوه «ذكرى إعلان بلفور». وقد قرروا يوم ثاني نوفمبر/ تشرين الثاني، وكان يوم سبت، تنظيم احتجاجات حاشدة في القدس في اليوم التالي. وسرت شائعة مفادها أنهم يريدون الاستيلاء على الحرم العبري[1]. تعرف كيف انتهت القضية: مواجهات، ومعارك منظمة. وقد خفّ المفتي إلى مكتب الحاكم الإنجليزي، وقال له إن...

- نعم. أعرف. لقد صرخ أنكم لن تقبلوا أبداً بأن تُفوّت فلسطين لليهود.

- نعم. وأن هذا البلد مقدس و...

- لطيف اهدأ. أنت تُضخم الوضعية. هل تتخيل أن الصهاينة -

---

(١) يعرف أيضاً باسم حرم الخليل، أو مقبرة البطاركة. هنا يوجد قبر عائلة إبراهيم، أب الديانات التوحيدية الثلاث الكبرى. وهو يعتبر مركزاً روحياً للمدينة العبرية القديمة.

أذكرك أني لست منهم - لا يسعون إلى الاستيلاء على أرضكم بالقوة؟

- بالطبع! وهل هناك غير ذلك، طالما أن مبدأ حركتهم يروم بناء وطن على أنقاض آخر؟

همّ بمتابعة كلامه، عندما ظهر رجل في الثلاثينيات من العمر. قدّه صخري الشكل. وجهه أشبه بمصارع. يمسك بمجرفة في يده اليمنى. غرسها في الأرض، وتوكّأ على مقبضها.

- اسمحوا لي بالمشاركة في حواركم. لقد سمعت كلامكم رغماً عني. اسمي «دان ليفشتاين». وكما قال صديقي يوسف، لا تخشوا شيئاً، لأن عدد اليهود المهاجرين في فلسطين لن يتجاوز مائتي ألف على الأكثر. وفكرة إنشاء وطن يهودي هنا تبقى مثالية، حيث لن يتحقق ذلك، لأن اليهود يعرفون أن البلد لن يستطيع أبداً احتواءهم جميعاً.

- لماذا يأتون إذن؟ ولِمَ يُشجَّعون على ذلك؟

- إنها مسألة حياة أو موت. وهي مسألة روحية أيضاً. فاليهود يعودون إلى أرض آبائهم وأجدادهم لأنها ظلت راسخة في ذاكرتهم. يفعلون ذلك أيضاً فراراً من أوربا حيث ذبحوا وهُجّروا.

ترك «دان» مجرفته وجلس أمام الفلسطينيين.

- لنكن موضوعيين. منذ أن صار هذا البلد ملكاً للعرب، بات جدباً وقاحلاً. أنتم...

- قاحلاً! جدباً! احتجَّ حسين. كيف تتجرأ على قول شيء كهذا! لقد غرسنا مئات الآلاف من البيارات وجنان الزيتون الذي نصدر، وننتج منتوجات حليبية، نحن...

- لا أنكر ذلك، لكنكم بعيدون عن الثروات التي كان بإمكانكم

جنيها من هذه الأرض. دعني أذهب أبعد في استدلالي. فكل الأمم التي استعمرت هذا البلد تركت فيه آثاراً تذكر بوجودهم. جميعها، إلا العرب. إذا سألتكم بأي حق تمتلكون هذا البلد، ماذا ستجيبون؟ لقد توالت أجيال عديدة من بينها جيلكم، ولم تفعلوا شيئاً. شئتم أم أبيتم، فالأمة اليهودية تصنّف بروحانيتها في مرتبة فوق الأمم الأخرى، حيث منحت هذا البلد تاريخاً. وتاريخ اليهود وحنينهم الدائم إلى هذا البلد هما اللذان يمنحانهم الحق في العودة إليه.. أما أنتم، فليس لكم سوى حق واحد، وهو الذي يخوله لكم كونكم سكنتم فيه طيلة أجيال عديدة. هل يمنعنا ذلك من العودة إلى العيش فيه إلى جانبكم؟ الجواب في نظري لا.

- السيد ليفشتاين!

- دعني أختم، من فضلك. يجب أن أقنعك. فاليهود لا يريدون طردكم، بل يريدون التعايش معكم. بل هم في حاجة إلى الاختلاط بكم. ورغم أن اليهود ظلوا يميلون إلى العزلة، إلا أنهم سينتهون حتماً، في المستقبل، إلى التطبع بطبائعكم والتحدث بلغتكم. غداً، سيتحدث اليهود العربية، والعرب اللغة العبرية. هل تفهم؟

رفّت عينا لطيف الوكيل، وحدق في مخاطبه بنظرة غاضبة.

- سأجيبك، يا سيد ليفشتاين. تسأل العرب بأي حق يمتلكون هذا البلد؟ سيجيبونك بأنه *جزء طبيعي من البلدان العربية*. صحيح أنه لا يمثل مهد الحضارة العربية، وإن كان جزءا منها. غير أن حرماتنا الدينية ومدارسنا حجج بليغة على أن معظم هذا البلد عربيٌّ *وإسلامي*. اسمح لي أن أثير نقطة أخرى: إذا كنتم تزعمون حق العودة، فلأنكم غادرتم. لكنكم غادرتم في كل الأحوال، مكرهين أو طائعين. بينما نحن *لم نغادر أبداً هذا التراب*. نسكنه منذ أكثر من ألف وخمسمائة سنة. فإذا كان هذا البلد هو مهد روحانيتكم

وتاريخكم، فإنَّ للعرب حقَّاً آخر لا يمكن إنكاره. لقد نشروا فيه لغتهم وثقافتهم.

مرّر لطيف يداً على جبهته بتوتّر، وختم بجفاء:

- حقكم، يا سيدي، بات متقادماً مع مرور الزمن، بينما حقنا قائم لا يقبل التصرف.

ظهرت على «دان» ملامح الكدر:

- يجب أن تنصت للمحاضرة التي سيلقيها أحد أبناء ديننا. سيطلعك ربما على نوايانا أفضل مما استطعت. يدعى «وايزمان». «حايم وايزمان».

- الكيميائي... سخر لطيف.

- تصوَّروا أنه رجل سياسي أيضاً.

- كيميائي؟ اندهش حسين.

أكّد ابن خال الفلسطيني.

- كيميائي ذو موهبة. واكتشافه لا يقل أهمية ربما عن الأثر الكبير الذي مارسه ويمارسه على البريطانيين. بل سمحت له هذه الموهبة أن يلهم اللورد بلفور وعده الشهير الذي فتح الباب أمام بيت يهودي في فلسطين.

- أي اكتشاف؟ تساءل مرقس الذي بدا أنه أسقط في يده.

- لقد وضع الدكتور طريقة تخمير جديدة، تسمح بصناعة كميات كبيرة من سائل الخلون، العنصر الأساسي في صناعة المتفجرات، من بينها «تي إن تي»، الذي يعتبر امتيازاً كبيراً في زمن الحرب. تتصورون أنه بين «وايزمان» والبريطانيين تعاقد لتبادل المصالح. شهادتي في مقابل فلسطين.

بدأ ليفشتاين يضحك.

- ألا ترى أنك تبالغ قليلاً، سيدي. . .
- لطيف. لا أبتكر شيئاً. يحدث لي أحياناً أن أناقش ضباط جلالته في حيفا. أين سيلقي السيد «وايزمان» محاضرته؟
- في القدس. لم أعرف المكان بعد. لا أشك أن أصدقاءك الضباط سيخبرونك بالمكان.
دار ليفشتاين على عقبيه.
بعد صمت قصير، استنأنف مرقس الكلام:
- لم تشرح لي بعد سبب حضورك، قال مخاطباً حسين شهيد.
تنهد الفلسطيني:
- جئت لنجد جميعاً حلاً حتى لا تقع كوارث جديدة، ستكون أكثر مأساوية. البارحة، قُتل عربي. وغداً، سيقتل يهودي. البارحة، قتل مجهول. وغداً، ستقتل أنت أو أنا. لابد أن نضع حدّاً لهذه الدوامة، يا يوسف. يجب أن تسعى إلى حمل رفاقك على تحكيم العقل، ومن جانبي، سأستعمل نفوذي على رفاقي.
- سأبذل قصارى جهدي، يا حسين. أعدك. لكن اعلم أنني لا أمثل إلا صوتاً واحداً.
- وأنا أيضاً. لكن صوتين أفضل من واحد، وأفضل كثيراً من الصمت.
واصل حسين مخاطباً ابن خاله.
- وأنت أيضاً، يا لطيف، افعل الأمر ذاته. لا يمكننا أن نترك هذا البلد يتحول إلى بركة دم. سيكون ذلك جريمة.
صحح يوسف، وحنجرته متشنجة:
- أسوأ من ذلك. سيكون تجديفاً ضد الله.

*

القاهرة، ١٤ أبريل/ نيسان ١٩١٩

التحق تيمور ومراد بآلاف الطلبة المتجهين نحو قصر عابدين. أيديهم إلى السماء. شرعت القوات الإنجليزية الرابضة بجوار المكان في إطلاق الرصاص في الهواء، لكنها استهدفت الحشود بعدما أرعبها تدفق المتظاهرين. سقط خمسة طلبة، وجرح العشرات. وفي لحظات، أصبح الوضع مروعاً.

وفي حوالي الساعة الثالثة بعد الزوال، أخبر الخدم أميرة لطفي بالمأساة. تيمور!تخيلت الحشود تدوس جثة ابنها. انفجرت باكية. توجست من أن توقظ زوجها. انتشله رنين الهاتف من قيلولته. نصحه المتصل بأن يلزم البيت، مخافة عواقب ما يحدث من قلاقل.

التحق بزوجته وابنته في الصالون. باحت له حينها بما جرى، فوجد نفسه يدعو الله، هو الذي لم يصلِّ أبداً.

عقارب الساعة تدور. ما العمل غير الانتظار؟ انتظار زيارة رسول يحمل الخبر المشؤوم، أو عودة تيمور جريحاً، وربما يكون جرحه غائراً.

وفي حوالي الساعة السادسة مساء، صفقت البوابة الكبرى، فسارع الجميع إلى المدخل. كان تيمور ومراد هناك في حالة مزرية. ارتمت أميرة بين أحضان ابنها ووجهها تبلله الدموع.

سارع الخدم، الذين كانوا يتمتمون حمدا لله على فضله، إلى تقديم الشاي للناجين.

- لعنة الله على الإنجليز، وعلى السياسة! صرخت أميرة لطفي بمنتهى التوتر.

- «لعنة الله على الإنجليز» تكفي، صحح تيمور بابتسامة متعبة.

شعر لطفي باي أن الأرض تميد تحت قدميه. ها هو يجد نفسه

فجأة مقذوفاً في هذه الدوامة، دفاعا عن نفسه. فكيف سينتهي كل هذا؟

في المساء، سلمت القاهرة نفسها للفوضى. لم تعد أية سيارة تسير في الشوارع. كانت العاصمة تصرخ: «الموت للإنجليز!»

وفي الغد، خربت السكك الحديدية، وباتت محطة باب الحديد معطلة، وشبابيكها محطمة أو مغلقة. وورد أن قناصين استهدفوا حراس الثكنات الإنجليزية في قصر النيل. كان الأجانب يختبئون فيها. كانت دوريات الجيش الإنجليزي تجوب الشوارع. أسدلت المتاجر ستائرها الحديدية. وباتت المدينة شبه محاصرة.

فجأة، قرر البريطانيون التنازل، تحت ضغط السلطان فؤاد بلا شك. استدعت لندن المندوب السامي «السير ريجينالد وينغايت». لكن اختيار من سيخلفه لا يبشر بالخير. إذ لم يكن الخليفة سوى الجنرال الشهير ألنبي، الذي دخل بنفسه دمشق لينصِّبَ فيصلاً عليها.

*

بغداد، ٢٠ *أبريل/ نيسان* ١٩١٩

في ساعات الزوال الأولى، اجتاز نضال الصافي، مصحوباً بـ«جان فرنسوا لوفون»، عتبة إقامة ضخمة. قادهما خادم عجوز نحو صالون واسع غارق في عتمة خفيفة. به موقدان يخفِّفان برودتَه التي تعاند تغير الفصل.

همس نضال:

- أنت واعٍ بالمكانة التي مُنحت إياها، أليس كذلك؟ جرت العادة ألا يشارك أحد في هذه الاجتماعات دون إظهار أوراق

الاعتماد، وخاصة الأجانب. صدقني أنه كان عليَّ أن أظهر موهبة كبرى في الإقناع حتى يقبلوا بذلك.

- أشكرك، يا نضال. أعترف أنني كنت آمل ذلك، دون الإيمان به حقيقة. لم يتبق لي هنا سوى بضع ساعات. غدا، سأسافر إلى دمشق.

- ألم أعدك؟

أخرج نضال، وهو يتحدث، مسبحة بلون العنبر من جيب دشداشته. حبيباتها تنفرط بين إبهامه وسبابته. تابع قائلاً:

- أتصوَّر أنك أدركت جيداً دور كل شخصية سنلتقيها والأهداف التي يتوخاها كل تنظيم.

قال الفرنسي:

- حرس الاستقلال. هل هو اسم الحركة؟ لماذا؟

- لماذا؟ تساءل نضال مندهشاً.

- لماذا قبلت بتقديمي إلى هؤلاء الناس؟ لم تنسَ بالتأكيد أنني ممثل فرنسا. ومن ثمة، عدوٌّ محتمل لبلدك.

عبس وجه العراقي بحيرة.

- من يعرف؟ أجدك أقلَّ عجرفة من الإنجليز.

كاد «لوفون» يعبّر عن شكّه، لكنه لم يقل شيئاً. دخل أربعة رجال الصالون. وعلى الفور، تعرّف الفرنسي من بينهم على الشاب المتهور رشيد الكيلاني الذي تجرأ على مشاكسة الدبلوماسي الإنجليزي قبل بضعة أسابيع. كان يسير إلى جانب شخصية تظهر شيخوختها بجلاء، تكاد تكون في الثمانين. عانق هذا الأخير نضال، الذي سارع إلى تقديمهما:

- السيد «جان فرنسوا لوفون»، عبد الرحمن الكيلاني، نقيب الأشراف، مضيِّفنا، ولكنه أيضاً عم رشيد الذي التقيته من قبل.

- سعيد بالتعرف عليك، أفندي، قال العجوز. اجلس، من فضلك.

بينما كان الآخرون يتفضلون بالجلوس بدورهم، انتهز «لوفون» الفرصة ليتفرس فيصاحب البيت سرّا. جسد ثقيل، ووجه متجعد لوّحته الشمس، لكن نظرته ثاقبة وحركاته محسوبة. لم يكن على كل حال يشبه حفيده المتحمِّس رشيد، لكنه يعطي الانطباع أيضاً بأنه مستعد في كل لحظة لخوض المعركة رغم تقدّمه في السنّ.

تساءل وهو يميل جهة «لوفون»:

- إذن؟ فإذا حكمت على ذلك بناء على الأسرار التي تريد البوح بها لصديقنا نضال، فإن الإنجليز لن ييسروا المهمة.

- لنقل إن هؤلاء النبلاء ليسوا كذلك.

- هل تقصد أن فرنسا فقدت سيطرتها. لن تملك ولاية الموصل. لن أشفق عليك. كان عليّ أن أخبرك أنني لا أحب فرنسا، ولا اليهود. لكني أمقت الشيعة أكثر.

ظل «لوفون»محافظاً على برودة أعصابه.

تابع الآخر:

- يميل الكلُّ إلى الاعتقاد أننا سنحتك بالإنجليز من الآن فصاعداً. ذلك أن إنجلترا الآن هي سيدة الشرق، وأننا نحن العرب منقسمون.

سارع الشاب رشيد إلى الموافقة:

- عمي على صواب: نحن أسوأ أعداء لأنفسنا.

تظاهر الفرنسي بالاندهاش.

رفع عبد الرحمن ذراعه.

- منذ نحو خمسين سنة - خمسون سنة! - والقوميون العرب يحاولون الاتحاد قصد مواجهة الأجانب الذين يزعمون حكمنا. وقد

بدأ هذا الأمر تحت إمرة الأتراك، حيث روى لي والدي الوقائع، واستحلفني ألا أنساها. في سنة ١٩٠٨، اعتقدنا أثناء تمرد الشباب الأتراك أننا بلغنا غايتنا. إذ سيطاح بالسلطان، وسنصبح في نهاية المطاف قادرين على استعادة حريتنا. أخفقنا على كل الجبهات. ماذا تريدون؟ يجب أن نقر أننا مازلنا في المرحلة القبلية!

تدركون جيداً أن العرب لا يوجدون كأمة. وهم ليسوا سوى مجموعة من القبائل. فضلاً عن ذلك، إذا لم نخطئ، فإنهم سيبقون كما هم: نسيج من فصائل صغيرة غيورة من بعضها البعض، وعاجزة عن الانسجام.

خطرت هذه الأقوال، التي جاءت على لسان الوزير الإنجليزي «اللورد غراي»، على بال «جان فرنسوا»بشكل خاطف.

تابع عبد الرحمن:

- قبل أن يموت أبي، قال لنا أنا وأخي: «يا ولداي، لا يجدر بالمرء أن يعيش بلا حرية. فالحياة تغدو غير محتملة، عندما نكون أغنياء ومتعلمين مثلكما. ثمة أناس آخرون يفكرون مثلي، مثلنا. سيروا معهم. وإذا اتحدتم، ستكونون أقوى!» إنه البرهان الذي من أجله جمعنا أعيان هذا البلد وأسسنا تحالفاً وطنياً.

- حراس الاستقلال، علّق «جان فرنسوا لوفون».

تدخل رشيد في النقاش بحدَّة:

- أعرف أن عمي، الذي أحترمه وأبجله، لا يعترض على الوجود الإنجليزي، لأنه مقتنع أن الإنجليز لن يقودوا خصومنا الشيعة إلى العجز فحسب، وإنما لن يقاوموا طويلاً داخل بلدنا. والحال أن الكثيرين منا يظنون العكس. فمِمَّ تتكون أدمغة هؤلاء الناس؟ كيف يمكنهم أن يتصوَّروا أننا صدقنا، ولو للحظة، خطاب جنرالهم «مود»؟

استشهد بتشدُّق إرادي:

- «اعلموا أن الإنجليز جاؤوا إلى العراق محررين، لا غزاة أو أعداء! لا يرغبون في فرض هيمنة خارجية على البلد!» هل يعتقدون أننا حمير حقاً؟ هل يتوقعون أن نستقبلهم بالزغاريد؟

سخر أحدهم:

- يذكرني هذا الخطاب بالخطاب الذي ألقاه جنرالكم «أبونابارت!»، عندما غزا مصر. هل تتذكرونه، يا سيد «لوفون»؟

قبل أن يغتنم الدبلوماسي فرصة الإجابة، قال العراقي متشدقاً:

- «أيها المصريون! سيقال لكم إنني أتيت لتدمير دينكم. إنه كذب، لا تصدقوه! أتيت لاستعادة حقوقكم، ومعاقبة الغاصبين!» اعترفوا أن الأمر مضحك. فالإنجليز يسرقونكم!

بدأ صبر «لوفون» ينفد. شيئاً فشيئاً، أدرك سبب وجوده هنا. فلو لم يكن الأمر من أجل توبيخ فرنسا عبر ممثلها، فإن القضية سرعان ما ستغدو ذائعة الصيت. ردّ بجفاء:

- لا ريب أننا نحن، الفرنسيين، افتتحنا حضارة للعالم، وأن علماءنا استنطقوا كلمات ظلت حبيسة الصمت منذ آلاف السنين. فمنذ ثلاث سنوات، أكسب بونابرتُنا مصرَ عدة عقود. إذ لا يمكن أن نقول الشيء ذاته عن البريطانيين الذين يحتلونها منذ أربعين سنة!

غاص عبد الرحمن الكيلاني بعينيه في عيني الدبلوماسي.

- أوافقك الرأي. إذن، لماذا تبدَّدَ كلُّ شيء منذ ذلك الحين؟ فالسيد «بيكو» فرنسي بالطبع! كيف تصور، رفقة زميله السيد «سايكس»، أننا قادرون على ابتلاع جزء من العالم كأننا نأكل صحنا من القطائف[1]؟ خطأ. لقد وقعا وسط ثمار الصبار، حيث ستبقى أشواكها في حلقوميهما.

(1) عجينة محشوة بالجوز أو اللوز تقلى وتغمس في الشراب.

- اسمح لي أن أذكرك على كل حال ببنود الاتفاق. لا تنوي فرنسا، ولا إنجلترا، «أكل» بلدانكم، سواء تعلق الأمر بالعراق، سورية، مصر، أو فلسطين. إذ يقتصر اتفاق «سايكس - بيكو» على وضع هذه الدول تحت الانتداب، في انتظار السماح لها رسمياً بالاستقلال والسيادة، ما أن تبلغ مستوى كافياً من النضج السياسي والنماء الاقتصادي.

انفجر ابن أخ الكيلاني بضحكة مجلجلة.

- السيد «لوفون»! مازلت في سنتي الثانية من دراسة القانون، لكني أعرف مسبقاً ما يعنيه مصطلح «انتداب»! إنه تعاقد يعطي بموجبه شخص ما، هو المنتدِب، شخصاً آخر، هو المنتدَب، صلاحية التصرف باسمه ولصالحه.

مسح الشاب الحاضرين بنظرة.

- هل منحنا نحن هذه الصلاحية؟ أو مصر؟ أو سورية؟ أو فلسطين؟ ومن يقرر متى يبلغ بلد ما «مستوى كافياً من النضج السياسي والنماء الاقتصادي؟» المنتدِب؟ أم المنتدَب؟ كفّ عن هذه المزحة!

- في كل الأحوال، قال أحدهم، لقد أدرك الإنجليز بدورهم أن ثمة معنى آخر لكلمة انتداب.

صفق بيديه وطلب الشاي للجميع.

- أنت على علم، كما أتصور، بما جرى في النجف منذ عام؟

- اغتيال ضابط جلالته؟

- أجل، القبطان مارشال. لقد قتله إخواننا ليكون مثالاً في خان عطية، حيث انتخب محليا. انتفضت المدينة كلها، بأحيائها الأربعة، ضد المحتلّ، فطردت ممثلي بريطانيا العظمى العزيزة. وسرعان ما أدرك البريطانيون فاجعتهم. لقد ألقمناهم حجراً!

- كان بمقدورهم الانقضاض. لكنهم لم يفعلوا. وهو دليل عن التحفظ، أليس كذلك؟

ردّ رشيد بحماسته المعهودة:

- انقضاض عسكري على مدينة مقدسة؟ تمزح! وحتى يتحقق الأثر المباشر، كان على الشيعة أن ينتفضوا انتفاضة شاملة.

استأنف النقيب:

- لقد فضلوا أن يحاصر النجف بشكل شامل، حيث أجبروا قادة المتمردين على الاستسلام وأداء تعويضات عن الأضرار بقيمة خمسين ألف جنيه استرليني ذهباً أو بما يعادله، وأخيراً نفي مائة نجفي إلى الهند كسجناء حرب!

صرخ صوت:

- لن يقبل أي رجل جدير بهذا الاسم تلبية هذه المطالب!

تابع رشيد الكيلاني:

- لقد أخبر القبطان بلفور، الذي يشبه اسمه ذاك الأبله الآخر الذي يبشر بوطن يهودي في فلسطين، العلماءَ بنفسه. هل تعتقد أنه سيمضي في ذلك؟ لقد قاومناه، يا سيد «لوفون». إذ تسلح جميع سكان النجف من أجل الدفاع عن مدينتهم. ودام الحصار ستة وأربعين يوماً فقد خلالها البريطانيون سبعمائة رجل! من جانبنا، لم نسجل سوى أربعين قتيلاً. بالطبع، لم يكن ليدوم هذا الصراع غير المتكافئ. لقد انهزم مقاومونا أمام المجاعة والتعب والعطش. حكم على ثلاثة عشر بالإعدام. ونفي مائة وسبعون إلى الهند. ما أهمية ذلك؟ لقد أثبتنا لهؤلاء النبلاء أنهم مطالبون بأداء ثمن باهظ إذا أرادوا مواصلة احتلال أراضينا.

ساد الصمت من جديد.

شرب عبد الرحمن كأسه من الشاي في جرعة واحدة.

واصل نضال تحريك حبيبات مسبحته بين أصابعه بهدوء.

في الأخير، تساءل «جان فرنسوا لوفون»:

- لماذا قبلتم بلقائي؟

باعد عبد الرحمن الكيلاني بين ذراعيه:

- يجب أن يعرف الفرنسيون أننا نبذل ما بوسعنا من الجهد كيلا يدخل الاتفاق الذي وقعوه مع الإنجليز حيز التنفيذ. لا بأس أن يبقى البريطانيون على أرضنا لبعض الوقت، لكن ليس الفرنسيين!

رفع النقيب سبابته إلى السماء:

- فضلاً عن ذلك، تنتظركم مشكلة سيصبح حلها أكثر تعقيداً. هل تفهم ما أقول، يا سيد «لوفون»؟

- على الإطلاق، كذب الدبلوماسي.

- سورية!

هزّ «لوفون» كتفيه. كان يدرك في قرارة نفسه أن مخاطبه صائب فيما ذهب إليه. إذ بين الإنجليز الذين التزموا بالاحتفاظ بدمشق، والأمير فيصل الذي وُعِدَ بالعرش، والقوميين السوريين الذين لم يكونوا يخفون نيتهم طرد الجميع، وعدت سوريةُ حكومةَ كليمانسو بأرق جميل.

لاحظ الفرنسي:

- سأدهشكم، الشيخ الكيلاني. أدرك حوافزكم. للأسف، أخشى أنكم لا تملكون وسائل لتحقيق طموحاتكم. أعلنت قبل قليل أنكم تمقتون الفرنسيين واليهود، بل تكرهون الشيعة أكثر. هل تعتقد أنكم قادرون على استقطاب هؤلاء الشيعة إلى قضيتكم على نحو دائم بدعم الإنجليز أو بدونه؟ سيفاجئني الأمر كثيراً. لا تنسى الأكراد. هؤلاء الأكراد الذين لا يريدون التخلي عن أملهم في كردستان مستقل!

حدج «لوفون» الحاضرين بازدراء:

- أتفق معكم. ربما لن تستولي فرنسا على الموصل. لكن الإنجليز سيعرفون، بسبب الانقسامات الداخلية التي أشرتم إليها، كيف يعانقونكم ليخنقوكم جيداً. سيناورون، ويقسمون، ويتريثون، ويجادلون، ويتاجرون، ويتحايلون. سيُركعونكم. ما لم...

انتظر الجميع بقية الكلام.

أرعد الفرنسي:

- ما لم يتّحد العرب، وما لم يتجاوزوا خلافاتهم! إنها شجاعة أنتم عاجزون عن إدراكها، واحسرتاه!مازلتم في المرحلة القبلية، مثلما اعترفتم في مستهل حوارنا.

قتل نفسه.

كسر صوت جزمة الصمت. كان فريق جنود بريطانيين يعبر الشارع.

(٩)

إذا كنت تريد أن يُغْرِب الله في الضحك،
كلّمه عن مشاريعك.

مجهول.

طنطا، بداية أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٩

سماء الضيعة ذات زرقة فلزّية، والهواء مفعم بأريج الليمون المزهر. قيل إن الطبيعة برمتها قررت أن ترتبط بمجد زغلول، الذي يحاول التفاوض حول استقلال مصر في هذه اللحظة بالذات، في باريس. لكن هل سيكون الوفد المصري وازنا أمام شخصيات مثل الفرنسي «جورج كليمانسو»، أو الإنجليزي «ديفيد جورج»، أو «وودرو ويلسن»، الرئيس الثامن والعشرين للولايات المتحدة الأمريكية، أو «فيتوريو أورلندو»، رئيس المجلس الإيطالي؟ حتى العقول الأكثر تفاؤلاً لم تعد تتوهم. منذ متى أتاح مؤتمر عقده المنتصرون للتفاوض مع المنهزمين فرصة أن يفضي إلى أفعال سامية؟

ساعة المغيب، وبينما يجري نسيم طري بين أشجار القطن، خطرت فكرة على بال لطفي باي، لم يكن أبداً قادراً على تصوِّرها. هذه الضيعة بُنيت بأحجار مصر. وعطر الورود يفوح من أرض مصر. والقطن أيضاً. وثروته مصدرها هذه الأرض ذاتها. فهل من الممكن

أن يخضع كل هذا لإرادة الأجانب المتعجرفين؟ وحتى رئيس عماله - البعيد جداً عن الطموحات القومية «للأشخاص المتعلمين» - بدا متأثرا بالحمى التي تجتاح البلد بعد تهجير زغلول. إذ تجرأ أن يسأله عما إذا كان هناك زبناء آخرون غير نسَّاجي مانشستر، لأنه كان يشعر أن فكرة بيع القطن المصري للعدو البريطاني تعذبه. لا. خلافاً لما تصوَّره فريد لطفي، فإن تظاهرات أنصار سعد زغلول لم تثر سوى أزمة أعصاب بسيطة. ربما ترفع مصر رأسها.

نظر إلى زوجته. كانت تحيك، وتبدو بعيدة جداً. كانت ابنتهما منى ممدَّدة فوق أريكة طويلة، مستغرقة في قراءة جريدة. مال ليقرأ العنوان، *المصرية*، ولم يمنع نفسه من أن يتساءل بنبرة ساخرة:

- هل السيدة النسائية بخير؟

تحاشت الشابة السؤال، وقرأت بصوت عالٍ:

- «رغم العوائق، ورغم سلوك الاستبداد الذي يتبناه الرجل تجاه المرأة التي يريد أن يحبسها في أداء أعمال منزلية بسيطة...».

- توقفي، يا منى!

- «... ويحفظ التاريخ صفحات رائعة لأدوار المرأة، على غرار كاثرين الثانية إمبراطورة روسيا، التي سماها السيد فولتير الرجل العظيم الوحيد في أوربا...».

- كفى! كلمة أخرى وستدركين الوضع النسائي الحقيقي!

نادى زوجته:

- جميلة هي تربيتك!

رمته أميرة بنظرة تفيد اللامبالاة، وانهمكت ثانية في حياكتها.

توقف تيمور قرب ناعورة. تفحص مراد بحماس.

- أقسم أنها الحقيقة؟ أستحلفك!

- لماذا أكذب عليك، يا صديقي؟ نعم، إنها الحقيقة. لكن

اسمح لي مع ذلك أن أخبرك بغمّي: كيف أمكنك أن تتصور ولو للحظة أنني أسعى إلى إفساد أختك؟ أو أسوأ من ذلك أن أستغلها؟ لقد أسأت إلي كثيراً.

غضّ المصري الطرف، بينما تابع صديقه:

- خلال الأسبوع الماضي، وأنا في حيفا، تحدثت مع والدي، فأشركتهم في نواياي.

- كيف كان ردّ فعلهم؟

- لقد بكوا فرحاً، خاصة أمي.

- أطلب منك الصفح. لم أشكّ فيك، بل في مني. هذه الأفكار «الحديثة» تدور في خلدها أحياناً. في الحقيقة، أخشى عليك أكثر منها.

- هل أنت مطمئن في الوقت الحاضر؟

بوثبة حماسية، عانق تيمور صديقه الفلسطيني.

- أنا كذلك، يا أخي. أنا كذلك. اغفر لي شكي. الآن، يبقى إتمام الأصعب، مواجهة التنين! تعالَ!

بينما كان الفلسطيني يتحدث، كانت حدقتا فريد لطفي تتمدَّدان، حتى إنه عندما حلّ الصمت، انفتحت عيناه من الدهشة. توقفت أميرة عن الحياكة. اضطربت منى قليلاً، وسالت دموعها على طول خدّيها.

أخيرا، نجح فريد في أن يتمتم:

- تتزوج ابنتي؟

اكتفى مراد، الواقف باستقامة واحترام، بأن أحنى رأسه إلى الأمام.

استدار المصري نحو زوجته.

- هل سمعت؟

رفعت المرأة عينيها نحو السماء بوجه متعب عبوس كأنها تريد أن تقول: «بالطبع! هل أنا صماء؟»

- أين المشكلة؟ تساءل تيمور. أليس مراد جديراً بالزواج من أختي؟

- أذكرك أن أختك هي ابنتي قبل كل شيء، إذا غابت هذه الحقيقة عن ذهنك، ردّ فريد لطفي.

أمعن النظر في الفلسطيني، ثم ختم:

- آسف. الجواب لا.

- ماذا؟

صاحت منى تعجباً أشبه بصرخة.

وثبت منى من أريكتها، وانتصبت أمام والدها، واضعة يديها على وركيها.

- هل قلت لا؟

- قلت ما قلته.

- مستحيل!

- المستحيل هو غرور هذا الشاب. يجب أن تدرك أنني لا أشعر بأي حفيظة تجاهك، أكد لطفي وهو ينظر إلى مراد. فأنت صاحب سلوكات جيدة. يبدو أنك ابن عائلة طيبة. وإذا حكمت بالنتائج التي حصلت عليها، وبناء على ما أسرّ لي به ابن خالي، رئيس الجامعة، فأنت جادّ في دراستك. لكن هذه الأوصاف غير كافية لتكون زوجاً. لن تؤهلك، في كل الأحوال،لتتزوج ابنة فريد لطفي باي.

احتجت منى:

- كيف أمكنك أن تعرف حاجاتي؟ وما هي الأوصاف التي أبحث عنها في رجل ما؟ هلا قلت لي، يا أبي؟

- اهدئي، يا ابنتي. لقد شرحت بوضوح أنني أقدر صديقنا. فعندما أؤكد أن هذه الأوصاف غير كافية، فإنني أقصد أنه لا يملك وسائل تأمين معاش عائلة.

وضع يده على كتف مراد.

- بحق الله، هل أخطأت؟ عمرك عشرون سنة. وأمامك ثلاث سنوات من الدراسة، لا العمل. إذن؟ ماذا ستعمل من أجل إطعام ابنتي والأبناء الكثيرين الذين سيرزقكما الله؟ بِمَستجيبني؟

- لم أسمع أبداً بمثل هذه الترهات! صاحت أميرة فجأة متعجبة. وكل المال الذي يرقد في خزاناتك، يا لطفي باي؟ وكل هذه الرزم من الجنيه الإسترليني وسبائكك الذهبية؟ وهذه الأراضي؟ لم تصلح؟ لإطعام الجرذان؟ ألا تستطيع أن تساعد هاذين الشابين للانطلاق في الحياة؟ ما أهمية ذلك إذا أمّنت حاجاتهما خلال ثلاث سنوات أو أربع؟ هل ستمرض؟ آه؟

- ارحمني يا رب! من يتكلم عن المرض! أو عن عدم مساعدتهما! لكن يجب في كل الأحوال أن يشرع هذا الشاب في تأمين حياته قبل أن يتزوج، أليس كذلك؟ إنه أقل...

- اسمحي لي، يا خالة، تدخل مراد بصوت هادئ. أعتقد أن لطفي باي على حق. أعترف أن حبي لابنتكم لم يشوش قلبي فحسب، بل بلبل أفكاري أيضاً. بالفعل، سيكون من الحكمة أن ننتظر انتهاء دراستي، لأنه لا يعقل، ولا يجدر بي أن تعيلني عائلة زوجتي. ذكرتم الأطفال. كيف يمكنني أن أنظر إلى عيني ابني أو ابنتي، وهو يعلم أنه يأكل من طعام الآخرين، رغم أن هؤلاء الآخرين ليسوا غرباء؟ لا. لن أحتمل أبداً. غير أني ألتمس منكم معروفاً: اسمحوا لنا أن نعقد الخطبة. عربون القران هذا سيشجعنا على الصبر.

تناول يد مني بلطف، وتمتم:

- أرجوك، يا لطفي باي.

- اتفقنا! صرخت أميرة دون تردد.

- اتفقنا! ردد تيمور الصدى.

كاد لطفي يختنق.

رأيي؟ هل يطلب أحد رأيي؟

لِمَ؟ أجابت أميرة. لا نطلب من أصم هل يحب إيقاعات الزواج.

*

دمشق، *في اللحظة ذاتها*، ٢٠ *أكتوبر/ تشرين الأول* ١٩١٩

كانت النافذة بمشربيتها الضخمة التي سلطت عليها الشمس شعاعها القوي، مجبرة على أن تسمح بمرور الضوء. تنهي الأشعة المتقطعة التي يختزلها الشباك في معيّنات، تنهي مسارها عند قوائم مكتب الجنرال «هنري جوزيف غورو»، المندوب السامي في جمهورية سورية وقيليقية. عندما دخل المدينة، رأى شيوخ دمشقيون أن شاربه يناسبه أكثر من شارب القيصر غيّوم الثاني، عندما قدم هذا الأخير نفسه، عشرين سنة من قبل، باعتباره بطل الإسلام، وحامي الملايين الثلاثمائة من المسلمين في العالم، وتبختر بزي زاوٍ في شوارع دمشق.

على يمين العسكري، جلست شخصية تدخن الغليون بمهابة واضحة. يدعى «روبير دو كيه». شغل من قبل منصب الأمين العام في الشرق.

ها قد مضت قرابة عشرين دقيقة والعسكري يعرض أمام «جان فرنسوا لوفون» الوضعية التي واجهتها فرنسا الآن، وقد قبل

البريطانيون الانسحاب من سورية وتسليم مفاتيح البلاد لحكومة «كليمانسو». إذ لم يجف بعد حبر التوقيع الموضوع أسفل الاتفاق، حتى ارتفعت ضد مجيء الفرنسيين الأصواتُ المعارضةُ من كل الأطراف.

يا لها من مسألة معقدة! تأمل «جان فرنسوا» بينما كان الجنرال يختتم كلامه:

- ها أنا أخبرتك بكل شيء.

- إنها مسألة معقدة جداً، أليس كذلك؟ لاحظ «روبير دو كيه».

- معقدة، بل وخطيرة، علّق «جان فرنسوا».

أخرج من جيبه علبة سجائر، مانحا سيجارة للجنرال «غورو» الذي تناولها بيده اليسرى، ليس لأنه أعسر، بل لأن ذراعه اليمنى بقيت على السفينة المستشفى التي حملته من الدردنيل بينما كان يقود الكتيبة الفرنسية الذاهبة للموت من أجل فكرة خاطئة من أفكار «وينستون تشرشل»[١]. إذ أجبر الجنرال على بتر يده التي أصيبت بقذيفة. غير أن أرباب الحرب عرفوا بسخائهم، حيث جاء «ريمون بوانكاريه»[٢] شخصياً، ليوشح «غورو» بالميدالية العسكرية فوق سريره في المستشفى.

سحب «لوفون» نفسا من الغليون، ثم قال:

- لنلخص. في إطار الصراع بين «كليمانسو» و«جورج لويد»، الوزير الأول لدى جلالته، أذعنت إنجلترا أخيراً بتسليمنا مراقبة سورية وجبل لبنان وقيليقية. وفي مقابل ذلك، قبلنا بالتنازل عن ولاية الموصل.

---

(١) كان حينها اللورد الأول في البحرية.

(٢) رئيس الجمهورية بين ١٩١٣ و١٩٢٠.

- بالضبط. لكن ينقصه القليل. لقد شرع بعض القادة البريطانيين يتساءلون عما إذا كان من الحكمة الوفاء بالوعود المقدمة لفرنسا في إطار اتفاق «سايكس - بيكو». بالنسبة إلى «لويد جورج»، بدا أن هذا الاتفاق «غير قابل للتطبيق»، إن لم يكن متقادماً، لأن بريطانيا العظمى بذلت جهداً كبيراً في الغزو. إذ ظن هؤلاء السادة أن تدخل القوات الفرنسية لم يكن، في النهاية، إلا هامشياً في «الثورة العربية». في الواقع، كان أصدقاؤنا الإنجليز، الأوفياء لعاداتهم، يسعون إلى تجاوزنا لتقوية قبضتهم على الشرق الأوسط.

- أنت تعرفهم، أحسن «روبير دو كيه» الظن وهو يؤكد على ذلك. إنهم يتعمدون أن يكونوا إنجليزاً.

- الآن، أين نحن؟ استأنف «غورو». النقطة الأولى: كدنا نحلّ محل البريطانيين في لبنان، وهنا في الساحل السوري. وفي غضون أسابيع قليلة، ستحتل قواتنا المنطقة كلها. النقطة الثانية: مازال يعتبر الأمير فيصل نفسه ملكاً على سورية ولبنان. النقطة الثالثة، وهي ربما الأكثر إزعاجاً: لا يطمح القوميون الراديكاليون، الذين أزعجهم مجيئنا، إلا إلى طردنا.

- لقد أحسنت تلخيص الوضعية.

- هل تعرف أين يوجد الأمير حالياً؟

- في فرنسا، أجاب «روبير دو كيه»، حيث قاده القبطان «لورنس» بغية التفاوض مع «كليمانسو». فأنا من سهر على تنظيم كل شيء.

أبدى «روبير دو كيه» تبرماً قبل أن يتابع:

- بإمعان النظر، أظهر «لورنس» هذا خفة عقل مذهلة، وهو يعد العرب باجتراح المعجزات! هل كان ساذجاً!؟

- هل نرميه بالحجارة؟ اعترض «جان فرنسوا». كان يحظى بمباركة رؤسائه، وبمباركتنا بطريقة غير مباشرة. وفي الأحوال كلها، تركناه يعمل، أليس كذلك؟

- بلى، اعترف «غورو» على مضض. تعلم جيداً أن المسألة لم تكن تتعلق بمعارضتنا. كان الأمر شبيهاً بالانتحار! لا تكرر الأمر، يا عزيزي، لكن السياسة أحيانا هي، يا للحسرة، فنُّ الوصول إلى غاية بلا تبجح بأية وسيلة كانت.

- لست أنا من يعارضك، أيها الجنرال. فيما يتعلق بلورنس... سأدهشك ربما. في رأيي، خطأه الجسيم ليس بالتأكيد هو ما نعتقده. بل إنه ارتكب خطأ آخر ستكون له، عاجلاً أو آجلاً، انعكاسات لا حصر لها.

- إنك تثير فضولي. عمَّ تتحدث؟

- لقد راهن على الشخص الخطأ.

حرّك «غورو» حاجبيه.

- اشرح، يا «لوفون».

- تعرف أنه تعايشتْ دائماً رؤيتان استراتيجيتيان داخل القيادة العامة البريطانية. إحداهما يطالب بها رائد يحمل اسم «سانت جون فيلبي»، والثانية يطالب بها القبطان «لورنس». إذ دافع «فيلبي»بشدة عن الطريق البرية المعروفة إلى الهند الثمينة جداً بالنسبة إلى الإمبراطورية البريطانية. وعليه، لم يدخر جهداً حتى يدعم بلده الأمير ابن سعود، الرجل الذي يسود حالياً المنطقة المركزية في شبه الجزيرة العربية[1]. وخلافاً لذلك، ظن «لورنس» بدوره أن نقطة الخلاص تقع خارج الطريق *البحرية*. ومن هنا عناده في الدفاع عن ابن حسين،

(١) تسمى نجد.

شريف مكة، الذي فرض نفسه سيِّداً على الساحل الممتد على ضفة البحر الأحمر... وعدو ابن سعود اللدود. والعقدة تكمن في أن امتياز هذا الأخير ازداد، بينما امتياز حسين تقلص شيئاً فشيئاً.

- ابن سعود؟ كرر «دو كيه»، مستغرقاً في أفكاره. ألا يمت بصلة إلى ابن سعود آخر، تحالف في ماضٍ بعيد مع داعية كان يحلم بتأسيس عقيدة إسلامية طاهرة وصارمة؟

- بالطبع. والداعية موضوع الكلام كان يدعى عبد الوهاب، وعقيدته الوهابية. إذا انتصر ابن سعود، وهو ما يبدو حاصلا، فإن المنطقة برمتها ستنقلب إلى هذا الإسلام المتطرف. حينها لن أضمن مستقبل المحمي «لورنس».

- تعتقد حقاً أن ابن سعود سينتصر؟

- وكيف لا؟ بالنظر إلى الطريقة التي عامل بها الإنجليز، ونحن أيضاً، خصمهم، وإلى الازدراء الذي تصرفنا به تجاه ابنه فيصل...

- هل نعود إلى ما هو أهمّ؟ اقترح «غورو». لقد أحطت جيداً بالوضعية. في الوقت الراهن، عليك أن تتصرف. لي مهمة سأعهد بها إليك. إذ أخفق فيصل و«كليمانسو» في إبرام اتفاق، ستنشب الحرب لا محالة. شئنا أم أبينا، يجب أن تغادر القوات العربية هذا البلد. لن ننتصر بسهولة. في المقابل، ما أن تسوى هذه المسألة حتى نجد أنفسنا أمام عدو أدهى من مقاتلي فيصل، وهم القوميون الراديكاليون. إذ أخشى أن يسبب لنا هؤلاء إزعاجاً كبيراً.

- أفهم. ماذا تنتظر مني؟

- أن تلتقي بهم. عندي هنا بعض الأسماء. آمل أن تسعى إلى نصحهم بالتعقل. استطلع الميدان، واسعَ إلى إيجاد نقاط اتفاق محتملة. تفهمني بالطبع.

- تماماً. لكن اسمح لي، أيها الجنرال، أن أضيف عنصراً إضافياً إلى همومك.

- آه!

- مسيحيو جبل لبنان، المارونيون. يمكن أن تتحقق بنفسك من الحماسة التي استقبلوا بها قواتنا ما إن اتخذت هذه الأخيرة مواقعها حول بيروت. في نظرهم، نحن محررون. ومن الآن فصاعداً، فهم يتوقون إلى دولة لبنانية مستقلة تحميها الروابط التفضيلية مع فرنسا. بل فوضوا بطريركهم ليمثلهم ويطالب باستقلال منطقتهم.

- يطلبون الحماية؟ لكن من أي عدو؟ تساءل «روبير دو كيه».

- الدروز.

- الدروز؟

- لن أزعجك بتفسيرات لاهوتية. لنقل إن الدروز يمارسون إسلاماً هامشياً يقوم على تعليم فلسفي. لقد استفاد جبل لبنان، الذي تسكنه أساساً أُسرُ الأعيان المسيحيين والدروز، من سلطة مستقلة طيلة فترة الاحتلال العثماني. إذ ساد فيه نظام إقطاعي، حيث بدا هذا العالم كله متفاهماً إلى حد ما إلى غاية سنة ١٨٥٨، عندما تمرد الفلاحون الدروز، الذين حرّضهم الأتراك بلا شك، على تجاوزات مزعومة لحاكم ماروني. ذلك أن ما بدأ بثورة تحول إلى حمام دم أسفر عن مقتل آلاف الضحايا المارونيين في الجبل، فضلاً عن مقتل مسيحيين هنا أيضاً، في سورية، حيث يدور الحديث عن خمسة آلاف قتيل يوم ٩ يوليو/ تموز من السنة الجارية.

- واليوم، هل يطالب هؤلاء المارونيون بدولة؟ إنه أمر أخرق! أين سنمضي إذا قامت الأقليات كلها بالأمر ذاته؟ ألم يتعلم هؤلاء الناس أننا نمثل دائماً أقلية أحد ما؟

- أيها السيد «دو كليه»، سنطرد الذئب العثماني المفترس

الكبير. لقد حللنا محلّه. ونحن نفعل ذلك، خلقنا أملاً كبيراً في صفوف هذه الشعوب التي كانت تعيش العبودية منذ قرون. ألا يطالبون بحقهم انطلاقاً من منطقهم؟

ألقى «لوفون»، وهو يتحدث، نظرة على ساعته الجيبية. احتدم قلبه. في غضون بضع ساعات، يحل الموعد مع دنيا، أخت نضال الصافي، غداً في حلب. إذ ستساعده العراقية على غسل روحه من هذه الجيوسياسة المختلطة، ومن نزعة العالم الكلبية.

- قلت إن بحوزتك بعض أسماء هؤلاء القوميين. هلا حصلت عليها؟

أمدّه الجنرال بمذكرة مطوية.

- ستطلعنا، بالطبع.

- بالطبع، أيها الجنرال.

تردد «لوفون» لحظة، ثم أخرج من جيبه الداخلي ظرفاً، وضعه فوق المكتب.

- ما هذا؟

- معروف ألتمسه منك. يتعلق الأمر بابن صديق عراقي. في بداية الحرب، شارك في كتيبة تركية. رسالته الأخيرة أكدت أنه نقل إلى دمشق. ستجد في هذا الظرف اسمه والمعلومات المتعلقة بهذا الكتيبة. لو تفضلت بمعرفة ما حلّ به...

- أعدك بأن أبذل جهدي. غير أنني أفضل أن أحذرك: لا يتملكنك أي وهم. هنا الفوضى.. بين السجناء الذين اعتقلهم الإنجليز، وأولئك الذين قبض عليهم العرب، وأخيراً من اعتقلناهم... لكن أكرر القول: سأبذل قصارى جهدي.

كان لوفون يستأذن للانصراف، طلب منه روبير دو كيه:

- بصراحة، أنت الذي تعرف الشرق حقَّ المعرفة، هل تعتقد أنك قادر على أن تتآلف مع هؤلاء الناس؟ أقصد القوميين السوريين.

تأمل «لوفون» لبضع ثوانٍ.

- أعتقد أحياناً أن الله، بخلقه الإنسان، بالغ في تقدير قدراته. لكن كما قال الجنرال: سأبذل قصارى جهدي.

(١٠)

الحياة هي ما يحل بنا، بينما نحن
منشغلون بمكان آخر.

مجهول

حلب، أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٩

- المدينة بألف وجه، همست دنيا ونظرها لا يبارح المشهد الممتد نحو الأفق.

من هنا، لم يكن منظر القلعة، أو الشهباء كما يحلو للبعض أن يسميها، سوى حقل شاسع من الأسطح الحمراء والرمادية.

استدارت العراقية نحو«جان فرنسوا لوفون»، وأضافت:

- هل تعلم أنه يتعايش هنا الأتراك والعرب والأكراد والدروز والتركمان واليهود؟ أضف إليهم المارونيين واليونانيين والأرمن والسريانيين والأقباط. إنه برج بابل حقيقي. في جميع الأحوال، يعيش هؤلاء الناس في انسجام.

- ألست تبالغين في إسباغ المثالية على الأمر؟ فعلى بعد بضعة كيلومترات من هنا، تغطي آلاف جثث الأرمن ضحايا جنون الأتراك صحراء دير الزور، دون أن ننسى أن المسلمين ماد بعطفهم السرور منذ ستين سنة، وهم يذبحون آلاف المسيحيين.

- الدروز، وليس المسلمون! صحَّحتْ دنيا.

- ليس خافياً أن الدروز مسلمون. أتفق أنهم ليسوا متشددين، لكن...

- لأنك تعتقد أن الطوائف عندكم، في الغرب، لم تجتز أزمات؟ كاثوليكيون ضد بروتستانت، ومسيحيون ضد يهود، وهلمَّ جرَّاً! على كل حال، فهذا الهوس عندكم، أنتم الغربيين، بأن ترمونا دائماً بانحرافاتنا، أمرٌ لا يصدق، كأنكم كنتم ملائكة مطهرة. أرى أن...

- عفوا! تعجب الفرنسي. لم أفعل سوى أن استشهدت بواقعة. هذا كل شيء. لا لوم من جانبي. أقسم بذلك!

حدقت فيه، بشفتين مفتوحتين، كأنها كانت تستعد للرد عليه، لكنها لم تفعل شيئاً، لتعلو محياها ابتسامة خجولة.

- أعتذر. ما أن نخوض في بعض القضايا، حتى أصبح مستعصياً على المراقبة.

- اعتذار عديم النفع. لم تقولي لي ما يكسر الخاطر، يا دنيا.

تنفس بملء رئتيه.

- في هذا الهواء الشرقي عطر لم أستطع تحديده. هنا، على الخصوص. كأن القوافل المحملة بالبخور والتوابل والحرير التي كانت تعبر قديماً الأفق مازالت تنعش الهواء. غريب.

- لا. ليس بهذا القدر، بفارق أن قطار دمشق - بغداد - إسطنبول حلّ محل القوافل.

- أعرف. لقد جرّبته. أتساءل عما إذا لم يكن السفر على ظهر الجمل أريح من اثني عشر يوماً من السفر في عربة معفرة بالغبار! وحتى السفر في الدرجة الأولى مُضْنٍ. لن أحدثك عن الأكل!!

بدأت الشمس تغيب وراء منارة المسجد الأعظم.

أضاف:

- فيما يخص الأكل، تحدثي لي عن هذا المطعم الصغير حيث نأكل لحم الحمَل مثلما لا نفعل في أي مكان آخر.

دقائق بعد ذلك، اندفعا في أسواق متداخلة، وأروقة لا تنتهي، على امتدادها تتكدس مئات البضائع الغريبة على نحو لا يصدق، وبسطات ذات وزن زائد، وتحف قديمة مزورة، وأشياء معتادة، وحلي، وخردوات، وروائح وألوان تتداعى إلى ما لا نهاية. أخيراً، انتهيا إلى باحة غير منتظرة، ونافورة، وعلى اليمين، مطعم صغير ذو كراسي مصنوعة من القش.

هنا أيضاً، كان الهواء محملاً بمزيج من روائح التوابل والفواكه الجافة والعنبر والصمغ والزعفران والمسك.

طلبت صحناً رئيسياً من الفريكة ولحم الحمل، فضلاً عن القمح الأخضر وحبوب الصنوبر.

- أتصور أنك لا تشربين النبيذ؟ تساءل «جان فرنسوا».

- بلى أفعل، تصور. ألم أعش في فرنسا؟ لكني أفضل كأس لبن.

- في هذه الحال، سأسايرك. هكذا سأحافظ على وضوح أفكاري. سمعت أن نبيذ حوران مُسكر.

- لا تخشَ شيئاً. يمكنني أن أبقى صافية الذهن.

رماها بنظرة خبيثة ساخرة.

أجابها:

- اطمئني. نادراً ما أفقد عقلي.

تحولت ابتسامة دنيا إلى ضحكة.

- أمازحك! من الممتع، أحياناً، أن يترك الإنسان عقله في الخارج، على أن يكون قادراً على إيجاده.

- صحيح. لم تطرح المشكلة بالنسبة إلي إلا مرة واحدة. كنت مجنوناً بالحب.

- و. . . ؟

- قصة مستحيلة. كان عمرها ثمانية أعوام. وأنا إثنا عشر.

- للأسف. إنها السنّ التي نعتقد فيها أن كل شيء ممكن. بعدها نحترس. ونقدّر.

- لم يكن من المفروض أن أكبر. وأنت؟

- أنا؟

- هل كبرت؟

- إذا سؤالك يدل ضمناً على: «هل أحببت، أو هل أنت قادرة دائماً على الحب؟» الجواب نعم. غير أنني لم أعد أريد أن أعيش قصة وضيعة. أُفضّل عشقاً قصيراً، شريطة أن يكون جميلاً بالمعنى الجمالي للكلمة، بدل أن أذبل في علاقة متوسطة فقط، لأنها ستحمل لي بعض الضمانات أو شكلاً من الأمان.

- «شكل من الأمان». تقصدين الزواج؟

- نعم. إنه تقليد عبثي وسخيف. ذلك أن حياة كائنين تحت سقف واحد، فوق سرير واحد ومائدة واحدة تبقى أقرب إلى الهرطقة.

- إنها المرة الأولى التي أسمع أقوالاً مماثلة ترد على لسان امرأة. على العموم، فالرجال هم من يتلفظون بها!

- مرة أخرى، مكان مشترك. مثلما هو الأمر بالنسبة إلى الرغبة. نعم الرغبة، كررت. لا ينبغي لامرأة مهذبة أن تختبرها. الرجال نعم. يا لها من فكرة سخيفة!

لم يعرف بما يجيب طالما أنه أخذ على حين غرّة.

- أنت بالتأكيد المرأة الأكثر إدهاشاً ممن التقيتهنَّ، قال أخيراً، وهو يمعن النظر إليها.

ثبت نظره. كان على يقين أنها تحاول أن تخبره بشيء ما، كأنها تسعى أن تنقل إليه رسالة. وفي غفلة منها، امتدتّ يده نحو يدها، فلامس رؤوس أصابعها برفق. كانت البشرة دافئة. واصلت التحديق فيه، متأملة. ثم ابتعدت بنظرها.

فجأة، سحبت يدها. تراجعت إلى الوراء، ثم تساءلت:

- هل نجحت في جمع بعض المعلومات حول ابن نضال؟

فقد توازنه. استغرق بضع ثوان، قبل أن يجيب:

- تحدثت مع الجنرال «غورو». وعدني أنه سيحاول معرفة ما أصابه.

- شكرا. شقيقي متأثر جداً بهذه المأساة. أعتقد أنه يفضل أن يعرف أن ابنه مات بدل أن يعذبه الشك. هل أتيحت لك فرصة التعرف على زوجته سلمى؟

- التقيت بها مرتين أو ثلاثاً. بدت لي امرأة شجاعة. لكن أشعر أن المعاناة تسكنها.

- وكيف لها أن تكون غير ذلك؟ فالأمر يتعلق بابنهما الوحيد. لا توجد لعنة بالنسبة إلى أبوين أسوأ من دفن ابنهما.

- تريثي! لا شيء يفيد أن شمس توفي.

- نعم، نعم... أنت على صواب. لا بدَّ من التشبث بالأمل.

دسّت أصابعها في شعره في حركة متوترة.

- كل هذه الفظاعات. لمن؟ لماذا؟ لقد احتل الأتراك بلدي طيلة قرنين، واليوم يفعل الإنجليز ذلك. وغداً الله أعلم من! وهنا، انظر ما يجري. البارحة، رأيت من نافذتي رتلا إنجليزياً في طريقه، بلا شك، إلى مرفأ اللاذقية. وفي الاتجاه المعاكس، كان جنود فرنسيون يسيرون صاعدين إلى الشمال. وفي هذا الوقت، تراقب قوات فيصل الذهاب والإياب، متوجسة، تتساءل متى ستنقضون

عليهم، أنتم الفرنسيون. هل السوريون متورطون في هذه القضية كلها؟ أليس الأمر غريباً؟

استنشقت الهواء واستأنفت:

- أنا مقتنعة أن نوحاً لو امتلك نعمة قراءة المستقبل، لأغرق السفينة بلا شك.

لم تضحكه المزحة، طالما أنها مثقلة بالمعنى.

- تحدثت عن السوريين. تماماً. أنا مكلف بالحديث معهم.

- آه! أخيراً! هناك من يهتم بهم. بمن تنوي اللقاء؟ أفترض أعضاء حزب الاستقلال؟

- أنت على اطلاع واسع.

- تتلمذت على يد أهل الجدارة مع أستاذ مثل نضال. عندما كنتَ في بغداد، ألم يعرفك ببعض الشخصيات العراقية في هذه الشبكة، مثل رشيد الكيلاني؟

- نعم، يا لها من شخصية!

- من ستلتقي هنا؟

- الدكتور الشهبندر والأتاسي. الأول وجه بارز في الحركة الوطنية، والثاني هو رئيس المجلس الوطني السوري. سأسرّ لك بشيء لم أبح به للجنرال: نضال هو من نصحني بربط الاتصال بهم، عندما كنت في بغداد. وقد أخبرهم بمجيئي. عسى أن يحدث ذلك.

وبينما كان النادل يرتب المازات على المائدة، تساءلت:

- تحدثنا عن العراقيين، والسوريين، والعرب، والأتراك، لكن أنتم؟ لماذا؟

لم يبدُ أنه أدرك مغزى السؤال. كررت:

- أنت، يا «جان فرنسوا». أين تصنف نفسك؟ في جانب الأخيار؟ أم الأشرار؟ في أي المعسكرين تشعر بالارتياح؟

لم يطرح هذا السؤال أبداً. لقد ساهم «كامبون»، الذي طالما اعتبره بمثابة ابنه، في تقديمه إلى «كي دورساي». كان يطيع الأوامر. هذا كل شيء.

أعلن:

- أنا ببساطة في جانب فرنسا.

- موقف مشرف، في الواقع. هل ستكون مستعداً للمحافظة عليه إذا ضلت فرنسا الطريق.

- نعم، حتى إذا ضلت فرنسا الطريق. لا شيء يمنعني من التعبير عن التحفظات، أو عن الانتقادات بالأحرى.

- التعبير لا يعني الإدانة.

- ليس دوري.

- ستغض الطرف إذن عندما سيطرد جيشك فيصل، ويأخذ سورية بالقوة؟

لاذ بالصمت. مزق صوت مؤذن السماء، متسللاً منها نحو النجوم الوليدة.

- دنيا.

- نعم؟

- سأبدو لك ممقوتاً، بل متعجرفاً، لكنني أملك المفاتيح التي تتحكم في هذا العالم. وأبي هو من سلمني إياها. وعددها اثنان: النزعة الكلبية ونهم الأقوياء. لا تنفصل الأولى عن الثانية. هل تعتقدين أن إنجلترا لن تأخذ سورية، إذا لم تفعل فرنسا؟ وإذا لم تكن إنجلترا، ألن يدخل بلد آخر على الخط؟ إذن؟ لا، لم يغرق نوح السفينة، بل فعل أسوأ من ذلك. لقد سمح لأبنائه أن يبنوا سفناً أخرى. وعلى مرّ القرون، غيرت هذه السفن أسماءها. نسميها اليوم الأوطان. أنا أهتم بأن تواصل السفينة التي ولدت فيها الإبحار.

- هكذا يسير العالم إذن؟ يقوده النهم والكلبية. بداهة لا تثير فيك، كما يبدو، أي حالة روحية.

- تعرفين تعريف أوسكار وايلد للكلبية: «تقتضي الكلبية أن ينظر المرء إلى الأشياء كما هي، لا كما ينبغي أن تكون». هكذا أنظر إلى العالم للأسف، أو يا للأمر الحسن، وأنا واعٍ تماما بتناقضاتي. إذ تشمئز نفسي من اللعبة الحالية التي انغمست فيها القوى الكبرى، سواء تعلق الأمر بفرنسا أو بقوى أخرى. إنما ليس بمقدوري أن أفعل أي شيء. لقد اخترت أن أكون دبلوماسياً في خدمة بلدي. ولو تغيرت قواعد الكونية غدا، صدقيني أنني سأكون حينها أول من سيطبقها. أما الساعة، فلازلنا بعيدين عن هذا الأمر.

- لست إذن ممن يريدون أن يجعلوا من هذا العالم مكانا أكثر قابلية للحياة، أكثر...

- في مستواي؟ أنا قزم. ذرة رمل.

- لا، يا «جان فرنسوا»، لست هذا ولا ذاك. أنت مجرد عالِم جبر.

حرّك حاجبيه.

- معذرة؟

- يمتلك علماء الجبر أبجديتهم الخاصة، لغتهم الخاصة، حيث يعبرون بشفرة قطعية، وثابتة، وخالية من الشعر.

ظل «لوفون» جامداً.

- آلمتك؟ استأنفت دنيا بابتسامة بريئة.

تحاشى السؤال. شحبت سحنته. أشار إلى الصحن أمامه.

- هلا شرحت لي طبق الفريكة؟

*

القدس، نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٩

قاعة العمادة تعج بالناس.

يقف في الصف الأول مفتي القدس الحاج أمين الحسيني، بجلبابه الطويل وطاقيته الحريرية التي تُزين جمجمته. على يمينه النشاشيبي عمدة القدس؛ وعلى يمين هذا الأخير، يقف «السير رونالد ستورز»، حاكم المدينة.

ابتعد لطيف وحسين شهيد بضعة أمتار عنهم. أصر سليمان على مرافقتهما.

- لم تعد تريد إذن أن تكون شاعراً؟ تساءل والده مندهشاً.

سوّى نظارته الطبية التي يضعها منذ وقت قصير.

- ألا ينسجم وضع الشاعر مع ما نشعر به تجاه البلد؟

بقي حسين فاغراً فاه أمام الجواب. ظن في قرارة نفسه أن السياسة تشبه، بالفعل، مرضاً معدياً إلى حدّ كبير أحياناً، إلا إذا كانت شيئا آخر غير ما يسميه البعض بحب البلد.

نظر إلى الزاوية نحو المفتي، الذي رقّاه المندوب السامي «هربرت صامويل» مؤخراً إلى مرتبة «المفتي العام في فلسطين». إنه لقب شرفي خرج من البرنيطة الإنجليزية. بهذه «الترقية»، كان «هربرت» يسعى إلى استمالة إحدىَ أغنى وأقوى العائلات المقدسية، شغل أفراد منها وظيفة المفتي طيلة أغلب فترات القرنين الماضيين. حيلة أخرى من حيل البريطانيين.

التقى حسين المفتي «العام»، آخر مرة، عندما عاد هذا الأخير من القاهرة، بعدما أنهى دراساته القرآنية بجامعة الأزهر. منذ ذلك اليوم، أصبح الشاب - الذي يبلغ اليوم اثنتين وعشرين سنة - صوت المقاومة الفلسطينية، الذي لا مفر منه. استرعى الانتباه قبل خمسة

أشهر، خلال يونيو/ حزيران الأخير، أثناء مرور لجنة «كينغ كراين»، التي كلفها الحلفاء بجمع آراء السكان المحليين حول نموذج الحكم الذي يتوخونه.

فجأة، حدثت جلبة انتزعت الفلسطيني من استغراقه. ظهر الدكتور «حايم وايزمان» أمام الملأ. قامته متوسطة. يبلغ الخامسة والأربعين من العمر. يرتدي بذلة قاتمة. سار إلى أن وصل إلى المكتب المخصص له. قال لطيف لنفسه، وهو يشاهده، إن اللحية الخفيفة والشارب اللذين يزينان وجهه يجعلانه شبيهاً بـ«لينين»، وهو شبه نابع، من دون شك، من أصوله البيلاروسية.

حيّا اليهودي الجميع بالإنجليزية أولاً، واليديشية ثانياً، وحدّق في اتجاه الحاكم «ستورز». وضع بعض الأوراق أمامه، وشرع في تلاوة خطابه.

«منذ عشرين قرناً، في هذا المكان بالذات، كان لأجدادي عاصمتهم، ومنها أرسلوا إلى العالم رسالتهم الكبرى، مثل خبز رموه إلى الأمواج، حيث مازالت الأمواج تحمله إلى أحفادهم حتى اليوم...

ورغم أنني ولدت في منطقة نائية بالشمال، لست غريباً في فلسطين. وهو الأمر ذاته بالنسبة إلى إخوتي في الشتات. لقد دافع أجدادنا ببسالة عن حقوقهم في هذه المدينة المقدسة، ولم يفقدوا حقوقهم السياسية في فلسطين إلا بسبب وحشية تشبه البلاء الذي يحلّ بأرمينيا اليوم. غير أن أجدادنا لم يستسلموا. حتى وإن حُرموا من وطنهم القومي فلسطين، فقد عرفوا كيف يخلقون فلسطين فكرية، ظلّت تقاوم هجومات الأعداء بجسارة طيلة ألفي سنة.

كما يمكن القول إننا لا نأتي إلى فلسطين، لكننا نعود إليها.

نعود إليها لنعيد ربط تقاليد الماضي المجيدة بالمستقبل، ونبلور فيها مرة أخرى مركزاً أخلاقياً وفكرياً كبيراً، منه سينبثق نظام جديد للأشياء، يطمح إليه الذين تكبدوا الآلام.

تسعى الصهيونية إلى خلق الظروف المناسبة لتقدم هذه الأرض. تقدم لن يتحقق على حساب الطوائف الكبرى القائمة في هذا البلد، بل يجب أن يكون في صالحها. ثمة في فلسطين مكان شاسع يمكن أن تعيش فيه ساكنة متفوقة على الساكنة الحالية. لا مكان، إذن، لتخوفات العرب، أكانت سرّية أم معلنة. فخشيتهم من أن يحرموا من موقعهم الحالي يمليها تأويل خاطئ لمرامينا ونوايانا، تأويل تستلهمه دسائس أعدائنا المشتركين الماكرة. من الناحيتين الأخلاقية والمادية، فمن صالح الإسرائيليين والعرب أن يعيشوا في سلام ووئام.

لا تصدقوا من سيقولون لكم إن غاية الإسرائيليين الاستيلاء على السلطة بعد الحرب. فالاستقلال درس معقد، لا يكتسب في يوم واحد.

ففي الشمال، ستنهض الأمة الأرمينية التي تدفع الساعةَ أكبر ثمن لعدو وحشي، بافتخار يوما ما، لتطالب بالعدالة والحق في العيش الحر فوق تراب جلّلته بالدماء التي سفكها أعداؤه. فهذه الشعوب الثلاثة، العربي واليهودي والأرميني، والتي عانت الأمرّين، جديرة بحياة مستقلة وسلمية.

ينبغي أن تكون مذابح الأرمن في تركستان بمثابة إنذار للجميع. يجب أن يتوحد العرب واليهود والأرمن حتى يقاوموا قوى القمع بكل الوسائل. فإذا نجحت فلسطين في الاتحاد، فإن مستقبلاً أعظم كماضيها سينفتح لها. ستصبح الرابط بين الشرق والغرب».

ختم «وايزمان» خطابه بهذه الكلمات:

«لنبعث مساء اليوم رسالة الإرادة الحسنة من القدس، ستحمل إلى جماهير شعوبنا المعذبة الأمل في عالم أفضل»[1].

بعد ذلك، ترجم الخطاب إلى العربية لمفتي القدس وقاضيها. شكر هذا الأخير الدكتور «وايزمان» لتحديده نوايا الصهاينة، وأنهى بجملة استعملها مسبقا أمام لجنة «كراين»: «حقوقنا وواجباتنا هي حقوقهم وواجباتهم».

تبادلَ لطيف الوكيل حينها النظرات مع ابن خاله بدون فرح.

- التوافق التام بين القط والفأر يصيب البقال بالإفلاس.

- ماذا تقصد؟ تساءل سليمان.

- الفأر إنجليزي. والقط صهيوني. والبقال سيكون فلسطينياً، للأسف.

---

(١) من *Le Retour des exilés*، هنري لورونز.

القسم الثالث

(١١)

أنت تحاول عبثا ألا تنشغل بالسياسة،
لكن السياسة تنشغل بك على أية حال.

شارل دو مونتالمبار

بغداد، مارس/ آذار ١٩٢٠

مرّت أربعة أشهر.

لم تعد المواقد تتأجج في البيوت. فالربيع يشعُّ متباهياً ودافئاً.

كان ورق البرقية الرصاصي يرتجف بين يدي سلمى زوجة نضال الصافي. الورقة مزركشة ببقع قاتمة بدأت تجف، هي دموع الأمومة. كانت تقرأ الكلمات للمرة الثانية دون أن تقتنع بمعانيها. ومع ذلك، فهي هناك: كان ابنها شمس، الذي اعتقدوا أنه فقد نهائياً، في طريقه إلى بغداد.

عندما كان بمكتب البريد في دمشق، سجن أثناء دخول جيش الأمير فيصل. ثم أطلق سراحه، ليجند ثانية بالرتبة ذاتها في قوات هذا الأخير. ولأنه عراقي المولد، فقد اعتبر وكلاء الأمير المجنِّدون أنه لن يكون سوى عدوٍّ لرؤسائه العثمانيين السابقين. لم يكن مخطئاً. سيصل إلى هنا غداً على متن قطار دمشق - بغداد. ستطور ساعات الانتظار الأخيرة أكثر.

كان نضال الجالس في مكتبه يحاول أن يتحكم في التوتر الذي ينتابه منذ فترة. لم تكن الأحداث تتزاحم في قلبه فحسب، بل كانت تتسارع في البلد أيضاً. وكما كان متوقعا، نكث الإنجليز عهدهم بتكليف حكومة عراقية مستقلة، حيث بات السؤال الآن يطرح حول احتمال الانتقال إلى الهجوم المسلح على المحتل، طالما أن المقاومة السلمية لم تثمر أي نتيجة. لقد كلّف رؤساء الولايات القديمة، مثل كركوك والموصل والبصرة وولايات أخرى، نضال بأن يستطلع الميادين وألا يسمح للاتجاهات الظاهرة بأن تحوم الشكوك حول الأسلحة! لا مجال لمراوغة هؤلاء الثعالب الإنجليز. السلاح والنار!

*

سيصل قطار دمشق - بغداد في الساعة الثالثة بعد الزوال. في الساعة الثانية، كانت عائلة الصافي بأكملها تقف أمام المحطة. لا أحد تخلف عن الموعد. كلّهم كانوا هنا، حتى أبناء الإخوة والأخوات، والأعمام والأخوال والعمات والخالات الذين انقطعت علاقاتهم. أبطأت القاطرة. كان شمس يطل من إحدى النوافذ. ما كاد يظهر، حتى بدأ أفراد العائلة يقفزون ويصرخون فرحاً. التهبت السماء بزغاريد صاخبة. وحدها سلمى ظلت صامتة، ووجهها تبلّله الدموع. غادر المسافرون جميعهم المحطة إلا آل الضافي الذين ظلوا يعانقون المسافر. كان نحيلاً. بدا متعباً، وأكبر سنّا من سنواته الاثنتين والعشرين.

اتخذت العائلة مكانها في سيارة «أولدسموبيل»، التي اقتناها نضال مؤخراً. اتجهت السيارة إلى شمال العاصمة.

استغرقت الأسئلة والأجوبة ما تبقى من الزوال. كيف عاش شمس المعارك؟ السجن؟ هل عامله الإنجليز معاملة جيدة؟ فيصل؟ جيشه؟ هل أكل حتى شبع؟

لم يستعد الهدوء سيطرته على البيت إلا في مستهل المساء.

جلس نضال وابنه في الشرفة المطلة على المدينة. انضم إليهما أغلب رؤساء حركة الاستقلال، من بينهم بالطبع نقيب الأشراف عبد الرحمن الكيلاني وابن أخيه المندفع رشيد. كان نسيم خفيف يهب. بينما بدأت النجوم الأولى ترقّط السماء.

وضع عبد الرحمن يده على كتف شمس:

- أنت متأكد تماماً ممّا تقولُ؟

- نعم. لقد وقعنا في الفخ. فيصل شخص أجلف، لا أقل ولا أكثر.

صمت مريب جمّد الحاضرين.

- أشرح، استأنف شمس. يدين فيصل بكل شيء للإنجليز. لقد بات دمية بأيديهم، ويخدع الأجنبي لأنه ابن الأمير حسين، شريف مكة، ولأنه شريف سليل النبي، لكن شخصيته مترددة جداً.

- لكنه استبسل في القتال ضد الأتراك.

- أصغوا إلي جيداً. لا أقول إنه رجل سيئ السمعة. أقول إنه ضعيف.

حدّق الشاب في والده وتساءل:

- هل تعرف رجلاً اسمه «جان فرنسوا لوفون»؟

- بالطبع. لماذا؟

قبل أن يجيب شمس، تساءل النقيب متعجباً:

- «لوفون»؟ أليس هو ذاك الدبلوماسي الفرنسي الذي جئتنا به ذات يوم؟

ردّ نضال بالإيجاب، ثم استأنف مخاطباً ابنه:

- إذن؟ ماذا هناك؟

- تصور أن ضباطاً فرنسيين كلفهم الجنرال «غورو» شخصياً لإيجادي تقربوا مني.

- «غورو»؟ تساءل صوت. ممثل فرنسا في سورية؟

- بالضبط. علمت، بعد ذلك، أن «لوفون» التمس منه أن يقتفي أثري.

أضاءت ابتسامة رضى ملامح نضال.

- لقد وفى إذن بوعده.

- وما علاقة ذلك بفيصل؟ استفسر رشيد.

- لقد تحدث مبعوثو «غورو» طيلة الرحلة التي قادتنا إلى حي الفرنسيين العام. سمعتهم يقولون إن الاتفاق الموقع خلال يناير/ كانون الثاني بين فيصل و«كليمانسو» أثار حنق الوطنيين السوريين. إذ تفجرت احتجاجات ضد الهاشميين[1] في البلاد كلها تقريبا. لا أحد يريد هذا الاتفاق. خمنت أنه سيمنح السوريين الاستقلال، لكن تحت الوصاية الفرنسية. لهذا، يرفضه الوطنيون. ختاماً، ضاع فيصل بين سندان فرنسا ومطرقة الوطنيين.

انفجر النقيب ضاحكاً، فضحك ابن أخيه أيضاً:

- أخبرني، يا بني، متى غادرت سورية؟

تردد شمس أمام سخرية مخاطبه فجأه.

- منذ خمسة عشر يوماً.

- لم تكن إذن على علم بالأحداث الأخيرة.

استدار عبد الرحمن نحو ابن أخيه رشيد.

---

(١) تشير سلالة الهاشميين أو بني هاشم تقليدياً إلى قبيلة القرشيين التي ينتمي إليها شريف مكة وأبناؤه. بعد أن شنعت بها عائلة آل سعود، باتت تحكم اليوم الأردن.

- أخبره. . . أخبر شمس.

استجاب رشيد:

- خلال الأسبوع الماضي فقط، تبنى المجلس السوري قراراً يرفض اتفاقات فيصل - «كليمانسو»، يعلن من جانب واحد استقلال سورية في حدودها الطبيعية، بما في ذلك فلسطين. وتوج فيصل ملكاً دستورياً لسورية الكبرى هذه. وعين هاشم الأتاسي وزيراً أول، والدكتور عبد الرحمن الشهبندر وزيراً للشؤون الخارجية. ترى أنك فاتتك هذه الأحداث، يا صديقي.

اندهش شمس.

- هل أنت جاد؟ أقصد أن. . .

- نعم. نشرت المعلومة في الجرائد كلها.

تأمل الشاب لحظة قبل أن يلاحظ:

- لا أشاطركم تفاؤلكم. أرى أن الفرنسيين سيبقون هنا. لن يتخلوا عن فريستهم. لقد حرموا من الموصل، وسيأخذون سورية.

ساد الصمت من جديد.

وضع نادل يرتدي زيّاً أبيض على صحون نحاسية منقوشة عصائر ومازات بهدوء، وانسحب مثل شبح. في الأسفل، كانت مياه دجلة تواصل جريانها غير مبالية بأوجاع الرجال.

- أنت على حق ربما، اعترف رشيد. لكن الفرنسيين لن يحكموا البلد إلى الأبد. ها أنت ترى، يا شمس، أننا نقود الحصان إلى المنبع، لكننا لا نستطيع أن نجبره على الشرب. لن يشرب السوريون الماء الذي يمنحه إياهم الفرنسيون.

أضاف بشغف:

- ولا نحن أيضاً. أعلم أن آية الله الشيرازي نشر، منذ بداية

الشهر، فتوى تحرم على المسلمين جميعهم القبول بالوظائف داخل الإدارة الإنجليزية. هذه ليست سوى البداية. البارحة، تشاورنا وقررنا أن نشعل انتفاضة عامة ضد هؤلاء الكفار. أبقِ عينيك مفتوحتين، يا شمس. فالعراق سيتحول إلى لهيب متأجج سترى شعلته من جبال الأورال.

(١٢)

لا حاجة إلى أن تَغْفُلوا كثيراً لتقدموا
بأنفسكم الاعتقاد بكذبكم.

باسكال

باريس، أبريل/ نيسان ١٩٢٠

كان فندق دو سوفينيي القريب من غابة بولونيْ، متلألئاً بمواقده المشتعلة جميعها. كان الدوق والدوقة «ليليوه دو سوفينيي» يقيمان مأدبة عشاء كبرى على شرف خطوبة ابنتهما الصغرى.

مثل «جان فرنسوا لوفون»، الذي رُقِّي إلى منصب الكاتب الأول في الشؤون الشرقية لدى «كيه دورساي»، بيد يدي الوزير الجديد بالوصاية «ألكسندر ميليران»، الذي استدعاه ليقدم تقريره عن الوضعية. ها قد مضى أسبوعان منذ عودته إلى باريس، وها هو يفتقد الشرق. فهل يُبعث ثانية إلى المنطقة؟ حتى اللحظة، لا يعلم أي شيء.

بات الخبر، الذي دفع بـ«قضية الشرق»[1] إلى واجهة الساحة،

---

(١) «قضية الشرق» هو المصطلح الذي يستعمل عادة لوصف تورط القوى الأوربية في بلدان البحر الأبيض المتوسط الشرقي وأوربا البلقانية أثناء معاناة الإمبراطورية العثمانية.

موضوع نقاش الضيوف الرجال المجتمعين داخل غرفة التدخين بعد العشاء، ليناقشوا نوبة الحمى التي زلزلت ما يسمونه «الأصقاع النائية»، وما شهدته من هياج ضد الغرب.

- إذن، يا عزيزي! خاطب أحدهم «لوفون». ما رأيك في هذا الهرج والمرج؟

تأمل الدبلوماسي لحظة قبل أن يجيب:

- هذا الهرج والمرج، بتعبيرك، هو نتاج سياساتنا الغربية. كانت هذه الشعوب تنشد الاستقلال بعد هزيمة سيدهم التركي. بيد أن الحلم لم يتحقق. لكنني أتصور أن الأمور ستنتظم مع مرور الزمن. إذ عليهم أن ينصاعوا أمام الواقع.

- هل طرحت سؤال لِمَ لَمْ نمنحهم الاستقلال؟ استفسر السبعيني المدعو «هنري بريار»، فيلسوف زمانه.

لم يُفاجأ «لوفون» بالسؤال. خلال الأشهر الأخيرة، لم يمض يوم دون أن يطرح هو نفسه السؤال، خاصة منذ إقامته في حلب رفقة دنيا.

أنت، يا «جان فرنسوا». أين تصنف نفسك؟ في جانب الأخيار؟ أم الأشرار؟ في أي المعسكرين تشعر بالارتياح؟

أين دنيا في هذه اللحظة؟ يفهم من الرسالة الأخيرة التي تلقاها منها أنها تنوي الذهاب إلى بغداد لقضاء بضعة أيام. كان ذلك منذ شهرين. ومنذ ذلك الحين، لا شيء.

بعد ذلك الغذاء في حلب، ظل يتشوق لرؤيتها مجدداً. كان الرفض مهذباً، لكن حاسماً. فأي قول أو فعل جعلها مجروحة؟ في ذلك اليوم، تجوّلا في أزقة المدينة، حيث أَرَتْه كنوزاً لا تخطر على بال. وفي لحظة ما، عبّرت عن أملها في الاختلاء بنفسها في جامع الأمويين. رافقها. ظلاّ هناك، معاً، أمام المنبر الخشبي المنحوت،

كل منهما مستغرق في أفكاره. عند الغروب، عندما وصلا أمام عتبة البيت الذي تسكنه على بعد بضعة أمتار من سوق العطارين، حاول أن يرسم قبلة على خدّيها، لكنها تملصت، ثم احتجبت بعد استدارة رشيقة. واليوم، بعد سبعة أشهر، مازال «جان فرنسوا لوفون» يتساءل عن حقيقة هذه المرأة. أليست ربما سوى طيف؟ أو شبح؟

- إذن، السيد «لوفون»؟ تساءل الفيلسوف بعد أن عيل صبره. هل يزعجك هذا السؤال إلى هذا الحد؟

قرر أن يجيب.

- لأن استقلال هذه البلدان لا يتفق ومصالحنا. لا تستطيع إنجلترا، ولا فرنسا، أن تترك مناطق استراتيجية بين أيدي ملوك لا خبرة لهم، ولا جيش. وطريق الهند حاسمة بالنسبة إلى الإنجليز. وقناة السويس وتأثيرنا في المنطقة يقتضيان وجودنا. فضلاً عن ذلك، فارس والعراق وشبه الجزيرة العربية هي مناطق غنية بالبترول، عصب الحضارة الحديثة.

- إذا فهمت قصدك، ردّ «بريار»، فسياستنا الخارجية هي أيضاً غريبة عن المبادئ الموروثة عن عصر الأنوار؟

تظاهر «لوفون» بالاندهاش.

- أيّ منها؟

يبدو أن الرجل غرز فيه أنيابه، ولا يريد أن يرخي عضته. ردّ «بريار»:

- المساواة بين البشر وحق الشعوب في تقرير مصيرها. إنها بديهية، أليس كذلك؟

توقفت المحادثات الأخرى في غرفة التدخين. أصاخوا كلهم السمع حتى لا يفوتهم أي شيء من الحوار. فضلاً عن ذلك، لم يعد الأمر يتعلق بحوار، بل باتهامات متبادلة.

زمّ «لوفون» شفتيه. لِمَ يحضر صوت دنيا فجأة؟

هكذا يسير العالم إذن؟ يقوده النهم والكلبية. بداهة لا تثير فيك، كما يبدو، أي حالة روحية.

كان عليه أن يبذل جهداً لكي يجيب:

- تكمن مشكلة هذه الشعوب في كونها لم تصل بعد إلى مرحلة تقرير مصيرها. لقد أضعفتهم قرون الوصاية العثمانية. نحن نساعدهم على أن يتحولوا إلى دول حديثة.

- بفرض إرادتنا عليهم لتحقيق مصالحنا، وبالاستيلاء على مواردهم الطبيعية. آه، يا له من درس بليغ في الديمقراطية الجمهورية!

انطلقت بعض الضحكات المختنقة.

- صحيح أننا سنستخلص بعض التعويضات عن جهودنا! توترت أعصاب «لوفون»، وهو يتساءل عن فائدة هذه المناظرة، بينما يشاطر في سريرته حجج مخاطبه.

لكن كيف أمكن لهذا الأخير أن يرتاب فيها؟ انتظر الرشقة التالية. لم تتأخر بالفعل.

استأنف «بريار» الكلام:

- تكشف الأحداث الأخيرة في الشرق الأوسط، في كل الأحوال، أن العرب لا يتصورون جهود فرنسا وإنجلترا بهذه الصورة. فأنتم لا تهينونهم علناً فحسب، بل تمنعونهم من مراقبة ترابهم، خلافاً للوعود البراقة التي تكررت خلال المؤتمرات الدولية كلها. بل يقال إن إنجلترا عزمت على أن تبني وطناً يهودياً في قلب الأرض العربية.

لاحظ «لوفون»:

- كانت فلسطين مملكة يهودية من قبل، إن صحّ ظني.

- تقصد أن اليهود فتحوها في العهد الفلستيني[1]، مصدر اسم البلد اليوم.

- الفتح يساوي التملك.

- حسنا، أعاد صلاح الدين فتحها. أنا أدحض حجتك! سأضيف مثالاً أوضح يعنينا.

- يعنينا؟

- نحن الفرنسيين. نؤكد أننا نمتلك الألزاس - اللورين، بينما ألحقناها منذ نحو مائتي سنة، حيث كانت المنطقة ألمانية من قبل. إذن، بأي حق يمكن لليهود أن يزعموا محو سيادة الفلسطينيين الممتدة منذ أكثر من ألفين وخمسمائة سنة؟

اعترض لوفون الذي يسأم ليس من النقاش، بل من سوء نيته:

- لا يكمن السؤال هنا. سيكون اليهود بمنزلة رأس الجسر بالنسبة إلى السياسة الأوربية.

التمعت أقوال دنيا من جديد.

أنا قزم. ذرة رمل.

لا، يا «جان فرنسوا»، لست هذا ولا ذاك. أنت مجرد عالم جبر.

- إذن، لنتبع هذه السياسة العمياء، قال «بريار»، لكن لن نندهش إذا انبعث صلاح الدين يوماً ما.

اكتفى «لوفون» بالتحديق طويلا في«بريار»، ثم أطفأ سيجاره بتؤدة.

- الأستاذ العزيز، إذا بحث العرب يوماً ما عن مدافع عن قضيتهم في أوربا، فسأستأذنك في اقتراح اسمك.

---

(١) الفلستينيون هم شعب قديم مذكور في الكتاب المقدس باسم «بليشتيم».

- آه، ليهدأ بالك! لا أعتقد أنهم في حاجة إلى مدافع. لن يكتمل هذا القرن حتى يجدوا الوسيلة ليسمعوكم بأنفسهم حججهم.

ظل «لوفون» صامتاً.

هذه المرة، لم تكن كلمات دنيا هي التي تخطر على باله، بل تلك التي نطق بها، في لندن، بمكتب «لورد غراي»، بوزارة الخارجية.

مخطط «سايكس بيكو» هذا، مع احترامي لشخصك... سينفجر بين أيدينا...

*

حيفا، يوليو/ تموز ١٩٢٠

كان حسين وابنه سليمان يراقبان أرصفة الميناء عبر نافذة المكتب. على بعد بضع مئات الأمتار على اليمين، كانت أمواج الواصلين تتدفق عبر جسور الباخرة التركية «إس. إس إرزوم». في الواقع، لم يكن هؤلاء سياحاً. كانوا يجرّون حقائب مثقلة، ورزماً عديمة الشكل، وعلبا كارتونية يحملها البعض فوق رؤوسهم. أناس من كل الأعمار. في أعينهم شيء يفوق الوصف يشبه وعود السعادة.

ما أن نزلوا على الرصيف، حتى بدأ منظمون يجمعونهم، وهم يصرخون بأوامر عبر مكبرات صوتية. ثم تعاقبوا أمام فرق كانت تدون هوياتهم على أوراق رثّة وزهيدة. ثم ركبوا حافلات، وشاحنات أحياناً، واقتيدوا نحو بيوت استقبال، في انتظار الالتحاق بالمزارع الفلاحية (كيبوتسيم). لا الأب شهيد، ولا ابنه أدركا الكلمات المتبادلة، فهي إما اللغة اليديشية، وإما البولونية.

على اليسار، توقفت للتو الباخرة الإيطالية «إس. إس. فيتوريا»، التي أقبلت من مدينة «تريستي»، على طول الرصيف. كان

مئات المسافرين أشبه بمن سبقوهم يسارعون إلى درابزين الباخرة. عندما نزلوا، كان مرشدون آخرون يصرخون فيهم بكلمات غامضة ككلمات زملائهم، لكنها باللغتين الرومانية والبلغارية هذه المرّة.

بعد أن رأى آل شهيد العدد الكثير، عادا إلى المكتب.

لم يجنِ حسين أي ربح مادي من وصول هذه البواخر، حيث تعهدت بها منظمات صهيونية، وستنتهي عاجلاً أم آجلاً إلى التعامل مع منافسه «برونسن شيبشاندلرز».

- كان يحسن بي أن أبيع تجارتي لما رغب آل «برونسن» في شرائها، قال وهو واهن العزيمة. عما قريب، لن تساوي شيئاً.

ما كاد يتلفظ بهذه العبارات، حتى غيّر رأيه.

- اللهم اغفر لي. فالكدر هو الذي يجعلني أتكلم هكذا. أبداً، يا بني. لن أبيع أبداً ولو ذرة تراب من ممتلكاتنا! أبدا!

لم يعرف سليمان بما ينبس. لم يكن يرى أي نجاة من هذا الخطر الذي لم يتصوره أحد: دفق هادر ومتزايد من المهاجرين. كانوا يصلون بالمئات كل شهر. وعلى نحو غامض، يجدون مأوى خلال الأيام الأولى، ثم يختفون في عمق البلاد.

كانت تل أبيب، بالتأكيد، المنشأة العجيبة التي أبدعها هؤلاء الغرباء. بُنيت المدينة عشر سنوات من قبل على يد ستين عائلة يهودية ثبطت عزيمتهم الصعوبات المادية في يافا. في البداية، كان المكان مجرد تلال صحراوية بئيسة لا ينبت فيها حتى الصبّار، ومن هنا الاسم الذي اختاروه، استهزاء، لتسمية المدينة: «تل الربيع». ستّون عائلة. واليوم، تضم تل أبيب نحو ثلاثة آلاف نسمة، لها محكمة وشرطة.

لمن التشكي؟ ومِمَّ؟ من احتلال تدريجي للأرض الفلسطينية؟ من الخوف من الاستيقاظ ذات صبيحة، وظهرك إلى الجدار، أو مطرودا من البلد على يد الواصلين الجدد؟ أليس المندوب السامي، «السير

هربرت صامويل»، الذي يمثل السلطة الأعلى في البلد، يهودياً؟ ولما كان لا بدَّ من الانتظار، فقد أطلق تعيينه فرحاً عارماً في صفوف الـ«يشوف»[1]. ثم أي سلطة فوق الإنجليز، سوى الله؟

خلع سليمان نظارته. اقترب من والده وعانقه.

- لا تقلق، يا أبي. سنخرج سالمين. لا تنسَ أنني هنا، ومراد أيضاً. سيتزوج قريباً، وسيعود ليعيش بيننا. سنصمد نحن الثلاثة. سترى. لن يطردنا أي بولوني أو روماني أو أي كان.

رماه حسين شهيد بنظرة متجهمة.

- ربما يجب أن تلتحق أنت وأختك بأخيكما في مصر. أخشى ألا يكون لكم هنا أي مستقبل قريباً. نخشى أن نصبح غرباء في أرضنا.

لم يصدم سليمان بالاقتراح، ولم يفاجأ به. لقد فكّر به هو أيضاً. بلغ للتو السنة الثامنة عشرة. لكن منذ رحيل مراد، وقع على كاهله ثقل المقاولة العائلة المفلسة. فإذا رحل، سيقفل والده المحل، وستفتر همّته، ثم سيغرق في الفقر.

- هذا غير وارد، يا أبي. لن أتركك أبداً. لن أرحل عن فلسطين أبداً.

دخل سليمان إلى غرفته، تناول ريشته وورقة بيضاء، وكتب:

أين سنذهب بعد الحدود الأخيرة؟ أين ترحل الطيور بعد السماء الأخيرة؟ وأين تنام النباتات بعد الليلة الأخيرة؟

---

(١) نميز بين «اليشوف القديم»، المجتمع اليهودي الذي كان يعيش في فلسطين في ظل الإمبراطورية العثمانية قبل سنة ١٨٨٠، و«اليشوف الجديد»، الذي يقصد به السكان اليهود الذين هاجروا ابتداء من ثمانينيات القرن التاسع عشر، في إطار المشروع الصهيوني. والتسمية الكاملة تعني «وطن اليهود في أرض إسرائيل».

قُلْ لي. . . أين؟

انتفض بعد أن سمع صوت أخته سامية:

- هل أنت على علم بما يجري؟ قالت بنبرة محايدة.

- ماذا إذن؟

- لقد قتل الفرنسيون فيصل.

(١٣)

طالما أن الشعب يصوت ضد الحكومة،
فيجب حلّ الشعب.

برتولد بريخت

القاهرة، ٢٥ يوليو/ تموز ١٩٢٠

- لا ، فيصل حيّ، شرح تيمور الذي ظهر إلى جانب مراد على عتبة غرفة الأكل. فهو سالم معافى، لكنه في حالة فرار. يقول البعض إنه في فلسطين، والبعض الآخر في لندن. في الواقع، لا أحد يعرف شيئاً.

تفحص فريد لطفي ابنه مشككاً. لم يكن يتصور نهاية مماثلة لهذا الأمير الذي قدم الشيء الكثير، والذي حارب طويلاً من أجل استقلال الأراضي العربية.

دعا الشابين إلى المائدة.

- تعال يا بني، تعال اجلس معنا. وأنت أيضاً، يا مراد. هل عرفتما التوقيت؟

سارعت أميرة إلى المطبخ.

- اصبرا خمس دقائق، يا ابنيَّ. سأسخن الكباب وأوراق الكرمة. ستلعقان أصابعكما.

- لن ننتظركما أكثر، لاحظت منى. بالي مضطرب.

- استبقانا ذو الفقار، ابن أخت زغلول. منذ أن عاد خاله من باريس مغلوباً، استسلم للأفكار السوداء. زغلول نفسه ليس أفضل حالاً. إذ لا يتحمل الرجل العجوز أنه أهين في مؤتمر السلام. وهو مريض جسدياً، رغم أن حزب الوفد الذي أسسه بدأ يخيف السلطان فؤاد.

علّق لطفي باي قائلاً:

- من المحزن أن يعامل بطل بهذه الطريقة! آه! هؤلاء الإنجليز ممقوتون!

رفع كفّه إلى السماء.

- إن شاء الله، تزهق أرواحهم جميعاً!

جلس مراد جنب منى، وتيمور على يمين والده.

استأنف هذا الأخير:

- تحدثت عن فيصل. إذن؟

- أطلق الفرنسيون، على لسان جنرالهم «غورو»، إنذاراً نهائياً للأمير لوضع السلاح. وكان فيصل قاب قوسين من الاستسلام، لكن رئيس أركان جيشه، العَظْمَة، رفض ذلك بشكل قطعي. وجمع على جناح السرعة جيشاً من الأنصار، يتكون من الجنود غير النظاميين والمتطوعين والبدو، لاعتراض سبيل القوات الفرنسية ومواجهتها في وادي ميسلون[1]. ومثلما كان منتظراً، انهزم العظمة وجيشه الهزيل في أقل من ساعة.

- وهو؟ ماذا حدث له؟ تساءلت منى.

- توفي خلال المعركة. قُتل.

---

(١) غير بعيد عن الحدود الحالية بين لبنان وسورية.

- قتل بطلاً، أكد تيمور. هذه هي السياسة البارعة والماكرة والظافرة التي يعتمدها معتوهو الإمبراطورية البريطانية! فهم يحبكون من سنوات دسيسة تربع فيصل على العرش، ليتركوا حلفاءهم الفرنسيين يطردونه!

عادت أميرة من المطبخ تحمل صحناً، وضعته على المائدة.

- هيا، يا أبنائي، انسوا كل هذه الأعمال الشنيعة لبضع لحظات، وتلذذوا بهذه الوجبة.

كشفت عن قصعة ممتلئة حتى النصف بالخيار، والياغورت المعطر بالنعناع.

- هل تعتقدون أنها ستكفي؟

- نعم، ماما. بوركت يديك. أرجوك، اجلسي الآن. يجب أن. . .

سمعت دقات قوية على باب الفيلا.

- ما هذا؟ اندهشت منى.

تصاعدت جلبة من المدخل.

- لطفي باي! نريد أن نرى لطفي باي! المصري الذي أغنى الإنجليز بقطن بلدنا!

انتصب الرجال الثلاثة دفعة واحدة.

- أيتها النساء! لا تتحركن من هنا وأغلقن الباب مرّتين! أمر لطفي.

هرع خارج غرفة الأكل. تبعه مراد وتيمور. ورغم احتجاجات الخدم، اقتحم عشرات الشبان يرتدون «جلابيات» المدخل.

أشار أحد الرجال، هو الزعيم بلا شك، إلى الزخارف بإشارة مستخفة.

- انظروا إذن أين تعيشون! ألا تخجلون؟

- نخجل؟ صرخ لطفي باي. مِمَّ أخجل؟ هل تظن أنني سرقت ما أملك؟ لا يا أستاذ. لقد كسبته بعرق جبيني!

- نعم، طبعاً! وعرق الفلاحين إذن؟ ماذا تفعل بعناء الأشقياء الذين يكدحون في حقول قطنك من أجل رفاهيتك وحماية اللوردات الإنجليز الصغار من البرد!

- أنت مخطئ، احتج تيمور. لو كان صحيحاً أن والدي يغتني ببيع القطن لإنجلترا، فهو يغني مصر أيضاً. ولو لم نملك حقولاً، أين سيعمل إخوتكم؟ أجيبوا؟

صاح صوت:

- لا تخجلون إذاً من أن تنعموا بالمآكل، بينما بلدنا يعاني وشعبنا يجوع!

أجاب لطفي باي ساخطاً:

- كلام *فاضي*! كما قال لكم ابني، رجال مثلي هم من يساهمون في نمو مصر.

- وبالنسبة إلينا؟ صرخ الزعيم. بالنسبة إلى من يكافحون من أجل الحرية، ماذا تفعل؟

تقدم تيمور خطوة وحدق في الشاب.

- أخطأت الهدف. يجب أن تقاتلوا الآخرين. أولئك الذين يضطهدون بلدنا. لا رجالاً مثل والدي. لا إخوتكم.

- نقاتل؟ بأي سلاح؟ بالأيدي الفارغة؟

- هل سعد زغلول مسلح؟ ومع ذلك، انظروا ما يفعله لصالح بلادنا!

هتف صوت:

- هو ذاك! الجسور بطلنا الوطني. انظروا كيف عومل في باريس!

تدخل مراد بدوره.

- لست مصرياً. أنا فلسطيني. أنتم لكم بطل، على الأقل. أهين، ربما، لكن لكم بطل. بينما نحن يتامى في الوقت الراهن. إذن، احمدوا الله على نعمه.

تفرس الشباب الغاضبون في بعضهم. ارتبكوا فجأة. ارتفع صوت لطفي باي، بنبرة جادة، شبه مهيبة.

- أنصتوا إلي. أنتم على حق. نعم، من المشين أن أواصل تغذية معامل النسيج الإنجليزية. ابتداء من الغد، أقسم لكم أمام الله: لن يُرسل ليف واحد من القطن المصري إلى مانشستر.

خيّم الصمت على مدخل البيت.

- أأنت... أنت جادّ، يا أبي؟ استفسر تيمور، غير مصدق.

- ما ليس جادّاً هو سؤالك.

نظر لطفي باي بازدراء إلى جماعة الشباب.

- عودوا الآن إلى بيوتكم. رافقكم الله. وتذكروا: الهائج لا يعثر أبداً على طريق قريته.

بظهره المحدودب قليلاً، انسحب إلى غرفة الأكل.

همس مراد في أذن تيمور:

- كن فخوراً، يا صديقي. لقد رأيت زغلولاً آخر هذا المساء.

*

بغداد، أغسطس/ آب ١٩٢٠

كانت طلقات نار تلعلع في الشوارع المجاورة.

كظمت الآنسة «جيرترود بيل» شتيمة. كانت تحمل قلم رصاص في يدها، ورأسها منكب على خريطة المنطقة. ألن تهدأ ريح العنف هذه أبداً؟

منذ بضعة أيام، تشهد مقاومة الوجود الإنجليزي اتساعاً لا نظير له. إذ تضاعفت المؤشرات التي تنذر بمواجهة شاملة خلال الأسابيع الأخيرة، لتصل أخيراً ذروتها أثناء الهجوم على ثكنة بريطانية. مثّل المؤتمر الذي جمع القوى المتحالفة في «سان ريمو» خلال أبريل/ نيسان بالتأكيد عنصراً من العناصر التي أشعلت شرارة هذه الانتفاضة، لأن خلاصاته أكدت مخاوف علماء المدن المقدسة، مخاوف مفادها أن الشرق الأوسط يتراءى مقسماً بشكل نهائي ورسمي بين فرنسا وبريطانيا العظمى، حيث صار العراق في حوزة الإنجليز. ومنذ إعلان هذا الأمر الواقع، بات الاستقلال وإخراج القوات البريطانية يمثلان صرخة لحشد المعارضين كلّهم.

أطلعت «جيرترود بيل»، القلقة من التصاعد القوي لهذه المقاومات، المندوب السامي «السير أرنولد ويلسون» على هذه المخاوف: «كيف نتفاهم مع سكان المدن الشيعية المقدسة وزعمائها، بينما تنحصر علاقاتنا في بعض الشخصيات التي يعادينا أغلبها؟» لم يلقَ سؤالها أي جواب.

كانت مساجد بغداد الكبرى تتحول، يوما بعد يوم، إلى مكان لحشد التظاهرات الداعية إلى الاستقلال.

خلعت «جيرترود» نظارتها، ودلكت أرنبة أنفها بلطف. كانت تشعر بالتعب. توجهت نحو النافذة المطلة على المدينة. استنشقت الهواء ملء رئتيها، كأنها أرادت أن تتشرب مسامّها كلها هذا الشرق الذي شغفها حبّاً. والحال أن لا شيء كان يقودها إلى العيش خارج إنجلترا، وليس بالتأكيد على تخوم فارس أو الهند، أو في العراق حيث تعيش اليوم، وهي التي رأت النور قبل خمسين سنة في قلب إنجلترا الفكتورية، بمنطقة باردة وقاسية في آن واحد.

انخرطت في مصلحة الاستخبارات سنة ١٩١٥ بفضل معرفتها

بالفارسية والعربية وتكوينها في علم الحفريات والخرائط. بعد ذلك، طلب «تشرتشل» بنفسه أن تساعد القبطان «تـ. إ. لورنس» في المكتب العربي بالقاهرة على توضيح مواقع وعقليات القبائل العربية التي بإمكانها التحالف مع البريطانيين ضد الإمبراطورية العثمانية. فهذه المعلومات الثمينة ستخدم «لورنس» في مفاوضاته مع العرب، خاصة مع شريف مكة.

ولا أحد يشك أنها استطابت وأدركت قيمة هذا الوجود الذي أتيح لها من خلال السفر وركوب الخيول والجمال، وقطع الصحاري، والعيش وسط البدو. هل من سعادة أخرى أكثر اكتمالاً؟ واليوم، تبدو الانتظارات أقل تحفيزاً وأكثر تعقيداً: رسم حدود بلد جديد يحمل اسم «العراق». لقد كوّنت مسبقاً فكرتها عن هذه الدولة التي ستكون ذات أغلبية شيعية في الجنوب، وأقلية سنية وكردية في الوسط والشمال. ولا مجال لمناقشة منح الأكراد دولة منفصلة إذا أردنا الحفاظ على مراقبة الموارد النفطية التي ترقد تحت ترابهم. الويل للأكراد! سينتظرون دورهم. ثم إن الأمر سيكون أقل سوءاً.

لم تنسَ «جيرترود» بعد توصية «تشرتشل» باستعمال غازات الخردل ضد هذه القبائل. «لا أفهم الاحتشام المبالغ فيه بخصوص استعمال الغاز، كتب كاتب الدولة في المستعمرات. لقد حسمنا في اتخاذ موقفنا، خلال مؤتمر السلام، بتقديم الحجة لصالح إبقاء هذا السلاح كوسيلة حربية دائمة. إنها لمهمة صرفة أن يتمزق الإنسان بشظايا مؤذية ناتجة عن انفجار قذيفة، وأن يختبر ضعف الإرادة بأن يذرف الدموع نتيجة الغاز المسيل للدموع. أنا أدعم بقوة استخدام الغاز السام ضد القبائل غير المتحضرة [. .]. يجب أن يكون الأثر الأخلاقي مثلما يجب أن يكون اختزال حياة بشرية إلى الحد الأدنى. فضلا عن ذلك، ليس من الضروري استعمال الغازات الأكثر فتكاً

وحدها، بل تكفي تلك التي تنشر رعباً رهيباً، ومن هنا لن تخلف أي آثار دائمة على الأشخاص المصابين»[1].

لا تشاطر «جيرترود» وجهة النظر هذه. يقينها الوحيد هو ضرورة تعيين السُنَّة حكاما للبلاد. علّمتها معرفتها بالإسلام أن الشيعة يظلون متدينين متشددين متجهمين، منحرفين لا يمكن السيطرة عليهم. وإذا حدث العكس، سيكون ثمة بلد ثيوقراطي خطير للغاية.

هناك من يطرق بابها.

دعت الغريب إلى الدخول.

سلّمها جندي ظرفاً، وهو يصفق كعبي حذائه.

- عاجل، كان تعليقها الوحيد.

إلى معالي المقيم الملكي الدائم في بغداد،

إذ نعاين حملات التقتيل التي تشنها طائراتكم على عدة أماكن من بلدنا، وإذ نستبق الرد بهذه الرسالة التي نوجهها إليكم، نعتبر أن نشر هذه الأخيرة في صحيفة *العراق*، في هذه الظروف، يستدعي رداً من جانبنا. فمن الغريب أن نرى أن الأحداث نطقت حتى قبل أن نصدر جوابنا. لقد عوّضتم وعودكم بالوعيد، والأمل بالخديعة، مستخدمين القوة، حيث نفيتم وقتلتم وسجنتم وطنيين، ودفعتم الشعب إلى الانتفاضة.

غالباً ما كرّر سلفي المرحوم آية الله الشيرازي، رحمة الله عليه، دعوته العراقيين إلى أن يحترموا النظام العام، وأن يطالبوا

(١) المذكرة الموجهة إلى مكتب الحرب بتاريخ ١٩ مايو/ أيار ١٩١٩. اقتباس في مارتن جلبرت، وينستون س. *تشرتشل*، لندن: هاينمان، ١٩٧٦، الكتاب الرابع، الجزء الأول.

بحقوقهم المشروعة بطريقة سلمية، وهي دعوة كررتها بدوري، وكان من المفروض أن تقدّروها. لكنكم بسلوككم، لم تجرحوا مشاعرنا فحسب، بل مشاعر المسلمين كلّهم.

لقد دمرتم البلد، وخالفتم جميع الضوابط، وانتهكتم قوانينه. إذ تترجم عدالتكم باغتيال الأبرياء وإعدامهم دون محاكمة. وفيما يتعلق بتسامحكم الديني، فهو يقتضي أن تهجم الطائرات والدبابات على نسائنا وأطفالنا، أو أن تعلن حالة الاستثناء ضد من يرددون الصلاة على النبي.

إنكم مسؤولون عن الكارثة الحالية، ولا نرى أي حلّ آخر بالنسبة إلينا، نحن العراقيين، سوى أن ننال استقلالنا الشامل ونرفض جميع أشكال التدخل والارتباط بالأجنبي. أما فيما يتعلق بأملكم في التفاوض، فإن غايته تبدو لي واضحة، ولا ثقة لي في نواياكم. فإننا لن نستجيب له.

كانت الرسالة موقّعة باسم الشيخ الأصفهاني، الشخصية الدينية ذات الصيت الذائع والكلمة المسموعة في الوقت الراهن.

دسّت الرسالة في ظرفها. وعادت لتجلس في مكتبها. فهذه الكتابات تكشف الضرورة العاجلة لتمزيقها. بالطبع، كان من الحيوي أيضاً أن تهدئ الأجواء. لكنها لتفعل ذلك، كانت في حاجة إلى عنصر أساسي يكمن في إيجاد سيد لهذا البلد مستقبلاً، شخصية مقبولة، بل ينتخبها العراقيون، وتكون في الآن ذاته «متعاونة» مع الحكومة البريطانية؛ باختصار، أن تكون دمية.

ثمة رجل واحد تجتمع فيه هذه الشروط، في نظر «جيرترود». إذ يجب أن تنقل الفكرة إلى المندوب السامي «السير أرنولد ويلسن»، دون أي تأخير.

غادرت المكتب، وهي تحمل خريطة العراق المستقبلية.

*

في بيت نضال، خلال اللحظة ذاتها

- شمس، يا بني، فيمَ تفكر؟ أراك منشغلاً منذ عودتك من سورية. لا تكاد تتكلم. عرفتك دائماً مفعما بالحيوية، مرحاً من وقت إلى آخر. اندسست في قوقعة، ويبدو أنك لا تريد الخروج منها.

شرب شمس كأساً مترعة بعصير الرمّان، ولزم الصمت.

حينها سمحت دنيا لنفسها بالتدخل:

- هل تعاني من مشكلة؟

تجرأت على تغيير الموضوع.

- إذا كنت لا تريد أن تتحدث مع والدك، فأنت تعرف أن عمتك المحبوبة هنا، أليس كذلك؟ يمكنك أن تبوح لي بكل شيء.

تمتم الشاب، وغيّر الموضوع:

- كيف تجري الأمور في سورية، الآن وقد سحق الفرنسيون العالم كلّه؟

- عندما كنت هناك، أي منذ أسبوعين، كان البلد في ذروة الغليان. إذ هدد المندوب السامي الوطنيين بأسوأ العواقب. لكنهم، في نظري، سيجعلون حياته لا تطاق.

- هل تنوين العودة إلى حلب؟

- بالطبع. مرحباً بك، إذا كنت ترغب في قضاء بضعة أيام هناك.

- لا، عمتي، أخيراً... لا أعرف. أريد فقط أن أكون مفيداً.

- ما الذي دهاك؟ استشاط نضال غضباً. تكون مفيداً؟ ألا تعتقد

أنك جُعلت مفيداً كثيراً، وأنت تقاتل في صفوف الأتراك، ثم في صفوف فيصل؟ كان من الممكن أن تموت.

- مفيد؟ أنا؟ كنت مجبراً على القتال في صفوف الأعداء، سواء تعلق الأمر بالأتراك أو بالأمير.

- الأمير عدوّ؟

- بالطبع! بقدر ما أثار فينا شعلة أمل، تبين أنه ليس سوى دمية بين أيدي صديقه «لورنس» والإنجليز. لا! لا تقل أبداً أنني جُعلت مفيداً.

- اهدأ، تمتم نضال. من غير المفيد أن تكون متوتراً.

- هيا، يا شمس، والدك على صواب.

- لكني أختنق! يحز في قلبي أن أبقى منعزلاً هنا، بينما إخوتي يموتون بالرصاص كل يوم. يحز في قلبي! في مصر، وسورية، وفلسطين، في كل مكان انتفض الناس ضد العبودية. وأنا؟ أنا، هنا، في بحبوحة العيش، أرتشف عصير رمَّان، وأعدّ تموجات النهر. هل هذا جدير برجل؟

- ألا يبدو لك استئناف دراستك والعمل بجانبي جديراً بما فيه الكفاية؟ أنتِ، يا دنيا، قولي له، اشرحي له أنه قد جازف بحياته. إنها لمعجزة أنه ما يزال بيننا. قولي له...

فتحت دنيا فمها، وهي تستعد للدفاع عن حجة أخيها، لكن شمس كان قد دلف إلى غرفته.

- لقد فقد عقله. همس نضال مذهولاً. ما الذي يتخيله؟ لم يتح للجميع أن يكونوا «غلغامش»![1]

---

(١) أسطورة من أساطير بلاد الرافدين. وهو بطل في سرود ملحمية عديدة أشهرها *ملحمة غلغامش*.

رفعت دنيا عينيها تجاه أخيها.

- أنت على حق. لم يتح للجميع أن يكونوا كذلك.

أضافت بصوت منخفض:

- إلا ابنك!!

القسم الرابع

(١٤)

يبقى رجال الكراهية على قيد الحياة،
ويموت المصالحون.

مثل أفريقي

القدس، ديسمبر/ كانون الأول ١٩٢٠

ظهر سليمان وأخته في باحة الحرم الشريف، «جبل الهيكل» كما يسميه المسيحيون، أو «هار هبيت» عند اليهود. فالقدس هي ثالثة مقدسات الإسلام بعد مكة والمدينة. القدس ابنة التمزقات جميعها، ومنبت العالم. ولم تصبح باحة الهيكل باحة للمساجد إلا بعد الفتح العربي سنة ٦٣٨م. حينها بُني صرح قبة الصخرة الساطعة مثل كرة من ذهب.

رفع سليمان عينيه نحو سماء الظهيرة كأنه يسعى إلى إدراك البراق، الذي جاء يبحث، ذات مساء من زمان مضى، عن النبي في مكة، ليسري به إلى هنا في القدس، ثم يعرّج به من القدس إلى السماء، قبل أن يعود إلى الأرض. لكن سليمان تفرس في زرقة السماء، قاعدة البراق. هل رأى الملك داوود، أو بالأحرى سليمان، ربما في انعراج سحابة؟

- أنا متعبة، تنهدت سامية. هل نتوقف قليلاً؟ ثم إنني أكلت كثيراً. بطني تؤلمني.

- اسمعي، همهم شقيقها، عمرك خمس عشرة سنة، وتتصرفين مثل صبية. قليل من الشجاعة، اللعنة! نوشك أن نصل. فبيت الجدّ ليس ببعيد. و...

- انتبه، أيها العربي! قليل من الاحترام! ألا ترى أني أصلي؟

- وأنا، ألا ترى أني أمضي، أيها الغريب!

- الأجنبي! لكن مع من تتحدث؟

ألقى سليمان نظرة مذعورة على الرجلين اللذين يتشاتمان.

- إذن، كرر اليهودي، وهو يسوّي نظارته، مع من تتحدث؟

- معك! غاصب الأراضي! الـ«غريب»!

- «اذهب إلى الجحيم»[1]. أنا في بيتي، هنا! هل تسمعني؟ في بيتي! كان أجدادي يعيشون في هذا البلد، بينما لم يكن أجدادك سوى غبار!

اكتسح شحوبٌ مخيف ملامحَ العربي. ارتمى على مخاطبه، فأسنده إلى حائط المبكى. تداعت قبضة يده. ضرب الرجل مرّات ومرّات. طارت نظارته. صرخ الرجل متألماً.

احتمت سامية المرعوبة بشقيقها.

- هيا، هيا، نبتعد.

سبق السيف العدل.

لم يَخْطُ خطوة حتى احتلّ المكانَ موجان بشريان متماثلان ومتقابلان. فوقع الصدام.

بدت أسباب هذا الجنون المفاجئ غير مفهومة، من نظرة محايدة. هل يتقاتلان من أجل حائط أحجار؟ أو من أجل قبة؟ أو مسجد؟ أمر غير مفهوم بالطبع، لكن من نظرة محايدة فقط.

---

(١) التعبير ورد في النص الأصلي باللغة اليديشية: (Gai in drerd arein).

لم يكن الشارع، الممتد على طول حائط المبكى سوى طريق مسدود طوال عقود، إن لم نقل قروناً. لا أحد كان يجازف بنفسه فيه من دون سبب جيد، إلا بعض اليهود القلائل الذين يؤدون شعائرهم فيه. ومع تدفق القادمين الجدد، اكتسب هذا المكان قيمة رمزية، حيث يجسد الزمن الذي كانت فيه القدس مركز اليهودية.

غير أن الفلسطينيين أزالوا الحاجز، منذ بضعة شهور، ليحولوه إلى زقاق يسمح بالمرور، ولم يمتنعوا عن تنظيم مرور العربات والحمير، وهو تطفل اعتبره المصلون إهانة.

واليوم، تختلط الجلابيات والكوفيات بالكِيباهات والقبعات السوداء. الهراوات، والأحجار.. كانت الأيدي تبحث عن كل ما يصلح سلاحاً. ها هو الإنسان يعود إلى زمن الكهوف. صياح، زعيق، عجيج باليديشية، أو البولونية، أو الأوكرانية، أو الروسية، ولعنات بالعربية.

فهم اليهود القلائل الذين يعرفون النزر القليل من العربية أنهم ينعتون بـ«لصوص الوطن» و«الكفار».

بدأت النساء يصرخن، وفرّت أخريات لإنذار الشرطة الإنجليزية. عمّ الشجار. لم تكن باحة المساجد الشريفة سوى مسرح لجنون البشر.

أطلقت سامية صرخة، ورفعت يدها إلى جبهتها. دمٌ ينزّ، ملطخا فستانها وملابس سليمان بلطخات حمراء قانية.

- أنتم مجانين! صاح الفتى.

تناول يد أخته، محاولاً شقَّ طريق وسط الهائجين. لكنه ما كاد يقطع بعض الأمتار، حتى وجدا نفسيهما طريحي الأرض. امتدت إليهما يدان، لتساعداهما على النهوض. متى؟ لا يعرف.

- اتبعاني! لا تخافا! اتبعاني! بسرعة! تعرف سليمان على يوسف مرقس.

التصقت به ابنته إرينا. كانت ترتجف. شقّ اليهودي بمرفقيه الطريق أمام الطفلين وسط الأطياف الهائجة.

رأت سامية، وهي تمر فوق بسطة عامرة بالتوابل، في لمح البصر طفلاً يفترش الأرض، حدقتاه تتسعان بسبب الخوف، وركبتاه مثنيتان تحت ذقنه، وهو ينظر إليهما. أطراف ملابسه صوفية تشبه الأهداب.

صوت يصرخ: «صامويل! أين أنت، يا صامويل؟ صامويل؟»

لم يتحرك الطفل. ذراعاه وقدماه مضرجة بالدماء.

*

تدخلت الشرطة في حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف.

وفي الساعة الثانية بعد الزوال، كانت رحى المعارك تدور في القدس كلها.

وفي الساعة الثالثة بعد الزوال، منع التجول. لكنه يستقر في القلوب.

- هل أنت بحال أفضل؟ سأل مرقس.

أومأت سامية الممددة على الأريكة برأسها أي نعم. رمقت الطبيب الذي وضع للتو ضمادة على جبينها. خطر في بالها أنه يشبه ديسماً.

لم يستطع سليمان، الجالس على قدميه، تهدئة نبضات قلبه. ها هي أكثر من ثلاث ساعات مضت وهما في مأمن داخل هذا البيت بحي «حوربا». دنت إرينا منه، وتناولت يده.

- يجب ألا تخاف بعد الآن.

جاهد سليمان ليبتسم.

- ستشعر بالألم في الرأس خلال المساء، قال الطبيب، لكنه سيصبح غداً مجرد ذكرى سيئة. وإذا كان لي من نصيحة أقدمها، فيجب أن تمضوا الليل هنا.

- شكرا يعقوب.

- ووالداي؟ تساءل سليمان جزعاً. وجدّي وجدتي اللذان ينتظراننا!

- لا تقلق. سأخبرهما. أما حسين ونادية، فإنهما لن يعرفا طالما أنه من المفترض أن تكونا عند جدّيكما.

- أنت مجنون![1] قال يعقوب مذعوراً. تنوي الخروج رغم منع التجول؟

- ها قد مضى زمن طويل منذ أن تعلمت، أنا اليهودي الطيب كيف أتسلل بين القطرات!

تساءل وهو يستدير نحو سليمان:

- أين يسكن جداكّ؟ آمل ألا يكون مسكنهما بعيداً جداً.

- لا. إنهما على بعد خمسمائة متر. وراء حي حوربا. شارع ابن الخطاب. الباب على يمين تاجر الفوانيس.

- جيد. سأذهب إلى هناك. أنتم في آمان مع الدكتور «مالر».

- احترس يا يوسف، نصح يعقوب. الإنجليز لا يمزحون!

جلس الطبيب قرب سامية، وفحص توقف النزيف تحت الضمادة. بعد أن اطمأن، داعب خدّها بلطف.

- نجوت يا جميلتي «ميديليه». آمل أن يلقى القبض على من فعل بك هذا.

---

(١) جاءت العبارة في النص الأصلي باللغة اليديشية (bist meshigeh) (المترجم).

- «ميديليه»؟

- إنها اليديشية، شرحت إرينا.

- اليديشية؟ اندهش سليمان. أنت إذن من البلد نفسه مثل السيد مرقس؟

- لا، شرح يعقوب. هو ولد في بولونيا. أنا في مدينة لايبتزيغ الألمانية.

- وتتكلمان اللغة ذاتها؟

بدأ يعقوب مالر يضحك.

- لا. أنا أتحدث الألمانية، وهو البولونية. اليديشية هي لهجتنا المشتركة. خليط من الألمانية والعبرية والسلافية.

- هل عدد الذين يتحدثون بهذه اللهجة... كبير؟

- آه نعم! أجابت إرينا. عدة ملايين!

كرر سليمان، مندهشاً:

- هل تقولين الحقيقة؟

- ربما ثمانية أو تسعة ملايين. الحق يقال، إننا لا نعرف أي شيء. لماذا هذا الاندهاش؟

- هه.. أخيراً، لم أكن أعتقد أن هناك هذا العدد من اليهود في العالم. هل تظن أنهم سيستقرون جميعهم هنا، في فلسطين؟

- ماذا تتصور؟ لماذا سيأتون؟ لهم بلدانهم. أغلبهم لا يملكون أية رغبة في مغادرتها. فهم بخير في بيوتهم.

كاد اليافع يرد: «والحال أنكما أنت والسيد مرقس جئتما؟» لكنه ظن أن الجواب غير مهذب. فضلا عن ذلك، وكما شرح له والده، كان للمهاجرين الذين اختاروا الاستقرار في فلسطين «أسباب جدية».

- الدكتور مالر، سألت سامية، لماذا يضع الأطفال اليهود أطرافاً صوفية على ملابسهم؟

- أطراف صوفية؟ آه! نعم، أرى. يسمونها «تسيت - تسيت»[1]. إنها. . . (بحث عن تفسير بسيط). . . لنقل إنها نوع من التذكير الذي أوصى الربّ أن يحمله أبناء إسرائيل، حتى يتذكروا وصاياه.

وافقت البنت على رأيه. أغمضت عينيها. شعرت أن النوم يغالبها. كانت آخر فكرة راودتها: لماذا لا يحمل أبناء المسلمين أيضاً تذكيراً؟

*

في اليوم التالي، أعلن عن مقتل أربعة مسلمين وثمانية عشر يهودياً، وجرح ثمانين. وتفيد المعلومات، التي سربها المحتل البريطاني، أن «اشتباكات بسيطة وقعت بين بعض المتحمسين في القدس، بمناسبة أداء فرائض يهودية في حائط المبكى». غير أن مسافرين عابرين أكدوا ما حدسه الناس: المواجهة كانت أكثر عنفاً من مزاعم الجرائد.

عندما رافق يوسفُ سليمانَ وسامية إلى حيفا، كان يسود هناك توتر ظاهر.

- آه! يا يوسف. يا لها من مصيبة! اشتكى حسين. أتعرف أن الإنجليز قرروا إنشاء مراكز مراقبة على أبواب المدينة لمنع دخول السكان أو خروجهم؟ لا يمكننا أن نتجول بعد السادسة مساء.

كرر القول:

- آه! يا يوسف. يا لها من مصيبة!

اكتفى يوسف بأن رفع عينيه إلى السماء متفجعاً. استأنف حسين:

- زد على ذلك، سمعتهم يقولون إن اليهود اشتكوا من كونهم لم

---

(١) Tsit - tsit.

يحظوا بحماية كافية خلال المواجهات، ويؤكد المسلمون أن الشرطة الإنجليزية كانت منحازة، لأنها تضم في صفوفها العديد من المجندين اليهود.

- يا صديقي، أنا أيضاً مضطربٌ مثلك. لو بدأت هاتان الطائفتان تقتتلان على أرض مقدسة مثل هذه حيث نعيش، فماذا سيبقى من خير في هذه البشرية؟ لا شيء!

*

القاهرة، ١٧ يناير/ كانون الثاني ١٩٢١

تناول مراد يد منى، وطبع قبلة على باطن راحتها.

- أحبك.

ظلت صامتة. لكن عينيها كانتا تنطقان بالجواب. عارية تمطّت على السرير فاترة الهمة، لتحتمي بجسد مراد من جديد.

- اشتقت إليك، حبيبي.

- لكنني لم أغب إلا أسبوعاً واحداً. كان علي أن أرى أبويّ. تعرفين ذلك جيداً.

- أعرف. لكن كلما ذهبت، أشعر أنك لن تعود أبداً. أحبك كثيراً.

التفّت بجسد حبيبها.

- قبّلني، أشتهي ذلك.

عندما همّ بتقبيل شفتيها، ثارت جلبة جعلتهما ينتفضان.

- ما هذا؟

- لا تقلقي. لا شك أن الجيران يدخلون إلى بيتهم.

- هل أنت متأكد ألا أحد يملك مفتاح هذه الشقة؟

- لا أحد، وحتى صديقي، طالما أننا نضع المفتاح على العتبة

العلوية عندما نغادر. كان من المفروض أن تطمئني منذ أن بدأ يعيرنا هذا المكان.

- صحيح. ليس بوسعي أن أفعل أي شيء. تصور لو علم والداي بالأمر...

- حياتي، توقفي عن القلق. لن يعرفا أي شيء. فضلا عن ذلك، ألسنا خطيبين؟ ألست زوجتي؟

- بلى، لكن ليس في نظر المجتمع، وبشكل أقل في نظر والدي. يمكنني...

لم تكمل جملتها. دسّ مراد يده بين فخديها. لم تقاوم. تحول نهداها وبطنها وذراعاها إلى أجمة هائجة فوقها كانت عاصفة جليلة توشك على الانفجار.

وفي وثبة محمومة، تخلصت من عناق عشيقها، واعتلته. تناولت قضيب مراد بين أصابعها الملتهبة، وأولجته في أحشائها، بارتباك طبيعي، رجولي، موجه.

كانا ما يزالان يبحثان عن إشباع رغبتهما، عندما ارتفع أذان صلاة العصر من الصوامع. كان الوقت يدنو من الساعة السادسة والنصف مساء.

- آه، على رسلك! تعجب مراد، مذعوراً. سيتساءل والداك أين كنّا.

قفز خارج السرير بحثاً عن ملابسه، بينما ظلت منى جامدة، تنظر إلى السماء عبر النافذة.

- حبيبتي، ماذا تفعلين؟ يجب أن نعود.

لم تُجب.

- ما بك؟ ألست بخير؟

- أنا بخير. لكن أمامنا مشكلة، يا مراد.

- نعم؟

أعلنت:

- أنا حامل.

*

باريس، ٢٨ يناير/ كانون الثاني ١٩٢١

فحص «جان فرنسوا لوفون» الوثائق لآخر مرة، ورفع عينيه نحو من بات، منذ يومين، يحتل منصب وزير شؤون فرنسا الخارجية: «أريستيد بريان».

«بريان» هذا شخصية هامة. هو في التاسعة والخمسين من العمر، جبهته عريضة، والشفة العليا تتقنع خلف شارب كثٍّ، ينبعث من وجهه إحساس بالقوة والسخاء.

- إذن، السيد لوفون، ما رأيك؟ تساءل، وهو يشبك اليدين فوق مكتبه.

- أرى أن تقسيم المنطقة إلى وحدات إدارية يفرض نفسه، إذا أردنا التحكم في الوضعية.

- أجل. لقد تحدثت في ذلك مع الجنرال «غورو». يمكن أن نتصور تقسيماً من ثلاث دول، بموجبه تنتقل مساحة سورية من ثلاثمائة ألف كيلومتر مربع إلى مائة وخمسة وثمانين ألف كيلومتر مربع، وهي مساحة تسهل مراقبتها. وباستنادنا إلى الطائفة المسيحية المارونية، ستتكون الدولة الأولى من «لبنان الكبير». وستضم فضلاً عن البلد المسيحي التقليدي منطقةَ بيروت، وسهل البقاع، وطرابلس، وصيدا، وصور، طبقا للآمال التي عبر عنها المسيحيون الحريصون على «بقاء» الدولة اللبنانية المستقبلية. إذ سيضمن هذا التقطيع الترابي أغلبية طفيفة للساكنة المارونية.

- بالطبع، سيعترض عليها المسلمون السنة، المرتبطون بدورهم بفكرة «سورية الكبرى» التي تحتوي طبيعياً الأقلية المسيحية اللبنانية.

- لا يمكننا أن نرضي الشيطان والرب الجميل في آن واحد.

- هل نمنح هذه الدولة استقلالها؟

- ليس في الوقت الراهن. لنترك لها وقتاً تنضج فيه. تبدو لي خمس أو ست سنوات أجلاً مقبولاً.

- أشرت إلى ثلاث دول.

- الثانية هي دولة حلب، التي تتكون أساساً من مدينة حلب ومنطقتها. والثالثة هي دولة دمشق التي ستضم أساساً مدينة دمشق ومنطقتها. هكذا، سينزع من سورية لبنان وفلسطين؛ ومن ثمة، ستسهل إدارتنا لها.

- فلسطين، دمدم «أريستيد بريان». لنتحدث عنها. لقد تابعت مثلي، كما أتصور، التطورات الأخيرة. ما رأيك؟

- قنبلة موقوتة.

- إنه رأيي أيضاً. إذا أصرّ أصدقاؤنا الإنجليز على إرادتهم بإنشاء هذا الوطن اليهودي، فإني أسمح لنفسي بتخيل ما سيجري هناك.

ارتبك صوت الوزير قليلاً، وهو ينطق بهذه الكلمات الأخيرة. لقد كان يحلم، في سريرة نفسه، أن تنتهي هذه النزاعات جميعها، بالاستناد على التنظيم الجديد الذي أنشئ خلال مؤتمر السلام سنة ١٩١٩، والذي سمي بـ«عصبة الأمم». فكرة حالمة! غير أن الرجل أنجز بعض الأعمال، لم ير أحد أنها قابلة للتحقق. لقد نجح في أن يضع، بين جملة أمور أخرى، اتفاق عمل بين الجمهورية العلمانية والكنيسة، واضعاً بهذا حداً للمواجهة التي دامت نحو خمس وعشرين سنة بين نظرتين إلى فرنسا: واحدة كاثوليكية ملكية، والثانية جمهورية وعلمانية.

إحدى عشرة سنة قبل ذلك، ورغم أنه اشتراكي مقتنع، تحلى بالشجاعة أيضاً أن يواجه الموظفين بخصوص مسألة حق الإضراب، فسحق تحركاً مهماً للسكك الحديدية في الغرب.

استأنف الكلام.

- أود أن تعود إلى سورية. واعرض على «غورو» رؤيتك إلى الأشياء. قل له على الخصوص إنني أشاطرها. سأكتب لك رسالة في هذا الاتجاه. سيكون مفيداً أن تقوم بجولة في العراق. وانظر في إمكانية التعامل مباشرة مع الإنجليز في قضية البترول. فأنت على علم بمعاملاتهم، بالطبع.

أجاب «لوفون» بالنفي.

أوضح «بريان»:

- تعتزم شركة النفط الإنجليزية - الفارسية، التي تفاوضت مع الشاه لتقديم تنازل يخول لبريطانيا العظمى التحكم في الاحتياطات الإيرانية طيلة ستين سنة مقابل ١٠ آلاف جنيه استرليني، إذن، إنشاء شركة نفطية توحد شركات منافسة عديدة ستحلُّ محل شركة النفط التركية، قصد استغلال الحقول في شمال كركوك. تعرف، يا عزيزي، أنه ليس واردا أن يتجاوزونا مرة أخرى! لقد أعطى مؤتمر «سان ريمو» بريطانيا الحق في المراقبة الدائمة لجميع الشركات التي أنشئت قصد تطوير النفط العراقي، حيث طالبنا بالحصص الألمانية من شركة النفط التركية التي حجرت منذ سنتين باعتبار أنها في ملكية العدو. ومن الحيوي أن نحصل على هذه الحصص. وستمنح نسبة ٢٣ في المائة التي تمثلها لشركة النفط الفرنسية[١].

---

(١) الشركة التي تحولت إلى «طوطال».

لم يكن بوسع «لوفون» سوى الموافقة.

غير أن الباعث الوحيد على الارتياح، الذي احتفظ به من هذه المناقشة، كان بعيداً جداً عن القضايا المطروحة: سينتهز الفرصة للقاء دنيا من جديد، عندما يعود إلى الشرق.

(١٥)

لن يدمر الأشرارُ العالـمَ، وإنما أولئك الذين يشاهدونهم ولا يتدخلون.

ألبرت أينشتاين

القاهرة، أول فبراير/ شباط ١٩٢١

- حامل! ابنتي حامل؟

- تعرفين، يا أمي، إنها الأمور التي تحدث في سن الحادية والعشرين.

- ماذا؟

تحولت عينا أميرة.

- كيف تجرؤين على المزاح؟ أمازلت قادرة على التفكُّه؟ يا لك من ابنة! ستقتلينني، بل أصبتني في مقتل!

شبكت يديها على صدرها. أمالت رأسها إلى الوراء، متظاهرة بالاختناق. هل كانت تختنق فعلاً؟

- هيا، يا أمي، أين تكمن المشكلة؟ سنقدم موعد الزواج. هذا كل شيء! لِمَ تضعين نفسك في هذا الوضع؟

- لِمَ؟

صفعتها مرات عديدة.

- لِمَ؟ لَمْ أضع نفسي في هذا الوضع؟ والدك! الأصدقاء! العائلة! تعتقدين أنهم لن يعلموا بالأمر؟

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أنك... حامل (شهقت مرة أخرى، بالكاد نطقت الكلمة) منذ شهر. حتى إذا تزوجت مساء اليوم، فإنك ستضعين خلال ثمانية أشهر! كيف سنفسر الأمر؟ همم؟ قولي لي؟

- لست أول أو آخر امرأة تضع قبل الموعد. ليس هناك ما هو استثنائي.

- لا! بالطبع! إنما لن تتزوجي مساء اليوم، وليس قبل ثلاثة أو أربعة أسابيع في أحسن الأحوال.

- أربعة أسابيع؟ إنه العبث! يمكننا أن نتزوج في غضون ثمانية أيام.

- أنت مجنونة! لابد من الاستعداد للزفاف! يجب أن نحجز القاعة، وأن نستدعي الأوركسترا والراقصة، وأن نطلب التغذية وصواني الحلويات، وأن نطبع بطاقات الدعوات و...

- لا! سنحتفل بالزفاف في سرّية تامة. لا راقصة، ولا أوركسترا!

انهارت أميرة على كرسيها، وأغمي عليها. هذه المرة، لم تتصنع إغماءتها.

*

بغداد، ٢٠ مارس/ آذار ١٩٢١

تشبه إقامة نضال.الصافي قفيراً. هنا اجتمعت خمسون شخصية، فتردد على كل لسان الاسم نفسه، مثل لازمة: *فيصل*، *فيصل*، *فيصل*...

يومان قبيل ذلك، وعند نهاية مؤتمر حول الشرق الأوسط في القاهرة دعا إليه تشرتشل لغاية وحيدة هي تنظيم المنطقة لصالح إنجلترا[1]، راج خبر صاعق: عين الإنجليز الأمير فيصل ملكاً على العراق، بينما منحوا أخاه البكر عبد الله لقب أمير الأردن، الجزء الفلسطيني الواقع شرق نهر الأردن.

وتبين أن الأمير عبد الله ماكر أكثر مما كان يظنُّ الإنجليز. إذ قبل بهذه المملكة القريبة من مملكة شقيقه، مع حشد كبير من المستشارين الإنجليز الذين يزعمون التحكم بكل شيء. قبل بها بشرط واحد: أن يحرّم هذا الإقليم على الهجرة اليهودية. وقد وافق تشرتشل على ذلك. قسمت فلسطين إلى قسمين، ففضح الصهاينة الخيانة.

لم يتخيل جان «فرنسوا لوفون»، الذي وصل البارحة، أنه سيجد نفسه أيضاً غارقاً في قِدر فائر.

- إنهم يمارسون دائماً سياسة التقسيم القديمة، هاجم شيخ سني جالس على يمينه.

تلت هذا التصريح همهمات استحسان ووجوم. كان العراقيون يرتابون في هذا الملك الذي سيدخل بغداد على متن الشاحنات الإنجليزية.

شيء طريف. لاحظ «لوفون» أن النقيب عبد الرحمن الكيلاني كان من بين القلائل الذين يلتزمون بالهدوء، بل يعلنون بعض التفاؤل. جلس قرب ابن أخيه رشيد، واكتفى بالإنصات، أو الترنح، أو التمتمة بين الفينة والأخرى. ولم يفهم ما إذا كان ذلك يترجم موافقته أو العكس.

---

(١) هو المؤتمر الذي أطلق عليه تشرتشل بنفسه «مؤتمر اللصوص الأربعين».

فجأة، زجر عالم الدبلوماسية الفرنسي:

- هل تدرك شيئاً ما من اختيار الإنجليز؟ لِمَ فضلوا فيصل على شخصية عراقية؟

- على كل حال، تهكم «لوفون»، فهم مدينون له بهذا بعد الجهود التي بذلها في مواجهة العثمانيين، والإهانة التي تحملها في دمشق.

- أهو السبب الوحيد؟ استفسر رشيد الكيلاني. أنا مندهش.

- ثمة سبب آخر، فعلا. فالأمير تجمعه علاقات جيدة مع البريطانيين ومع عدد منكم أيضاً. ومن هنا، يمكنه - كما يأمل على الأقل - أن يكسب دعم الشعب، مع الحرص على مصالح إنجلترا.

- إنه إذن رهينة يجري الاستعداد لتوليته العرش! هتف شمس، ابن نضال الصافي.

- ألم يختره في آن تشرتشل، وصنيعة هذا الأخير، السيدة «جيرترود بيل»، و«لورنس»؟ إنه أمر محزن، لكن يجب أن تعد وجبتك بما تبقى من حبات الفول. فضلا عن ذلك، يعتبر العزيز تشرتشل هذا الأمر مفروغاً منها. ففي هذه الساعة التي نتحدث فيها، نزل القدس من أجل السعي إلى حل معضلة أخرى بطريقته، معضلة أكثر تعقيداً من هذه.

حجبت جلبة كلمات الفرنسي الأخيرة، فكان على النقيب التدخل حتى يعمّ الهدوء.

- اسمعوا، قال الشيخ. عندي لكم خبر هام. لم أكن أفكر في فعل ذلك على الفور، لكن أمام اضطرابكم، أظن أن وقته قد حان.

توقف لحظة، كأنه يجس أثر كلماته، ثم:

- التقيت السيدة «بيل» والمندوب السامي «السير بيرسي كوكس»، بطلب منهما. تحدثنا طويلاً، وبكل صراحة، عن

المستقبل. يجب أن أعترف أن مشاريعهم الجديدة التي تحظى بدعم فيصل لم تسؤني.

ردّد الجمع.

- مشاريعهم؟

- أية مشاريع؟

نطق النقيب الكلمة، فاصلاً بين مقاطعها بمهابة:

- *الدَّ - م - قرا - طية*.

حذق الرجال في بعضهم بعضاً، حيارى.

- نعم، كرر عبد الرحمن، *الدمقراطية*.

تساءل «لوفون» خجلاً:

- تقصد «الديمقراطية»؟

- تماماً. لقد طمأنني «السير بيرسي كوكس» والسيدة «بيل» عن مستقبل بلادنا. إذ لا تنوي بريطانيا بتاتاً أن تضع ملكاً قوياً على رؤوسنا. لا. فالعراق سيكون *دولة دستورية ديمقراطية*. (شدد على الكلمات الثلاث الأخيرة). وسأكون الوزير الأول.

أشار بسبابته إلى شخصية حاضرة، رئيس قبيلة الشمر:

- قل لي، يا أخي! أأنت دمقرطي؟

بدا الكدر على الشمري.

- والله، لا! لست مقرطي[١]. ما هذا؟

- سأكون شيخ *الدمقرطية*! حسبي الله ونعم الوكيل.

- إذا أصبحت شيخ *الدمقرطية*، يجب أن أنتمي إليها أيضاً، لأنني رهن إشارتك.

كرّر البدوي سؤاله:

---

(١) تحريف البدوي لكلمة «دمقرطي».

- لكن ما هي؟

- *الدمقرطية* هي المساواة. المساواة؟

تبادل الرجال نظرات مرتبكة.

- شرحت لي السيدة «بيل» أنه ليس في *الدمقرطية* رجال كبار وصغار، كلهم متساوون، في مستوى واحد.

- متساوون؟

كان الشمري قد أصبح ممتقعاً.

- يشهد الله عليّ، قال مستشعراً أن سلطته على قبيلته تفلت منه، أنني لن أكون مقرطياً أبداً إذا كان الأمر هكذا[1].

كان «لوفون» يختنق. خرج إلى الشرفة.

هكذا، أخرج الإنجليز الكلمة السحرية من برنيطتهم: *الديمقراطية*. كانوا يحاولون أن يبيعوا هؤلاء الرجال، الذين يعرفون القراءة والكتابة فقط، الفن السامي في حكم أمة ما.

ترى لِمَ فجأة فكر من جديد في الاقتباس البليد: «في عالم بلا كآبة، تتجشأ العنادل».

لمن هو؟ في كل الأحوال، ليس اقتباس السيدة «بيل».

*

القدس، في اليوم التالي،
مقر المندوبية السامية

اتخذ حسين وابن خاله لطيف، اللذان كانا في منتهى الأناقة، مكاناً بين أعضاء الوفد الفلسطيني، مسلمين ومسيحيين معاً.

---

(١) *Letters of Gertrude Bell*، الجزءان الأول والثاني، نشرت الرسائل سنة ١٩٢٧ في لندن ضمن منشورات «إ. بين». وقد ورد هذا النقاش في الجزء الثاني، بتاريخ ٢١ أغسطس/ آب ١٩٢١.

تربع «وينستن تشرتشل»، الذي جلس قرب الحاكم «السير رونالد ستورز»، على طاولة مستطيلة ضخمة يغطيها لباد أخضر للمناسبة. وجهه بدين نضر. عيناه زرقاوان جاحظتان. سيجار بين شفتيه. جيده أسير ربطة عنق. كان الرجل يمثل تعارضاً جذاباً مع الشخصيات المصطفة أمامه: نيافة «سيّور» الكلداني، نيافة «أودو» الماروني، نيافة «أمزيان» المطران الأرميني. وعلى يمينهم جلس المفتي الحاج أمين الحسيني. جامد الوجه، بارد الأعصاب. ثم إمامان، وأخيراً النشاشيبي عمدة القدس.

تساءل حسين، الذي لم يكفّ عن التحديق في كاتب الدولة في المستعمرات منذ دخوله القاعة، ما إذا كان بمقدوره التفكير في هذه اللحظة بالذات. في مستقبل هذه الأرض؟ في التخلي عن مشروع إنشاء وطن قومي يهودي؟

في الحقيقة، لو كان الفلسطيني قادراً على فك شفرات أفكار مضيفهم، لربما قرأ ما يلي: «عرق آخر. لن نستطيع أبدًا الاختلاط بهؤلاء الناس».

بعد التحيات المألوفة وخطابات الترحيب، تناول عميد البطاركة نيافة «سيّور» الكلمة:

- ليعلم سيادتكم أننا لا نكنّ أية عداوة لليهود. فإذا كانوا يأملون أن يأتوا إلى فلسطين ضيوفاً أو لاجئين، فمرحى بهم. لكننا لن نقبل بفكرة أن نرى أرضنا تتحول إلى وطن قومي يهودي. لن نقبل بها أبداً.

هزّ تشرتشل رأسه، وهو يلوك سيجاره.

- هل أفهم أن مسيحيي فلسطين يُعدُّونَ عَرَباً؟

أجاب نيافة «سيّور» دون أن يقف:

- السيد الوزير، ليس هناك عداوة بين المسيحيين والمسلمين.

وقد كشفت عن ذلك القرون الماضية. ولم تكن هناك أبداً عداوة بين اليهود والعرب أيضاً. هل أذكركم بالزمن المبارك في قرطبة وغرناطة؟

حرّك تشرتشل حاجبيه، متسائلاً بلا شك عن ورود إسبانيا في هذه القصة.

وقف المفتي فجأة:

- السيد الوزير، إذ شككتم في ذلك، فقد جاء في سورة العنكبوت من القرآن العظيم، الآية السادسة والأربعين: «وقولوا أمنّا بالذي أنزل إلّينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون».

ارتجف صوته، وهو يضيف قائلاً:

- هل تسمحون بأن نقرر، نحن الفلسطينيون، مصير إنجلترا بدل الإنجليز؟ هل تسمحون بأن نقرر، نحن العرب، أن نمنح جزءاً من مملكتكم للغرباء؟

لم يكن هناك جواب.

تابع المفتي:

- لا الأساطيل، ولا الجيوش قادرة على احتلال قلب أمة، لكن إنجلترا قادرة على احتلال قلوب العرب، إن هي ضمنت لهم وحدة بلدانهم. ستدخر بذلك ملايين الجنيهات التي تنفقها من جيوب دافعي الضرائب على جيوشها العرمرم. فإذا جاء الصهاينة إلى فلسطين زواراً بسطاء، فلن تطرح مشكلة اليهود أو غير اليهود. إننا نتمرد ضد فكرة نقل جزء من فلسطين إلى اليهود. فيهودية اليهودي لم تثر أبداً عداوة العرب. إذ كان اليهود يتمتعون، قبل الحرب، بجميع حقوق المواطن وامتيازاته. فالمسألة إذن ليست دينية.

مال تشرتشل بحذر نحو الحاكم «ستورز»، وتساءل:

- ما هي السورة التي أشار إليها؟

- العنكبوت، سيدي. أعتقد أنه تحدث عن العنكبوت.

بدا أن العنوان أربك تشرتشل. أمر الحاكم: «سجلها، لكل غاية مفيدة». ثم أضاف محترساً: «سأتحدث عنها مع الكولونيل «لورنس» ما أن أعود إلى لندن. بالمناسبة، هل تعلم أنه وُشّح بوسام الحمام؟»

حرك «ستورز» رأسه. تجاهله.

كما تجاهل أن «لورنس» أثار عند عودته إلى لندن فضيحة برفضه الوسام الذي منحه إياه الملك جورج الخامس، تاركاً العاهل مندهشاً، والوسام بين يديه. صدم الملك! هكذا صاحت المحكمة والسلطات. هل استنفدت شمس الصحراء إذن روح هذا المغامر؟

لم تكن المحكمة ولا السلطات قادرتين على معرفة الجلبة الهادرة في رأس الملازم السيء الحظ الذي رفض جميع المكافآت على «نجاحه في النصب»[1]. قبل أن يعود إلى إنجلترا، تجرع مرارة المهانة. إذ طرده الأمير حسين شريف مكة من خيمته، بعدما حلّ بجدة مكلفاً بمهمة تأمين احتفاظ الأمير بمملكته في الحجاز، إن هو تخلى عن زعمه بأن له حقوقاً على البلدان الإسلامية. ففي نوبة حماس متقد، أعلن والد فيصل نفسه فعلاً أميراً للمؤمنين، وهو اللقب المهيب الذي لقب به هارون الرشيد. لكن جرأته في هذا الإعلان جرّت عليه عقاب الوهابيين وآل سعود. وهكذا، اصطدم الإعلان بعرض الحائط. ولم يعد الأمير حسين يريد أن يسمع أي شيء من هذا الإنجليزي الذي يبتكر السراب أكثر مما تفعله الصحراء نفسها.

عاد «لورنس» إلى العاصمة الإنجليزية منكسر الخاطر. فالمملكة العربية الكبرى، التي طالما عمل من أجل إقامتها وأمل أن يعهد بها لفيصل، اختزلت في العراق. وسلّم الإنجليز سورية للفرنسيين.

---

(١) *Les Piliers de la sagesse*, T. E. Lawrence.

وعاجلاً أو آجلاً، ستصبح فلسطين بين أيدي الصهاينة. طيلة سنوات، نذر نفسه للعرب، فاكتسب ثقتهم، ووعد بنصرتهم. لكن الإنجليز تراجعوا عن وعده. فتدنّس شرفه. كيف كان ساذجاً إلى هذا الحد؟ لا. لم يكن غرًّا أبداً. سيكتب فيما بعد: «منذ البداية، اتضح أننا إذا انتصرنا في الحرب، ستبقى التزاماتنا حبراً على ورق، وسنكون صادقين إن نصحنا العرب بالعودة إلى ديارهم، وألا يجازفوا بحياتهم من أجل وعود كاذبة، لكن كنت أمني نفسي بأمل قيادة هؤلاء الناس إلى النصر النهائي ووضعهم، وهم مدججون بالسلاح، في موضع آمن جداً، إن لم يكن مهيمناً، يجعل سياسة القوى العظمى تقتضي حلاً عادلاً لمطالبهم. وإلى اليوم، يتضح لي ألا شيء يسمح لي بدفعهم في أتون مغامرة خطيرة لا علم لهم بها. وقد ركبت مجازفة خداعهم، مقتنعاً بأن مساعدة العرب كانت ضرورية بالنسبة إلى نصرنا المكلف والمستعجل في الشرق الأوسط، وبأن الانتصار والتراجع عن الوعد أفضل من الانهزام»[1].

هكذا، قرر الملازم «لورنس» التواري عن الأنظار. غيّر هويته. لم يعد لوكيل جلالته وجود، حيث ترك مكانه لرجل يدعى «جون هيوم روس»، من الخطوط الجوية الفرنسية.

عاد المفتي إلى مقعده.

تنحنح الحاكم «السير رونالد ستورز»، ليخرج الوزير عن صمته.

انتفض تشرتشل. رفع كيلوغراماته المائة والعشرين، ثم أعلن بصوت بطيء:

– لقد أنصتُّ إليكم جيداً، أيها السادة. أرى أنكم تبالغون قليلاً في وصف التوترات المحتملة بين طائفتيكما. سترون ذلك. سيجري

---

(1) T. E. Lawrence، المصدر السابق.

كل شيء على ما يرام. وبعد هذا وذاك، أليس العرب واليهود أبناء عمومة؟ وفي الأحوال جميعها، لا جدال في أن بريطانيا ستضع حدًّا لهجرة اليهود، وستتخلى عن إقامة الوطن القومي اليهودي الذي أقره إعلان بلفور يوم ثاني نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧.

استدار نحو الحاكم، ثم قال:

- حان وقت الشاي، يا «ستورز»، أليس كذلك؟[١]

(١) العبارة وردت باللغة الإنجليزية (المترجم).

(١٦)

تكتب السعادة عادة بمداد أبيض على
صفحات بيضاء.

القاهرة، ٢ أبريل/ نيسان ١٩٢١

بلغ حفل الزفاف ذروته. لا، ليس زفافاً. إنه نهاية العالم، لأن الزواج في الشرق يقترب دائماً من نهاية العالم. والجنائز أيضاً. إذ هناك زغاريد تمزق طبلات الأذن من جهة؛ وعويل نائحات من جهة أخرى؛ ورقص بطون من جهة ثالثة؛ وسحنات تعكس الألم من جهة رابعة. فالمغالاة بادية في كل شيء على الدوام. لقد نجحت أميرة لطفي في تنظيم حفل الزواج. هكذا، احتجبت عبارة «سرّية تامة» في البيت لتحل محلها عبارة «حفل باذخ». بالطبع، كتمت اعتراف منى. وفي الأحوال كلها، وكما لاحظت ابنتها، لن تكون أول امرأة تضع حملها قبل الأوان. لكن الوقت قد حان. فتقوسات جسد الشابة بدأت تكشف حملها.

خلال الصباح ذاته، جرت قراءة الفاتحة في فيلا الجيزة بحضور الآباء. إذ وصل والدا مراد، يرافقهما سليمان وسامية، منذ أسبوع من حيفا، وعاشا الحدث في ذهول. فعندما استلم حسين رسالة ابنه معلنا زواجه، ظل صامتاً. لم ينبس ببنت شفة. بينما تحولت سامية

إلى نبع يجري بالدموع، قبل أن تطلق زغاريد ملتهبة، كأنها ترغب في أن تتقاسم سعادتها مع فلسطين كلها.

هذا المساء، استقرت السعادة في أركان صالونات فندق «شيفرد»الفخمة، الذي اكتراه لطفي باي لهذه المناسبة.

وسط القاعة، أقيمت كوشة وضع عليها عرشان للزوجين، حتى يتأملهما الجميع. تتماوج راقصة حولهما، بسُرّة ملتهبة، على إيقاع «وحدة ونص»، هذه اللحظة الخاصة التي كثيراً ما تثير فضول الموسيقيين الأجانب.

وفي قاعة مجاورة، كانت تعرض الهدايا. آواني فضية وبلورية، وساعات وبنادل، وزرابٍ صوفية، ومصحف منمق، وصينيات (إنجليزية بالطبع)، وشراشف مخرّمة... ثروات حقيقية، ليست دائماً بذوق رفيع جداً. وموازاة مع الأمسية، نظم لطفي باي حفل عشاء لفائدة أهل حي الجيزة، وقدّم صدقات للأعمال الخيرية في مسجدها المفضل.

لكن مصير سيء الحظ سعد زغلول نغّص هذا الفرح. قبل أسابيع، بدا الإنجليز واعين بمقاومات الشعب. إذ خلصت لجنة إلى أن الوقت قد حان لإنهاء نظام الانتداب، واقترحت أن تتفاهم الحكومتان المصرية والبريطانية بغية الحفاظ على مصالحهما الخاصة.

هكذا، حلّ زغلول وبعض مسؤولي حزبه، وقلوبهم مفعمة بالأمل، بلندن قصد وضع أسس بنود الاتفاق المقبل. لسوء الحظ، كانت النقاشات قصيرة. فبريطانيا العظمى لم توافق على التنازل عن الانتداب إلا بالاعتراف بالمصالح البريطانية في مصر، وبحق الرقابة على تعيين الوزراء. «في هذه الحالة، احتج الوطني، ما الفرق مع الانتداب؟» لم يرد المفاوضون الإنجليز، وخصوصا تشرتشل، أنه يوضحوا أي شيء. فصفق زغلول ورفاقه الباب.

لدى عودته إلى القاهرة، استقبل زغلول ورفاقه استقبال الأبطال. قامت مظاهرات المساندة في البلاد كلها. شغب وحرائق. ردت القوات الإنجليزية بإطلاق النار على المتظاهرين، مخلفة عشرات القتلى والجرحى. وقرر الجنرال «ألنبي» الغاضب، الذي مازال مندوباً سامياً، أن يفجر غضبه في سعد زغلول، الذي سماه بـ «المسمّم» المسؤول عن جميع المساوئ التي أصابت جلالته. نزلت الشرطة ببيته، فأمرته أن يحزم حقائبه مجدداً إلى عدن. غير أنه رحّل إلى سيشيل، لأنَّ عدن قريبة جداً من مصر. على الأقل، قال «ألنبي» في قرارة نفسه، لن تصل خُطب الزعيم الوطني إلى مصر، إذا سجن هناك. لكن المستقبل سيثبت للإنجليزي أن كان مخطئاً.

في حوالي الساعة الواحدة، تلا سليمان أبياتاً منمقة حول السعادة الزوجية، منتزعاً رعشات من الزوجين وشهيقاً من الآباء.

آه! فكّر حسين شهيد، وهو يتأمل هذه المعجزات كلها، والدموع في المآقي. ابنه تزوج، ولطفي باي سيد المقام! ومصر بلد كبير.

*

حلب ١٠ أبريل/ نيسان ١٩٢١

- دنيا، ما الذي فعلته يستحق كل هذه اللامبالاة؟

- اللامبالاة؟

- كتبت إليك عشر مرات، عشرين مرة. لم أعد أذكر عدد المرات. ألم أحاول مرات عديدة أن أراك ثانية، قبل أن أغادر سورية منذ عامين؟ وجدت الأبواب كلها مغلقة. إذن؟ كيف تسمّين هذا السلوك، إن لم يكن لامبالاة؟

قامت عن الأريكة حيث جلست منذ مجيء الفرنسي، وتوجهت

نحو الشرفة. كان الطقس معتدلا، والسماء زرقاء رائعة. وعبير الصنوبر المنبعث من الأفق يندفع إلى داخل الصالون.

أجابت مديرة ظهرها، وهي تحدق في المنظر أمامها.

- تحرر من الوهم، يا «جان فرنسوا». اللامبالاة هي موت المشاعر. ومشاعري لم تكن حيّة أبداً مثلما هي اليوم.

استدارت فجأة

- ما الذي تنتظره مني؟ أنت صاحب وسامة وجلال. أنت متألق على نحو لا يناقش. ولا أرى إلا نساء قليلات ممن يقدرن على مقاومتك. لكننا لا ننتمي، أنت وأنا، إلى عائلة واحدة. يؤسفني ذلك.

- كنت أعتقد أن...

- أنني منجذبة إليك؟ بالطبع. منذ اللحظة الأولى، ومازلت كذلك. أنك احتللت كل أركان روحي منذ أسابيع؟ تماماً. أنني أموت بغيابك؟ نعم. وأنا أقرأ رسالتك التي تعلن عودتك، سارعت إلى أول مرآة لأتحقق ما إذا كانت التجاعيد جعلتني أكثر قبحاً خلال عامين. إنها الحقيقة أيضاً، لكن...

- لم تكوني أبداً أجمل مثلما أنت اليوم.

أراد أن يتناول يدها، لكنها تملصت.

- انتظر، تابعت كلامها. يجب أن تدرك أنني، للأسف، جزء من هذه الكائنات التي تعتبر أن هذه الكيمياء الغريبة التي لا يسميها أحد بالحب لا تسمح لنا بأن نترعرع إلا إذا مرّت المشاعر بإنكار الذات. السعادة ضرورية. هل تفهمني؟

غزا طيف ملامح الفرنسي.

- أشك في ذلك. أقصد أنني كنت أشك أنكم تشجبون طريقة رؤيتي إلى الحياة. أتذكر تماما هذه الكلمات: «لست إذن ممن

يريدون أن يجعلوا من هذا العالم مكاناً أكثر قابلية للمعاشرة». غير أني شرحت لك موقفي. أنا في خدمة بلدي. كيف يمكنني أن أتخيل خيانته؟

- ستكون خيانته هرطقة. لكن يمكنك أن تفهم موقفي أيضاً. أنا عراقية. وشعبي يعاني. أنا عربية، وإخوتي يعانون. إذن؟ كيف أشطر نفسي بينك وبينهم؟ أنت الذي تساهم في مأساتنا، في الكواليس، وفي الخفاء. مبرراتك نبيلة. أحترمها. لكن لا تطلب مني أن أتصرف كأنني غير موجودة.

- دنيا...

- أنتم تخيطون بلداننا وتفكون خيوطها، كأنها كبب صوفية سوقية. تنصبون ملوكاً دمى، على غرار فيصل المسكين هذا، على عروش من أجل أن تخلعوهم بعد ذلك.

أصبحت نبرة صوتها جشة أكثر.

- هل تعرف أن السيد لا يرى أي مانع في أن يُسمّمَ الأكراد بالغازات؟

أخرسته المفاجأة.

- نعم، يا صديقي. حصلت على المعلومة من نضال الذي تلقاها من النقيب الذي حصل عليها، بدوره، من المندوب السامي «السير بيرسي كوكس».

- تسميم الأكراد بالغازات؟

- تماماً. لقد كشف له المندوب السامي، وهو يعتقد بدون شك أنه سيبهر الشيخ الكيلاني، الرسالة الموقعة بيد تشرتشل، موصياً باستعمال الغازات السامة - إذا دعت الضرورة - ضد «القبائل الهمجية».

أمسك «جان فرنسوا» برأسه.

هل ذلك ممكن؟

- إذن، ضاع كلُّ شيء بيننا، همس بصوت مكتوم. ما دمت أدافع عن مصالح فرنسا، ستنكرين علي الحق في أن أحبك. باختصار، إنك تضعين أمامي اختياراً لا بديل عنه: أنت أو واجبي.

- لا، يا «جان فرنسوا»، إنك تخطئ في حقي مجدداً. لن أجرؤ أبداً على أن أقترح عليك اختياراً منحرفاً مثل هذا. فقد أخبرتك أن دوافعك نبيلة.

- هكذا، بسبب واجبات يفرضها وعينا، يجب على قلوبنا أن تلزم الصمت.

- ليس هناك، فقط، وعينا وبلداننا، هناك الناس أيضاً. الناس كلهم. أعترف أني ساذجة. لكني مقتنعة أننا يجب أن نتعلم العيش المشترك مثل الإخوة، وإلا سنموت جميعا، عاجلاً أو آجلاً، مثل المعتوهين.

غضت الطرف وهزّت رأسها قليلاً، كأنها تعترف بعجزها.

- أنت حالمة مؤثرة. حالمة في كل الأحوال.

حاصر كتفي العراقية.

- تحدثينني عن إخوتك الذين يعانون. ماذا تتصورين؟ أن يصبحوا ضحايا إلى الأبد؟ كوني على يقين أنه سيأتي يوم يتحول فيه الضحايا إلى جلادين. كما تدين تدان. العجلة تدور. والعالم يدور. وضعفاء اليوم هم أقوياء الغد. نسمي هذه الحركة **التاريخ**. في انتظار ذلك، ليس لنا أي خيار آخر غير محاولة تأخير اليوم الذي سنسقط فيه، نحن الأقوياء، في الفخ. اسمحي لي أن أذكرك عرضاً أن السيد تشرتشل ليس فرنسياً، وأن فرنسا استبعدت إلى مرتبة ثانية في هذه المنطقة من العالم. وكل ما نحاول أن نقوم به هو أن نجمع ما فضل من قطرات بترول حتى لا يموت اقتصادنا عطشاً. فإذا كنت تعتبرين

أن ما يبديه أحدنا للآخر يستحق أن يموت أيضاً، كيف يمكنني حينها أن أقنعك بما يعنيه الحطام؟ أحبك، يا دنيا. أحبك رغماً عنك، ورغم اختلافاتنا. لم أعد أقوى على أي شيء أمام هذا القدر. (سكت وتأملها لحظة، وخُيّل إليه أنه يريد أن يتغزل بها.) تصوري أنني حالم أيضاً. يحلو لي أن أعتقد أن حبي، فضلاً عن حبّك، وحب كل الكائنات المتحابّة سيشكل طريقة في العيش، حتى لا نموت جميعاً مثل المعتوهين، كما قلتِ.

وفي لحظة، خالجها إحساس محيّر. شعرت بيدي «جان فرنسوا» تحاصران ردفيها. سحبها إليه بقوة. لم تقاوم. تمتمت فقط:

- سيكون أول مرة. . .

*

القاهرة، ١٥ أبريل/ نيسان ١٩٢١

جلس والدا الزوجين الفلسطيني والمصري مستريحين في الصالون. وكان كل منهما يدخن نرجيلته برائحة قصب السكر وطعم التفاح.

سحب لطفي باي نفسا طويلاً جعل ألسنة النار تراقص الجمرات المتأججة. أغمض عينيه، وهو ينتشي بلذّته، قبل أن يستأنف:

- الفيلا التي أحدثك عنها مناسبة تماماً، فهي توجد على بعد ربع ساعة من هنا. ما أن تُجدّد وتُوسّع وتزين، حتى تصبح مناسبة لابنينا.

رفع حسين شهيد يده محتجّاً.

- لا داعي إلى ذلك. تعرف حق المعرفة أن على الزوج أن يقدم في الصداق البيت الذي يجب أن يسكنه الشابان المتزوجان. وفي هذه الحال، يقع الأمر على والد الزوج، أي عليّ.

- غير معقول! طالما هذا البيت موجود، ولا أحد يسكنه! يمكنني إذن أن أهيئه كما أشاء. دع عنك هذه التقاليد البالية، أرجوك يا أخي. أنت أنا، لا فرق!

- في هذه الحالة، سأقبل الاقتراح. سأشتري فيلّتك وأمنحها إياهما مهراً. اتفقنا؟

تواصل الحديث بينهما طويلاً وحامياً كأنهما في سوق، ليخلصا في نهاية المطاف إلى اتفاق اعتبراه منصفاً: يمنح لطفي باي الفيلا، ويؤثثها حسين.

- الآن، تابع المصري، لنتحدث في مستقبل ابنك المهني.

- مستقبله المهني؟ ألا ينبغي أن يكمل دراسته في القانون؟

- ممتاز ما ارتآه في الواقع. لكن أما وقد تزوج، فهو مجبر على تلبية حاجات زوجته وأحفادنا مستقبلاً.

- لا مشكلة. يمكنهما أن يعتمدا على مساعدتي حتى يصير مراد قادراً على كسب قوت يومه بنفسه.

- مستحيل.

تفاجأ حسين.

- نعم، مستحيل. لقد قدمت له الاقتراح ذاته، عندما طلب يد منى. لكنه رفض ذلك رفضا باتاً.

- لقد كان على صواب! كنت سأخزيه لو تصرف بطريقة أخرى.

- إذن...

- سيقبل من أبيه ما لن يقبل من غريب.

- غريب؟ أنا؟

- أنت تفهمني، يا فريد. أرجوك، لا تشعر بالإساءة.

هز المصري كتفيه مشككاً.

- أود مشاطرتك تفاؤلك. غير أني تعلمت أن أعرف مراد. بل إني أعرفه كما لو كان ابني. سيرفض مساعدتك.

- سيكون حماراً... كيف سيتدبر أمره دون...

- سأفعل مثل كثير من الطلاب الذين ليس لهم آباء أغنياء، هذا كل شيء!

دوّى صوت مراد. عبر الفلسطيني الصالون، وجلس أمام والده.

- لقد عثرت على عمل. صحيح أن الراتب هزيل، لكنه كافٍ في المراحل الأولى. وبعد عام، سأحصل على الشهادة، حيث يمكنني أن ألج سلك المحاماة.

- عمل؟ هتف حسين شهيد. أي عمل؟

- أعمال كتابة لصالح حزب الوفد.

- الوفد؟ حزب سعد زغلول؟

- تماماً. وقد حصلت على المنصب بفضل تدخل ابن أخته ذو الفقار. رغم أن البطل منفي إلى سيشيل، فالكفاح متواصل. زد على ذلك، تتطابق السياسة العلمانية والليبرالية التي يدافع عنها هذا الحزب مع أفكاري. إذن، ها هي السعادة تغمرني. فضلاً عن هذا، يعتبر تيمور كذلك واحداً من فريقنا.

رفع الوالدان أعينهما إلى السماء بشكل شبه متواطئ.

- تيمور مجنون، لاحظ فريد. لكن أنت؟

- أبله، يا بني، علّق حسين شهيد. من أجل بضعة جنيهات، ستضيّع وقتاً ثميناً يمكن أن تكرسه لدراساتك. «عقلك فين»؟

- بغض النظر أنك ستهمل زوجتك بالطبع، أضاف لطفي، وأنت تهيئ أوراق حزب الوفد.

- لا تقلق. لن تعاني منى من أي شيء. وفي كل الأحوال، فهي موافقة على رأيي.

- آه، طيب! تمتم المصري. لأنك طلبت منها الترخيص؟

- نعم، يا لطفي باي. اليوم، تحررت النساء، كما تعرف.

تظاهر صهر مراد بالموافقة، لكنه بدا أنه لا يعتقد بذلك.

- إذا كان ذلك اختيارك، يا بني، استأنف حسين شهيد، فلابد أن نستسلم للقدر. ومع ذلك، هل يمكن أن أسألك عن المهنة التي ترى أنك ستمارسها ما أن تحصل على شهادتك؟

استبق المصري جواب مراد.

- رئيس! سيصبح الرئيس المدير العام للشركة التي سأؤسسها له خصيصاً: «حسني كاتن ترايدين كو. ليميتد.»

- آه... اندهش حسين شهيد.

تنحنح مراد.

- سأخيب أملك، يا لطفي باي... أنا..

- اسمع يا بني، توقف عن مناداتي لطفي باي. فأنا صهرك الآن! واسمي فريد. اتفقنا؟

- إذا سمحت لي بذلك.

- قلت إنك ستخيب أملي.

- نعم... لا أنوي البقاء في مصر بعد انتهاء دراستي.

- ماذا؟

- أعتزم العودة إلى بلدي فلسطين.

- بلدك؟ لكن بلدك غير موجود!

همس لطفي في أذن حسين:

- ابنك بيخرف ولا إيه؟

- أبدا، تدخل حسين الذي شعر بالإساءة، فلسطين موجودة فعلاً! منها أتيت! وفيها ولدت!

- يا فريد، قال مراد، هل لي أن أطرح عليك سؤالاً؟ كيف تسمي تراباً يحمل الاسم نفسه منذ مئات السنين، وتعاقبت عليه أجيال بكاملها من الأفراد، ممن يمارسون الديانة نفسها، ويتقاسمون الثقافة والأعراف ذاتها؟ كيف ستسميه؟

- يا الله! ليس الأمر كذلك! لم توجدوا أبداً كبلد، ولم تكن لكم عاصمة، ولا رئيس أو عاهل، ولا دستور. لا رمز من الرموز التي تمثل وطناً ما.

رفع حسين شهيد يده علامة على التهدئة.

- نعم. ليست لنا عاصمة، ولا رئيس...

لكن مراد لجّ في السؤال:

- اسمح لي، يا لطفي باي...

- فريد! اسمي فريد!

- فريد. معذرة. أود فقط أن أدلي بملاحظة مفادها أننا احتُلِلْنا طيلة قرون. من الفرس، والإغريق، والرومان، والآشوريين، والعرب، والصليبيين، والأتراك، والإنجليز الآن.. هل تعتقد أنه أتيحت لنا فرص كثيرة لنضع بنيات الوطن؟ هيا.. لِنَتَحَلَّ بقليل من التسامح! لا تنسوا أننا لا ندرك وجودنا إلا عندما يوجد الآخر.

- نعم. موافق. لنكف عن الحديث في هذا الموضوع. إنك تأمل أن تعيش في فلسطين؟

- إن شاء الله.

- وأنا؟ وأمّ منى؟ هل طلبت رأينا؟ إنها ابنتنا، على كل حال!

لم يتمكن مراد من كبح ابتسامة.

- ابنتكما، نعم، يا فريد. وهي زوجتي منذ اثني عشر يوماً.

*

بغداد، ٥ يوليو/تموز ١٩٢١

- عبيد! مخصيون! هكذا أصبحنا.

لا الزمن، ولا المشهد السياسي الجديد في العراق أخمد توثب شمس بن نضال الصافي.

استسلم والده أمام أقواله. يقرر دائماً، عندما يستشيط ابنه غضباً، أن يترك العاصفة تمرّ. وما أن يهدأ شمس، حتى يصبح مخاطَباً محتملا نوعا ما.

- لا أفهمك، دمدم نضال. بدل أن تستمتع، تقضي وقتك في الاحتجاج! لدينا ملك عربي. وصديقنا عبد الرحمن الكيلاني عيّن رئيسا للحكومة، ويستعد لأن يشارك في التفاوض حول اتفاقية ستضمن للعراق استقلالاً رسمياً. وأنا نفسي، ألم أعيّن وزيراً للتربية؟

- بالطبع، يا أبي. أنت وزير، وأنا فخور بك. ولنا ملك عربي، وأعضاء الحكومة عراقيون. لكن الفارق الوحيد هو أن كل واحد منكم يحاصره «مستشار» بريطاني يمنعه من أن يسعل دون ترخيص! ألم يصل فيصل نفسه إلى العراق مصحوباً بـ«مستشاره الخاص» «السير كيناهان كورنواليس»، العضو السابق في المكتب العربي، مصدر مصائبنا كلّها؟ «كورنواليس» شيطان يوسوس للعزيزين «لورنس» و«جيرترود بيل»! لكن ما الذي يفعله، إذن، الكيلاني وأفكاره *الدمقرطية*؟ الآن وقد أصبح رئيس للحكومة، هل سيكتفي بتحمل الإهانات كلها؟

- هيا، يا بني! كن عاقلاً. بالكاد شرعت الحكومة في وظيفتها. أما فيصل، فلنترك له الوقت. لقد تعهد ببعض الالتزامات تجاهنا. يجب أن يفي بها. لقد شرحنا له أننا موافقون على طاعته، لكن باعتباره ملكاً على عراق مستقلّ متحرر من كل ارتباط بالأجنبي.

- وما كان جوابه؟

- لقد تناول مصحفاً، ووضعه بينه وبيننا والتزم باحترام قسمه. بل إنه أضاف أنه سيترك وظيفته، إذا استحالت مهمته. وأنا واثق به.

- أبي، دعنا لا نكون مغفلين. لقد اختاره الإنجليز لأنه يخدم مصالحهم. فهو صنيعتهم، ووكيلهم، ومدين لهم. (وذكره بوجه كالح:) ألست أنت من قال ذات يوم: «أبداً لا ينبغي لشعب أن يصدق من يحكمه، إذا كان من يحكمه لم يقرّه الشعب شرعاً»؟

(١٧)

لم يعد المستقبل ما كان.

بول فاليري

يافا، ٥ مايو/ أيار ١٩٢١

- الموت لليهود! الموت لليهود!

كانت الشمس تتخضب بالحمرة فوق الميناء.

كان نحو خمسين رجلاً، يضعون على رؤوسهم كوفيات، ويعلو وجوههم الغضب، مدججين برفوش وهراوات وأسلحة نارية، ينزلون الشارع الذي ينتصب في نهايته برج الساعة، مأثرة الوجود العثماني القديم.

من كل ناحية، كان عشرات الفلسطينيين يخرجون من بيوتهم، وهم يهتفون: «أيها المسلمون، دافعوا عن أنفسكم! دافعوا عن أنفسكم! اليهود يقتلون نساءكم!»

ارتمى زوجان مرعوبان إلى زاوية في الشارع. توقّف فلسَطيني يحمل مسدساً قبالتهما، وبصق على الأرض:

- يهودي، يا ابن الكلب!

أشهر سلاحه. صوّب بهدوء نحو رأس الرجل. انفجرت جمجمته. صوّب العربي مجدداً. انخسفت المرأة فوق جثة رفيقها.

أطلق اليهود، الذين شهدوا الحادث، سيقانهم للريح. كان الوقت قد تأخر. جاءت مجموعة مشاغبين أخرى من الاتجاه المعاكس. كسرت العظام، وهشمت الرؤوس، وهدرت الصيحات...

على بعد بضعة أمتار، خرّ حاخام على الأرض. انتظر الموت، وهو يتلو «شماي إسرائيل»[1] بصوت جهوري. أوشكت أن تنفجر في ذاكرته على الفور صور مرعبة لمذابح «كيشينيف» و«جيتومير» و«بياليستوك» في روسيا. في هذه الفترة - قبل أقل من عشرين سنة - فجّر مقتل شاب مسيحي الموقف، فاتهم اليهود بارتكاب الجريمة الدينية. تجمدت ذكرى الحاخام الأخيرة، بعدما قطعت ضربة رفش عنقه.

وفي حي واحة السلام، تواصل نهب دكاكين اليهود وسرقتها. وحوصر بيت أعدّ لاستقبال المهاجرين الجدد عند وصولهم، يقع بين البنك العثماني والمستشفى الفرنسي. اختبأ بداخله مائة وخمسون رجلاً وامرأة وطفلاً.

دقت الواحدة بعد منتصف النهار في ساعة البرج العثماني. رمى العرب واجهة البيت بالحجارة.

- الشرطة! صاحت شابة كانت جميع أعضائها ترتجف، تلبدت خلف شبّاك. وصلت الشرطة!

سمع أزيز العجلات. تدخلت فرقة، مستعملة الهراوات.

- نجونا، تنهد صوت رجالي.

- لكن ماذا يفعلون؟ صرخت الشابة التي امتقع لونها فجأة. ليس... ليس ممكناً. الشرطة تريدنا نحن؟

---

(١) تعتبر «شماي» بمثابة التشهد، وهي من أهم الصلوات في الديانة اليهودية.

خلافاً لكل الانتظارات، هاجمت الشرطة بوابة الدخول بأعقاب العصي، بدل أن تصدّ العرب. تهشمت البوابة. اندفع رجال مسلحون إلى داخل البيت، مستميلين في أثرهم فوجاً هائجاً من الفلسطينيين. وفي غضون دقائق، نهبت الغرف. وسرقت الأمتعة والأواني. عندما انسحب المهاجمون، كانت باحة البيت وغرف الطابق السفلي تسبح في الدم.

عندما أرخى الليل سدوله، خلّف الحادث أحد عشر قتيلاً وخمسة وعشرين جريحاً. عالجت الأخوات الجرحى، الذين نقلوا إلى المستشفى الفرنسي «سان لوي»، بتفانٍ عجيب، بينما لم يدخر قنصل فرنسا السيد «ديريو»، جهدا لدى السلطات، لتنهي هذه المأساة. بدون جدوى. وفي وقت لاحق، كان لابد من القول، في النهاية، إن سلوك عناصر الأمن البريطانيين كان غامضاً على الأقل.

في الطريق إلى القدس كانت تجري أحداث الرعب ذاتها. فعلى بعد مئات الأمتار من مدخل المدينة، هاجم فلاحون عرب عائلة مهاجرة استقرت في بيت معزول وسط بيارات. عندما غادر الفلسطينيون المكان، تغطت الأرض بستّ جثث. ساعة بعد ذلك، اخترقت رصاصة جمجمة مهندس شاب، ينحدر من «ريغا»[1]، قرب باب الرحمة.

في فلسطين كلّها، بدأت تهبّ زوبعة النيران وسفك الدماء. هذه الأرض التي بدت قبل مدة قصيرة فقط أقرب إلى الجنة، لبست قناع الكراهية والعبوس.

*

---

(١) عاصمة ليتوانيا (المترجم).

حيفا، ٦ مايو/ أيار ١٩٢١

تحلقت أسرة شهيد، التي انعزلت في البيت، حول المائدة للغذاء. أوصدت الأبواب بإحكام، وسدّت النوافذ. استخرج حسين - في حركة لا يمكن تخيلها - بندقية قديمة من نوع «ليبيل»، تساءل الجميع متى وكيف وجدت هنا. وفي الأحوال كلّها، بدا السلاح قد صَدِئَ كثيراً، بحيث كان يشكُّ في نجاعته.

- بابا، همست سامية، لماذا يتقاتل هؤلاء الأشخاص؟

- لأنهم جنّوا، يا ابنتي.

- لكن من البادئ؟ تساءل سليمان. اليهود أم نحن؟

- وأي أهمية! تنهدت والدته. هم أم نحن، هل يشكل الموتى فرقاً؟

ابتلع حسين لقمة فول.

- انفجرت القضية في تل أبيب. حسب رواية الجيران، ربما نظم حزب عمالي يهودي موكبا بمناسبة أول مايو/ أيار. جرت التظاهرة بهدوء، إلى أن خرقت حفنة متطرفين الاتفاق الموقع مع الإنجليز، الذي ينص على أن الموكب يجب ألا يخرج، في أي حال، عن حدود الحي اليهودي، ومرقت هذه المجموعة، وهي تلوح بالأعلام الحمراء والرموز الشيوعية في الشوارع حيث يعيش العديد من العرب.

رفع حسين عينيه إلى السماء.

- لقد خلق تطفُّل هؤلاء الصارخين الممسوسين، الذين يتكونون أساساً من المهاجرين الجدد، الجاهلين باللغة العربية، حالة اضطراب لدى الفلسطينيين. فارتموا كالذئاب الجائعة على المتظاهرين. تفاقم الوضع بتدخل الشرطة، حيث بدأ الأمنيون،

وأغلبهم مسيحيون ومسلمون سعدوا بلا شك بالحادث الذي عانى فيه اليهود، في إطلاق النار. هكذا بدأ كل شيء.

ختم كلامه بصوت أجشّ:

- شريطة ألا يصيب يوسف أي مكروه.

- صحيح! قالت سامية مضطربة. لازال السيد مرقس يعيش في ديغانيا رفقة ابنته، أليس كذلك؟

وافقها الرأي.

- متى ستتوقف إذن هذه الحكاية؟ أنّت نادية. منذ وقت قصير فقط، كنا نعيش في سلام.

- أخشى للأسف أن يتفاقم الوضع.

يا للأسف! خاب ظنّه.

في فجر اليوم التالي، انقضّ الفلاحون المدججون بالبنادق والسيوف والرماح والهراوات على مستوطنة فتاح تقفا[١]، شمال تل أبيب. تأسس هذا المكان على يد سبعين مهاجراً قدموا من أوربا الوسطى، بإيعاز من المدعو «ستامفر»، وهو مهاجر مجري نزل فلسطين قبل أربعين سنة، وظل طوال حياته يحلم بقيام أرض إسرائيل بالتمام والكمال، كما وعد بها الربّ شعبه.

هذه المرّة، قاوم المستوطنون، ونجحوا في هزم المهاجمين. لكن الثمن كان باهظاً: أربعة قتلى من المستوطنين، واثنا عشر جريحاً. وفي حيدرة برحوبوت، في الجليل، انغمست المنطقة في النار والدم.

ولم تكن القدس بمنأى عن العنف. إذ أطلق شجار بسيط بين

---

(١) تعتبر فتاح تقفا (أو بتاح تكفا، بمعنى فتحة الأمل) اليوم سابع أكبر مدينة في إسرائيل.

طفلين شرارة رعب غير معقول. ففي لحظات فقط، بدأ الناس يركضون في الاتجاهات كلّها، وترك الباعة حوانيتهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء إغلاقها. وتطلب الأمر برّاحين «منادين» ليطمئنوا السكان.

الحمد لله أن الجنون لم يصب العرب جميعهم. هكذا نجت ثلاث عائلات يهودية، أو أربع، في الرملة بفضل حماية أصدقاء مسلمين دافعوا عنهم.

وفي المقابل، طالب الفلسطينيون في نابلس أربعمائة عائلة سامرية[١] ظلت تعيش في المنطقة منذ مئات السنين بمغادرة المدينة، مهددين بذبحهم إذا سعوا إلى المقاومة.

نهض حسين شهيد من المائدة، وانسحب إلى الشرفة. كانت الشمس تميل نحو الغروب، وهي تلقي انعكاساتها البنفسجية على البحر.

لِمَ، يا الله؟ قبل أن تهب ريح الجنون هذه، كان الجميع مسالماً على الأرض. لم، يا الله؟ ما الذي جرى إذن حتى يجري رفض الآخر في شرايين الناس؟

اغرورقت عينا الفلسطيني. وغشيت دموعه المشهد أمامه.

*

---

(١) لا يعتبر السامريون أنفسهم يهوداً، لكن باعتبارهم سلالة تنحدر من الإسرائيليين القدامى في المملكة السامرية القديمة. في المقابل، يعتبرهم اليهود الأرثوذوكسيون سلالة تنحدر من سكان غرباء (المستوطنين الآشوريين القدامى)، الذين تبنوا نسخة «ملوثة» من الدين العبراني، وبهذه الصفة يرفضون أن يعتبرونهم يهوداً.

القاهرة، ٢٠ مايو/ أيار ١٩٢١

أمسك مراد رأسه. كان منهاراً.

- مستحيل! لم أعد أطيق البقاء هنا. يجب أن أعود إلى فلسطين. مكاني بين والدي.

لم يعلق تيمور، حيث بدا يائسا مثل صديقه.

- سمعت الأخبار مثلي، استأنف الفلسطيني. إنها الحرب!

- لا، يا صديقي، لا. ليست الحرب. هي مجرد مناوشات بين المتطرفين. فضلاً عن ذلك، لقد عاد الهدوء، حيث لم ينحز الإنجليز لأحد من الخصمين.

- هل تمزح، يا تيمور؟ الإنجليز؟ هل تعلم ما أسرّ لي به أحمد دائم الاطلاع، حول ما يخامرك الشك فيه؟

- أحمد؟ عن أي أحمد تتحدث؟

- أحمد ذو الفقار. أصغ جيداً: بحسب بعض المصادر، فالبريطانيون أنفسهم هم من شجع الفلسطينيين على مهاجمة اليهود. أياماً قبل أن تنفجر المناوشات، التقى كولونيل يدعى «ووترز تايلور»، وهو ليس سوى المستشار المالي للإدارة العسكرية في فلسطين، المفتي العام الحاج أمين حسين، وقال له إنه يجب أن ينتهز الفرصة ليكشف للعالم مدى النفور من الصهيونية، ليس فقط لدى الإدارة الإنجليزية في فلسطين، بل أيضاً لدى قصر «وايتهول». وأضاف أنه إذا جرت اضطرابات عنيفة أخرى، فإن الجنرال «بولز»[1]، وكذا الجنرال ألنبي، سيوصيان بالتخلي عن مشروع إقامة وطن قومي يهودي. وختم الكولونيل أن الحرية لن تتحقق إلا بالعنف. وتحدثني عن الإنجليز؟ أكرههم!

---

(١) الحاكم العام في فلسطين بين سنتي ١٩١٩ و١٩٢٠.

- مراد، يا قلبي، ما الذي جرى؟

التحقت منى بهما في الصالون، بعدما أثار انتباهها صخبهما.

- معذرة. استبدّ بي الغضب. أنا آسف.

قال له تيمور بنبرة لوم:

- ستصبح أبا، عما قريب، هل أذكرك بذلك؟ ليس من حقك إذن أن تترك نفسك في مهب الانفعالات.

- أنت على حق! لكن ضع نفسك مكاني!

اقتربت منى من زوجها.

- عما تتحدثان؟

- جرت أمور جسيمة في فلسطين.

- أبواك؟

- لا. إنهما بخير. لقد طمأنني خالي لطيف، الذي وصل البارحة إلى القاهرة.

- خالك؟ هنا؟

- أجل. لقد جاء للقاء الوطنيين السوريين والعراقيين. أظن أنهم يسعون إلى إنشاء معسكر موحد.

أمسكت منى يد زوجها.

- إذن، هذه هي الأمور الجسيمة التي تتحدث عنها...

- مواجهات بيننا وبين اليهود. يتعلق الأمر، حسب لطيف، بعنف يفوق كل تصور. عشرات القتلى من الجانبين. وحسب لطيف دائماً، مازلنا في البداية.

حاول التحكم في توتره، وتابع قائلاً:

- عُيّن لطيف رئيس مؤتمر عربي انعقد في حيفا، وحرر إعلاناً باسم جميع المشاركين، وبعثه إلى وزارات الشؤون الخارجية

الفرنسية والإنجليزية والإيطالية. وقال بوضوح إننا لم نكن لنصل إلى هذا الوضع، لو لم يكن هناك إعلان بلفور.

جاب الفلسطيني الصالون طولاً وعرضاً.

- لكن من هم الذين يرغبون في العيش على أرضنا؟ أليس العالم أوسع! ليت هناك الصهاينة وحدهم!

- ماذا تقصد؟ اندهشت مني.

- روى لي لطيف أيضاً أن نرى المتنورين في كل مكان، وحدثني عن الألفيين الألمان والأمريكان.

- ألفيون؟

- إنهم طائشون يدعمون فكرة قيام حكم أرضي بقيادة المسيح، بعدما يطرد هذا الأخير المسيح الدجال أو الشيطان، لا أدري! يبدو أننا نشهد هنا وهناك ظهور مبشرين من ولاية «ماين»، أو المعمرين اللومريين، أو اللوثريين، لم أعد أعرف من! إنهم هم أنفسهم أو غيرهم. دون أن ننسى أعضاء جماعة الهيكل، التي لمحت حيّها قرب بيتنا في حيفا. لكن من هم؟

- هيا، اهدأ أرجوك، ألحَّتْ مني.

لم يتحرك مراد. بدا شارداً خلال لحظة، ثم ارتمى على الأريكة مُنهكاً.

*

حلب، في اليوم ذاته

كلّما ارتفعت الشمس بين المآذن، امتلأت غرفة النوم بالسحر والضجيج.

لامست دنيا بشفتيها جبهة «جان فرنسوا»، وغادرت السرير مانحة الضوءَ عريها.

- سأعدّ الشاي.

الخيال. الكلمة المناسبة. منذ شهر وعشرة أيام وهو يشارك دنيا حياتها، لم يقل للحظة في قرارة نفسه: «أنا أحلم. هذا غير ممكن». يا للغرابة عندما تصبح السعادة حرقة، لما نعرف مسبقاً أنها ستكون الأخيرة. في اليوم الذي همست له: «ستكون المرة الأولى»، لم يدرك معنى الجملة على الفور. هل هي المرة الأولى التي تمارس فيها الحب؟ كانت صادقة. لأسباب تظل غامضة، منحته هذه الهبة، بينما ظلت تفكر في الهروب منه خلال الأسابيع الماضية. كان هو الجهة الأخرى من المرآة. هي استسلمت له. وهو أدرك شيئاً ما مخيباً ومؤثراً في هذا الموقف. أخرق ورقيق. ذئب ودُوريّ. في لحظة ما، بينما كان يلجها على مهل، ارتجف قلبه. تأكد أنه لم يعد رجلاً، بل طفل.. جنين. عادت الحياة إلى الحياة في بطن حبيبته.

بعد ساعات، سيتجه إلى دمشق، ثم إلى بيروت، ومن هناك إلى مرسيليا. وجهته الأخيرة باريس. ماذا بعد؟ لقد استقرت سورية إلى حد ما، ووقع العراق في الشباك البريطانية، وأصبحت ٢٣ في المائة من أسهم شركة النفط التركية عملياً من نصيب شركة النفط الفرنسية. ثمة احتمالات كبيرة ألا يرى قصر «كي دورساي» أي ضرورة لسفر جديد إلى الشرق، وربما يمنحه مكتباً جميلاً على الفور، بعيداً عن دنيا.

اعتدل واستند على الوسادتين. عادت دنيا. وضعت على السرير صينية عليها إبريق شاي وكأسين صغيرين ذا أذنين مذهبين.

- في خدمة سيدي ومولاي، قالت مرحة.

- لا أعرف من منا سيد الآخر ومولاه، قال «جان فرنسوا» ممازحاً. اشتقت إليك.

- لم ترحل بعد.

- اشتقت إليك مع ذلك. أشتاق إليك دائماً. حتى عندما نمارس الحب، أشتاق إليك.

داعب وجنتها برقة.

- مازلت لا تريدين مرافقتي إلى فرنسا، والزواج مني؟

- لا، يا «جان فرنسوا». لست مستعدة. اصبر. أنا في حاجة إلى وقت كافٍ.

- يجب أن تعرفي أن الوقت يمضي بسرعة بالنسبة إلى من يفكر، ولا ينتهي بالنسبة إلى من يرغب.

صبّت الشاي، ومدّت له إحدى الكأسين.

- قل لي الحقيقة. ألا تجعلك رؤانا المختلفة إلى العالم مترددة على الدوام؟

أومأت برأسها نافية.

- وديني؟

ابتسمت.

- أؤمن بإله واحد، لكني لا أعرف ما إذا كان محمد نبيّه. وأنت، ماذا تعتقد؟

- أؤمن بإله واحد، لكني لا أعرف ما إذا كان عيسى ابنه.

- إذن، يسير كل شيء بشكل جيد. نشترك في الدين نفسه.

رشف جرعة شاي.

- متى؟ متى ستعرفين أنك تريدين أن تكوني زوجتي؟ متى ستقررين أن تمنحيني حشداً من الأطفال العراقيين - الفرنسيين قليلي الاحترام مثل أبويهم؟

- سأخبرك. سأخبرك.

- هل نسيتِ؟ مهما كان المكان حيث سنعيش، فرنسا، أو بغداد، أو دمشق، أو المشتري، لن أفرض عليك أي شيء، ما عدا أن أحبك.

- أعرف. قلت لي كل شيء. أعرف.

سادت لحظة صمت.

- هل تسدين لي معروفاً قبل رحيلي؟

أشار إلى البيانو.

ابتسمت.

- المقطع ذاته دائماً؟

- دائماً.

ارتفع صوت الأذان، لحظة عزفت دنيا النغمات الأولى من المعزوفة العربية الأولى للفنان «كلود ديبوسي».

(١٨)

خرائط العالم جميعها غير جديرة بنظرة
واحدة، ما لم يظهر فيها بلد الحلم.

أوسكار وايلد

القاهرة، ٢٥ مايو/أيار ١٩٢١

ها هي قد مضت عشر دقائق منذ أن جلس لطيف ومراد وتيمور إلى مائدة في صالة شاي «غروبي»، الأكثر شعبية في القاهرة. لم ينبس أحدهم ببنت شفة. بالتأكيد، لم يكن المكان سبب صمتهم، ولا جودة الحلويات المعروفة بلذتها في الشرق كلّه، بل مزاج مراد العابس. إذ اتشحت نظرات الفلسطيني بالكدر.

فجأة، انتفضوا بسبب صوت ساخر.

- لا ريب أنك تحتضر!

رفع الثلاثة رؤوسهم نحو القادم الجديد: أحمد ذو الفقار. رجل قوي البنية، طوله متر وتسعون سنتمتراً، جيده كالثور. على وجهه المربع، كأنه منحوت في الصخر، يرتسم شارب رقيق مثل قوس فوق شفته العليا.

- نعم، تملك رأس من يحتضر، كرَّر وهو يشير بسبابته إلى مراد.

ألقى نظرة شزراء على الزبائن، وهم أساساً ضباط إنجليز، ثم قال بصوت مرتفع جداً حتى يسمعه أغلب المستهلكين:

- ألم تجدوا مكاناً آخر؟ المكان أشبه بـ«bacaporte».

تبادل الجنود نظرات حائرة. انفجر رفاق أحمد ضاحكين. كانوا يعرفون ما تعنيه هذه الكلمة الغريبة المشتقة من العبارة الإيطالية «bocca aperta»: الفم المفتوح. إذ كان العديد من المصريين يستعملون العبارة للإشارة إلى «فتحة الصرف الصحي».

جلس ذو الفقار على كرسي فارغ قرب مراد، وأحاط كتفي صديقه بحرارة.

- تمالك نفسك! هتف مستعملاً العبارة الدارجة «شد حالك».

- إنه على حق، علّق لطيف. منذ أن وصلت القاهرة، تشعرني أن حيواناً متوحشاً مسجون في قفص.

أضاف تيمور:

- فكر في زوجتك وابنك. كم من مرة سأذكرك بهذا؟

حدَّقَ مراد في صهره.

- إذا كان هناك من يفهمني، يا تيمور، فهو أنت. أنا هنا، في مكان آمن، بفضلكم، بفضل والدك.

- بفضل والدك أيضاً، صحَّحَ لطيف.

- بالطبع. لي زوجة تغمرني، وابني كريم وسيم مثل بدر مكتمل. غير أني لست سعيداً، لأنني أشعر بالجبن وانعدام الفائدة. أعيش في الرغد والرفاهية، بينما شعبي يعاني. ألا ترون ما يحدث؟

أمسك يد لطيف بانفعال.

- فلسطين تقطر دماً، أليست تلك كلماتك؟

تنهد لطيف.

- تماما. إذا نزف الجرح أكثر، سيأتي يوم يصبح فيه الفلسطينيون

في مصر أكثر من فلسطين. لقد بدأ عدد من إخوتنا ينزحون، ثبطت عزائمهم، وانشغلت عقولهم بهجرة الصهاينة التي ما لبثت تزعزع حياتهم اليومية يوماً بعد يوم. بل تأسف بعضهم على المستعمر التركي!

- لاحظت، أنا أيضاً، اعترف أحمد ذو الفقار، أننا بدأنا نرى غير واحد من هؤلاء النازحين الذين يعرفون بنبرتهم. دكان جديد في الإسكندرية، وموظف كازينو «شاطبي»، ورئيس محاسب في بنك مصر، وقيم على ضيعة كبيرة في الفيوم تزود المواطنين بالحليب، ونادل في مطعم في السويس.

استأنف مراد:

- لا يمكن أن نسمح بتدهور الوضع. يجب أن أعود إلى هناك. إذا نزح الجميع، ستنتهي فلسطين.

- يجب أن تنهي دراساتك أولا، ردّ لطيف. والدك متشبث بها. فهو لم يتحمل نفقات باهظة من أجل لا شيء. اصمد بضعة شهور أخرى. فضلاً عن هذا، يمكنك أن تدافع أيضاً عن هذا الشعب من الخارج.

- كيف؟

- يجب أن ننجح في تعبئة الرأي العربي، إن لم نقل الرأي الغربي. من هنا سبب وجودي هنا. ليس ذلك مسألة فلسطينية فحسب. فالإنجليز يضعون قنابل موقوتة بمشروع الوطن اليهودي هذا؛ تأكد أن هؤلاء المهووسين بإشعال الحرائق سينسحبون ما أن يلعلع الرصاص، ويتركوننا نواجه المعمرين الذين سيتضاعفون، في أثناء ذلك، عشرات المرات مقارنة باليوم.

- يا لطيف، يا خالي، يا أخي، هل تعتقد أني لست واعياً بذلك؟ تذكر أنني أخبرتك في مكتب والدي قبل ثلاث سنوات بإعلان

بلفور هذا، وأشركتك في تشاؤمي. ماذا أجبتني حينها؟ «طالما حافظنا على التوازن الديمغرافي، لا أرى ما يمكن أن يطرح مشكلة».

- مازلت ثابتاً على فكرتي. في المقابل، يجب أن نبقي على المستقبل، وأن نفعل ذلك بالسلاح الوحيد الجدير بهذه المهمة: اللاعنف.

- اللاعنف؟

- تماماً.

- عندما يتركك الجميع لقدرك؟

- نعم. اللاعنف. ما حدث منذ وقت قصير غير مقبول؛ مهاجمة اليهود الأبرياء وطردهم وقتلهم... ما هكذا سنكسب تعاطف العالم. وفي الأحوال كلها، لا يتحمل هؤلاء المهجرون المسؤولية حقاً، بل هؤلاء الذين يتلاعبون بهم، ويدفعونهم إلى الاعتقاد أنهم ينزلون أرضا بلا شعب. نعم. هؤلاء هم المجرمون الحقيقيون. لا. لا عنف. لا دماء تلطخ أيدينا. لا...

- أشاطرك الرأي، قاطعه مراد. لكن ما الذي تراه بشكل ملموس؟

- إنشاء مكتب لفلسطين. في القاهرة، في البداية. يجب أن نتواصل!

- خالك ينطق درراً، علّق أحمد ذو الفقار. في هذا المجال، لنعترف أننا، نحن العرب، لسنا أدنى من الجميع.

- تماماً، أكّد لطيف الوكيل. بينما الصهاينة أذكياء ومتحدون ومتعلمون ومتضامنون، وفوق هذا، قريبون من السلطة الغربية، لأنهم يعيشون في أوربا، نحن بعيدون عن ذلك، نقضي وقتنا في استنزال اللعنات، ونحن نتحلق حول صينية حلويات! يكفي أن ننظر إلى موهبة رجل مثل «وايزمان». ربما سمعتم خطابه في القدس. كنت هناك.

شخصية نبيهة! ليس الوحيد. لهم أيضاً شخصيات قوية مثل بن غوريون، هذا الكاتب العام الجديد لجمعية العمال العامة «أرض إسرائيل».

كرَّرَ قوله، وهو يلصق راحة يده بالمائدة:

- التواصل.

- فكرتك مهمة، اعترف مراد. لكن تعوزنا الوسائل. الوسائل المادية، بالطبع.

- أعرف. لقد اتصلت بفلسطينيين ميسورين. وهم على استعداد لمساعدتنا. والدك أيضاً.

- والدي لن يبقى مكتوف اليدين، قال تيمور. سأدفعه إلى كسر حصّالة نقوده.

رفع أحمد ذو الفقار يده.

- يمكنكم الاعتماد أيضاً على حزب الوفد. سأبذل قصارى جهدي لإقناع أجهزتنا. فضلاً عن هذا، وفي هذا السياق، أبشركم بخبر جديد: عُيّنت مؤخراً في منصب الكاتب الثاني المفوض في الشؤون الاقتصادية للحزب. وهو ما سيسمح لي بالدفاع عن قضيتكم بتأثير أكبر.

- نسيت جزئية، اعترض مراد. سيثير سلطانكم العراقيل.

- سلطاننا؟ هذه الدمية التركية الألبانية الإيطالية؟

شرح للطيف:

- هل تعرف أن عزيزنا فؤاد الأول لا ينطق كلمة مصرية واحدة؟ مصر يحكمها شخص لا يعرف حتى لغتنا!

هز الفلسطيني رأسه مذهولاً.

- يا للأسف!

قال ذو الفقار:

- يبقى أن نأمل أن يصلح ابنه فاروق هذه الإهانة التي لحقت بالشعب!

راجع لطيف ساعته.

- أذكركم، يا أصدقائي، أن المندوبين العراقيين والسوريين ينتظروننا. حُدد الموعد في عوامة وضعها عضو من حزب الاستقلال رهن إشارتنا. والساعة تشير إلى الرابعة بعد الزوال!

- الاستقلال؟ اندهش مراد.

- إنه حزب تأسس في العراق منذ نحو ثلاث سنوات. أسس فروعاً سرية، في بغداد بالطبع، وفي سورية أيضاً، وهنا في مصر.

- رأيت، همس تيمور في أذن مراد. العنكبوت تنسج خيوطها شيئا فشيئاً. تذكر ما قاله ابن خلدون: «كل شيء تحت الشمس يتغير، حتى الجبال. تعيش الإمبراطوريات أكثر من الإنسان، بالطبع، لكنها تشهد القدر ذاته. فهي فانية بدورها»[1].

خارج المطعم، وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه مع متظاهرين يشهرون لافتات كتب عليها بأحرف سوداء: «موعدنا يا زغلول! أو الموت!»

- الله أكبر! هتف أحمد ذو الفقار بافتخار. فالشعب لا يقف مكتوف الأيدي. إذ أصرّ الإنجليز على الاحتفاظ بخالي منفياً، سيأتي يوم يجب أن يرحّلوا نصف مصر!

*

فوق العوامة، اتخذت السماء لوناً شبه أحمر بسبب الزوابع الرملية القادمة من تلّ المقطم المطل على القاهرة. هذه السنة، طال

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن الكاتب لم يقتبس ما قاله ابن خلدون في الفصل الرابع عشر من *المقدمة* (في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما الأشخاص)، ولكنه عمد إلى التعبير عن الفكرة ذاتها بأسلوبه الخاص. (المترجم).

أمد هبوب ريح الخماسين[1] على نحو استثنائي. كان المندوب العراقي الوحيد الحاضر رشيد الكيلاني، الذي جلس مديراً ظهره إلى النيل، يحرك بين أصابعه حبات مسبحته بخفة مدهشة. بين الفينة والأخرى، يأخذ الوقت الكافي، ليديرها حول سبابته، ثم يبدأ من جديد.

على يساره، بدا السوري هاشم الأتاسي شاردَ الذهن. كان الوزير الأول في حكومة فيصل مهيب الطلعة على نحوٍ لا يقبل الجدل. وجه مستطيل، وملامح لطيفة، لحية وشارب أبيضان، حيث يبدو مثل أرستقراطي فرنسي من القرن التاسع عشر. تلك هي الغاية بالنسبة إلى رجل لا يطمح إلا إلى طرد فرنسا من بلاده. التحق بالمقاومة، على غرار العديد من الوطنيين، ضمن جماعة تسمى بـ «الوطنيين»، تأثر أغلب أعضائها بالأفكار الأوربية، وهم يحلمون بإنشاء دولة موحدة، ديمقراطية، مستقلة ومتعددة العقائد، في المنطقة.

قرب الأتاسي، جلس من كان وزيره في الشؤون الخارجية الدكتور شهبندر.

قدم خادم القهوة التركية. غمر القاعة عبير الهال.

بدأ لطيف الوكيل بتحية ضيوفه باحترام، مستعملاً لغة منمقة لا يتقنها إلا شرقي واحد. ثم لخّص بوضوح أثار إعجاب مراد الوضع في البلدان الممثلة الثلاثة - العراق ومصر وسورية - وختم بالحديث مستقبل مسقط رأسه فلسطين. وما كاد عرضه ينتهي، حتى ارتفع صوت العراقي رشيد الكيلاني. فمنذ أن شغل منصب كاتب عمّه، الوزير الأول الدائم في حكومة الملك فيصل، والرجل يبدو رزيناً. إذ

---

(١) رياح جافة ساخنة ومغبرة جداً. اسمها يعني العدد لأنها لا تهب إلا خلال خمسين يوماً في الربيع.

أخلى الشاب الداهية المتهور المكان لشخصية رصينة أكثر تسيّساً، ومن ثمة أقل عفوية، اللهم إذا كان الاقتراب من سن الثلاثين هو المسؤول عن هذا التحول.

قال بصوت كئيب:

- إخوتي، تذكروا الكلمات الخائبة التي قالها الأمير الحسين بن علي، شريف مكة، مخاطباً شيوخ القبائل: «استمعت إلى الإنجليزي دون أن أكون واثقاً به، مستسلماً ومتجاوزاً الحد. إذ ظلت طريق الهند مفتوحة طيلة الحرب. بفضلنا، تخلى الشرق برمته عن القضية التركية. يا للأسف! كنت أظن أنني أعمل لعظمة الإسلام ومجده، بينما كنت أعمل لمجد إنجلترا».

سكت لحظة، ثم رفع سبابته مهدداً:

- اللهم عليك بالكفار والمنافقين، واغلظ عليهم، فإن جهنم مصيرهم!

اهتز البيت العائم فجأة بهبة ريح مفاجئة. ظن مراد أن الأمر يتعلق بإشارة إلهية.

*

حيفا، أول يونيو/ حزيران ١٩٢١

«هربرت صامويل»، المندوب السامي في فلسطين،

بعد دراسات متفوقة في «باليول كوليج» التابع لجامعة أوكسفورد، التحق الرجل الشغوف بالسياسة بمعسكر المحافظين. ثم وجد نفسه، بعد انتخابه عضواً في البرلمان وارتقائه من كاتب مساعد في وزارة الهجرة إلى كاتب دولة، خلف القضبان، متهماً بالفساد.

اليوم، عليه أن يواجه شكلاً آخر من التهمة: تحيزه للجماعة الصهيونية. هل يمكن أن يتعاطف مع غير إخوته في الدين؟ ألم

يلتحق بالمؤتمر الصهيوني في إنجلترا، مستغلا نفوذه لدى الحكومة البريطانية لتشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين؟ ألم يقدم دعماً غير مشروط للدكتور «وايزمان»، بينما كان هذا الأخير يحاول أن ينتزع من حكومة جلالته إعلان بلفور الشهير؟ اليوم، وأمام الفتن وغضب الفلسطينيين المتصاعد، تفرض الحكمة على الإنجليز أن يلطفوا الأجواء. هكذا، نشرت جل الجرائد صباح هذا اليوم من شهر يونيو/ حزيران ١٩٢١ النص الآتي:

يؤسفني أن ألاحظ أن الانسجام الجيد، الذي لطالما راودتني رغبة ملحة في أن أراه يسود بين أتباع الديانات المتعددة والأعراق المختلفة في فلسطين، لم يتحقق بعد. قبل كل شيء، أود أن أذكر مرة أخرى بسوء التفاهم المؤسف الذي أثارته جملة إعلان بلفور: «إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين». أقصد القول إن السكان العرب في فلسطين لن يقبلوا أبداً أن ينتزع منهم بلدهم وأماكنهم المقدسة وأراضيهم، وتعطى لغرباء، ولن تقبل بقيام حكومة يهودية تطبق القانون على الأغلبية المسلمة والمسيحية. بل إننا نقول إنه لا يمكن أن نفهم أن الحكومة البريطانية، التي ذاع صيت روحها العادلة عالمياً، قد تبنت سياسة مماثلة. عن هذا الأمر أجيب: لم تصادق الحكومة البريطانية، التي تضع القانون فوق الجميع فعلاً، ولم توافق أبداً على سياسة من هذا القبيل. إذ لم يعد الأمر يتعلق بمعنى إعلان بلفور. قد يكون المعنى قابلاً للخلط في الترجمة العربية[1].

---

(١) في النصوص العربية آنذاك، ترجمت عبارة «إعلان بلفور» على العموم بـ«وعد بلفور». *Le retour des exilés*، هنري لورنس.

اسمحوا لي أيضاً أن أذكركم أن بمكنة اليهود، الشعب المشتت في العالم الذي لم يفتأ قلبه ينبض من أجل فلسطين، إقامة وطنهم هناك، حيث يأتي بعضهم - في حدود تحددها أعداد الساكنة الحالية ومصالحها - إلى فلسطين بغية المساهمة بمواردهم وجهودهم في تنمية البلد. وهذا يصب في الصالح العام لسكانها جميعاً.

إذا كانت هناك حاجة إلى إجراءات ضرورية لإقناع السكان المسلمين والمسيحيين أن هذه المبادئ قابلة للتطبيق، وأن حقوقهم ستحفظ، فإن هذه الإجراءات ستتخذ. ولأختم، فإن الحكومة البريطانية المكلفة بانتداب لصالح جميع سكان فلسطين لا ترغب في أن تفرض عليهم نظاماً ترى أنه يتعارض مع مصالحهم الدينية والسياسية والاقتصادية. من هنا، ستعلق الهجرة خلال المدة الضرورية من أجل اختبار الوضع.

توقيع: هربرت صامويل

*

كيبوتس ديغانيا، خلال اللحظة ذاتها

- عُلّقت الهجرة؟ دمدم «دان ليفشتاين»

كوّم الجريدة ورماها أرضاً.

- إنه أمر مشين!

رفع يوسف مرقس يديه لتهدئته.

- آه! اهدأ!

- دان على حق، قاطعه الرجل الواقف جنب «ليفشتاين» بجفاء. الإنجليز خونة. فقد باتوا فنانين في اللعب على حبلين! انظرا إلى ما فعلوه بالأردن الذي وعدونا به في البداية! انتزعوه من أرض

إسرائيل، ليمنحوه للأمير عبد الله. إذا أردتما الإنصات إلى رأيي، فالإنجليز سجناء العرب. سيخلفون بوعودهم كلها. ستريان!

المتحدث هو «فلاديمير جابوتينسكي»، واحد من أشرس المدافعين عن «اليشوف». أوكراني الأصل، وهو زعيم الجناح اليميني في الحركة الصهيونية، الذي حثّ خصوصاً على مشروع غامض في بداية الحرب العالمية لتجهيز جيش يهودي قادر على المشاركة في غزو فلسطين لفائدة الحلفاء. فالمستقبل واضح، بالنسبة إلى هذا الرجل اليميني المتشدد، حيث يجب أن تنشأ الدولة اليهودية على مجموع ضفتي نهر الأردن، دون انتقاص أي شبر. في هذه الدولة، سيُمنح العرب حقوقاً سياسية عند الاقتضاء، لكن من غير الوارد أن يمنحوا حقوقاً وطنية.

كرّر، وهو يركل:

- الإنجليز سجناء العرب!

هزّ يوسف رأسه كأنه أب يراقب ابناً متقلب الأطوار.

- يا «جابوتينسكي»، لم لا تتغير إذاً أبداً؟ لم يعد البريطانيون أسرى العرب، مثلما صرنا نحن بالنسبة إلى الإنجليز. إنهم يتريثون، وهم محقّون في ذلك. ماذا تريد؟ الحرب الأهلية؟ ألا تتخيل للحظة أن العرب يرتبكون إلى حدّ ما، وهم يروننا نتزايد؟ ألم تخطر إذن ببالك هذه الفكرة أبداً؟ حتى صغيرتي إرينا قادرة على إدراك الوضع.

كرّر قوله بنبرة لوم:

- لن تتغير أبداً.

- أنت تعترف هنا، يا مرقس، انتقد «جابوتينسكي»، أنك مستعد دائماً لتكييف الزوايا. سأخبرك بما أظنه في هذه المسألة. إذا كانت بريطانيا العظمى عاجزة عن الوفاء بالوعد المقدم، سنسلّم بقرارها.

لكن في هذه الظروف، هل تصرفت مثل أي منتدِب يبدو عاجزاً عن القيام بواجبه الانتدابي، أم تراجعت عنه، يجب أن تسمح بهجرة جميع اليهود الذين يعيشون في أوربا، أتسمعني؟ **جميع** اليهود بغية إنقاذهم من الدمار!

قرر «دان ليفشتاين» أن يعترض.

- اسمع، يا «فلاديمير». تعرف آرائي. أنا أدعم الهجرة، كما أدعم، بخلاف يوسف، إنشاء وطن قومي، لكن في احترام شديد لحقوق العرب. ففكرة إنشاء وطن يهودي في فلسطين، يستقر فيه يهود أوربا **جميعهم**، ليست عبثية فحسب، بل فكرة طوباوية! ذلك أن البلد لن يستطيع أبداً أن يحتوينا جميعاً.

- سيستطيع حتما! ثمة مكان كافٍ لعشرة ملايين، إن لم نقل خمسة عشر مليون ساكن!

- لا أتكلم عن الوعاء الترابي، بل الأخلاقي! ماذا عن ملايين العرب الثمانية الذين يعيشون هنا؟ ماذا ستفعل بهم؟

- سيعيشون حسب قوانيننا أو سيرحلون!

اقترب الأوكراني من «ليفشتاين»، ثم واصل كلامه بنبرة مرتبكة:

- قل لي! متى اهتممنا بأنفسنا؟ هممم؟ غريب، يا «دان ليفشتاين»؟ وأنت، يا مرقس! متى اهتممنا بأنفسنا؟ أبداً! لا هنا، ولا في إنجلترا، أو إسبانيا، أو البندقية، أو وارسو، أو روسيا، ولا في أي مكان آخر! لم يهتم بنا أحد في أي مكان من العالم! ذبح مئات الآلاف من إخواننا وأخواتنا على يد الجيوش القيصرية في مسقط رأسهم! ومحارق الملكة الكاثوليكية جداً إليزابيث! هل نسيتما مذابح إليزابيثغراد؟ ومذابح كييف! وأوديسيا! وتدمير بيوتنا ونهبها، والاغتصابات والاغتيالات في وارسو! هل فقدتما ذاكرتكما؟ هل نسيتما وعيد هذا القيصر إسكندر الثالث العزيز؟

سكت قبل أن يصرخ، رافعا قبضة يده.

- ثلث اليهود سيعتنقون دينا آخر، وثلث سيهاجر، والثلث الباقي سيهلك!

بدأ ينهج. اعتلى ملامحَه شحوبُ الموت.

القسم الخامس

(١٩)

إن القول إن الإنسان يتكون من القوة
والضعف، والنور والعمى، والصغر والعظمة،
لا يعني محاكمته، بل تعريفه.

ديدرو

حيفا، ١٠ يونيو/ حزيران ١٩٢٥

لم يرَ أحد أبداً أحداً يكتب الشعر ليصبح غنياً. ولم يكن سليمان شهيد إذاً استثناءً. كتب بعض الأبيات سرّاً، في شبه خلسة. كتبها حبّاً. بشابَّة تسمى «هايدي»، عمرها ثمانية عشر عاماً، ذات خدّين منمشين. ليست جميلة جداً، لكنها مكتنزة. ألمانية، مسيحية، وهي تنتمي، كباقي عائلتها، إلى حركة إنجيليين تسمى بـ«المسيحيين الصهاينة»، وتدافع عن عودة اليهود إلى الأرض المقدسة.

كانت المرة الأولى التي يسمع فيها سليمان حديثاً عن «المسيحيين الصهاينة»، بل إن التعريف نفسه أربكه. بحسب ما تعلمه في المدرسة، فقد صلب اليهود النبي عيسى، حيث عجز عن تصور أن هؤلاء الأتباع يمكنهم أن يكونوا مسيحيين و. . . صهاينة في الآن ذاته. لكن «هايدي» شرحت له أن الأمر لا يتعلق بتعاطف مع اليهود الذين لم يكونوا، في نظرها ونظر أبويها، سوى صَلَبَة بؤساء، بل باستكمال النبوءة الإنجيلية.

- نبوءة؟

كانت «هايدي» قد انطلقت في شرح خلخل عقل الشاب طيلة أيام عديدة.

- هكذا، أعلنت الألمانية. يجب حتماً أن نعمل جميعاً حتى يعود اليهود إلى أرض الميعاد، لأن عودتهم ستعني أن نهاية العالم وشيكة.

- نهاية العالم؟ تأملين نهاية العالم؟

- مجيء ربّنا السيد المسيح. وهذا لا يعني الشيء ذاته. حينها ستعود الذبائح الطقوسية في الهيكل بعد إعادة بنائه، وسيتمكن المسيح في النهاية من العودة بكل مجده، وسط الشعب المسيحي كلّه. وسيبقى الكفار والمرتدون على الأرض.

- المسلمون أيضاً؟

ترددت «هايدي».

- همم... نعم.

- آه! وبعد ذلك؟

- ثم ستشهد الأرض سبع سنوات كارثية، حيث ستعيث فيها قوى شيطانية بقيادة المسيح الدجال فساداً. لكن الشيطان سيندحر على يد الشعب اليهودي كلّه بعد اعتناقه المسيحية التي ستُنَصّر أيضاً الكفار والمرتدين.

- والمسلمون، إذاً.

ترددت «هايدي» ثانية.

- نعم. سيواجهون جميعهم قوى الشر خلال معركة أرماغيدان الكبرى، وسيتمكن المسيح في النهاية من إقامة المملكة المسيحية. هل فهمت؟

في الحقيقة، كل ما أدركه هو أن المسيحيين يدعمون اليهود

وإسرائيل بغية تحويل الدينين الآخرين إلى المسيحية. في الواقع، هناك أمرٌ ما لا يسير جيداً في خُلْد الجميع. اكتفى بعدما امتنع عن الرد بحصر ردفيها، ثم همس وهو يضمُّها إليه: «تعالي».

- بِمَ تحلم؟

استدار سليمان نحو مراد، بعدما انتزعه من أفكاره.

- لا أحلم. بل أعمل.

- تعمل؟ وأنت تحدق في المشهد، جالساً على الدرج؟

- عندما يفكر الشاعر، تخيل أنه يعمل. لا يمكنك أن تفهم، خاصة منذ عودتك من القاهرة، والآن، وقد أصبحت رجل أعمال.

نطق الكلمات الأخيرة، وهو يشحنها بالسخرية.

هزّ مراد كتفيه. ها قد مضت ثلاث سنوات منذ أن حصل على شهادته في القانون، وعاد ليعيش في حيفا رفقة منى وابنهما كريم. استقر ثلاثتهم في بيت عَزمَ مراد على شرائه بماله الخاص، غير بعيد عن الإقامة العائلية. ومثلما كان منتظراً، لم تكن مغادرة القاهرة سهلة. إذ أرسلت أميرة دمعها مدراراً، عندما علمت أن ابنتها المحبوبة، صغيرتها ذات الستة والعشرين ربيعا، قبلت أن تتبع زوجها إلى فلسطين. كما انتحبت منى بسبب فراقها والديها لأول مرة، ومغادرتها مسقط رأسها وجنّتها في ضيعة طنطا.

كان لطفي باي قد بذل قصارى جهده لثني صهره عن الرحيل. قال إنه سيصبح الرئيس المدير العام لشركة «حسني قطن ترايدينغ كو». وسيمنحه آخر طراز من سيارة «ولسلي»، وفيلا في الإسكندرية. لكن مراد لم يتراجع عن قراره.

- لا. لقد اتخذت قراري منذ مدة طويلة. يجب أن أعود إلى هناك.

حينها، أذعن صهره، والأسى يحزُّ في نفسه، فأعطاه خمس

بدلات وقمصاناً عديدة ذات صنعة راقية، وكذا دزينة من ربطات العنق. أما أميرة لطفي، فقد دسَّتْ في حقيبته قارورة عطر قديمة من نوع «جان ماري فارينا». وعندما اندهش مراد من هذا الاختيار، همست أميرة في أذنه: «إنه العطر الذي يتعطر به لطفي منذ سنوات. هكذا، عندما تتعطر به، سينتاب منى شعور بأنها بين أحضان أبيها». وجد مراد التفسير غريباً على الأقل، لكنه تحاشى مناقشته.

وهو يتجه إلى الإسكندرية ذات صباح من شهر سبتمبر/ أيلول ١٩٢٢، لم يتمكن من استبعاد شعور بانقباض قلبه. كانت فلسطين موطنه، لكنه ارتبط بمصر وسكانها، واعتنق طموحات أهلها. خلال هذه السنوات الثلاث الماضية، لم يتغير بالفعل سوى الشيء القليل، إن لم تكن إنجلترا قد انتهت إلى التنازل عن الحماية التي فرضتها على مصر، تحت ضغط الشارع والتظاهرات اليومية، مع احتفاظها بحق مراقبة أربعة من شرايينها: خطوطها في التواصل مع الإمبراطورية، والدفاع العسكري عن البلد، وحماية الأجانب والأقليات، والهيمنة الكاملة على السودان التي كانت ما تزال جزءاً من مصر. بعبارة أوضح، كما يقال في مقهى الفيشاوي الكبيرة في خان خليلي، سيظلُّ البلد محتلاً على يد القوات البريطانية، حيث ستواصل المندوبية السامية، التي عيَّنتْ منذ وقت «ألنبي» فيكونتا أول على مدينتي مجدو وفيليكستاو، الاحتفاظ بصلاحيات أكبر من السلطان فؤاد. إذ غير هذا الأخير لقبه بلقب الملك منذ يوم ١٣ مارس/ آذار ١٩٢٢. يا لها من ترقية جميلة! بعد ثلاث سنوات وسبعة عشر يوماً، أي يوم ٣٠ مارس/ آذار ١٩٢٥، وبعد أن تعب من تحمل الفتن، قرّر «ألنبي» أن يحرر زغلول، ويسمح له بالعودة إلى مصر. وفي غضون ذلك، نقل الرجل المسكين من سيشيل إلى جبل طارق حيث كان المناخ - بحسب أطباء جلالته - مناسبا لصحته

المتدهورة. ولما ذاع خبر عودته، عمّ الفرح أرجاء البلد. ولإغاظة الإنجليز، علتْ القطارات العائدة من أسوان أعلامٌ خضراء صغيرة يزينها هلال أبيض وثلاث نجمات، هي شعار حزب الوفد الوطني.

ومع ذلك، استمر الإنجليز في احتلال مصر، ولم يبدُ أنهم قرروا مغادرتها عما قريب. ولم يبقَ، كما يقول تيمور، سوى أن تعدي العاهرات اللواتي يكتسحن شارع كلوت بك زبائنهن من الجنود الإنجليز بجميع الأمراض الجنسية الموجودة على الأرض.

الآن، وقد أصبحت رجل أعمال، قال سليمان ساخراً. لم يكن شقيقه الأصغر مخطئاً. لكن هل من خيار آخر أمام مراد؟ بالعودة إلى حيفا، اتخذ مكانه بشكل طبيعي جنب والده في إدارة شركة «شيبشاندلر آند سان» التي كرست طاقتها كلّها لمقاومة منافسة خصمه المباشر «برونسن شيبشاندلر»، والتي مافتئت تزداد شراسة.

اكتشف مراد بلداً فلسطينياً أكثر اضطراباً من يوم مغادرته. خلال السنوات الأخيرة، تفاقم التوتر بين الطوائف اليهودية والعربية، بينما كان كبار هذا العالم يتماحكون حول مستقبل هذه الطائفة أو تلك داخل عصبة الأمم. كان الفاتيكان يدعم المطالب الفلسطينية على مضض، ولم تتزحزح فرنسا عن تحفظها، بينما تشبثت لندن بسلوكها. ألم يقل «هربرت صامويل» خلال سبتمبر/ أيلول ١٩٢٣ : «انطلقت حكومة جلالته في دراسة معمقة حول مسألة إدارة فلسطين. وعقب هذه الدراسة، اتخذت بعض القرارات الواضحة جداً. إذ قبل جميع الحلفاء بإعلان بلفور، بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية التي وافقت عليه بإجماع غرفتيها. وهو جزء لا يتجزأ من الانتداب الذي صادقت عليه عصبة الأمم نهائياً. وتعتبر الحكومة أنه لا مجال للتخلي عنه». ألم يصرح المندوب السامي: «ستبقى فلسطين حتى حلول نظام جديد خاضعة لنظام مستعمرة تابعة لتاج إنجلترا».

- هل بإمكاني الانضمام إلى الرجال؟

التحقت سامية بإخوتها على الشرفة. لقد أصبحت الفتاة الصغيرة البهية امرأة في ربيعها العشرين بمفاتن ساحرة.

- عمَّ تتحدثان؟

- عن الأعمال والشعر، قال سليمان ساخراً.

لاحظ مراد:

- يلومني أخوك لأنني أصبحت رجل *أعمال*. ولأنه راشد مسؤول، فهو يعتقد جازماً أننا سنعيش من قصائده.

- آه! إنه حالم، ومثير.

نفشت شعر سليمان بلطف، مضيفة:

- أليس كذلك، يا حبيبي؟

- مثير، حالم؟ هذان الوصفان يليقان بك أكثر مني.

حركت الشابة حاجبيها.

- نعم، استأنف سليمان. بلغت سنتك العشرين الشهر الماضي، ومازلت ترفضين الزواج. أليس ذلك مثيراً؟

- أتزوج؟ بِمَنْ؟ بجارنا محمود؟ إنه مكروه جداً حتى إن الحمير تتجنبه عندما تصادفه. بهذا البدين عُبَيد؟ سيتداعى سرير زواجنا تحت ثقل وزنه! بـ. . .

- هيّا، هيا، احتجَّ مراد. قولي بالأحرى إنك لا ترغبين في الزواج. هذا كل شيء.

- خطأ! لكن ليس الجميع محظوظاً. أنت عثرت على جوهرة. أنت تعرف ما ترويه صديقتي مريم؟ تقول إن الزواج أشبه بالبطيخ: كل بطيخة من عشر تفي بوعدها. هكذا، فأنا أنتظر أن أعثر على الشخص المناسب.

قال سليمان مستهزئاً:

- أخشى أن يطول انتظارك، يا عزيزتي، فيموت أبي وأمي في غضون ذلك من خيبة الأمل.

- هلاّ فكّرت في نفسك بالأحرى؟ سأتزوج قبل أن تنشر قصائدك؟

تشامخت، ثم دخلت إلى المنزل.

*

باريس، ٢١ يوليو/ تموز ١٩٢٥

حرّك «جان فرنسوا لوفون» فكّيه، وهو يفرّغ أخبار اليوم. سألته كاتبته «ماري فيل» عن عينيه الرماديتين.

- والآن، تغرق سورية في تمرد شامل. لم يعد «غورو» يدير دواليب الأمور، حيث عاد نهائياً إلى باريس، وحلّ محلّه مجنون جامح، هو الجنرال «موريس ساراي»، الذي ألحق به «غاملان» بغية تهدئة المنطقة. تهدئة! هل تسمعينني، يا آنستي؟ تهدئتها بطلقات المدافع!

فكّر في قرارة نفسه في دنيا... إذا اشتعلت شرارة الحرب الأهلية، ما الذي سيحل بها؟ كان آخر لقاء بينهما منذ عشرة شهور. ومنذ ذلك الحين، تبادلا عشرات الرسائل دون أن ينجح أبداً في إقناعها بالزواج منه. كانت تخبه، لكن ليس إلى درجة رغبتها في اقتسام سقف واحد منه، مثله هو.

في أغسطس/ آب ١٩٢٤، قبلت بقضاء الصيف في باريس. غمرته سعادة مجنونة. للأسف، انطفأ توهجه ما إن غادرت.

أشعل سيجارة بانفعال.

- تدركين، يا آنستي، أنه لم يكن هناك غير هذا! ذاك أن شريف مكة، الذي يعيش في حمى هذا الكولونيل الأبله «لورنس»، طرد

خارج الجزيرة العربية على يد خصمه العجوز ابن سعود. نفي الشريف! بل طرد! في الوقت الذي نتحدث فيه، يعد هو حبات مسبحته، ويعيد تعدادها على شواطئ قبرص!وباتت الجزيرة العربية بين أيدي الوهابيين. أنت لا تعرفين، يا آنستي، من هم الوهابيون. إنهم مسلمون رجعيون، ومتشددون، وطائفيون. مختلون كبار! احترامي، يا سيد «لورنس»!

اتخذت أقوال الدبلوماسي، صاحب الوسام الباذخ الذي تكلفه قصر «كي دورساي»، نبرة فظّة.

بدت الآنسة «فايل»، بدورها، منكمشة، بينما كان «لوفون» يتكلم. ها هي تُضنى من شعوب لم ترَها أبداً، ولم تعرف عنها الشيء الكثير. فأبعد مكان وصلته على الإطلاق هو مدينة «ترفيل»، في عطلها الصيفية.

- هؤلاء الإنجليز مجانين، تابع «جان فرنسوا» بالنبرة الملتهبة ذاتها. أنتم...

توقف عن الكلام، مندهشاً من عبارة كاتبته التي كانت تنظر إلى الباب. استدار نحوها. كان الوزير «أريستيد بريان» واقفا في المدخل. ها هي ثمانية أيام تمضي منذ أن عاد إلى وزارة الشؤون الخارجية. يبدو أنه لم يفوت أي شيء من خطبة كاتبه في شؤون الشرق.

- سيدي الوزير... اسمحوا لي، لم أنتبه...

- واصلوا، أرجوكم.

- هذه الأخبار، يا سيدي الوزير. لقد اشتعلت شرارة حرب أهلية حقيقية في فلسطين. البارحة، ارتكبت مذابح ضد اليهود في الخليل وصفد وبلدات أخرى. قتل ثلاثة عشر يهودياً، وجرح ثلاثمائة، ولا ندري عدد الضحايا من العرب.

هزّ بريان رأسه. كان يقيس يومياً، منذ أن استأنف وظائفه، جسامة المهمة التي تقع على عاتق وزارته.

- استأنفوا...

- هل قرأتم تقرير السيد «غاستون موغرا»، قنصلنا في القدس؟

شبك الوزير يديه في انتظار البقية.

تناول «جان فرنسوا» ملفاً، استخرج منه ورقة، ومدّها إلى بريان الذي ردّها بلطف.

- لا أحمل نظارتي. اقرأه، أرجوك.

- كتب السيد «موغرا»: «خلال محادثة غرفة التدخين، حدثني المندوب السامي البريطاني المؤقت «السير جلبير كلايتن» الذي تجمعني به علاقات ودية منذ سنوات، في حديث ذي شجون، عن السياسة الإنجليزية في فلسطين. وعندما اضطلعت بوظائفي أول مرة العام الماضي، كما قال لي، تسليت بمراسلة المكتب الاستعماري، طالباً منه تحديد سياسته في فلسطين، وكذا نهجي في الحكم. لم أتلقّ أبداً أية إجابة. إذ لا يمكن أن نحدّد سياسة ما، عندما تنعدم. نعيش يوما بيوم، دون تنبؤ، ساعين فقط إلى مراوغة العقبات كلما ظهرت. لكن إلى أين نتجه؟ لا أحد يعرف. يؤاخذ علينا اليهود تفضيل طموحات العرب، ويحتج العرب على الوطن اليهودي الذي أقمْناهُ في فلسطين. يتساءل كثير من الناس، أمام غموض هذه السياسة المزدوجة، بأي مخطط مكيافيللي نتابع الإنجاز. في الواقع، ليس المستقبل ما يثيرنا، بل الماضي هو الذي يدفعنا، حيث لا نسير نحو مصير اختيارنا، بل نتحمل تركة القدر التي خلفتها لنا الحرب. خلال الحرب، قدمنا وعوداً لليهود، وأخرى للعرب، فأيقظنا طموحات متناقضة، حرصنا على أن نرضى عنها، وهي تحشرنا في شبكة من التعقيدات والصعوبات».

توقف «لوفون» ليستفسر:

- هل أواصل؟

- افعل إذاً!

- «السير جلبرت كلايتن» هو من يتحدث دائماً: «والمصيبة تكمن في وجود نوعين من الأشخاص في لندن: المنظّرون المتعنتون في تطبيق صيغهم حول حق تقرير المصير على القبائل البدوية، شأنها شأن الأوطان الغربية؛ والنوع الآخر،كأنهم سحرة الخرافة المتعلمون، خائفون الآن من شبح الإمبراطورية العربية التي عقروها. فضلاً عن ذلك، يجب أن ندرك جيداً أن أية سياسة للتدخل في شؤون الشعوب الأجنبية، مهما كانت متخلفة، تصطدم اليوم بصعوبات أخطر. لقد علّمنا الأهالي غلة الحريات السياسية، فاستخدموها ضدنا وعندنا. أشعر أن السياسة الاستعمارية - وأي اسم ننمقها به - تمثل شيئاً متقادماً، وهي بصدد الاضمحلال. كما أنني مقتنع أننا يجب أن نخلي فلسطين وحقولها الرملية، وأن نترك السكان الجائعين والمشاكسين لأنفسهم، إذا أمكننا ذلك. لكننا صرنا أسرى إعلان بلفور. فاليهود يخنقون حكومتنا، ولن يتركوها. أما فيما يهمني، أضاف «السير جلبرت كلايتون»، فإنني قد قررت أن أغادر المكان خلال أبريل/ نيسان المقبل، وأعود إلى حياتي الخاصة. يكفي»[1].

سكت «لوفون» مجدداً، وراقب وزيره الوصي، منتظراً رد فعله.

بعد لحظة صمت طويلة، أعلن هذا الأخير:

- حرّر لي إذن مذكرة، أرجوك. عبر عن مخاوفك، دون

---

(١) ٢ أغسطس/ آب ١٩٢٤. الشرق فلسطين، ١٩١٨ ـ ١٩٢٩. الجزء الحادي والعشرون، ص. ٢٠١ ـ ٢٠٢، في *Le Retour des exilés*، هنري لورنس، منشورات روبير لافون.

مواربة. سأقرؤها. وإذا وافقت عليها، سأرسلها إلى سفير إنجلترا، موجهة إلى وزيره. لكن لا أخفيك أنني لا أنتظر أي نتائج قريباً. ذاك أن سياسة الإنجليز في الشرق أشبه بقارب منطلق بالسرعات جميعها. لن يتوقف في يوم واحد.

- سأسلّمك إياها، سيدي الوزير، لكن فيما يخص الوضعية السورية، فإن الأمر يتعلق بقاربنا نحن الذي يجب أن نوقفه. فالأخبار الأخيرة مقلقة جداً. أنا...

- إنه أمر عاجل، تدخلت الآنسة «فايل» بارتباك، وهي تمدّ برقية إلى «جان فرنسوا».

تصفحها هذا الأخير، ثم نظر إلى بريان.

- هو ما خشيته بالذات.

- تكلم إذن!

- انطلقت الثورة السورية.

- وماذا أيضاً؟

- انتفض متمردون، يقودهم سلطان ما اسمه الأطرش، في جبل الدروز[١]. وقد توسعت الانتفاضة إلى دمشق والقلمون وحماة والجولان، وإلى جنوب شرق لبنان. تغرق سورية في النار.

هزّ الوزير رأسه نادماً.

- يا حسرتاه، يسير قدر العالم على الدوام بشكل سيئ. وقد بدأ هذا الأمر مع رحيل آدم وحواء من الجنة.

هزّ «جان فرنسوا لوفون» رأسه بكياسة. فهو لم يكن عموماً سوى موظف أمام سياسي ذي منزلة دولية. لكن هذا لا يغير أي شيء من الواقع الذي يعيه وعياً قاسياً.

---

(١) جبل يقع في جنوب سورية، وأغلب سكانه من الدروز.

- سأدعو إلى انعقاد مجلس الوزراء، تابع «أريستيد بريان». وسننظر في القرارات التي ينبغي اتخاذها. ثم ستسافر إلى دمشق للقاء الجنرال «موريس ساراي»، الذي يحل محل «غورو».

أذعن لوفون. عادت إلى ذهنه الكلماتُ التي قالتها دنيا ذات يوم في حلب: «أنا مقتنعة أننا يجب أن نتعلم العيش المشترك مثل الإخوة، وإلا سنموت جميعاً، عاجلاً أو آجلاً، مثل المعتوهين».

(٢٠)

الإنسانية عجوز ثملة تمضي وقتها في
تخمير حروبها الأخيرة.

جيل رومان

دمشق، ١٠ أغسطس/ آب ١٩٢٥

صقل الجنرال «موريس ساراي»، المندوب السامي الجديد للجمهورية الفرنسية في سورية، كمّه بطريقة تلقائية، ثم قال:

- لقد استوعبت جيداً تعليمات الوزير، يا سيد «لوفون». في الوقت الحاضر، هل تحدثني عن السلطان الأطرش؟ فقد بات هذا الوغد يسبب لنا المشاكل.

استغرق «لوفون» وقتاً كافياً، ليجول بنظره حول محيطه، متوقفا بالتتابع عند المقدم «أندريا»، والجنرال «غاملان» الذي عاد للتو من البرازيل ليعين قائد القوات الفرنسية في الشرق، وأخيراً، عند الجنرال «غارني دي بليسيس». كوكبة من النجوم.

- المعلومات التي نتوفر عليها عن الأطرش مقتضبة جدا. عمره نحو ثلاثين أو خمس وثلاثين سنة. رجل وسيم، كما يقولون. ذو شاربين مهيبين على الطريقة البولونية. وهو سليل عائلة درزية مهمة جداً فرضت نفسها على الدوام سيدة مطلقة على الجبل. لقد شنّ

والده، منذ سنة ١٩١٠، الحرب ضد المحتل العثماني، حيث كلّفته حياته. تناول ابنه المشعل، وحارب إلى جانب الإنجليز. وهذا يعني أن الرجل شعر بالإحباط عندما أدرك أنه ووالده جازفا بحياتهما من أجل لاشيء.

- الآن، أفهم عدوانيته ورغبته في إهانتنا فهما أفضل. هل تعلمون أنه شن هجومه يوم ١٤ يوليو/ تموز؟

أجاب «لوفون» بالنفي.

ترك «ساراي» مكتبه. تناول قضيباً أشار به إلى نقطة محددة على خريطة سورية، هي دمشق.

- هل تسير أشغال الزخرفة بشكل جيد، أيها المقدم «أندريا»؟

- نعم، أيها الجنرال. غير أنه مشروع يتطلب وقتاً. فإذا ظلت الوتيرة على حالها، سننتهي بعد بضعة أسابيع.

- جيد.

اندهش «جان فرنسوا لوفون»..

- هل قلت «أشغال الزخرفة»؟

انفلتت ابتسامة غامضة من بين شفتي المقدم «أندريا».

- «الزخرفة» هي المصطلح الذي نستعمله حتى لا نصدم السكان. يتعلق الأمر في الحقيقة بحاجز معدني يمتدُّ على طول نحو اثني عشر كيلومترا، وهو يتكون من شبكة من الخيوط الحديدية الشائكة، تحميها رشاشات آلية.

- وهل يصدقكم السكان؟

- وهل ذلك مهم؟ هل تعلم أنني رأيت صفوفاً من البنادق، لا تخلو من جمال؟

هي وجهة نظر.

- كم عدد رجال الأطرش؟ تساءل الجنرال «ساراي»، وهو يحدق في «غاملان».

- لا نملك العدد بالتحديد. طبعاً، إنهم بالمئات.

تساءل «لوفون»:

- كيف بدأ كل هذا؟ بمناوشة؟ أم خطأ؟

أخذ الجنرال «غارني دي بليسيس» على عاتقه الإجابة:

- أنا مقتنع أن مجيء اللورد بلفور إلى دمشق خلال يونيو/ حزيران شكل جزءاً كبيراً من الانتفاضة.

- بلفور؟ تجرأ على الظهور هنا، أمام العرب؟

- نعم. ما كادوا يعلمون أنه يعبر شوارع المدينة، حتى خرج شباب، مجانين غاضبون، من المسجد الأموي لعرقلة مرور موكبه تضامناً مع الفلسطينيين ضد السياسة الإنجليزية التي تدعم الصهيونية. وفي الآن ذاته، كانت نسوة يتظاهرن، بالصدفة المحضة، ضد فتوى إمام معتوه يفرض الحجاب. فاجتمعت المظاهرتان في واحدة. وفي اليوم التالي، التحقت حركات مماثلة بدمشق وضواحيها، بينما كانت الأجواء تشتعل في جنوب لبنان، قرب سفوح جبل عامل.

- كل هذا صحيح، أكد المقدم «أندريا». لكن هناك أيضاً مأساة يوم ١٨ يوليو/ تموز، حيث حطّ اثنان من طيارينا عانيا صعوبات قرب قرية إمتان الدرزية، فسجنا على الفور. عندما علمنا بالواقعة، أرسلنا القائد «نورمان» على رأس رتل وكتيبة من الفرسان لتحرير الطيارين.

انخفضت نبرة المقدم، ليعلن:

- لقد قطعوا إلى أشلاء. نجا منهم واحد وثلاثون. قتل «نورمان». بعد ذلك، سار كل شيء بسرعة. لقد حشد الجنرال ثلاث

كتائب تتكون من المشاة الجزائريين والسنغاليين، وسرّيتين من الفرسان، فضلاً عن قافلة مهمة من الذخيرة. لابد من معرفة أن الرجال يسيرون، في مسالك جبل الدروز، على الأقدام والخيول بشكل أسرع من الشاحنات. هكذا حصل فارق مهم بين قافلة الذخيرة والقوات التي كان من المفروض أن تحميها. وسرعان ما استغل الدروز هذا الخطأ، حيث شنّوا هجومهم، فسلبوا القافلة، ثم تبخروا في الطبيعة. لم تتوقف المأساة هنا. إذ أمر الجنرال «ميشو»، الذي لم يكن يتوفر سوى على ما يزيد عن أربعين خرطوشة لكل رجل وبعض القذائف المدفعية، القوات بالعودة.

حلّ الصمت ثانية. ختم «أندريا» كلامه. بالكاد كان صوته يسمع هذه المرة:

- انقضّ الدروز، الذين لم يكونوا ينتظرون سوى هذا التحرك، على رجالنا. حصلت مذبحة. خلَّفْنا وراءنا ألفَ قتيل على الأرض، وجميع المعدات.

أراد «ساراي» أن يلطف الأجواء.

- سادتي، إنه الماضي. لننظر إلى المستقبل. فالانتفاضات تتركز في ضواحي دمشق، انطلاقاً من واحة الغوطة. هكذا، قررت حالة الحصار.

حدّق في «غاملان».

- أيها الجنرال، لك الصلاحيات المطلقة للدفاع عن المدينة مهما كان الثمن. لا جدال أن دمشق ستسقط. لا جدال في ذلك! واضح؟

عاد ليجلس خلف مكتبه، وهو يكرر:

- لا جدال؟

شعُر «لوفون» أن المندوب السامي كان يسعى إلى إقناع نفسه.

لم يتجرأ على أن يتخيل ما سيجري لو انتقلت المعارك إلى الشوارع الضيقة في دمشق أو حلب. ستحدث مجزرة حقيقية ورهيبة.

*

القاهرة، في اللحظة ذاتها

أبعد فريد لطفي برفق صحنَ الملوخيَّة بما تبقى فيه، ثم تنهَّدَ تنهيدة عميقة:

- سأختنق، يا أولاد. نأكل كثيراً. كثيراً جداً!

انفجر تيمور ضاحكاً:

- أنت شره، يا أبي! ألم تنظر إلى عدد الأطباق التي أكلتها؟ أربعة صحون ممتلئة عن آخرها!

- كُفَّ عن تعليقاتك. لقد أكلتَ مثلي!

- صحيح، لاحظت أميرة. لكن بفارق أنك ستبلغ سنتك الثالثة والخمسين، بينما ابنك بالكاد يبلغ سنته العشرين!

كان الجواب على طرف شفتي لطفي، عندما وصل أحمد ذو الفقار على نحو غير متوقع. كانت ترافقه فتاة عمرها نحو خمس وعشرين سنة، بقدّ رشيق، وجسد أهيف، سمراء اللون.

- اعتذاراتي، أعلن الزائر الحائر. عدنا من جولة في الأهرامات، واعتقدت أن. . .

- تفضل! هتف تيمور، وهو يسارع نحو صديقه. يا لها من متعة أن أراك!

- التحق بنا، قالت أميرة. مازال هناك ملوخية. سأطلب تسخينها. هناك دجاج أيضاً.

تظاهرت بمناداة الخادم، لكن ذو الفقار أوقفها بيده.

- لا، يا خالتي، لا ترعجي نفسك. لقد تغذينا.

- هل أنت متأكد؟ ألحت أميرة. لا تتكلف؟

- لا تكلف، يا خالتي. أؤكد لك. اسمحوا لي أن أقدم لكم نور. أختي الصغرى.

- أختك؟ تساءل تيمور، مذهولاً. أنت متكتم! لم تقل لي أبداً إن لك أختاً!

- بلا شك لأنها كانت، ومازالت، تعيش في الإسكندرية رفقة والدتنا. كما تعرف، والدانا مطلقان.

- كنت على علم بالطلاق، لا بوجود نور.

انحنى بأدب أمام الفتاة الشابة.

- نوّرت يومنا، يا آنستي.

خفضتْ نور عينيها، وقالت بخجل: «أشكركم».

- هيا، قال لطفي باي، اقتربا! اقتسما المهلبية معنا. ولا ترفضا!

سارع تيمور إلى دعوة الشابة للجلوس قربَه، تاركاً عن عمد ابن أخت زغلول يندس في الجهة الأخرى من المائدة.

- هل من أخبار عن مراد ومنى؟ سأل هذا الأخير، وهو يجلس. والصبي؟

- يكبر كريم مثل جميع الصبية، أجابت أميرة. لكنه أعجوبة. في سنته الرابعة، لكنه ملاك، كما تقول أمه. فهو...

- أمي، تأوه تيمور، كُفّي. نحن نعلم أن حفيدك فريد، وجليل، وجميل...

- وماذا؟ أليس من حقي القول وإعادة القول إن هذا يمتعني؟

وضعت يديها على وركيها، وقالت:

- نعم، إنه فريد، وجليل. نعم، إنه أجمل الصبية. قمر كامل! هكذا إذاً!

توجهت نحو المطبخ.

- للإجابة عن سؤالك، قال تيمور، ينتمي مراد الآن إلى لجنة عربية فلسطينية تأسست بمبادرة بعض الوطنيين وخاله لطيف الوكيل.

- لجان، لجان، دمدم أحمد ذو الفقار. لا نجيد، نحن العرب، سوى إنشاء اللجان، كلما أصبحت الحركات السياسية ألعوبةً!

- أأنت من يتكلم هكذا؟ هتف تيمور. أنت، ابن أخت الرجل الذي أسس حزباً ليس ألعوبة بالتأكيد. هل نسيت أن *الوفد* اكتسح الانتخابات منذ عودة خالك من جبل طارق، وأنه يخيف الإنجليز، حتى إن مندوبنا السامي، الجنرال «ألنبي»، هذا الذي كان يلقبه الرجال بـ«الثور الدموي»، وجد نفسه مجبراً على العودة إلى قريته «نوتينغهامشاير»، ليعيش فيها؟ من المستبعد أن تطأ قدماه أرض مصر مجدداً عما قريب، صدقني!

اكتسى صوت تيمور نبرة لوم ليختم:

- ليس أنت، يا أحمد. لا تبخس جهود إخوتنا الآخرين. لا يملك الجميع زغلولاً في صفوفهم، للأسف.

- لا شك في ذلك. لكن انظر قليلاً إلى النتائج! لقد فاز حزب الوفد بـ١٩٥ مقعداً من بين ٢١٤، حيث عُيّن خالي وزيراً أول. ثم؟ أمام استحالة تعديل أي شيء، ورفض الإنجليز القاطع وجبن الملك، انتهى إلى الاستقالة.

لم يعد تيمور ينصت إليه بانتباه.

تركز انتباهه كلّه على نور. لقد عرف نساءً من قبل، لكن الحب لم يكن، باختلاف أغلب رفاقه، إن لم يكن معظمهم، أولوية بالنسبة إليه، والجنس بشكل أقلّ. حرّم على نفسه الاعتراف به جهاراً، لكنه لم يجرب الرغبة أبداً، أو قلما جربها. وعندما كاشف صديقة طفولة،

ضحكت. ولتغيظه، همست في أذنه أن عليه أن يختار الرجال. عبث! ردّ تيمور. حرص على أن يكشف لها ذات مرة، مرة واحدة، أنه انغمس في «الغراميات الإغريقية»، كما يصفها بحياء أستاذه في الفلسفة السيد عبد المجيد، وهو هيليني متمكن. كان عمر تيمور حينها إحدى وعشرين سنة. كانت شريكته أكبر منه بشكل ظاهر. والقول إن هذه الترنيمة الغرامية لم تكن مقنعة يعتبر تهوينا. وفي الحالات كلها، علّمته أن يختار، حيث كان جسد المرأة خيارَه.. جسد امرأة. فليكن. لكن من السهل أن يعثر، في مصر، على ندف ثلجية على أقدام أبي الهول، من أن يعثر على شابة مستعدة لأن تهب ذاتها خارج روابط الزواج. يقصد شابة ابنة عائلة. ذلك أن تناول يد عشيقة يعتبر التزاماً رسمياً وخطوة أولى نحو المسجد، أو الكنيسة، أو المعبد. وفي الأحوال جميعها، ما العمل عندما يكون وصي ما، أو شقيق، أو أخت، مستعداً في معظم الأحوال ليصرخ بسبب أبسط لمسة غير مهذبة؟ ألم يلعب تيمور نفسه هذا الدور مع مراد ومنى؟

- لِمَ لا تجيب؟

أخرجه صوت ذو الفقار من تخيلاته.

- عفوا، قلت؟

- كنت أقول: كيف تستشرف المستقبل؟ ما رأيك في مجريات الأحداث في بلادنا؟

شعر بنظرة الشابة تتركز عليه، وكاد يجيب: «أرى أنني أتزوج نور». كان الأمر غريباً. أجاب:

- أظن أن العمر الاستعماري يسير إلى حتفه. متى سيموت؟ لا أدري. لطالما أردت أن أكون عرّافاً. خلال عشر سنوات، أو عشرين؟ سيضطر كل هؤلاء المحتلين الذين يستغلون بلداناً ليست ملكهم، ولم ينتموا إليها أبداً، إلى العودة إلى بيوتهم ذات يوم.

- عشر سنوات؟ عشرون؟ استاءت نور. يبدو ذلك بعيداً جداً. سأبلغ الخامسة والأربعين، بعد عشرين سنة، وسأصبح عجوزا ودميمة!

- آه! يا ابنتي، تعجب لطفي باي. في المقام الأول، لن تكوني دميمة أبداً. ستصبحين عجوزاً بلا شك، لكن القبح لن يقترب منك! أما الوقت الذي يمضي، ما عشر سنوات أو ألف سنة في نظر التاريخ، إلا ضرطة جاموسة. في الغالب، يقول ابني حماقات، لكن هنا، أعترف أنه على حق: سيرحل الدخلاء.

- اسمح لي، يا لطفي باي، من أين أتيت بهذا اليقين؟

- اسمعي جيداً، يا ابنتي. لا يبقى أحد في بيت لا يملكه إلى الأبد، وفي عائلة تحتقرك، ولا تنتظر إلا شيئاً واحداً؛ أن تخنقك خلال النوم. إذاً، ما أهمية مائة سنة أو ألف؟ لا تنسي أبداً ما يلي: لا تعي الساعة الوقت الذي يمضي. والتاريخ ساعة.

استدارت الشابة نحو تيمور، وهي تبتسم.

- والدك حكيم عظيم.

كاد يجيبها الشاب: «وأنت، إنك رائعة». لكنه سمع سؤالاً مبتذلاً:

- متى ستعودين إلى الإسكندرية؟

*

حلب، اليوم التالي، ١١ أغسطس/ آب ١٩٢٥

كان الرصاص يلعلع من السطوح، والدم يجري على الدرجات التي تؤدي إلى بيت دنيا، والريح ينشر رائحة البارود. والناس يركضون في الاتجاهات كلّها. بدا الحي شبيها بقرية نمل داستها قدمٌ ما. كانت المدافع الفرنسية تردّ من أعلى القلعة.

هجم «جان فرنسوا» على مطرقة الباب، وطرق مرات عديدة. لم يتلق أية إجابة. تراجع خطوة إلى الوراء، ثم صاح نحو النوافذ: «دنيا!»

أين اختفت؟ هل رحلت إلى بغداد؟ لكن رسالتها الأخيرة أكدت أنها لم تنْوِ العودة إلى هناك قبل نهاية شهر سبتمبر/ أيلول. هل غيرت خططها، أمام التمرد الذي انفجر خلال يوليو/ تموز؟ ربما. نظر حواليه، مضطرباً.

فجأة، تذكر كوليج الشامبانيا حيث تقدم دروسا في البيانو! ربما لجأت إلى هناك. اندفع نحو خان الصابون. كان عليه أن يهرب من زوجين فارّين. في مدخل السوق، انتبه إلى تاجر كان يرتب بضاعته - أصناف صابون على الخصوص - بتوتر. سأله:

- هل تعرف أين يوجد كوليج الإخوان المريميين؟

لم يجب الرجل، وهبّ للدخول إلى دكّانه.

أمسكه «جان فرنسوا» من كمّه.

- أين كوليج الإخوان المريميين؟

- اتركني!

- أجب!

- إلى الأمام مباشرة...

- إلى الأمام مباشرة؟ وبعد ذلك؟

- إلى الأمام... حتى باب النصر.

بين الخان وباب النصر مسافة نحو ثلاثة كيلومترات. ما إن وصل «جان فرنسوا» الباب الضخم، أو ما تبقى من رونقه، منذ أن قاد صلاح الدين نصره عبر المدينة، حتى حاول أن يوقف واحداً من الحشود الهاربة، لكن بلا جدوى. ظلَّ الضجيج يصل عنان سماء المدينة، طلقات نار، وقذائف، وصيحات.

ظهر تاجر خضر وفواكه متجول فجأة، صاعداً الشارع نحو وجهة مجهولة. استوى مع «جان فرنسوا»، وهو يجرّ عربته مثل ملعون.

- باسم النبي، صاح الفرنسي، أين كوليج الإخوان المريميين؟ في أي اتجاه؟

دمدم رجل، منغرس الرأس بين الكتفين، بنفس قصير:

- بعد النافورة، يسارا.

- بارك الله فيك!

هرول الفرنسي على الفور في الاتجاه المحدد. بعد بضع دقائق، بلغ مدخل الكوليج، على مقربة من كنيسة غريغورية قديمة. تدلى جرس صغير من طرف سلسلة صدئة. سحبه مرات عديدة. لا ضجيج. انفتح الباب قليلاً، بما سمح باستشفاف وجه كنسي شاحب، بصدر تزيّنه ياقة بيضاء كبيرة ذات ثنية.

- ماذا؟ ماذا تريد؟ سأل متعجلاً.

- دعني أدخل، أرجوك. أبحث عن صديقة. دنيا الصافي، وهي تدرس البيانو عندكم.

تملك الراهب تردد خفي، قبل أن يجيب:

- ادخل، ادخل... بسرعة.

نفّذ «جان فرنسوا».

بيدٍ مرتجفة، أقفل المريمي الباب.

*

أثار شحوب الشابة البالغ انتباه «لوفون». لم تكشف شفتاها المزمومتان أي شيء. وحدهما عيناها السوداوان خانتاها، عينان تكشفان تعباً شديداً.

تلقائياً، ارتمت بين أحضانه أمام نظرة الراهب المستنكرة، مخلّة بالآداب جميعها.

- خذني، همست، خذني... حيث تريد، لكن خذني.

احتضنها بجميع قواه.

من بعيد كانت تنبعث أصوات انفجارات تصمّ السماء.

ظل يحلم، طيلة السنوات الماضية باللحظة التي تقول فيها دنيا: «خذني». كان ينبغي أن ترنّ هذه الكلمة في مثل هذه الظروف.

ستّ سنوات. ست سنوات منذ لقائهما الأول، منذ ذاك المساء في بغداد، حين قالت له بابتسامة ماكرة: «نعم، أي نعم، السيد «لوفون». سنلتقي بلا شك».

القسم السادس

(٢١)

لا شيء يطيب خاطر المرء أكثر من
انعكاس طفولته في عيني ابنه.

طنطا، ٢ يناير/ كانون الثاني ١٩٣٧

«لا تنسي أبداً ما يلي: لا تعي الساعة الوقت الذي يمضي. والتاريخ ساعة،» قال لطفي باي.

كان ذلك منذ اثنتي عشرة سنة.

تبادل تيمور نظرة متواطئة مع نور. كانت متهللة. أما هو، فقد بدا وقوراً في سن التاسعة والثلاثين. كما زاد وزنه. ما كادت تمضي ثلاثة أسابيع على لقائهما الأول حتى تزوَّجا! كان الجميع يتحدث عن حب صاعق بينهما، بينما كان تيمور يفضل العبارة الإنجليزية المختلفة: «الحب من النظرة الأولى»[1].

خلال اثنتي عشرة سنة من الزواج، أنجبا طفلين: هشام الذي يحتفل اليوم بعيد ميلاده الحادي عشر، وفاضل البالغ من العمر ثماني سنوات. من كان يتخيل أن ينقلب وجود تيمور بسرعة، وإلى هذه الدرجة، ما أن حلّ أحمد ذو الفقار رفقة أخته ببيتهم في الجيزة؟

---

(١) Love at first sight.

انحنى على أذن ابنه. شجعه على إطفاء الشموع التي تتلألأ فوق حلوى الشوكولاطة الضخمة. أطلقت والدته العدّاد: واحد، اثنان، ثلاثة! لكن الصغير هشام، بدل أن ينفخ، فاجأ الجميع، مواصلاً العدّ بمكر: «أربعة!» مزيج من الزغاريد. صرخات فرح وتصفيقات تحيّي حفيد فريد لطفي باي. حاول هذا الأخير، الذي تراجع قليلاً إلى الوراء، أن يخفي مشاعره، لكن قلبه كان يخفق اضطراباً.

بحركة خاطفة، خنق عبرات تورمت في زاويتي جفنيه، فانسحب خلسة إلى الشرفة. رأى انعكاسه، وهو يمرّ أمام الكوّة الزجاجية. توقف لبضع ثوانٍ. فاجأته الصورة المقابلة. هل هو هذا الرجل، ذو الشعر الأبيض، والشارب الأبيض أيضاً، والوجه الذي خدّدْته التجاعيد؟ لطفي باي؟ مضت ست وستون سنة؟ هكذا فكر. ألم يكن بالأمس فتى صغيراً، مثل هشام، يطفئ شمعاته بافتخار واستهتار تحت صرخات أبيه وأمه؟ ألم يتلق بالأمس بزة فارس من يدي جده يوسف المدلل؟

بالأمس.

تجري حيواتنا كأنها رمشة جفن. وزمن الاعتياد عليها هو يد تبين لنا المخرج. هل في ذلك جور؟ لا. كان من المفيد بلا شك أن يتنازل عن مكانه ما أن تنتهي المهمة. سيرحل لطفي دون حسرة كبيرة. وإذا كان سيشعر ببعض الانقباض في الصدر، فسيكون من أجل مصر.

خلال اثنتي عشرة سنة، لم يتغير الشيء الكثير. إذ ظل البلد يعيش، أكثر من أي وقت مضى، تحت الهيمنة الإنجليزية، حيث لم يعد *البطل* هنا ليصدح بثورته. كان سعد زغلول قد أسلم الروح ذات صباح من أغسطس/ آب ١٩٢٧، بعدما أصبح خائراً وواهناً.

بعد تسع سنوات، تبعه الملك فؤاد، الذي ظل دمية في يد

الملك البريطاني، إلى القبر، متنازلاً عن عرشه لابنه الوحيد الطفل فاروق، ذي الستة عشر ربيعاً. إذ يروى أن الملك لم يفتأ يفكر، خلال أيامه الأخيرة، وهو يشعر باستحالة شفائه، في هذا المراهق، منشغلاً بأنه سيخلفه على عرش موضوع فوق رمال متحركة، وبأن أمامه الوقت الكافي لاكتساب الخبرة. تأخر كثيراً.

يوم ١٥ مايو/ أيار ١٩٣٦، نزل الملك الشاب الإسكندرية تحت أنظار البلاط المُجْتَمِع بأكمله. همس حينها صحافي إنجليزي، قائلاً: «دانيال في جب الأسود». كانت أول خطوة الفتى هي الانحناء أمام قبر والده الذي ووري الثرى في مسجد الرفاعي. وما أن وصل إلى هناك، حتى عاد طفلاً، كما كان. نسي كل القواعد البروتوكولية، حيث ارتمى على الرخام الحديث العهد، وانخرط في البكاء.

كان الوريث وسيماً. عرضت الصحافة صوره بافتخار على صفحاتها الأولى. إذ نشرت صحيفتا *المصور* و«*إيماج*» (الصورة) عددين خاصين في الآن ذاته حول حداد البلد وعودة الأمير. وبالمناسبة، نشرت، أيضاً، صور أخواته الفاتنات وأمه «نازلي المرعبة». في الواقع، لم يَتَسَنَّ لنازلي أن تحيا إلا بعد وفاة زوجها الذي حبسها في قصر القبة. قيل في الكواليس إن المندوب السامي الإنجليزي الجديد «السير مايلر لامبسن» كان يفرك يديه. فهو لن يتغلب بسهولة على هذا الملك الصغير، الطفل كما كان يسميه.

بدت ابتسامة كئيبة على شفتي لطفي باي. إذ هناك ملك في عامه السادس عشر يقود اثنين وعشرين مليوناً من الرعايا، ويمتلك إرثاً من مائة مليون دولار، وستة قصور وما لا يحصى من الممتلكات الزراعية. فتى أمام راشدين جشعين، في عالم يغلي. فمنذ أكثر من سنة، سقطت إسبانيا فريسة الحرب الأهلية. ويستعد اليابانيون لغزو الصين، وبسط الدكتاتور الإيطالي «بينيتو موسوليني» نفوذه على

إثيوبيا، بينما غادر المستشار الألماني «أدولف هتلر»، الذي يعتبر مخلص ألمانيا، ذات يوم من أغسطس/ آب ١٩٣٦، المنصة الرسمية للألعاب الأولمبية، ليتجنب مصافحة بطل أمريكي أسود، كانت نجاحاته في سباقات ألعاب القوى تهزأ أمام ناظريه بعقائده حول «تفوق» العرق الآري.

لِيَحْمِ اللهُ مصرَ!

لكن لم يحدث، خلال السنوات الأخيرة، سوى تنصيب ملك جديد ووفاة رجل وطني. جرى حدث آخر، لم يلتفت إليه أحد، لكن بدا، يوماً بعد يوم، شبيها بمرض خبيث يغزو جسد الشعب الصغير. ذلك أن معلماً شاباً في عامه الحادي والعشرين، يدعى حسن البنا، كان قد أسس، قبل أكثر من إحدى عشرة سنة، في الإسكندرية، رفقة اثني عشر من رفاقه، جمعية سمّاها الإخوان المسلمين. إذ صدح الرجل مؤكداً أن الوسيلة الوحيدة لتحرير مصر من الوجود البريطاني يمرّ عبر انبثاق «إسلام اجتماعي». ولينال بغيته، اقترح محاربة القبضة العلمانية بالوسائل كلّها، والرجوع إلى العقيدة الوهابية، هذا الإسلام الخالص الذي ينشط في العربية السعودية منذ بضع سنوات.

حسب بعض الشائعات، بات عدد أعضاء حركة الإخوان المسلمين، التي تشكلت في البداية من أربع خلايا فقط، يقترب من ثلاثمائة. لم يكن هؤلاء الأشخاص، في نظر لطفي باي، سوى حفاة ومتشددين، لن تتأثر مصر العلمانية والمتسامحة بتعاليمهم ذات يوم. لن تسود النبتة الإسلامية أبداً!

- بِمَ تحلم، يا أبي؟

ابتسم لطفي.

- بحياتي، بحيواتنا.

ثم أضاف:

- وأنت، يا تيمور؟ هل أنت سعيد؟

- يا له من سؤال! لي زوجة رائعة، وطفلان رائعان، وأبوان استثنائيان. لن أكون راضياً لو لم أكن سعيداً.

- إنها الحقيقة إذن، مادمت تقول ذلك.

- هل تشك في ذلك؟

داعب لطفي شاربه شارداً.

- ألمح المرارة فيك، هي توشك أن تكون شرّاً صامتاً يتملك ذاتك. احترس يا بني، فالرجل المهموم يصبح رجلاً هالكاً بإرادته.

التزم تيمور الصمت.

كان والده عرّافاً جيداً. منذ بضعة أسابيع وهو يغرق في اضطراب مكتوم. بعد جهود بذلها هو وأصدقاؤه طيلة سنوات، وبعد إبحاره في محيطات من الكلمات والعواطف، وجد الجميع أنفسهم في النقطة ذاتها. لم تُفْضِ الثورة إلى أي شيء، ولم يعبأ الغرب بالشرق.

البارحة، جلس هو وأحمد ذو الفقار في مقهى البوسفور، قرب ساحة باب الحديد، يتذوقان عيش السرايا[1]. في الصالون الداخلي، كان زبائن غارقون في خدر جارف يمصّون نراجيلهم. كان أحمد ذو الفقار بدوره يكتشف حالته.

- يا تيمور، لاحظ قائلاً، أشعر بإحباط كبير لديك. أنت على خطأ. لابد أن تبارك الاختبار الذي نجتازه، لا أن تبكي على قدرنا.

- ماذا تقصد؟

- الاختبار يستنزف الضعفاء، لكنه يقوي الأقوياء.

- لتذهب الحكمة إلى الجحيم، يا أحمد! استشاط غضباً.

---

(١) خبز يطهى في شراب ثقيل، ويطيب بالعسل، ويقدّم بقشدة مخفوقة.

حرّك ذو الفقار رأسه.

- تذكر قول النبي: «إنه صبر جميل». العجينة ثقيلة، أتفق على ذلك، لكننا خميرة جيدة.

- افتحْ عينيك، اسمع، يا صديقي، نحن، أنت وأنا، نائبان عن الوفد منذ أربع سنوات، لكننا لم نهتم أبداً بتمرير أي قانون.

- لقد أطلقت صرخة استنكار في الجمعية منذ زمن. هل نسيت ذلك؟

كان تيمور قد صرخ بالفعل في غمرة جلسة برلمانية: «الوضع الذي يتمدد يدين أمام العالم حالتنا كبشر من الدرجة الثانية!» كان خطيباً بليغاً، أنصت إليه أيضاً رفاقه الذين يمقتهم القصر، حيث شكلت هذه الصرخة عناوين عريضة في الجرائد. لكنها نُسيت بعد أسبوعين.

- يسود طفل مصرَ في الحاضر، استأنف تيمور، ونحن نعرف حق المعرفة أنه سيمنع من العمل، شأنه شأن أبيه، حيث سيخرسه سرب من البعوض المزركش. حتى الصراصير في هذا البلد هي طوع القصر والإنجليز! إنه الضجيج الصاخب ذاته الذي يرافق هؤلاء الطغاة دائماً: خطوة إلى الأمام، وخطوتان إلى الوراء، على غرار خطوة الثعلب التي ترقصها الدوائر الغربية في القاهرة. ما أخشاه هو أن ننتهي، في ظل هذا النوع من السلام البريطاني المفروض على العالم العربي، إلى إيجاد بعض الرفاهية، والتخلي عن المراقبة. نحن ملعونون!

- لا، يا تيمور. لا. نحن نجتاز اختباراً طويلاً. عمّي رحمه الله لم يعد بيننا. لكن غداً سيخرج آخرون من الظل.

- رجال آخرون؟

تظاهر تيمور بالنظر إلى الزبائن من حوله.

- أينهم؟ لا أرى هنا إلا نياماً. نعم، مصر نائمة...
- إذن؟ دمدم فريد. هل تجيبني؟
أعاد سؤال والده تيمور إلى الحاضر.
- لا، غمغم، كل شيء جيد، ولو أن هناك بعض المرارة.
تاهت نظراته في مشهد حقول القطن التي تمتد على مدّ البصر.
قال أحمد ذو الفقار: «غدا سيخرج آخرون من الظل».
أين؟ من أي ركن في أرض مصر سيأتون؟ هل رأى أحدهم النور؟

على بعد نحو أربعين كيلومتراً من هنا، في اللحظة ذاتها، وفي مدرسة متواضعة بالقاهرة، ثار شاب عشريني، لكن دون أن يرفع صوته. كانت ملامحه كلّها ترتعش. يلتهمه شغف الموضوع. السياسة. السياسة. مصر. مصر. حاول أساتذته تهدئة حماسته. بقي على حاله صعب المراس. بل قيل إنه ينظم لقاءات عنده، في البيت الصغير الذي يسكنه بشارع خميس العدس، أو في حديقة مسجد سيدي الشعراوي، حيث اعتاد أن يذهب للدراسة أو التأمل.

الرجل طويل. طوله متر وثمانون سنتمتراً. عيناه سوداوان. ابتسامته ساحرة وقاتلة في الآن ذاته. كل شيء فيه يتنفس القوة والعزيمة والجرأة.

اسمه جمال عبد الناصر...

*

القدس، ٤ يناير/ كانون الثاني ١٩٣٧

طبطب «ديفيد بن غوريون»، واسمه الحقيقي «ديفيد غرين»، على يد يوسف مرقس بمودة.

- هل تريد أن أخبرك، يا صديقي؟ الجواب عن سؤالك بسيط: مصير إسرائيل سيقوم على قوتها وفهم عدالتها. العنصران لا يقبلان الانفصال.

وافق يوسف على رأيه، وهو يهز رأسه.

يدهشه هذا الرجل دائماً بحيويته وذكائه، وخاصة بروحه المستشرفة الاستثنائية. لا الجوع، ولا الفقر اللذان عاشهما، ولا أزمات حمى المستنقعات التي تناوبت عليه دون إشعاره وتركته منهكا ومنكسراً... لا شيء يمكنه أن يسيطر على شخصيته. وعلى غرار مرقس، جاء من بولونيا نحو سنة ١٩٠٦، في سن التاسعة عشرة، من مدينة صناعية صغيرة، هي «بلونسك» التي تقع على بعد نحو ستين كيلومتراً من وارسو. هو ابن محام، اكتشف الصهيونية، وهو يتابع حوارات عشاق أرض صهيون من خلف باب مكتب والده، مع فارق أن هؤلاء يكتفون بمناقشة الصهيونية، بينما «ديفيد» يريد أن يحياها. هكذا، شدَّ الرحال إلى فلسطين، حيث سرعان ما بدل اسمه «غرين» بـ«بن غوريون». في الواقع، ليس الاسم «غرين» عبرانياً، بينما يجسد الاسم «بن غوريون» - الذي يعني «الشبل» - بطلا بالقدس في زمن الرومان.

- اسمح لي، يا «ديفيد»، تدخلت إرينا مرقس فجأة. لا يفكر الجميع هنا مثلك. أنت تعرف ذلك حق المعرفة. فالعرب يشعرون أنهم تعرضوا للسرقة والإهانة والاحتلال. كيف السبيل إلى إقناعهم بقبولنا؟

لم تعد ابنة يوسف مرقس، التي تبلغ سنتها السابعة والثلاثين، تلك الفتاة الهشّة التي كانت تتقاسم في السابق ألعاب حسين شهيد. تزوجت منذ سبع سنوات بـ«صامويل برونشتاين»، وهو بولوني من مدينة «أوتووك»، وأنجبت «أفرام»، وهو في السادسة. تنازلت الطفلة

عن مكانها لفائدة امرأة ذات شقرة متلألئة، طويلة القامة، مربوعة الكتفين، تتميز بشخصية متطوعة، ومظهر يكاد يكون رجولياً.

مرّر «بن غوريون» يده مرات عدة على شعرها الذي وخطه الشيب. تأمل إرينا لحظة، قبل أن يعلن:

- أن نقول لهم الحقيقة.

قطّب حاجبيه.

- نعم. تكمن الخطوة الأولى نحو تفاهم بين الشعبين في عدم إخفاء الحقيقة الكاملة والتامة عن الشعب العربي: ثمة شعب يهودي يتكون من سبعة ملايين شخص، يطمح بالنظر إلى غريزته في البقاء، وهو مجبر على الطموح، إلى جمع الحد الأقصى الممكن من أعضائه في فلسطين. أنت على حق، يا إرينا، عندما تلاحظين أن هذا التوق لا يشاطرنا فيه، ولا يأمله عرب فلسطين الذين يريدون الحفاظ على واقع الحال في البلد المتميز بهيمنة ديمغرافية عربية محضة. هكذا فقط، لا يملكون الخيار. فمن الضروري أن يفهموا أن عودتنا إلى صهيون يسندها عامل قوي: حتمية الحياة، وإرادة شعب تشرعنها آلام ألفي سنة من التاريخ.

توقف «الشبل» لحظة قصيرة، قبل أن يستأنف:

- بناء على هذه القاعدة فقط - اعتراف العرب بهذه الحقيقة - سيصبح من الممكن الوصول إلى تفاهم متبادل. و...

همّ مرقس بالاحتجاج، لكن لم يتح له الوقت.

- اصبر، يا جوزيف! أضيف وأحدد: لن يصبح هذا التفاهم ممكناً دون اعتراف من جانبنا بحقيقة أخرى: نحن أمام جماهير عربية استقرت في فلسطين منذ مئات السنين، ولد أجدادهم فيها وماتوا، وهم يعتبرون هذه الأرض بلدهم، بلدا حيث يريدون، أيضاً، أن

يعيشوا اليوم، كما في المستقبل. إذاً نحن ملزمون بأن نقبل بهذا الواقع، وبأن نستخلص منه الخلاصات التي تنتج عنه. إنها القاعدة ذاتها لأي تفاهم حقيقي بيننا وبين العرب.

- إنها أمنية مرغوبة، يا «ديفيد»، ابتسم يوسف مرقس. تتصور جيداً أن التفاهم الذي تطلبه لن يصدر في المقام الأول عن العرب، لأنهم لا يفهمون ما يمثل لنا حقيقة نهائية؛ أي رغبة الشعب اليهودي في امتلاك وطنه الخاص.

- تماماً. وحدها زيادتنا العددية في البلد يمكنها أن تقودهم إلى إعادة النظر في وضعنا، والاعتراف بأنه لا دخل لهم في يهود فلسطين، بل في الشعب اليهودي برمته. إنها مسألة وقت.

- هو إذن الوقت الذي يقهرهم، لاحظت إرينا. الأمر الواقع، مثلما يعلنه آل «جابوتينسكي» وآل «ستورن» وآل «بيغان» ومتشددون يمينيون آخرون.

أطلق «بن غوريون» صرخة، تكاد تكون زئيراً.

- لا! لم أستشرف هذا الأمر أبداً. إنني أعي تمام الوعي أن بيننا أشخاصاً يرفضون الاعتراف بوجود سبعة ملايين عربي في فلسطين، ولم يستخلصوا الخلاصات التي تفرض هذه الحقيقة. لكن يوجد في العالم، حسب رأيي، مبدأ راسخ: حق تقرير المصير. وقد كنّا نحن أنفسنا ندافع، على الدوام، وفي كل مكان، بحماسة عن هذا المبدأ. إننا نقف بهمة مؤيدين حق كل شعب في تقرير المصير، وكل جزء من شعب ما، وكل جماعة بشرية، ولا يخامرنا أي شك في أن للشعب العربي في فلسطين هذا الحق في تقرير المصير. إذ يجب ألا يُقيَّد هذا الحق، وألا يُشرَط بما قد يجرّه علينا من نتائج. ولا ينبغي أن نقيّد حرية تقرير المصير العربي، خشية أن يجعل هذا الأمرُ عملَنا صعباً أكثر. فالأساس الأخلاقي، الذي هو قاعدة المثل

الصهيوني، هو التصور الذي به يمثل الشعب - كل شعب - غاية في ذاتها، لا الوسيلة التي تملكها الشعوب الأخرى، والتي يستعملونها لغايتهم الخاصة. لا يمكن أن نعتبر عرب فلسطين وسيلةً، ولا أن نقرر حقوقهم حسب مخططاتنا، حتى في الحالة التي يقوم فيها كل شيء تماما على إرادتنا[١].

تنفس الصعداء وتساءل:

- هل كنت واضحاً، يا أصدقائي؟

وافقت إرينا بابتسامة.

- لنأمل فقط، أن يشاطر هؤلاء الأشخاص الآخرون الذين أشرت إليهم، أولئك الذين يرفضون الاعتراف بوجود سبعة ملايين عربي في فلسطين، حكمتك، يا «ديفيد».

*

باريس، ٥ يناير/ كانون الثاني ١٩٣٧

التزمت دنيا الصمت، وهي تتكئ على الجسر الجديد، لكن بهجتها السابقة انقلبت حزناً. لاحظ «فرنسوا لوفون» تبدل مزاجها.

- ماذا دهاك، يا ملاكي؟ إنك تبتعدين.

وجهت له ابتسامة غامضة.

- أنا هنا، وهناك.

- بغداد؟

أشارت إلى مياه تجري تحت الجسور الصخرية.

---

(١) أقوال بن غوريون خلال المؤتمر الأول لحقيقة أرض إسرائيل، «من أجل فلسطين عمالية»، في برلين سنة ١٩٣٠. راجع: بن غوريون، *من الحلم إلى الواقع*، منشورات ستوك، ١٩٨٦.

- أعيش في باريس منذ اثنتي عشرة سنة، وهو انعكاس أتحكم فيه دائماً بشكل جيد: أهو نهر السين أم دجلة؟

- تتشابه الأنهار جميعها.

- لست متأكدة من ذلك. في الحالات كلها، فهي لا تملك التاريخ ذاته.

- من الوارد أن أرحل إلى فلسطين قبل نهاية السنة. هل تريدين مرافقتي؟ بعد ذلك، يمكننا أن نزور نضال في بغداد، إذا رغبت في ذلك.

أشرق وجه دنيا بفرحة شبه طفولية. احتضنته. انقضت عشر سنوات دون أن تَهِنَ حماستهما في أي لحظة. ولو لم تحدث هذه الثورة السورية، لظلّت ربما في حلب، ولذابت سيرتهما في الإحباط والمللطيلة الوقت الماضي. ثمة مأساة حقيقية غير هذه الثورة. إذ أحرقت قرى، وشنق متمردون دون محاكمة، حيث عُرضت جثثهم على أنظار السكان في ساحة دمشق الكبرى، وفُجّرت المدينة طيلة ثلاث ليالٍ بوابل قذائف مدفعية الجنرال «غاملان»، ثم دمرتها ألسنة النيران. ومع مرور الأسابيع، كان لقمع الجيش الفرنسي أثر عكسي غير ما كان مأمولاً. ويوماً بعد يوم، التحق متطوعون من كل الأعمار بصفوف المتمردين، ولم يكن أي هدف في مأمن من رجال سلطان الأطرش. فامتد الصراع ضارياً طيلة عامين. ولو لم تظهر الخلافات حول الغاية التي ينبغي تحقيقها وطريقة بلوغها بين مختلف العائلات والطوائف السورية، لاستمرت المواجهة مدة أطول.

أمسك«لوفون»بيد دنيا، وساراً ببطء نحو الضفة الشمالية. كان الجو رطباً ونقياً. اكتست السقوف لونا وردياً مع اقتراب المساء. كان الشتاء يزحف على باريس التي وقعت فريسة أشكال مختلفة من التوترات الاجتماعية: البطالة، الأزمة الفلاحية، شلل التجارة.

ناهيك عن الفضائح السياسية والمالية، ليست قضية «ستافيسكي» أقلّها. كانت الجمهورية الثالثة تتابع طريقها نحو الهاوية. من حسن الحظ أن المعرض الدولي فتح أبوابه عشرة أيام قبل ذلك، مغدقاً نسمة أوكسجين على مجتمع يعيش متوتراً.

- البارحة، قال «لوفون»، بينما كان يسيران على طول رصيف «كونتي»، أنهيت قراءة *مذكرات لورنس*. يا له من رجل، ويا له من قدر! يبدو الاثنان معقدين كذلك.

أخرج ورقة من جيب سترته، ثم أخذ يقرأ:

- «كل الرجال يحلمون، لكن بشكل متفاوت. فالذين يحلمون خلال الليل في الزوايا المغبرة بروحهم يستيقظون في النهار، ليكتشفوا أن الحلم ليس سوى أضغاث؛ لكن الحالمين النهاريين خطرون، لأنهم يستطيعون اللعب بحلمهم وأعينهم مفتوحة، حتى يجعلوه ممكناً». أليس هذا مهماً؟

- انخدع *الأورنس*، كما كان يسميه العرب، على ما يبدو، بالحلم، واحسرتاه. للأسف. يا لها من نهاية غبية. حادثة سير بدراجة في سن السادسة والأربعين، بينما أمضى ثلاثة أشهر يغازل الموت. يا له من عبث!

علّق «لوفون» مشككاً:

- عبثي ومحبط. لن نعرف أبداً ما يتخفى خلف الإهداء الغامض الموقع في مستهل العمل: «إلى س. أ». هل هو لرجل؟ أم لامرأة؟

- ما الذي جاء فيه؟

- آه، لكنه إعلان حب حقيقي! يهمس أناس في قصر «كي دورساي» أن لورنس كان يميل إلى الذكور، وأن توقيع «أ. س.» يناسب الحروف الأولى من اسم عشيقه سليم أحمد، وهو شاب سوري تعرف عليه عندما كان يتعاطى الحفريات الأثرية شمال سورية.

- عشيق أم لا، أي أهمية! لو أظهر حيطة أكبر، لما وصلنا، ربما، إلى هذا الحد.

- سأخيب أملك، لكني أعتقد أنه حتى لو أدرك لورنس مبكراً أن رؤساءه تلاعبوا به، لتابع مهمته مع ذلك.

- إذن، كان محقاً عندما كتب أن «الحالمين النهاريين خطرون».

*

بغداد، ٦ *يناير/ كانون الثاني* ١٩٣٧

في سن الرابعة والستين، انضاف ملل الجسد إلى ملل الروح. تكلف نضال الصافي ابتسامة، وهو يتوكأ على الأريكة. يذكره الألم الذي يشعر به في الورك بنفسه. ألقى نظرة على الجمع الملتئم ببيت رشيد الكيلاني: ثلاثة نواب، بينهم ابنه شمس الذي انخرط في السياسة، بدل تقلد السلاح.

أطفأ السيجارة، وحاول التركيز على أقوال مضيفهم.

منذ أن توفي عمه النقيب، الوزير الأول السابق في حكومة فيصل، أصبح رشيد وجهاً بارزاً في السياسة العراقية. إذ شغل على التوالي مناصب وزير العدل، والداخلية، وحتى منصب الوزير الأول. ثم تسممت الأجواء سنة ١٩٣٠، لحظة تعيين شخصية في هذا المنصب، لا يمكن أن يكنّ لها إلا الازدراء، وهو نوري السعيد. وهو بلا شك السياسي الذي يلعنه الشعب، وعائلة الكيلاني، وخاصة رشيد. بعد أن ثبطت عزيمة هذا الأخير، أغلق الباب وأسس حزبه «الأخوة الوطنية»، الذي شجع أهداف وطنيين يستلهمون بشكل واسع توجهات مفتي القدس أمين الحسيني، الذي كان ينادي بعقد تحالف مع ألمانيا النازية. إذ كان المفتي يؤكد، لشرح هذا الاختيار، أنه إذا كانت هناك فرصة، مهما كانت ضئيلة،

لكي تتحرر فلسطين من هؤلاء الموبوئين الإنجليز والصهاينة، فإن مصدرها برلين. وكان رشيد قد توصل إلى الخلاصة ذاتها فيما يتعلق بمستقبل العراق.

واليوم، في سن الخامسة والأربعين، تنعكس قناعاته الجديدة في ملامحه المحفورة ونظرته المتصلبة على نحو لا يصدق.

كان النقيب قد مات، والملك فيصل أيضاً.

كان الأمير، الذي وعده لورنس بأن يسود على إمبراطورية عربية، قد توفي في جنيف، بسبب أزمة قلبية بينما كان يشرب فنجان شاي. مات يوم ٧ سبتمبر/ أيلول ١٩٣٣، وَوَجْهُه يستقبل قبلة مكة حيث يسود، في الحاضر، عدوه اللدود ابن سعود، خادم الحرمين ومؤسس المملكة - العربية السعودية - التي بدت أنها منذورة لمصير خارق بفضل الثروة البترولية التي اكتشفت في أراضيها، والتي لم يرها أو يستشعرها أحد، بما في ذلك العقيد لورنس نفسه.

مات فيصل، وكان ابنه غازي الأول، الشاب الخجول العديم الخبرة، والمدافع المتحمس عن القومية العربية والمعارض النافر من إنجلترا، قد تربع على العرش. لم يشك أحد أنه كان يأمل، في سريرة نفسه، بميلاد وطن عربي كبير تحت رعاية عراق حرّ ومستقل. بعيد توليه السلطة، دشّن محطة إذاعية: قصر الزهور، كانت تريد أن تكون أداة دعائية مكرسة للقضية العربية. ثم... بغتة، قلب تطور فجائي كل شيء رأساً على عقب.

في تباشير فجر يوم ١٩ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٦، قاد الجنرال الكردي بكر صدقي، تحت تأثير سياسي خمسيني من أصل تركي، هو حكمت سليمان، هجوماً مباغتاً على بغداد، لينقلب على الوزير الأول آنذاك ياسين الهاشمي. كان ذلك أول انقلاب عسكري في العالم العربي الحديث، والأول في تاريخ البلدان كذلك.

والملك؟ اعتصم غازي الأول بقصره، مرعوباً. والإنجليز؟ تجمدوا.

والبرلمانيون؟ تسمروا في مقاعدهم.

والرأي العام؟ أخرس ينتظر تطور الأحداث.

استدعى بكر صدقي الحكومة، وأنذرها بالاستقالة على الفور.

في العواصم الشرقية كلها، كان الجميع يتابع أحداث بغداد ساعة بساعة. إذ كانت خطابات صدقي تلهب جزءاً كبيراً من الرأي العربي، حيث أعلن: «انطلقت العروبة من نوايا حسنة ذابت في سيول من الكلام، ولم تلهم أي فعل حاسم». وأعلن حكمت سليمان، خلافاً للإصلاحات، محاربة الفساد، وتعزيز الجيش، ورفض الضريبة على الدخل والإرث، وتطوير التعليم، ووضع تشريع اجتماعي متقدم، وإنشاء وحدات اقتصادية. . . باختصار، تطبيق النموذج التركي الذي ابتكره أتاتورك.

إلا أن هذه الأحلام سرعان ما تهاوت. ذلك أن الجماعة، التي ساندت صدقي بعد الانقلاب، لم تحصل سوى على ١١ في المائة من أصوات الانتخابات. تدريجياً، بدأ الناخبون ينأون بأنفسهم عمن باتوا يعتبرونه دكتاتوراً تافهاً.

وفي صباح هذا اليوم من مايو/ أيار ١٩٣٧، أمكن إذن للكيلاني أن يعلن:

- يا أصدقائي، استهلك الجميع. استقال صدقي. وغازي الأول في طريق العودة. غدا على أبعد تقدير، سيستعيد ابن الراحل فيصل مكانه على العرش.

- يا للخيبة! صاح نائب متعجباً. كان لهذا الانقلاب أن يدوم تسعة عشر شهراً، ما هي النتيجة؟ كما قال صديقنا شكسبير: «أسمع جعجعة، ولا أرى طحيناً».

- كان الأمر متوقعاً، أعلن الكيلاني.
- آه، جيد! شخصياً، كنت متأكداً أن أياماً جميلة تنتظر صدقي.
- كان الأمر متوقعاً، لأنه كان يفتقد ما هو جوهري: مساندة جيش حقيقي. لنعترف أن الجنرال خطا خطوة خاطئة لا تُغتفر.
- الجيش؟ سخر النائب. أي جيش؟ فجيشنا لا يخيف ذبابة. طيلة هذه السنوات، أبقاه الإنجليز في حالة يرثى لها، حتى إنه يشبه أي شيء.. إلا أن يكون جيشاً.
- فهمتم إذن، يا أصدقائي، ردّ الكيلاني بابتسامة غامضة: بات كل شيء ممكناً.
- ما يعني؟ تساءل نضال الصافي.
- ما يعني أن بكر صدقي وأعوانه أطلقوا، من حيث لا يدرون، فكرة يخشى أن تخلق منافسين. أنا مقتنع أن آخرين، هنا أو في الخارج، لن يتوانوا عن استلهامها.
- تريد القول إن انقلابات ستحدث في العالم العربي؟
- أعتقد ذلك، بالفعل. عاجلاً أو آجلاً، سينتزع عسكريون السلطة من رجال السياسة. هنا أو في الخارج. يكفي أن يكون هناك رجل مناسب.
نطق رشيد هذه الكلمات بابتسامة اختفت في زوايا شفتيه، هي ابتسامة فتى يستعد للانغماس في لعبة.
دقت ساعة الغذاء. وقفوا جميعاً وتوجهوا نحو صالة الطعام.

(٢٢)

يعطي الأقوى، من الملوك والشعوب والأفراد
خاصة، لنفسه حقوقاً على الأضعف، حيث تتبع
القاعدةَ ذاتها الحيواناتُ والكائناتُ الجامدة،
حتى إن الجميع يسير في الكون بالعنف.

فوفنارغ

القاهرة، أول فبراير/ شباط ١٩٣٧

على أرضية نادي الجزيرة الرياضي المعشوشبة، كان اثنا عشر فارساً من الشباب الأمراء وأبناء العائلات المرموقة وبعض الإنجليز، جميعهم يمتطون خيولاً عربية مسرّجة ومصقولة جيداً، يضربون الكرة بمضارب طويلة، تحت سماء صافية؛ هي رياضة إنجليزية مستنسخة من لعبة أفغانية قديمة. يجري المنادون لالتقاط الكرة، عندما تضيع في الأدغال.

تتابع الزوجات اللاعبين الشجعان، وهن يرشفن «توم كولينز» أو «سينغابور سلينغز»[١]، ويروين حكايات عطلهن الأخيرة في نيس أوراپالو أواسطنبول أوبرايتن أو أغامي.

---

(١) مشروبان إنجليزيان باردان (المترجم).

- آه، ها هي «بيتي»! صرخت إحدى هؤلاء النساء.

مدائح وابتسامات.. وافقت «بيتي»، واسمها الحقيقي «ميراندا لامبسون»، ابنة شقيق المندوب السامي «مايلز لامبسون»، على الجلوس، طالما أن الرفقة ضمت إنجليزيتين. ذلك أن توصيات الإقامة الضمنية تقتضي، في الواقع، عدم معاشرة المجتمع المحلي، إلا إذا كان هناك حضور بريطاني.

- من فاز؟ تساءلت، وهي تستدير بعينيها نحو لاعبي البولو.

- أعتقد «فكتور سيمايكا» والأمير طوسون، أجابت «جوزي برانتن».

قالت بيتي «لامبسون» فجأة:

- هل ستذهب إحداكنَّ إلى حفل الزواج؟

الزواج! كان الجميع يعرف أن الشابة شغوفة حد الجنون؛ وفي كل الأحوال، لن يجري الزفاف قبل ٢٠ يناير/ كانون الثاني المقبل! هذا الحفل - الذي حرّك مصر كلها - سيوحد الشاب فاروق بالشابة الجميلة صافيناز ذو الفقار، التي بالكاد بلغت عامها الخامس عشر، والتي ولدت بالإسكندرية في أسرة تتكون من قاضٍ وسيدة نبيلة كانت موضع اعتزاز الملكة نازلي.

- أعتقد أن اللائحة لم توضع بعد، لاحظت السيدة إلهام رتيب.

- متى ستوضع؟

- قبل خمسة أسابيع، أعتقد.

- آه، عزيزتي!

- وما المشكلة؟ تساءلت «جوزي برانتن».

- عمي غير متأكد من رغبته في اصطحابي. أريد أن يسجلني أحدهم.

- لن يكون ذلك صعباً، يكفي أن تطلبي ذلك من «غيرتي ويسا»، التي تعرف الكثيرين في القصر.

- آه، هل يمكن أن تتوسطي لي؟

- بالتأكيد.

ثم قامت الفتاة وذهبت، دون أن تنتبه إلى الابتسامات الخفيفة التي أثارها توثبها.

ماذا تعتقد؟ أننا سنرقص في قصر عابدين؟

جلس تيمور لطفي وزوجته نور وشقيقها أحمد ذو الفقار في الصفوف المتأخرة. لم يفوت الثلاثي أي جزئية من المشهد.

- ترى، لاحظ تيمور بابتسامة خائبة، ها هي مصر الأخرى تحت أعيننا: تلك التي تعيش في غفلة ورغد. تلك التي لا تبالي بمعرفة أن أمل الشعب يخيب، وتتابع طريقها في حبّ الدنيا والثرثرة. متى تعتقد أن المصريين القلائل الحاضرين هنا، ونحن منهم، سيستفيدون من رخصة استثنائية للحصول على هذا الامتياز...

لم يكن مخطئاً. ذلك أن هكتارات الجزيرة الستّين، التي أنشأتها سنة ١٨٨٢ السلطات الإنجليزية الحريصة على الاستفادة من مكان للقاء جدير بأزيائهم الموحدة وألعابهم البولو وأشواط الكريكيت الأخرى، خصصت حصراً لضباط جلالته، ولم يكن من حق أي من السكان الأصليين اقتحام عتبتها.

أشار إلى المسلك الذي يقود إلى خارج الملعب.

- خلف هذه الحواجز، على بعد بضعة أمتار من هنا، تحتضر مصر أخرى. كيف تريد ألا تتقدم هذه الحركة الجديدة، الإخوان المسلمون، إلى الأمام قليلاً كل يوم؟ لقد وعد رئيسها البنّا جميع التعساء بغدٍ زاهر. ويؤكد لهم أن القانون القرآني هو العلاج الشافي.

وهؤلاء البؤساء يصدقونه، كأن الحجاب حال دائماً دون أن تموت المرأة جوعاً.

سأل نور:

- هل ترين نفسك تلبسين بهذه الطريقة؟ تتنقلين مثل شبح أسود في شوارع القاهرة؟

- تريد أن تضحك، يا عزيزي! لم تتحجب والدتي أبداً، رغم كونها مسلمة جيدة تمارس شعائر الدين، ولا جدتي أيضا! تنسى، أيضاً، أننا نعيش في بلد حيث تعتبر الحركة النسائية، بفضل كبيرتنا هدى الشعراوي، من أقوى الحركات في الشرق. تذكر العمل الاستثنائي الذي قامت به هذه المناضلة منذ خمسة عشر عاماً، بعد عودتها من إيطاليا حيث شاركت في المؤتمر النسائي العالمي. ما أن توقف القطار في المحطة، حتى ظهرت على الممشى، وتجرأت على نزع حجابها، صارخة: «إلى الأبد!» بعثت يومها أملاً حقيقياً بين أخواتنا الخائفات. بعد هذا المثال، كيف تتصور أن تختار نساء بلدنا التحول إلى مومياوات؟ إنه أمر لا يعقل، يا عزيزي. لا يعقل! فضلاً عن...

- اسمحوا لي...

رفع الثلاثة أعينهم نحو تلك التي قطعت الكلام على نور، فتعرفوا على إلهام رتيب، المصرية التي كانت تتحدث قبل لحظات مع ابنة شقيق المندوب السامي.

- نعم سيدتي؟ تساءل أحمد ذو الفقار.

- هل أنتم على علم بما جرى صباح اليوم في ميدان الإسماعيلية؟ إنه أمر فظيع!

- ما الذي جرى، يا سيدتي؟

- نظم طلبة شباب تجمعاً للاحتجاج ضد الوجود الإنجليزي! هل تتصورون ذلك؟ تلاميذ؟ فتيان!

- ثم ماذا؟

- تدخلت الشرطة. حاولت دفعهم إلى إخلاء المكان باستعمال الهراوات، لكن هؤلاء المجانين لم يهربوا. بل قاوموا وراحوا يطلقون شعارات حاقدة على الإنجليز.

- سيدتي، لم هذا الاندهاش؟ لقد شهدت مصر شغباً من قبل. ليس الأمر جديداً.

- آه! أعرف يا سيد ذو الفقار! لكن تصور أن حال الشرطة هذه المرة جمعوا هراواتهم - لن تصدق - واصطفوا إلى جانب الطلبة، وهم يصرخون: *تحيا مصر!* أليس ذلك غير لائق؟ أين سنذهب إذا سمح أبناؤنا لأنفسهم بالنزول إلى الشارع، وإذا تواطأت معهم القوات النظامية! قولوا لي: أين سنذهب!

حدّقت نور في المرأة بابتسامة ممزوجة بالسخرية:

- سنذهب عند انتهاء الاحتفالات في قصر عابدين.

*

القاهرة، اللحظة ذاتها

جلس الشاب إلى طاولة في مقهى معلوم بميدان الأزبكية. في القاعة الخلفية، يصفق لاعبو طاولة بيادقهم، معجبين ومقهقهين. أما الشاب، فقد فضل لعبة الشطرنج، لكن الرقعة الوحيدة المتاحة استأثر بها أفنديان يشبهان قطّين أمام حفرة فئران.

عدّ النقود في جيبه: ستة قروش وثمانية مليمات. لا يساوي المبلغ حتى أجر عامل في اليوم. بينما لم تصل بعد الحوالة التي يرسلها والده شهرياً، والتي بالكاد تكفي لأداء ثمن كراء غرفته وبعض

الوجبات الهزيلة. ربما لم يرسلها. وربما ينتظرون هناك، في قرية بني مر، عودته إلى البلاد، حاملاً شهادته التي ستكون مفخرة للعائلة. اختصاراً، هناك الكثير من «ربما». وفي كل الأحوال، فهو لا يملك المال الكافي لأداء ثمن الرحلة، ويتضور جوعاً. بعد تفكير عميق، طلب رغيفاً و«فولاً مدمساً مع البصل»، قال مؤكداً، مع شاي أسود.

لاحظ المدار يغزوه صرير الترامات، بينما الباعة المتجولون يدفعون عرباتهم. ورجل بسروال فضفاض أبيض يصفق صنجيه النحاسيين، ليعلن للقاهريين العطشى وصوله وشروعه في بيع عصير التمر الهندي الذي يحمله في برميل زجاجي معلق إلى الكتفين بسيور جلدية.

لم يكن الشاب يفكر في أي شيء، أو بالأحرى يسعى جاهداً إلى عدم التفكير. وجده نفسه في تقاطع حياته، وليس في شرفة مقهى معلوم حيث يتأمل مستقبله.

يا للروعة أن يحصل المرء على دبلوم باللغة العربية. لكن وماذا بعد؟ كيف السبيل إلى كسب قوت يومه؟ وفي أي مجال؟

استحضر لحظة البهجة العارمة لمظاهرة ميدان الإسماعيلية، التي شارك فيها خلال الصباح، وفخره بكونه مصرياً، وهو يتذكر أن رجال الشرطة أنفسهم اصطفوا إلى جانب الطلبة.

وفي حركة منفعلة، أخرج قلماً من جيبه، وورقة، ثم كتب:

«قال الله: وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة. هذه القوة: أين هي؟ اليوم، الوضع خطير، حيث توجد مصر في مأزق. يبدو لي أن البلد يحتضر. وخيبة الأمل كبيرة. من يستطيع أن يبدِّدها؟ أين هو ذاك الذي يستطيع أن ينعش البلد، حتى يتمكن المصري الضعيف المهان من أن ينهض ويعيش حراً ومستقلا؟ أين مضى حماس

الشباب السحري؟ اختفى كل هذا، والبلد ينام مثل أهل الكهف. من يوقظه، وهؤلاء البؤساء الذين لا يعون حالتهم أدنى وعي؟

قال مصطفى كامل[1]: «لا يأس مع الحياة، ولا معنى للحياة مع اليأس». في الوقت الراهن، نحن نغرق في اليأس. نتقهقر، يا عزيزي، نتراجع إلى الوراء، نعود خمسين سنة إلى الوراء. يقال إن المصري جبان، يخشى أضعف ضجيج. لابد من زعيم يشجعه من أجل بلده. هذا المصري سيصبح حينها رعداً يرجف صروح الاضطهاد.

لقد أكدنا مراراً أننا سنعمل جميعاً، لننتزع الوطن من سباته ونخرج القوى الخفية التي تغفو في بواطن الأفراد. لكن، واحسرتاه، لم يحدث أي شيء إلى حد الآن. يا عزيزي، أنتظرك عندي يوم ٥ نوفمبر/ تشرين الثاني على الساعة الرابعة بعد الزوال، لمناقشة هذه الأمور كلها. آمل ألا يفوتك هذا الموعد».

وقع اسمه بحركة منفعلة: جمال.

بعد قليل، سيرسل الرسالة إلى صديقه الوفي عمر. وبسبب تركيزه في تحريرها، لم ينتبه إلى أن أحدهم جلس في الكرسي القريب منه. أدار رأسه:

- عزيز!

ربّت الرجلان على كتفي بعضهما، حيث بدا أنهما مطمئنان للقائهما.

ظهر عزيز محرّم أحد أشرس المدافعين عنه في المدرسة. وبما أنه ينتمي إلى عائلة أعيان - بما أن أحد أبنائها كان نائباً عن القاهرة - كانت احتجاجاته تعتبر مضاعفة.

---

(١) سياسي مصري، كان زعيم الحزب الوطني. توفي سنة ١٩٠٨.

ألقى نظرة على فتات الرغيف والبصل، وكأس الشاي الفارغ.

- أدعوك للغذاء.

- أنتَ طيب، يا صديقي. لقد انتهيت...

- هيا، هيا! ستأخذ شيئا آخر؟

حاول جمال مواربة حرجه: ما أن يؤدي ثمن الشاي وأكلة الفول، حتى تتبقى له ثلاثة قروش فقط. حرّك رأسه.

- لم أعد جائعاً حقاً.

- أرجوك. هذه الأمور لا قيمة لها بيننا! أكرر لك: أنت ضيفي.

وافق جمال. اتفقا على حمام مقلي!متع الجنة! وسلطة بقلة، وفلافل أيضاً. نعم.

نادى عزيز على النادل، وطلب ما يراه ضيفه جديراً بمأدبة.

- إذن، يا صديقي! ما هي مشاريعك؟ تكلمْ.

كان ذاك هو السؤال الذي يتهرب منه منذ حصوله على دبلوم نهاية الدراسات الثانوية.

- لا أعرف، قال معترفاً. ليس لي اختيارات كثيرة.

- غير صحيح. أنت تملك واحداً: الجيش.

الجيش؟ هو.. جمال عبد الناصر. ابن ساعي البريد في قرية بني مر؟

- رأيتك في ميدان الإسماعيلية. رآك الجميع.

- وبعد؟

- إذن، أنت رئيس! قائد!

بدأ جمال يضحك. غير أن عزيز محرم كان يتكلم. عائلته صاحبة سلطة وخبرة. فهو جدير بأن يكون مسموعاً.

- أقسم لك، يا جمال، استأنف عزيز، ثق بي. الجيش.

اهتز جمال بقهقهة جديدة.

الجيش؟ وفي قرارة نفسه كان يقول: لِمَ لا؟

طلب عزيز بعد الأكل حلوى كنافة وقهوة. سبعة وثلاثون قرشاً. سبعة وثلاثون قرشاً!

الجيش. نعم. لِمَ لا؟

*

بلودان، سورية، ٦ فبراير ١٩٣٧

اختلست دنيا نظرة إلى «جان فرنسوا». كان يمسح جبهته بحذر. هي نفسها كانت تختنق، رغم أن المدينة تقع على علو ألف وخمسمائة متر، والنوافذ الفوقية في قاعة الحاكم تنفتح على الغروب. يُقال إن كل شيء جامد: الزمن، والمشهد، وحتى نهر البرادة، الذي يتعرج في قلب سهل الزبداني.

مال «لوفون» نحو زوجته، وهمس:

- ألن تحقدي عليّ لأنني دفعتك إلى هذا الفخ؟

- ألست زوجتك الشرقية الخاضعة؟

ابتسم وحوّل انتباهه إلى المؤتمِر. رغم أن هذا المؤتمَر، الذي يسمى مؤتمر بلودان، غير حكوميّ، فهو لا يعدم الفائدة، لأنه يجمع عدداً من الأعيان والنشطاء العرب. ومن بين الأحداث المهمة، ثمة حضور لمصر في المنصة، بعد غيابها السنة الماضية. فضلاً عن هذا، لم يكن المتكلم سوى وزير التعليم المصري السابق.

تنحنح الرجل للمرة الثالثة، ثم استأنف:

- بعد عرض كاتب لجنة الدفاع في فلسطين وخطاب السيد الرئيس، لا أرى ما يمكن إضافته. غير أني أسمح لنفسي، لأكمل واجباً، بأن يوجه المؤتمر تحية تقدير وإعجاب إلى هذا البطل

والمناضل العربي، الذي هو مفتي القدس الحاج أمين الحسيني، علما أنه يتبوأ دائماً الطليعة عندما يتعلق الأمر بما فيه خير فلسطين والأمة العربية. لم أعرف - وما أزال أجهل - الموانع التي حالت دون حضوره بيننا. لكني أريد أن يعلنه هذا المؤتمر، رغم غيابه عنه، رئيساً شرفياً له. سأكون ممتناً لكم إذا قبلتم هذا الاقتراح.

تعالت التصفيقات.

- يسعدني أيضاً أن أؤكد على كلمة اللجنة، علما أن فلسطين ليست للفلسطينيين، بل هي للعرب. هكذا إذن، فالفلسطينيون مكلفون بحماية الأماكن المقدسة. وعلى العرب واجب مساعدتهم على تأمين هذه الحماية، وهذا الواجب يقع على مصر في المقام الأول. لهذا أطالب في هذا المؤتمر أن توافق حكومة مصر وشعبها على الدفاع عنْ فلسطين. فإذا أهملت الحكومة هذا الواجب، لأسباب لا أريد ذكرها، فعلى الشعب المصري أن يقوم به.

ارتفعت عاصفة تصفيق جديدة.

- إن وجود شعب غريب في فلسطين يساوي وجود غنغرينة في الجسد العربي!

انطلقت همهمات موافقة من هنا وهناك.

- سادتي! سيقتضي تقسيم فلسطين منح اليهود أرضاً، العرب فيها أغلبية. ومثل هذا التقسيم سيجبر هؤلاء، إذن، على الهجرة. واليوم، يسعى الغربيون، الذين أمضوا قروناً يرهبون اليهود، إلى إعادة إدماجهم في وطنهم الأصلي، بدَعوى أن لهم تاريخ في هذه المنطقة. إنها خطوة يأبى الشرف والكرامة أن يقبلاها!

أشار «جان فرنسوا» خلسة لدنيا إلى أن وقت المغادرة قد حان.

في الخارج، كان الجو مايزال جامداً. كان البدر ينير المشهد على نحو لا يُصدّق. سارا على طول طريق تحفه أشجار اللوز. في

الأعلى، في السماء الليلية، تبرز تشكيلة صليب الجنوب في اللانهائي.

- لماذا هذه المغادرة المستعجلة؟ اندهشت العراقية.

- لأن قلبي منقبض جدّا. يحدث لي ألا أسمع نبضاته. نحن على وشك أن نجد أنفسنا أمام طائفتين لا تطمحان إلا للاقتتال. هل سمعت خطاب المصري: «إن وجود شعب غريب في فلسطين يساوي وجود غنغرينة في الجسد العربي». لست قديساً، لكنني مقتنع أن العرب سيمضون العقود المقبلة في محاولة بتر ما يعتبرونه دائماً جسداً مريضاً.

غيّر الموضوع، واحتضن دنيا.

- أفكر دائماً فيما قلته ذات يوم في صيغة دعابة: «لو امتلك نوح نعمة قراءة المستقبل، لأغرق السفينة بلا شك». وأنا أعتب عليه عدم تملكه هذا النعمة.

احتمت به. صارت فجأت أشبه بطفل مذعور.

- أحبك، يا دنيا، أتعرفين؟

أبدت وجهاً عابساً مكذباً.

- أجل. لكن ليس بما يكفي. ليس كثيراً في رأيي.

هز رأسه موافقاً، تناول يدها، ثم جذبها نحو السيارة المركونة قرب بناية مقر الحاكم. كان جنديان فرنسيان يرمقانهما، مشتبهين فيهما.

عندما أدار «جان فرنسوا» المحرك، كان الجنديان مايزالان يتابعانهما. تحركت سيارة «شيفرولي سيدان» في سحابة غبار. وعلى وميض مصابيحها، كانت الطريق تنحدر متعرجة نحو سهل الزبداني وغاباته.

فجأة، أوقف «جان فرنسوا» السيارة على حافة الطريق، عندما بلغا ممرّاً صخرياً ناتئاً.

- ماذا يجري؟ انشغلت دنيا.

على سبيل الإجابة، لامس شفتيها وجوف عنقها.

أطلقت ضحكة خفيفة.

- ألا تعرف أن الفندق غير بعيد؟

- ليس كثيراً في رأيي. جميل ما قلته.

- أنا...

لم تكمل جملتها.

التصقت شفتا «جان فرنسوا» بشفتيها. كان لساناهما يبحثان عن بعضهما البعض، يلتقيان، ليضيعا من جديد.

كانت ترتدي حذاء بكعب عالٍ، وقميصاً أسود. فتح القميص. نزعت الحذاء، وهي تفرك كعباً بآخر، وتخلصت من تنورتها. فرقت فخذيها، رفعتهما، متكئة على لوحة القيادة. اضطجع فوقها جزئياً. دسّ يديه تحت فخذي دنيا، مجبراً إياها على الانحناء حتى تستقبله بشكل أفضل. أطلقت صرخة. تمددت حدقتاها لحظة وُلوجه فيها. صرخة ثانية، وثالثة أعنف، كأن كل واحد منهما يغذي رغبة الآخر التي تتصاعد بلا رحمة.

*

بغداد، ١٨ فبراير/ شباط ١٩٣٧

كان نضال الصافي يأكل بطيخاً تحت أنظار زوجته المتألمة. البارحة، استقال من آخر منصب ظل يشغله: كاتب الاتصالات. والسبب الرسمي سنّه. فهو يبلغ الرابعة والستين. إنها سنّ التقاعد. لكن السبب غير الرسمي هو انتماؤه إلى حزب الكيلاني.

- يجب ألا تشغل بالك، قالت سلمى بنبرة آسفة. في كل الأحوال، حان الوقت لتستريح.

وافقها نضال الرأي بإيماءة خفيفة.

- أكملت حياتي. إنها ورائي، خيراً كانت أو شرًّاً. لا. أنا منشغل ببلدي. نحن نسير إلى الهاوية. بالطبع، أنحى غازي، البارحة فقط، في خطاب إذاعي، باللائمة بقوة على السياسة الإنجليزية في المنطقة. لكن ما الفائدة أن تعطي حماراً ميتاً تبناً، فما الذي يستطيع فعله من دون جيش؟

- ألم تقل، قبل قليل، إن الجيش يتشكل تدريجياً، لكن بصورة أكيدة؟

- بلى. لكن ببطء شديد جداً. ذلك أن الإنجليز يعرقلون ذلك بكل الوسائل و. . .

سمع صوت الجرس.

توجه خادم لفتح الباب.

عندما عاد، كان مرفوقاً برجل مدني شاحب الوجه.

- أرسلني صديقك رشيد الكيلاني، يا سيدي. ترجاني أن أخبرك.

- ما الذي جرى؟

- بينما كان الجنرال بكر صدقي في مهمة في الموصل، وقع في كمين نصبه الضباط. فقتل.

هزّ نضال كتفيه، ظانًّا أن الكردي ضيّع كل شيء على نحو حاسم: انقلابه العسكري مثل موته.

توجه نحو صندوق خشبي مرصع باللؤلؤ والفضة. أخرج منه قنينة كونياك، وصبّ لزائره كأساً صغيرة.

- خُذْ، قال، اعتبرْ هذا الشراب دواء.

صبّ لنفسه أيضاً.

وهو يبلل شفتيه، تساءل في قرارة نفسه: «من سيكون التالي؟»

*

فلسطين، ٢ مارس/ آذار ١٩٣٧

كان أول شاهد فلاحاً يدعى عمر فرحان من ضواحي نابلس.

استيقظ كالعادة على صياح الديك. مطّ عينيه: على بعد خمسين متراً من بيته، كان هناك سياج في الأفق. سياج؟ لكنه لم يكن موجوداً البارحة مساء! خلفه ارتفعت بيوت بيضاء حديثة العهد. هل كان يحلم؟ اقترب. كانت فرق تبني هياكل خشبية، وتُثبت عليها ألواحاً وحواجز. بيوت أخرى! يشرئبُّ عمر فرحان بعنقه: هناك، ينصب المرصصون مجاريَ، بعضها يؤدي إلى حفرة كبرى انتهت من حفرها حفارة، وبعضها يقود إلى سرادق أرضي كبير حيث تصرصر مضخات. ونساء، أجل، نساء يثبتن نوافذ على جدران مبانٍ خرجت من الرمال.

يظهر أن هؤلاء الرجال باتوا يعملون الليل كله، على ضوء كشافات ضوئية يغذيها مولّد كهربائي موضوع فوق شاحنة.

ونساء، أيضاً، يزرعن شجيرات...

لا شيء من كل هذا كان موجوداً البارحة!

لكن هؤلاء الأشخاص... هؤلاء الأشخاص يسدّون طريق الولوج إلى بئره!

صرخ. رفع بعض الأشخاص في الجهة الأخرى من السياج أعينهم، عرفوه من خلال الذقن.

- أنتم تحولون دون الوصول إلى البئر! احتج.

أجابوه بلغة غير معروفة.

رجع على أعقابه. روى لزوجته وأولاده ما رأى. امتطى حماره دون أن يحتسي حتى شاي الصباح، وخبّ حتى المدينة، حيث حلّ عند العمدة.

وجد هناك فلاحين آخرين، يرويان القصة ذاتها.

- هناك ما يفقد العقل! نبيت في بلد، لنصبح في آخر!

- لم يعودوا يشترون الأرض، بل يستولون عليها! اندهش العمدة. بهذه الطريقة، أنشأوا من قبل ثلاث قرى في المنطقة!

كيف يمكنه أن يدرك أن ما بدأ هو عملية «هوما أوميغدال» (جدران وبرج)، التي تروم إقامة إحدى وخمسين بلدة صهيونية جديدة على امتداد ثلاث سنوات؟ لابد أن تكتمل فجأة وبسرعة، حتى يوضع الإنجليز والعرب أمام الأمر الواقع.

رفعت السلطات الإنجليزية الأكف إلى السماء: ماذا تريدون؟ لن نهدم هذه القرى في كل الأحوال.

استأنفت الأسلحة، التي لم تكف عن الحديث منذ سنة، لغة الموت أكثر من ذي قبل. إذ بات صوت التفجيرات، خلال الليل في القرى، مألوفا أيضاً أكثر من نقيق الضفادع.

*

القدس، في اليوم التالي

كان الغرض من الابتسامة الخفيفة التي اخترقت لحيته بعث الاطمئنان. لكنها كانت بعيدة عن أن تكون كذلك.

في بيته الفاخر في المدينة القديمة بالقدس، كان الحاج أمين الحسيني قد اتخذ مكاناً فوق أريكة خشبية ضخمة ثمينة، مرصعة باللؤلؤ، قبالة زائره مراد شهيد، الذي جاء يستشيره في وسائل الضغط

على الإنجليز بغية وضع حد لموجات اللاجئين الذين مازالوا يتدفقون على البلد. بدت الأمواج البشرية، منذ إنشاء منظمة الهجرة غير الشرعية، خارجة عن المراقبة، حيث كانت الكماشة تنغلق على فلسطين.

بعد أن احتسى جرعة طويلة، وضع المفتي كأس الشاي الأسود قرب الإبريق النحاسي فوق صينية دقيقة الصنعة.

- يناقش الرجل العاقل قبل المعركة، قال، ليتفادى سفك الدماء. لكن إذا رفض الخصم الاستماع إليه، فإن الشرف يقتضي منه أن يستلّ سيفه. لقد تحدثنا. لم يسمعوا. سنستلّ سيوفنا.

- لا نملك أسلحة، لاحظ مراد.

من جديد، بدت عليه هذه الابتسامة المشعة.

- تماماً. لهذا نحن كلنا جنود. كلنا، كرر المفتي. النساء والأطفال والشيوخ، وحتى ذوو العاهات. سنقاتل بالأسلحة التي نملك. وهل من رجل لا يملك هراوة؟ وإلا ستبقى لنا الحجارة.

تساءل بصوت ناءٍ:

- هل سمعت من قبل بصرخة الحجارة؟

ثم تناول كأسه من جديد، حيث رشف شايه المتبل.

- نحن أقل تنظيماً من اليهود، ذكر مراد.

كانت ابتسامته ساخرة.

- هل تعرف المرارة؟ إنها عبارة عن كيس صغير يعلق بالكبد. فهي لا تمثل حتى الجزء الخمسمائة من جسدك. لكن عندما تتشنج، فإن الجسد كله يعاني، ويجبر على الرقاد، ولا يستطيع القيام بأدنى جهد.

توقف لحظة.

- تقترح أن نناشد أمريكا؟ أشك أنها ستسمعك. من سننادي لنجدتنا؟ بأي سلطة؟ وماذا سنقدم في المقابل؟

باعد الحسيني بين ذراعيه، ليتركهما يسقطان. بدت عليه الخيبة.

- لا نملك بترولا، يا ابني. لا نملك أي شيء نمنحه.

لم يكن أمام مراد إلا الموافقة. في لحظة ما، كان يأمل أن الاستقلال سيرفع صوت العالم العربي بين الأمم. لكن منذ وفاة فيصل، بدا الاستقلال مثل خيمة حفلات مهجورة، مزقتها الرمال والرياح. كيف العيش بهذا الشعور بالعجز؟ كيف؟

في الآونة الأخيرة، نشر الإنجليز تقريراً مفصلاً حول الوضع، حيث اقترح أحد خبرائهم، هو «لورد بيل»، مخططاً. مخططاً؟ لا، إنها إهانة! عار! لقد أوصى بتقسيم فلسطين: يأخذ العرب المنطقة الساحلية، باستثناء يافا وغزة. وسيبقى الجليل، وخاصة القدس، تحت هيمنة البريطانيين. كان التخلي عن جزء من البلد يعني إهانة، لكن منح أجانب المنطقة الأغنى اقتصادياً يعني توقيع شهادة وفاة الفلاحين والمزارعين والصيادين الفلسطينيين. فضلاً عن ذلك، لم يكن العرب الوحيدين الذين لا يقبلون مخطط «بيل» هذا، بل رفضته، أيضاً، الحركة التصحيحية اليهودية. في رأيها ورأي زعيمهم «جابوتينسكي»، سبق لبريطانيا العظمى أن بترت الأردن من أرض فلسطين. صرخ الحاخامات الكبار المنكوبون حينها برغبتهم في الثأر: «لم يتخلَّ شعب إسرائيل طوال آلاف السنوات من المنفى عن حقه في أرض أجداده، ولن يتخلى عن شبر واحد من أرض إسرائيل».

كيف العيش بهذا الشعور بالعجز؟

هل استقرأ المفتي أفكار مراد؟ أعلن:

- بالتضحية بالدماء.

التزم مراد الصمت، بينما تابع الحسيني:

- منذ أبريل/ نيسان ١٩٣٦، ألم أدعُ إلى إضراب عام في فلسطين كلها؟ ألم يحترم هذا الإضراب في ذلك اليوم؟ ألم نعلن أننا لن ندفع الضرائب للبريطانيين؟ ألم يطبق الأمر؟ هل لحق الأذى أهدافنا، سواء تعلق الأمر بالأنبوب العابر من حيفا إلى كركوك، أوخطوط السكة الحديد، أوالقطارات؟

كان المفتي يقول الحقيقة، حيث انفجرت شرارة الثورة العربية منذ عام. لم ينجح في إخمادها الجنود البريطانيون العشرون ألفا الذين جاؤوا لتقديم العون، ولا واحد وعشرون ألفاً من مقاتلي الهاغانا[١]، ولا ألف وخمسمائة من مقاتلي الإرغون[٢]. لكن هل مثّل ذلك حلاً، حيث العنف يولد عنفا ويغذيه؟ لقد حكم على مئات العرب بالإعدام، وقتل أكثر من ثلاثة آلاف فلسطيني، ومئات اليهود، والإنجليز. هل ذلك هو الحل؟

وقف المفتي فجأة، وجال الغرفة، متابعاً كلامه:

- من غير المقبول تسليم بلدنا لأشخاص تحت ذريعة أنهم طُرِدوا أو ضُيِّق عليهم في بلدان أخرى من العالم. فليأْوِهم من يضيقون عليهم! وليؤدِّ الثمن من طردهم!

توجه نحو مراد، وختم:

- بالدم! هل أجبت على تساؤلاتك؟

أومأ مراد شهيد أن نعم، لكن دون اقتناع.

---

(١) تعني «الدفاع» في العبرية. وهي منظمة صهيونية سرية كانت مهمتها حمايتها اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين.

(٢) تنظيم عسكري يهودي تأسس سنة ١٩٣١. اعتبرت الإرغون أول حركة صهيونية «منشقة»، جندت قواتها من بين أعضاء البيطار وحركة الشباب في الحزب التصحيحي، وهي تعارض الصهيونية البطيئة و«الاقتصادية» للحركة العمالية والحرفية.

- سأزور القاهرة وسورية، قال بصوت مكتوم.

- أتصور أنه من أجل جمع أموال جديدة لمكتبكم المستقل في فلسطين؟ إذا لم تخني الذاكرة، ألم يؤسسه ابن خالك لطيف الوكيل؟

- تماماً. بل إننا نتكلم في شأنه جميعاً.

- أخطأتم الطريق، يا إخواني. أكرر لك أن لغة الأسلحة هي وحدها القادرة على إفهام هؤلاء الأشخاص.

- ربما. لكني أؤمن أيضاً بلغة الكلمات. سنطلق نداء إلى الشعوب العربية بغية تحذيرهم من العواقب الوخيمة والنتائج المهلكة التي تهددهم إذا تأكد تقسيم فلسطين هذا.

أطلق المفتي قهقهة مجلجلة.

- قل لي، يا ابني، كم عمرك؟

- ثمانية وثلاثون عاماً.

- أكبرك بستة أعوام. فقط، وأنا أنصت إليك، شعرت أنني بلغت المائة. أنت ماتزال طفلاً. وأنا شيخ. ارحل. اذهب إذن واستجدِ أصدقاءنا السوريين، والمصريين، واللبنانيين... أنا اخترت قصعة أخرى. صدقني إنهم لن يمنحوني قطعاً طنانة وزلقة، ولكن ناراً. ناراً ستهلك أعداءنا بالتأكيد أكثر من لهب جهنم. ارحل، يا صديقي... ستكون لي فكرة رقيقة عنك وعن ابن خالك.

استعاد رسالة من مكتبه، وكشفها لمراد. يتعلق الأمر بدعوة لزيارة ألمانيا.

كانت الرسالة تحمل توقيع «أدولف أيخمان».

في اليوم التالي، تواصل سفك الدماء.

هوجمت حافلة على طريق نابلس - يافا، حيث قُتل ثلاثة مسافرين - يهود - كانوا على متنها مباشرة رمياً بالرصاص عن قرب، ونُهِب المسافرون الآخرون.

وفي المساء، عثر على جثتي عربيين مذبوحين قرب ضيعة موز يهودية. وفي الآن ذاته تقريباً، شاع خبر مفاده أن أربعة حورانيين رُجموا بالحجارة في تل أبيب. إذ كان الحورانيون عمالاً من أصل سوري، جلّهم مهاجرون سريون، يعملون كالعادة حمّالين في الموانئ. ما أن علمَ الحوارنيون باغتيال رفاقهم، حتى تقدموا إلى مقر الحاكم يطلبون العدالة والحماية. وقد سعى مفوض المقاطعة جاهداً إلى أن يُسمعهم صوت العقل، ويشرح لهم أن الأمر يتعلق بأخبار خاطئة، ولا شيء منها في الواقع، فانتشر الحورانيون في الشوارع يصرخون أن الصهاينة يذبحون العرب. وفي غضون بضع دقائق، ارتمت عصابات هائجة على المارة اليهود، تهوي على العجزة بالهراوات. إذ أسفرت الضربات الشديدة عن عنف كبير جداً، حتى إنه لم تتحدد هوية جثتين.

وعلى الطرقات القريبة من يافا، رمى المزارعون بالحجر كل السيارات المارة، حيث جرح ابن قنصل السويد وموظفان ساميان، وسياح بريطانيون جروحاً خطيرة. وفي جنين، تلقى حاج فرنسي وابلاً من الحجارة. بدورهم، لم يقف الإنجليز مكتوفي الأيدي. إذ أصدروا غرامات جماعية ودمروا البيوت التي يشتبه في إيوائها «إرهابيين». بل إن بعض الشهادات ذكرت حالات القتل والاغتصابات التي ارتكبها جنود جلالته.

بالدم، هكذا أكد المفتي. والدم يسيل بغزارة.

في يافا، خلال يوم الاثنين ٤ مارس/ آذار، قتل خمسة يهود وعربيان، وجرح ستة وعشرون يهوديا واثنان وثلاثون عربياً. وفي البلاد كلها تقريباً، أحرقت البيوت والمحاصيل اليهودية.

وفي يوم ٩ مارس/ آذار، أطلق زعماء الحزب الخمسة، من بينهم لطيف الوكيل، نداء للإضراب العام.

وفي اليوم ذاته، أرسل المفتي العام الحاج أمين مبعوثين إلى القرى، طالباً من المسلمين حضور صلاة الجمعة في مسجد عمر بغية الاحتجاج ضد سلوك قوات الانتداب. إذ نزعت الأسلحة من جميع الأتباع الذين دخلوا المدينة القديمة، واستدعي الحسيني إلى مكتب المقاطعة، حيث أخبر أن أي خطاب لن يرخص له، وأن الحكومة ستعتبره شخصياً مسؤولاً، وأن لضباط الشرطة حق إطلاق النار على الفور في حالة مقاومة أوامرهم.

كان للتهديد تأثير، لأنَّ الصلاة جرت دون اشتباكات.

وفي يوم ١٥ مارس/ آذار، دخل التمرد مرحلة جديدة. ففي الناصرية، اغتيل مفوض المقاطعة في الجليل، «لويس أندروز»، على يد عرب، بينما كان يهم بدخول الكنيسة من أجل قداس الأحد. لقد طفح الكيل. نشرت السلطات الإنجليزية مذكرة إحضار المفتي العام. لكن عندما حلت الشرطة في بيته، كان الحاج أمين قد أخلاه. وعلم فيما بعد أنه نجح في الفرار إلى لبنان.

وفي يوم ١٧ مارس/ آذار، أطلقت شحنة متفجرة على عائلة جالسة إلى مائدة إفطار رمضان.

وفي يوم الثامن عشر، قبيل الساعة السابعة صباحاً، أطلق مقاتل يهودي النار على ثلاثة عرب في شارع برحابيا، وهو حي راقٍ في القدس. والحصيلة قتيل وجريح. بعيد ذلك، دوّت طلقات نارية غير بعيد، قرب ورش يعمل فيه نحو أربعين عاملاً عربياً. إذ قتل واحد منهم. وردّ الآخرون بمهاجمة خمسة عشر يهودياً يعملون في ورش مجاور، فقتل منهم اثنان: يهودي وعربي. العين بالعين. والسنّ بالسنّ. لم يطبق قانون القصاص أبداً بمثل هذه السرعة.

*

في آخر شهر مارس/ آذار من سنة ١٩٣٧، كان الشعور السائد يفيد أن الهدوء بدأ يعود.

كان مراد شهيد جالساً على أريكة في الصالون، مستغرقاً بشغف في تأمل ابنه كريم الذي كان يقرأ، ممدَّداً على السجاد، مستندا بقفاه إلى وسادة.

بين الفينة والأخرى، تستولي قهقهة على الفتى، بدون سبب ظاهر. فيضحك مراد بدوره. أجل الضحكة! ويا لها من سلطة سحرية! راقب ملامح ابنه عن كثب. كانت عيناه مدهشتين بالطبع، بلونين مختلفين: واحدة قزحية زرقاء والثانية كستنائية، مما يضفي عليه لمحة فريدة تماماً، بل مؤثرة. من كان يشبه أكثر؟ حسب الظن، فهو أشبه بمنى، إلا أنه شديد الشبه بجدّه. أجل. لكن أيهما؟ حسين شهيد أو فريد لطفي باي؟ هنا تبدأ الاختلافات. واليقين الوحيد هو أن لا يشبه مراداً. فليكن الأمر ما يكون! إذا شاء الله أن يمنحهما طفلاً آخر، من يعرف؟ فإنه سيشبهه. لطالما آمن بالمعجزات. عما قريب ستبلغ منى سنتها السادسة والثلاثين. إنه عمر حيث يكون الحمل محفوفاً بالمخاطر. من يعرف؟

- ماذا يسلّيك أكثر؟ سأل مراد.

- جحا!

- جحا؟ الساذج؟

- أجل. بالتأكيد هو الشخصية الأغبى في الأدب![1] اسمع: «آه، فاطمة عزيزتي، قال جحا، يجعلك المشروب جميلة جداً!»

---

(١) هناك العديد من المجتمعات التي تزعم تملكها شخصية جحا. إنه شخصية أسطورية في الفولكلور التقليدي العربي الإسلامي، شخصية تجمع بين الجنون والحكمة، يقال عنها إنها «ذكية جداً حتى إنها تصبح ساذجة أو ساذجة جداً، فتنتهي إلى قول أشياء ذكية».

«لكني لم أشرب أي شيء، قالت زوجته». «بالطبع، ردّ جحا، فأنا الذي شربت!» غبي، أليس كذلك؟ إنه...

أوقفه صوت حسين شهيد.

- ليس هناك من هو أغبى من الرجال بلحمهم وشحمهم!

تهاوى جدّ المراهق على أريكة، وأشار بسبابته إلى كريم.

- كم عمرك الآن؟ لم أعد ألمّ بالزمن.

- ست عشرة سنة، وقريباً سبع عشرة.

- آه! لا تتعجل. ففي لحظة ما، ستتكلف الحياة بتسريع الأيام بالنسبة إليك. في السادسة عشرة، يسير كل شيء ببطء. وفي الثلاثين، يسرع القطار. وفي الستين، تمضي السنة أسرع من الساعة.

كرّر:

- لا تتعجل. افعل مثل جدّك: لم أعد أذكر عمري، لقد تغير كثيراً!

انتابت الطفل ضحكة خبيثة.

- جدّو! عمرك سبع وستون سنة! سبع وستون!

- لو أخبرته.

حدّق حسين في مراد.

- أين أمك؟

- في السوق، رفقة منى.

- ليس ذلك بالتصرف الحكيم، مع كل هؤلاء المجانين الأحرار. لقد أوصيتها ألا تخرجا!

- اطمئن. يرافقهما سليمان. والوضع هادئ في حيفا.

- سليمان؟ شاعرنا؟ أراه حارساً شخصياً سيئاً.

- تحرر من الوهم، فابني رقيق على نحو كاذب. إذ وراء شخصه المسالم، أشعر به ينطوي على نوبات غضب كبيرة.

- إذن، أنت أعرف مني بحفيدي.

غيّر حسين الموضوع فجأة. وقطّب ملامحه.

- أنا قلق، يا مراد. لا أعرف كيف سنخرج من هذا المأزق.

- أفترض أنك تريد الحديث عن الأعمال. أجل. الوضعية ليست وردية. لكن لا تقلق. سأرافق لطيف إلى مصر وسورية الأسبوع المقبل بغية محاولة جمع بعض الأموال لفائدة مكتبنا في فلسطين. وسأستغل الفرصة للعثور على منافذ جديدة لمنتوجاتنا. لا تقلق.

حرّك حسين رأسه. كان التعب بادياً على محياه. وعلى جبهته الشائخة، حفرت التجاعيد تجاويف.

- ذات يوم، منذ زمن طويل، بينما كنت أعتقد أن منافسينا، «برونسن شيبشاندلرز»، ضاعفوا رقم معاملاتهم في أقل من سنتين، عندما كنا نزرع، هتفت أمام أخيك: «كان يحسن بي أن أعقد صفقتي عندما أراد آل «برونسن» شراء ملكيتي! عما قريب، لن تساوي شيئاً». حسناً، هذا ما جرى. فهي لا تساوي شيئاً!

- هيا، يا جدو، احتج كريم. لا تقلق. أنت تعرف أن ذلك لا يفيد صحتك. فضلاً عن ذلك، بابا على حق. ستستأنف الأعمال ما أن يعود اليهود أدراجهم. إن شاء الله!

ابتسم حسين. لكن ابتسامته توحي بالأحرى بتكشيرة.

- إن شاء الله، يا حبيبي، إن شاء الله!

بسط يديه نحو حفيده:

- تعال! تعال قبّلني.

سرعان ما وقف كريم، وتناول يد جدّه التي حملها إلى شفتيه.

- أنت فتى شجاع. ليحمك الله، و...

فجأة، ظلت بقية الجملة عالقة، كأنها معلقة في الهواء. إذ هزّت شهقة جسد الرجل. حرّر يده ووضعها فوق صدره. تجمد نَفَسُه. سقطت يده مرتخية. زفر. ثم صمت.

- جدو! صرخ كريم، مرتمياً على ركبتيه أمام جدّه. أسرع، يا بابا! إنه مريض. جدي! جدي.

ظنّ مراد، الذي سارع إليه، أنه سمع العجوز يتمتم: «كان يحسن بي أن أعقد صفقتي...».

لكن كان ذلك، بلا شك، مجرد وهم. ذلك أن الأموات لا يتكلمون.

القسم السابع

(٢٣)

كان النورس، بزعيقه وحركات
جناحيه، يجاهد دون جدوى أن ينذرنا
بالعاصفة الوشيكة.

لوتريامون

حيفا، ٢ أبريل/ نيسان ١٩٣٧

كان جريد النخل يتذبذب تحت الريح التي تهب من جهة البحر.

كان مراد وسليمان يدعمان والدتهما، أو يمسكان بها بالأحرى، ليمنعاها من الارتماء فوق جثمان زوجها الذي وضع في القبر. لا دمعة تبلل خدَّي نادية، لأنها بكته كثيراً...

بالقرب منها، بدا وجه سامية منقبضاً. كان من المفروض أن تحتفل اليوم بعيد ميلادها الثاني والثلاثين، وتستغل الفرصة لتقدم للجميع زوجها المستقبلي. ها قد مضى شهران منذ أن بدأت تلتقي بعبد القادر الحسيني، دون علم الجميع، وهو من أقارب شخص يدعى ياسر عرفات، هو نفسه قريب من صديقتها المفضلة خديجة. وفي بيت هذه الأخيرة تعارف الاثنان. ما أن التقت بعبد القادر، حتى تذكرت سامية المزحة التي داعبت بها أخويها من قبل: «الزواج أشبه بالبطيخ: كل بطيخة من عشر تفي بوعدها. هكذا، فأنا أنتظر أن

أعثر على الشخص الطيب». كانت تدرك، في يومها هذا، أنها عثرت عليه.

والرجل سليل عائلة عريقة. فبعد أن أكمل دراساته الثانوية في القدس، التحق بالجامعة الأمريكية في بيروت. لم يلبث هناك طويلاً، طالما أنه طرد، بعد نحو عام، بسبب التزاماته الوطنية. انتقل إلى الجامعة الأمريكية في القاهرة حيث تخرج حاملاً شهادة في الكيمياء. التحق بالمقاومة فور عودته إلى فلسطين. أبقت سامية علاقتهما طي الكتمان، لأن عبد القادر طلب منها ذلك: فمنذ انفجار شرارة التمرد العربي، ترأس جيش الجهاد المقدس، وهو تنظيم مقاوم أسسه المفتي قبيل منفاه إلى لبنان. ظل عبد القادر الذي لجأ إلى أجمة في منطقة الخليل، موضوع بحث من طرف البريطانيين. وحضوره اليوم إلى المقبرة لا يكشف شجاعته فحسب، بل أيضاً الحب الذي يكنه تجاه سامية. للأسف، وبسبب المصاب الذي أصاب العائلة، فإن الزواج المرتقب سيتأجل أربعين يوماً على الأقل.

غير بعيد، وقف لطيف الوكيل وزوجته ليلى. كانت هذه الأخيرة تذرف دموعاً حارة، عاجزة عن التحكم في نفسها. كان يوسف مرقس حاضراً أيضاً، وكذا إرينا وزوجته و«صامويل برونشتاين». لم تفارق عينا مرقس القبر حيث يرقد صديقه القديم. ولولا الموت لما كتب للعربي واليهودي أن يلتقيا.

«يوسف، شهقت نادية عندما قدم لها تعازيه، كيف سيكون حالنا؟ قل لي يا يوسف...».

ظل صامتاً، محاولاً فهم معنى السؤال. لم تكن نادية تتساءل حول مستقبل عائلتها، ولا حول مستقبلها، بل حول مستقبل طائفتها.

*

بغداد، في اليوم ذاته

رشفت دنيا جرعة من الكركديه، مغلقة عينيها حتى تتذوقه جيداً.

- ها قد مضى وقت لم أرك سعيدة، لاحظ «جان فرنسوا». إنه مناخ البلد، لا شك.

- لا. إنها مجرد متعة أن أرانا مجتمعين. في الظروف الحالية، فأن توجد قرب من تحب يُنعش القلب. هكذا، أتلذذ باللحظة.

وافق شمس.

- خالتي على صواب. أظن أنكم تابعتم الأخبار الأخيرة مثلي. يبدو أن الحرب على أبواب أوربا، ومن ثمة، هي على أبوابنا. يُروى أن هذا المستشار الجديد هتلر يوشك على غزو النمسا وبولونيا. أعتقد أن فرنسا وإنجلترا لن تبقيا مكتوفتي الأيدي.

- لا أدري ما ستفعله فرنسا، قال «جان فرنسوا». في اللحظة الراهنة، وفي الأحوال كلها، فهي تبدو عاجزة عن مواجهة هذه التغيرات التي تجري.

- أما إنجلترا، تدخل نضال الصافي، فهي ليست أحسن حالاً. إذ يمضي بعض المحافظين، أمثال «وينستون ترتشل» أو «أنطوني إدن»، وقتهم في الاحتجاج على الوزير الأول «نيفيل تشامبرلاين». مثال حيّ للوحدة.

- ليس ذلك بلا سبب. ردّ شمس. فهذا الرجل يفتقد إلى قفازين. وهو مستعد أن يرد أضعف ضربة.

- ليحفظنا الله، تنهدت سلمى الصافي. فأنتم تشعروني بالخوف. إذا فهمت جيداً، فالسلام لن يحلّ غداً، لا في العراق، ولا في بلاد أخرى.

- إذن، لننتهز اللحظة! هتف «جان فرنسوا».

مدّ كأسه إلى نضال.

- هل تصب لي من شرابك، يا صديقي؟ ثم، سأزف لك خبراً سيفاجئك، ويثير اهتمام زوجتي، كما أعتقد.

قطبت دنيا حاجبيها.

- خبر؟

انتظر الفرنسي حتى انتهى نضال من صب النبيذ، ليعلن بنبرة مهيبة:

- ها أنذا، يا أصدقائي. أنوي أن أتخلى عن الأعمال الدبلوماسية.

تبع صمت مدهش خبره.

- تريد أن تقول... إنك سـ... تستقيل؟ غمغمت دنيا.

- تماما! أمامي سنة أخرى. سأبلغ حينها الخمسين. وسيكون الوقت قد حان لأضع حداً لثلاثين سنة من الخدمات الجليلة والمخلصة، وأكرس السنوات المقبلة للحياة، بكل بساطة.

رفع نضال كأسه.

- أشرب نخب هذا القرار الحكيم!

- ثم أعترف لكم، أنا تعبت. فالقضية السورية هي القطرة التي أفاضت الكأس. طوال شهور، كافحت حتى تبدأ حكومتي مفاوضات مع الوطنيين. ثم قبلت. والنتيجة توقيع اتفاقية بين الطرفين، تنص على أن تعطي فرنسا سورية استقلالها في أجَلٍ مُدَّتُه خمس سنوات، بالطبع مقابل امتيازات سياسية واقتصادية وعسكرية. إذ يحمل كل شيء على الاعتقاد أن الاتفاقية ستقبر نهائياً مع الأزمة التي تطلُّ برأسها.

أفرغ «جان فرنسوا» كأسه دفعة واحدة، واستأنف كلامه، وهو يحدِّقُ في دنيا:

- ذات يوم، طرحت عليّ سؤالاً: «أنت يا «جان فرنسوا»، أين تصنف نفسك؟ في جانب الأخيار؟ أم الأشرار؟ في أي المعسكرين تشعر بالارتياح؟»

- أجل. وأجبتني: «إلى جانب فرنسا». هل غيّرت رأيك؟

- لا. لكن هناك فرق طفيف، حيث لم أعد أريد أن أطيع الأوامر وأتحملها. أريد أن أحاول - بوسائلي المتواضعة جداً - التأثير في سياسة بلدي الخارجية.

- هكذا، لن تستقيل فعلاً، لاحظ نضال بابتسامة. ستشغل مربعاً آخر في رقعة الشطرنج. هذا كل ما في الأمر.

تأمل «لوفون» لحظة قبل أن يجيب:

- أجل. لكن لن ينقلني أحد أبداً على طريقته.

*

بيروت، ٥ أبريل/ نيسان ١٩٣٧

نحن في الربيع. لكن الربيع اللبناني نادراً ما كان رطباً هكذا.

أمسك مراد شهيد يد لطيف الوكيل بقوة.

- لا أفهم! هل فقدت عقلك؟ لم يكن هذا اللقاء متوقعاً! أنت الذي كنت دائماً حليف اللاعنف! ما الذي دهاك؟ أجب! لماذا؟ لماذا يا لطيف؟

- لأنه لم يعد لنا خيار! لأن ظهورنا باتت إلى الجدران. خلال هذا الوقت كله، أنا أيضاً اعتقدت أن اللاعنف كان أسلم السلوكات. كنت مخدوعاً! هل نسيت ما قلته في القاهرة لدى «غروبي»؟ قلت: «اهجموا على اليهود الأبرياء واطردوهم واقتلوهم. ما هكذا سنكسب تعاطف العالم». أنت...

- أجل، يا مراد! لكن هذه الأقوال تعود إلى خمس عشرة سنة! لقد تغيرت الأشياء منذ ذلك الحين!

- لقد جئت بي إلى بيروت بذريعة ملفقة. لا يتعلق الأمر بجمع الأموال، بل بلقاء هذا الرجل. لست سوى مراوغ!

تراجع لطيف الوكيل إلى الوراء أمام الشتيمة.

- احترس، يا مراد! راقب لسانك. لم يربّك المرحوم والدك على تقليل الاحترام تجاه الذين يكبرونك.

- لم يربني والدي، رحمه الله، أيضاً على الاستسلام أمام الغرائز الدنيئة.

حدّق في لطيف، بشفتين مرتجفتين.

- قانون القصاص. هو ما تريد تطبيقه؟ حياة يهودية مقابل حياة عربية؟ طفل يهودي مقابل طفل عربي؟ ابني مقابل ابنة يوسف مرقس؟ ألا ترى أين يقودنا هذا القانون منذ عشرين سنة؟

- اسمعني، يا مراد. أصغ إلي جيداً. بعد ذلك، أنت حرّ في أن تتبعني أو لا. منذ إعلان بلفور اللعين هذا، ينفرط بلدنا بين أيدينا مثل الرمل بين الأصابع. إذ سيطبق مخطط «بيل» على الجميع وضدهم. ألا ترى أن اليهود لم يعودوا مجرد معمرين، بل مقاتلين؟ لقد شكلوا وحدات عسكرية: الإرغون، والهاغانا، وستأتي مجموعات أخرى. يسيرها رجال متعلمون لا يملكون حالاتك الروحية. بيلاروسيون، أمثال «إسحاق شامير»، هذا الذي حرّض على أغلب الهجمات التي كلفت حياة إخوتنا؛ وبولونيون، أمثال «أفراهام ستيرنو» أو «جابوتينسكي»، هذا الذي يدعو إلى عمليات ردّ أعمى ضد السكان العرب. هؤلاء الرجال يشترون الأسلحة من الخارج. ويشكلون شبكات ذات نجاعة هائلة! ذخائر، ورشاشات، وقنابل يدوية، وبنادق، ومتفجرات... ونحن؟ تريد أن نحارب بأيدٍ

فارغة؟ هل هذا ما تأمل؟ لك طفل، ابن وحيد. ماذا تنتظر؟ أن يموت برصاصة في الرأس، لأنك أنت، والده، ترفض التسلح؟

أغلق لطيف، الذي كان مُنهكاً، عينيه كأن المأساة التي جاء على ذكرها سحقته.

بعد صمت بدا غير منتهٍ، قال مراد.

- جيد جداً. سأرافقك. لكن ليغفر لي الله تعالى.

عبرا في صمت «ساحة الشهداء»، هنا حيث شنق العثمانيون، قبل عشرين سنة، بمقاومين لبنانيين. لم يلقوا نظرة على التمثال الذي يجسّد امرأتين، إحداهما مسلمة، والثانية مسيحية، تتصافحان فوق جرّة - في رمزية معبرة. بلغا الميناء. بعد دقائق، وصلا إلى مدخل بيت حجري كبير. أمام الباب تقف سيارة «هورش» فوقها علم أحمر ذو صليب معقوف. أدخل الفلسطينيان إلى قاعة مشبعة بروائح العنبر والبخور.

تقدم رجل للقائهما. قدّم نفسه باسم: «جورج كيلهوف»، ملحق عسكري ألماني. دعاهما إلى الجلوس، بينما تهاوى هو على أريكة.

بعد ثوانٍ من الملاحظة، ارتخى وجه الدبلوماسي الشاحب بشكل غير ملحوظ، وتغضنت عيناه الزرقاوين خلف النظارة الفولاذية الدائرية.

- هل أقدم لكما شراباً؟

رفض الرجلان الاقتراح.

لم يصر الألماني.

- السيد الوكيل، قال بإنجليزية مبحوحة، تقطعها كلمات ألمانية، كانت سياسة الرايخ الثالث فيما يتعلق بالشرق محدَّدة بشكل واضح. إذ لا تملك ألمانيا أي طموح استعماري في هذه المنطقة.

وفي المقابل، فهي تطمح إلى تحرر الشعوب المقهورة بالكامل، وتكرس جميع جهودها لهذا الغرض.

حرّك مراد شهيد رموشه، لكنه ظلّ هادئ الأعصاب. إذ يرى أن جهود الرايخ الثالث المشكورة تتناسب مع سياسة معارضة لإنجلترا بدون فرق، ولو طفيف.

- عرض عليّ أصدقاء مشتركون طلباتك، التي تقتضي، إذا فهمتها جيداً، الحصول على أسلحة لفائدة مواطنيك. وقد كلمت المستشارية في برلين. يسرُّني أن أؤكد لكما أن الجواب بالإيجاب. إذ سنرسل لكم ألفاً وخمسمائة بندقية «موزر» وذخائر مكيفة..

- أين؟ قاطعه لطيف.

- إلى وجهة من اختياركم. زد على هذا، نفتح لكم قرضاً بقيمة خمسة وعشرين ألف مارك في بنك أنقرة العثماني. وسأضيف، أعلن بنبرة موثوقة، أن توصية السيد مفتي القدس، الحاج الحزيني - هكذا نطق الاسم محرِّفاً إياه - كانت خلاصاً بالنسبة إليكم. تيقنوا أننا نساند تماما معركة الفلسطينيين ضد احتلال بلدكم غير المقبول على يد الصهاينة!

- سيدي، قال لطيف، أرجو أن تقبل تشكراتي الجادة، وأن تنقلها إلى مستشاركم.

ألقى نظرة على مراد الذي بدا عليه الفتور.

- بالطبع، ختم «كيلهوف»، كل هذا سيبقى في تمام السرية.

- بالطبع.

- لا أنسى أن أؤكد ما يلي: ترى المستشارية أنكم في حاجة بالتأكيد إلى مدربين لتدريب ميليشياتكم على فن القتال. سنؤمنهم لكم ما أن تطلبوا ذلك.

تجنب مراد أن يقول إن الميليشيات المقصودة ضربت أعناقهم

خلال القمع الإنجليزي. وبلا شك ظن الألماني أن الفلسطينيين نهضوا من جديد.

- أجل، أكرر لكما أن قتال الفلسطينيين هو قتالنا أيضاً. سيستأصل الجذام اليهودي.

شدّد على قوله:

- سيستأصل!

لم يلتقط أي ردّ فعل من مخاطبيه. أضاف قائلاً:

- سيدي، هل لديكما أسئلة؟

أومأ لطيف بالرأس نافياً.

- في هذه الظروف، اسمحا لي أن أرافقكما.

ركع مراد على ركبتيه، وهو يتجاوز عتبة البيت، وتقيأ أمام السيارة التي يعلوها علم أحمر ذو صليب معقوف.

(٢٤)

لاتخاذ قرار ما، لابد من عدد مفرد من الأشخاص، وثلاثة عدد كبير.

جورج كليمانسو

القاهرة، ٦ أبريل/ نيسان ١٩٣٧

وضع تيمور لطفي ساعته اليدوية على طاولة الحمام، واستعد للحلاقة. حشر شفرة جديدة بين فكي الموسى، وبلّل لحيته بالماء الدافئ. غمس فرشة الحلاقة في الماء، ثم نفش رغوة كثيفة، وهو يحرك الصابون في وعائه. بسط الرغوة على فكيّه وذقنه وعنقه، متحاشياً بحذر الشارب. في هذه اللحظة بالذات أدرك كنه نظرته الخاصة.

إنه لقاء رهيب ذلك الذي يجري بين الرجل وانعكاسه، لأن هذا الأخير يمتلك سلطة يعرفها السحرة. وهو يتميز بحياة مستقلة، ويطرح أسئلة، مثل أبي الهول، تبدأ في الغالب كما يلي:

- من أنت؟

ارتبك تيمور. ها قد مضت عشرون سنة منذ أن بدأ يحلق لحيته أمام مرآة. ما الذي حدث له اليوم؟ الأمر سيّان، لابد أن يجيب.

شرع يمرر الشفرة على الخد الأيمن.

- أجب!

- أنا شاب من عائلة طيبة ذات أخلاق نبيلة. كنت ابناً عاشقاً، وها أنا ذا زوج عاشق. منحتني زوجتي طفلين: هشام وفاضل. وأنا نائب عن الحزب المعارض الوحيد. أنا إنسان مندمج. سرت، بين بين، على نهج تعاليم القرآن، وأكافح منذ سنوات من أجل بلادي...

لم يبد الانعكاس اقتناعاً.

- يا تيمور، احتفلت البارحة بعيد ميلادك الأربعين. أنت تتهدج جسدياً وعقلياً. احترس، فأنت شخص بارز اليوم، لكنك تخشى أن تتحول إلى عجوز أبله. فإذا حدث انقلاب عسكري في مصر، على غرار ذلك الذي حرض عليه في العراق الجنرال الكردي بكر صدقي، ستتحول بالتأكيد إلى أثر من الماضي.

انتهى تيمور من الحلاقة. نظر إلى نفسه، متأملاً.

أشيخ. سأشيخ قليلاً مع تعاقب الأيام. يا لها من فكرة مخيفة.

- تيمور!

استدار.

عندما لمح ملامح والده الشاحبة، أدرك أن مأساة حدثت للتو.

غمغم لطفي باي، وهو يتمسك بإطار الباب:

- رحلت!

- ماذا، أبي؟ نعم؟

- في الصالون... هي...

لم ينتظر تيمور التتمة.

كانت والدته جالسة، أو بالأحرى مسترخية على الأريكة، ذراعاها معلقتان على المسندين. سحنتها مكفهرة، وتقاسيمها مخيفة.

جثا على ركبتيه قربها. تناول يدها، وكرر مثل آلة:

- *ماما، ماما، ماما...*

لم يكن هناك أي رد فعل.

وحده صوت لطفي باي تردَّد، متمتما بين شهقتين:

- كيف سأكون؟ كيف سأكون بدونها؟

*

حيفا، في اليوم ذاته

أومأ يوسف مرقس برأسه رافضاً، عندما قدمت له نادية شهيد صحن حلوى.

- شكرا. لا أعرف ما يحدث لي، لكن لا شيء يحدث منذ وقت معين.

- لا تبحث، يا يوسف. إنه الكبد. سأمنحك علاجاً سحرياً: اشرب نصف كأس ماء دافئ كل صباح على الريق، مع عصير ليمون وملعقة زيت زيتون؛ وفي غضون أسبوعين، ستشعر بنفسك فتيًّاً مثل شاب.

وافق مرقس، وهو شارد الذهن.

- كيف تجري الأمور؟ تساءل برصانة مفاجئة.

- ماذا تقصد؟

- أنا قلق بشأنكم. أتخيل أن الحياة لم تعد سهلة منذ أن غادرنا حسين.

رفع رأسه وحدّق فيها.

- هل يعوزكم شيء ما؟ هل يسير كل شيء بخير؟

ردّت منفعلة.

- أجل، أجل، لا تقلق. كل شيء بخير.

أصرّ:

- هل أنت متأكدة؟ وإلا تذكري، أنا هنا. كان حسين أخا بالنسبة إلي. فإذا كنتم في...

أوقفه صوت جاف:

- لا تخشَ أي شيء، يا سيد مرقس! لسنا في حاجة إلى أحد، ولن نحتاج بالتأكيد إلى أعمال خيرية.

وقف سليمان في العتبة، بوجه منقبض.

تظاهر اليهودي أنه لم يلتقط سخرية نبرته، وقال:

- السلام عليكم، يا سليمان.

- ماذا تفعل هنا؟

- سؤال عجيب. ما كنت لتطرحه أبداً من قبل.

- جاء يوسف يسأل عن أحوالنا، سارعت نادية إلى الإجابة. لقد قلق بشأننا و...

استهزأ سليمان.

- لك إدراك سيء، يا سيد مرقس.

- إدراك سيء؟

- في رأيك، كيف توفي والدي؟

- سؤال غريب مرة ثانية. يقول الجميع، إنه توفي بسبب نوبة. أنا...

- لا! مات أبي بسبب الحزن! لم يقاوم قلبه خيبة الأمل عند انهيار مقاولته، وبلده يندثر تدريجياً كل يوم، وكل هذا الدم الذي يسفك. لهذا مات أبي.

أشار بأصبعه إلى مرقس.

- أنتم! أنتم وإخوانكم الصهاينة المسؤولون! أنتم! الشعب المختار المزعوم! كأن الآخرين ليسوا سوى ديدان أرضٍ تقيأها الرب!

- سليمان، صرخت نادية، مضطربة. لا تستحيي! أمنعك من أن تتحدث هكذا! إنه أمر غير لائق.

رفع يوسف يده، محاولاً تلطيف الأجواء.

- ليس بالأمر الجسيم، يا نادية.

وقف واقترب من سليمان.

- قلتَ إنني مذنب؟ سأدهشك، يا ابني. أريد أن أحمل ثقل هذا الاتهام، رغم أنني أجده شديد الجور. باسم أهلي، ألتمس منك المغفرة. في المقابل، لن أقبل تلميحك إلى «الشعب المختار». إنها شتيمة في حق الإنسانية برمتها!

- أنتم...

- اسكت! اسمع بالأحرى. كتب في التوراة: «إذا سمعتم كلام الرب إلهكم الذي أنا آمركم به اليوم، وهو أن تحبوا الرب إلهكم وتسلكوا في طرقه وتعملوا بوصاياه وسننه وأحكامه»[١]. هل سمعت جيداً، يا ابن حسين شهيد؟

كرّر مرقس القول:

- «إذا سمعتم كلام الرب إلهكم!»

ثم تابع:

- وقال أيضاً: «قال إشعيا للشعب: أنتم شهداء على أنفسكم أن الرب اختاركم لعبادته. فيجيبون: نحن شهداء»[٢]. وسيقول حكماء إسرائيل فيما بعد: «طلب الرب من الشعوب جميعها تلقي سنته، وعندما رفضوا، توجه إلى إسرائيل التي أجابت: سنفعل». تفهم إذن أنه ليس الرب، حسب عقيدتنا، هو من اختار إسرائيل، لكن *إسرائيل هي التي اختارت الرب*: هذه هي الحقيقة التاريخية!

---

(١) سفر التثنية.

(٢) كتاب إشعيا.

وضع يدا مرتجفة على كتف سليمان.

- لقد أحببت والدك، أكثر مما تتصور. كما أناشدك أن تفكر فيه، عندما تنتابك أفكار مثل هذه فيها تجديف.

توجه نحو نادية، عانقها، ثم غادر البيت.

*

الأكاديمية العسكرية في العباسية، اليوم التالي

لم يتجرد من لباسه أبداً أمام أي أحد. لكن الذي يطلب منه ذلك، طبيب عام، في الأربعينات، ذو شارب أسود وأنف تناسبه نظارة غير ثابتة.

احتكاك السماعة بارد على الصدر. كان الطبيب يجس وينصت.

- ارتدِ ثيابك. اجلس هنا.

فحص الأسنان، ثم النظر... كل شيء جيد.

- هل كنت تعاني من أمراض؟

- عسر في الهضم بين الفينة والأخرى.

توجه الطبيب، ليجلس إلى مكتبه، مسجلاً ملاحظاته.

- أنت مقبول للخدمة. غدا ستسائلك اللجنة. يوم سعيد.

انحنى جمال عبد الناصر. شكر الطبيب، ثم غادر قاعة الانتظار حيث كان سبعة مرشحين يستعدون للفحص بعده، الواحد تلو الآخر. سلك الممر الطويل في الأكاديمية العسكرية في العباسية حيث يتردد صدى جزمة عسكرية. عبر الساحة، ثم اتجه لانتظار الحافلة التي ستقله إلى الأزبكية.

في المساء، استدعاه عزيز محرم إلى سينما لوكس التي تعرض فيلماً أمريكياً. جنود من زمن آخر على صهوات جيادهم، يطاردون

هنوداً، ويطلقون النار عليهم. والهنود يتدحرجون أرضا، والجياد تدهسهم. هل يتعلم الجيش امتطاء صهوات الجياد؟

- جمال عبد الناصر!

وقف، حليق الذقن، مرتدياً قميصاً جديداً. أدخله الحارس إلى قاعة طويلة، في آخرها كان سبعة عسكريين ذوي نياشين يجلسون إلى طاولة طويلة يغطيها لحاف أخضر.

- تقدم!

تفرسوا في قامته. كان بلا حماس ظاهر.

- ماذا يفعل أبوك؟

- موظف في البريد.

- أي رتبة؟

- موظف، هذا كل شيء.

- من أي منطقة أنت؟

- بني مر.

- فلاحون إذن.

- أجل...

- هل من ضباط في عائلتك؟

- لا أحد.

- لماذا تأمل ولوج الأكاديمية؟

- لخدمة بلدي.

- هل أوصى بك أحد؟

- أوصى؟

- فهمتني جيداً.

- تقصد... الكفالة؟ لا.

- هل شاركت في تظاهرات ميدان الإسماعيلية؟

- أجل...

- جيد، يمكنك أن تغادر. سنعلمك بقرارنا عبر البريد.

توصل برسالة بعد أسبوع. فضّ الظرف الأصفر، وقلبه ينبض.

رفض الترشيح.

والآن، ما العمل؟ أيمارس الزراعة؟ أو يفشل؟

هذا غير وارد! سيجازف بكل شيء من أجل كل شيء.

وقف. ارتدى سترته البالية الوحيدة. ثم غادر البيت، واعيا تمام الوعي بلا شعوره. أيزور بيت كاتب القيادة الجديد الجنرال إبراهيم خيري باشا؟ بلا موعد فضلاً عن ذلك؟ لا يهم، طالما أنه لن يخسر أي شيء.

بعد ساعة، كان يطرق باب بيت الضابط.

انفتح البيت.

- هل تأمل لقاء معاليه؟ مستحيل! إنه منشغل.

- سأنتظر.

- منشغل، أقول لك.

- سأنتظر حتى ينتهي.

أمام نبرة الزائر الحازمة، أذعن الخادم. اختفى ليظهر بعد ذلك بقليل.

- ينتظرك الباشا. اتبعني.

أدخل جمال إلى غرفة كبيرة ذات نوافذ مغلقة. كان الجنرال جالساً، يداه ممدتان على مكتبه.

- إذن؟ ماذا تريد؟

- أشكرك أولاً على الاستقبال.

انتظر الجنرال التتمة.

- يتعلق الأمر بالأكاديمية العسكرية.

- نعم؟

- ليس لي وسيط.

- لا أفهمك.

- يبدو ألا حظّ للطلبة في ولوجها إلا بتوصية.

- ماذا تقصد... أن تُزكّى؟

أومأ جمال.

- هل تقدمت بطلب؟

- بالطبع. واجتزت الفحص الطبي بنجاح. مع ذلك، رفضوا ولوجي. صحيح أنني لست سوى ابن ساعي بريد.

تنهد قليلاً، ثم قال:

- أيها الجنرال، قل لي بصراحة هل قاعدة محاباة الأقارب هي السائدة. لن أبالي إذا كان الأمر كذلك.

بدا خيري مرتبكاً لجرأة هذا الشاب. مضت بضع ثوان، ثم اقترح:

- تقدم في المرة المقبلة.

- لكن...

- تقدم.

امتثل عبد الناصر.

بعد أسبوع، وجد نفسه ثانية أمام اللجنة نفسها التي ارتأت رفضه، مع فارق بسيط هو أن خيري باشا هو الذي يترأسها.

أرعد صوت الجنرال:

- مقبول!

أخيراً! أخيراً، بدا القدر مبتسما له. عمره تسع عشرة سنة. وفي المستقبل، ستؤكد التقارير كلها أن «الابن الأصغر هو من الرعايا الصالحين».

*

في بيت بضواحي حيفا، ٨ يوليو/ تموز ١٩٣٧

- أناشدكما يا سليمان، ويا مراد! إذا سألوكما، فأنتما لا تعرفان. لم تريا، ولم تسمعا أي شيء. لا تعرفان أي شخص!

لم يحبذ مراد أبداً أن يتلقى أوامر، لكنه رضخ للأمر. لهذا، لم يستطع مخاطبه إلا أن يستلهم منه الاحترام، أولا لأنه لم يصبح زوج سامية إلا منذ وقت قصير، وخاصة لأن الشخص هو عبد القادر الحسيني، الذي أصبح الآن رمز المقاومة. ارتدى سروالا قصيراً وقميصا رماديا تحت معطف فضفاض. دثّر رأسه بكوفية. هكذا، بدا عبد القادر كزعيم عصابة بسيط. وحدها جزمته العسكرية الضخمة تفضح أنشطته غير السلمية. كان محاطاً بلطيف الوكيل وعشرة رجال. وعند أقدامهم صندوقان، غطاءاهما مفتوحان، وعشرات من بنادق «موزر ٧,٦٤» وامضة في العتمة.

- وحياة الله، تضرعت سامية وهي تمسك بذراع زوجها، كن حذراً.

- هي على حق، وافق مراد، إذا حدث لك حادث ما، يا صديقي عبد القادر، سنفقد مائة رجل دفعة واحدة.

أشار إلى بطن أخته المنتفخة.

- ثم فكر في طفلك المقبل. سيكون في حاجة إلى أب.

- لا تقلقوا، يا أصدقائي. لقد وقعت عهداً مع الموت. لن تأخذني قبل أن تتحرر فلسطين.

- لن يأخذك أبداً! صرخت سامية. أبداً. لم أنتظرك طيلة هذه السنوات لأفقدك.

احتضنها عبد القادر برفق. بدت صغيرة جداً فجأة. لكن قامة الفلسطيني بالكاد تفوقها. بوجهه المستدير، المفعم بالحياة، المنتعش بشارب ناعم، بدا شاباً جداً، وهشّاً جداً أيضاً.

- هل ما زال وعد العملية غداً مساء في كفار صوفر؟ استفسر سليمان.

- أجل، أكد لطيف.

- إذن، اتركوني ألتحق بكم!

توجهت الأنظار كلها إلى سليمان.

- هل فقدت عقلك؟ تساءل مراد، مشكّكاً.

- أريد أن أذهب إلى هناك!

- أنت؟ أنت، الروح الحالمة؟ الشاعر؟

- أجل. نتغير. ألا ترى ذلك؟

- صديقي المسكين، قال مراد متهكما، لم تروض أبداً غير الريشة! ما الذي دهاك؟

- فضلاً عن ذلك، أضاف لطيف الوكيل، سيكون ذلك انتحاراً. أنت حسير البصر مثل حيوان الخُلْد. ليس بيننا مقاتل واحد يضع نظارة.

- ممتاز. سأكون الأول.

ردّ عبد القادر بحزم:

- لا جدال! ستبقى هنا رفقة أخيك، ملتزماً بأصول الحكمة.

- رغم كل الاحترام الذي أكنه لك، أذكرك أنني في الخامسة والثلاثين. وليست السنوات الثلاث التي تفصل بيننا هي التي تجعل من أخي رقيبا علي.

- سليمان! زمجر هذا الأخير. كفّ عن التحامق!
- أفضل أن أصبح أحمق بدل أن أكون جباناً!
- جبان؟ ما الذي تلمح إليه؟
تدخلت سامية، بعد أن تملكها الذعر.
- اهدآ، اهدآ! قلت للتو إنك لم تعد في السنة الخامسة عشرة!
- لا! أصرّ مراد، أريد أن يفسر الأمر!
تساءل، وهو يمسك سليمان من ياقته.
- عن أي جبان تتحدث؟
التزم الآخر الصمت.
- أجب!
- ليس لدي ما أضيف.
- هيا، اهدآ، تدخل لطيف. اهدآ.
- تكلم!
- جيد، يا مراد. أتابعك منذ سنوات. كنت دائماً أول من يظهر حماستك، وتمردك، وشغفك، وإحباطك. بل غادرت مصر لتعود للعيش هنا. أما وقد تعلق الأمر الآن بالقتال، هل انهزمت؟
أشار إلى الصندوقين.
- بل أنت من حصل على هذه الأسلحة. لماذا؟ هل ليقاتل الآخرون عوضاً عنا؟
- خطأ! احتج لطيف. لم يكن مراد يريد هذه الأسلحة. أنا من أثرت فيه، وأنا من رتبتُ كل شيء. لم أترك له الخيار.
حرّك سليمان كتفيه.
- مهما يكن! ليس هناك من سبب يجعلكم تقاتلون، ونحن لا.
- يكفي الآن! أمر عبد القادر. إنها الحرب، يا سليمان. وليس الأدب.

استدار نحو مراد، آمراً إياه:

- راقبه! إنه قادر على تقويض كل شيء.

*

اليوم التالي، كيبوتس كفار صوفر

عشرة سهام مشتعلة تخترق الليل. تحلق رؤوسها، المطلية بطبقة زفت، فوق السياج، وتنغرز في الألواح المصنعة للبيوت القريبة. بدأت النيران تلتهمها مثل فهود تنقضُّ على الجواميس. سقط السهم الحادي عشر تحت شاحنة مغطاة.

تعالت صرخات، وصفارة إنذار.

انطلقت سهام أخرى، وتراجعت ظلال مقنعة إلى البيارات. ما كادوا يختفون حتى سلطت كاشفات منصوبة فوق أعمدة أضواءها على المشهد. خرج أفراد مشعثو الشَعْر من البيوت. صرخ صوت بالألمانية. لو كان رجال عبد القادر يفهمون هذه اللغة، لسمعوا: «لا يمكن أن يكونوا بعيدين جداً، فمرمى السهام لا يتجاوز مائة متر».

وعلى الفور، دوت انفجارات عديدة. انفجر كاشف ضوئي، قاذفا وابلاً من الشرارات.

دوت انفجارات أخرى. انفجر كاشف آخر.

ردّ الرماة الذين خرجوا من الكيبوتس. أمطر رشاش غابة البيارات. سمعت صرخة، أنين، وصوت جسد يرتطم بالأرض.

هزّ وابل رصاص أخير النجوم. تطايرت الشاحنة المغطاة شظايا. عاد رماة الكيبوتس، حائرين.

- انسحبوا مع الجرحى! سنحميكم، أمر عبد القادر.

هدر محركان، ثم ابتعدا. تراجع عبد القادر وأربعة من رفاقه المقنعين، إلى أن بلغوا السيارة الثالثة. ارتمى لطيف الوكيل أمام

المقود. عندما هدر المحرك، حطمت رصاصة الزجاجة الخلفية. وإذ استخدمها أحد الفلسطينيين كفتحة رمي، أخرج منها بندقيته «موزر»، استعداداً لإطلاق الرصاص على مطاردين محتملين. لا أحد. بلا شك، اختار سكان الكيبوتس إطفاء الحريق بدل الانخراط في مطاردة عقيمة. ضغط لطيف بقوة على المسرع، فاهتزت سيارة «هامبر».

بعد لحظة، تساءل عبد القادر:

- هل هناك جريح بينكم؟

- أنا، أجاب صوت في الخلف.

رفع المتحدث قناعه، وأضاف:

- لا شيء. رصاصة في الفخذ. أنا...

- أنت؟ أنت هنا؟

كاد لطيف، الذي تعرف على ابن خاله في المرآة، يفقد السيطرة على السيارة.

صرخ عبد القادر بدوره:

- سليمان؟

- بلحمه وشحمه.

- كيف بلغت الكيبوتس؟

- لا يهم، قال «الشاعر»، وهو يخنق صرخة ألم.

رفع عبد القادر قناعه بدوره، ليظهَرَ وجهٌ ممتقع.

- لا أحد! هل تسمعني؟ لا أحد يعصي أوامري! أنت مغفل. لربما تسببت في مأساة!

- جرى كل شيء بشكل جيد، أليس كذلك؟

- كان يفترض أن نسجنك! صرخ لطيف.

- ربما. لكن رغم نظارتي، نجحت في تفجير كاشف.

- الأمر سيان!

استقر صمت جليدي إلى أن وصلوا أمام البيت الحجري حيث اجتمعوا البارحة.

وصلت السيارتان الأخريان في الآن ذاته.

أحصي الجرحى. عددهم أربعة، جرح اثنين منهم خطير. وقتيل. أرسل عبد القادر رجلاً في سيارة بحثاً عن طبيب موثوق. واقترب من سليمان الذي تمدد على دكة.

- احمد الله. فأنت محظوظ جداً.

لم يعلق مراد. لم يكن خائفاً هكذا في حياته أبداً.

القسم الثامن

(٢٥)

لن تروي أنهار الكون كلها عطش
إنسان إلى العدل.

سعدي

لندن، ٢ يناير/ كانون الثاني ١٩٣٨

على بعد آلاف الكيلومترات من هنا، كانت زخات تنمنم مياه نهر التايمز، والمطر يهمي على زجاج نوافذ مقر وزارة الشؤون الخارجية.

- ما يزعجنا يا سيدي، أعلن «مارك ويندهام»، هو ألا يكون عندنا العدد الكافي ممن يتكلمون العربية.

- آه، هل من خسارة أفدح من فقدان لورنس! وافق مخاطبه «السير روبرت أنتوني إدن»، الكونت الأول في مدينة أفون، الذي أصبح كاتب الدولة في الشؤون الخارجية منذ ثلاث سنوات.

كان «إدن» جالساً إلى مكتبه، ومديره في الشؤون الشرقية واقفاً أمامه، جامداً كأنه محترس من شيء ما.

لم يلاحظ «ويندهام» حسرات رئيسه. بطرف سبابته، داعب لوهلة شاربه الأشيب المصفف بشكل أنيق. كان لورنس قد توفي قبل ثلاث سنوات في حادثة دراجة، بعد أن نفر من السياسة الإنجليزية، وشعر بالمهانة لأنه شارك في خيانة.

- لكن ألا يمكن العثور على شخصٍ ما يمدنا بتعاطف هؤلاء الناس، في العراق، ومصر، وسورية، من يدري؟ شخصٍ ما ذي تأثير في هؤلاء الهائجين؟

- إذا أمدَّنا بالتعاطف، يا سيدي، لن يكون له تأثير.

- حتى بالمال؟

توتر «ويندهام» أكثر.

- إلى هذا الحد، يا سيدي، لم يخدمنا المال سوى في شراء معلومات. أشك أن رجلاً يملك فعلاً نفوذاً على العرب سيقبل، إن وجد، النظر في هذا الاقتراح.

- لماذا؟

- لأنه، يا سيدي، سيصبح في نظرنا فاقداً للاعتبار.

أفحمت الحجة «إدن».

- ألا تعتقد إذن أن تقسيم فلسطين سينهي الفتنة في المنطقة؟

- بعد أن اتضح كون فلسطين أكبر موضوع خلاف، أخشى، بالعكس، أن يؤجج التقسيم حقد العرب إلى الحد الأقصى، ولمدة طويلة.

- هكذا، سنحكم على أنفسنا بالكراهية داخل هذا الجزء من العالم.

تساءل «ويندهام» عما إذا كان كاتب الدولة يقرأ فعلا البلاغات التي ينقلها إليه. استغرق وقتاً ليجيب:

- نحن محتلون، يا سيدي. إمبرياليون، في نظرهم.

- غير أننا نظهر متكتمين، دعني أعرف.

كبح «ويندهام»، الذي يعرف جيداً المندوب السامي الحالي - «السير مايلز لامبسن» - الذي ساق مصر وملكها الشاب فاروق بالعصا إلى براثن الإمبريالية والصلف والوحشية، ابتسامة:

- ليس بالقدر المأمول، يا سيدي.

اتجه «ويندهام»، ليجلس إلى مكتبه، بينما ظل «السير أنتوني إدن» غارقاً في التفكير لحظة طويلة.

آه! هؤلاء العرب، وهؤلاء اليهود! هذا الشرق! لو توقف الأمر عليه، لطبّق المنهج الذي اقترحه زميله «وينستون تشرتشل»، وزير المالية الحالي، في مرحلة معينة: تسميم الغوغائيين بالغازات، بالنظر إلى أنه لم يوجد سوى الشرق والعرب.. واليهود! ها قد مضى زمن منذ أن واجهت إنجلترا «فقيراً متمرداً»، كما كان يسميه «وينستون» عن حق: فموهنداس غاندي هذا كان يسمح لنفسه، وهو شبه عارٍ، بأن يتسلق الدرجات المؤدية إلى قصر مساعد الملك! ها قد مضت عشر سنوات، وهو يصر على إعلان استقلال الهند. الاستقلال! الاستقلال! كيف أصابهم جميعا هذا الهوس؟

*

القاهرة، ٢٠ يناير/ كانون الثاني ١٩٣٨

في هذا اليوم ٢٠ يناير/ كانون الثاني، كان الأجدر العدول عن الخروج، إلا إذا كان ذلك من أجل الغوص في المد البشري الذي كان يحتفل بزواج فاروق. إذ خفضت أسعار وسائل النقل العمومي بـ٧٠ في المائة، بغية السماح لأكبر عدد من المواطنين بالنزول إلى المدينة. تلألأت الأزقة والشوارع بألف ضوء، بينما انطلقت مئات الزوارق على أمواج النيل، مقدّماتها مزينة بالفوانيس.

كان مرح الشعب البسيط استثنائياً جداً، حتى إن الزوجة، التي تدعى فريدة، والتي ملكية الانتماء، بدت كالراعية التي تتزوج سيدها.

في حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً، توقفت سيارة القصر

الملكي أما فيلا «هليوبوليس» حيث تسكن الخطيبة. استقرت الشابة، رفقة والدها، داخل السيارة، التي توجهت نحو قصر القبة.

بعد ساعة، كانت السيارة تجتاز الحواجز الحديدية.

كان الملك، بزيه العسكري الباذخ وصدره المزين بالأوسمة والنياشين، ينتظر داخل صالون فاخر كبير. توجهت الملكة المستقبلية، حسب الطقس الإسلامي، نحو غرفة مجاورة. وحده والدها فريد ذو الفقار ذهب للقاء الملك.

- هل يوافق جلالتكم على قبول ابنتي فريدة زوجة؟

- موافق، أجاب الملك.

حينها وقع الملك ووالد الزوجة والشاهدان على العقد. في هذه اللحظة ذاتها، ظهرت الشابة، مرتدية فستاناً ملكياً، تجرّ رفلاً حريرياً طوله خمسة أمتار. وفي عنقها تتلألأ قلادة ثقيلة من الياقوت واللؤلؤ. يحيط بالوجه حجاب مخرّم، أهدته الإمبراطورة «يوجيني» لإحدى بنات الخديوي إسماعيل سنة ١٨٦٩، أثناء افتتاح قناة السويس.

عندما انتهى الحفل، اتخذ الزوجان الملكيان مكانهما في سيارة مكشوفة ذات حمرة زاهية، وشقّا طريقهما وسط المدينة.

كانت الحشود تنتشي. كانا جميلين، وشابين. كانا الملك والملكة. تطاير مرج خشخاش حقيقي، تشكل من الطرابيش القرمزية، تحت سماء ذات زرقة فلزية. كانت تسمع هنا وهناك هذه العبارة المصرية الخاصة، التي ينفلت معناها العميق من التأويلات كلها: «حلوين زيّ القمر». دخل الموكب الملكي تحت أقواس النصر المنمقة التي نصبت على طول المسار. في هذا اليوم ٢٠ يناير/ كانون الثاني، يوم الاحتفال، نسيت مصر شقاءها، والمعاكسات الإنجليزية، وخيبة أملها المعمِّرة.

امتدت الاحتفالات طيلة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، على إيقاع سلسلة سهرات جديرة بـ «ألف ليلة وليلة». فعلى منصات نصبت على الفور وسط القاهرة، ظهرت المطربة الكبيرة أم كلثوم، وراقصة شابة، اسمها تحية كاريوكا، ما تزال في بداياتها.

داخل القصر، ترأس الملك ثلاث مآدب أقيمت بالترتيب على شرف الحكومة، والهيئات الدبلوماسية، والموظفين السامين. وعلى مكتبه تكدست برقيات آتية من أنحاء العالم برمته، من بينها تهاني أدولف هتلر.

أطلقت حفلات زواج فاروق حماساً استثنائياً من أسيوط إلى الإسكندرية. إذ كان هذا الزواج يرمز إلى النهضة والأمل، بالنسبة إلى بلد حُرِم من راية منذ وفاة سعد زغلول، وأهانه الاحتلال الإنجليزي منذ سنوات، وكذا التنازلات المتلاحقة عن السلطة.

لم يكن أحد يتصور حينها أن هذا الأمل بدأ يبزغ منذ خمسة أيام، في مكان ما بالصحراء، في قرية منقباد الصغيرة، المرصعة في مشهد صحراوي بزخرف من البرك والقنوات، يقع على بعد بضعة كيلومترات من أسيوط وبني مر، عند سفح جبل الشريف.

حينها وجد خمسة رجال أنفسهم متحلقين حول نار في المعسكر. كانوا يسمعون طقطقة صحون وقصعات محتواها متواضع جداً: فول، وعدس، وبصل، وبعض كستناء. كان إبريقا شاي كبيران يغليان على جمرات هادئة يغذيها جنود بين الفينة والأخرى بأعواد يابسة.

أحد هؤلاء الرجال هو الملازم الأول جمال عبد الناصر، الملقب باسم غريب هو «جيمي». وكان الثاني، ذو الوجه الناعم الجامد شبه الملائكي، هو ملازم المشاة الأول زكريا محيي الدين.

وإلى جانبه يقف شقيقه خالد. وكان الرابع هو الملازم المكلف بالاتصالات أنور السادات. أما الأخير، فهو عبد الحكيم عامر، الذي لقبه أصدقاؤه بـ«روبنسون»، بسبب شغفه بحكايات السفر.

اجتمعوا مساء هذا اليوم، ١٥ يناير/ كانون الثاني ١٩٣٨، للاحتفال بعيد ميلاد جمال. كان الجوّ كئيباً إلى حد ما. إذ كان الشعور بالإهانة سائداً بينهم بحكم تدربهم وائتمارهم بأوامر ضباط رؤساؤهم بريطانيون، إضافة إلى أنهم يتصرفون بعجرفة أمام مرؤوسيهم، لكنهم يبدون أذلة أمام أعضاء البعثة العسكرية الإنجليزية. أسوأهم جميعاً يدعى محمود سيف، حيث يظن نفسه السلطان عبد الحميد. أطلق عليه جمال ورفاقه «السلطان الأحمر».

يجهل الأقوياء السرعة التي يحكم بها من يخضعون لسلطتهم. فبعد أن يتحملوا إهانات أكثر مما أنتجه العالم منذ نشأته، سرعان ما يدركون تميز الرئيس الحقيقي عن صاحب الرتبة الحقير. ولا تهتم الثورات بشيء آخر غير إرساء التراتبيات الحقيقية.

- قليل من الإوز المشوي، يا معالي، قال زكريا محيي الدين، وهو يسحب من النار قصعة فول، أم تفضل صدر الدجاج على الطريقة الشركسية؟

اجتاحت الدائرة نوبة ضحك.

- هل أسكب النبيذ؟ تساءل عريف آخر، وهو يتولى إبريق الشاي.

وزعت الجماعة رغيف القمح الأسود، العيش البلدي.

لم يكن جمال يضحك. كان شارد الذهن.

تعوي بنات آوى في البعيد.

انتهت الوجبة. لم يبقَ منها حبة فول واحدة، ولا حبة عدس في الصحون، التي وضعت جميعاً في كيس كبير.

لم ينبس جمال ببنت شفة حتى الآن. في النهاية، أصبح صمته مدويا، حيث لم يعد يسمع إلا هو، صمت هذا الرجل الذي كان الجميع يحترمه.

تداولوا فصوص قصب سكر فاكهة ما بعد الطعام. كانوا يقشرونه بسكين، حيث بدت أليافه حينها كثيرة العصارة، كانت ما تزال طرية، يا للعجب.

أخيراً، ظنَّ كل واحد منهم أن جمال سيتكلم. شعَّ وجهه بضوء النيران.

- الإنجليز مسؤولون عن كل مآسينا، قال بحزم.

لم تكن كلماته كشفاً، لكن لأن عبد الناصر نطق بها، فهي تكتسي أهمية بالغة مثل نبوءة. أجملوا الوضع بعيداً عن التحليلات الدقيقة والاعتبارات المعرفية. لو لم يحتل الإنجليز البلد، لكانت لعبة السلطة مشروعة وصالحة.

- إخوتي، استأنف، لننتهز فرصة هذا اللقاء. لنخلق شيئاً متيناً. لنقسم أن نبقى أوفياء للصداقة التي تجمعنا. بفضل هذا الاتحاد، سننتصر على العوائق جميعها.

وافق الجميع بحماسة.

جرى هذا اللقاء يوم ١٥ يناير/ كانون الثاني ١٩٣٨، قرب منقباد، في صحراء على بعد بضعة كيلومترات من أسيوط وبني مر، عند سفح جبل الشريف.

*

باريس، ١٢ مارس/ آذار ١٩٣٨

منذ اغتيال «بول دومر» يوم ١٠ مايو/ أيار ١٩٣٢، اختارت فرنسا رئيساً جديداً للجمهورية في شخص «ألبير لوبران». أما «ليون

بلوم»، فقد عاد إلى مهامه كرئيس المجلس، بعد توارٍ قصير.

استقال «جان فرنسوا»، كما التزم في بغداد أمام نضال ودنيا، من منصب الكاتب الأول في الشؤون الشرقية، وترشح أثناء الانتخابات التشريعية بألوان الحزب الراديكالي الاشتراكي. انتخب بحصة مشرفة جداً. ولئن ظلَّ، في الكواليس، شخصية لا يشقُّ لها غبار منذ أن كان مهتما بالشرق، فإنه لم يعد يعبر عن رأي الحكومة، بل عن رأيه. استقلالية لن تخلو من صدامات مع زملائه، حيث لم تحبذ السياسة المستقلين أبداً.

وضع اللمسات الأخيرة على المذكرة التي سيرسلها إلى «جوزيف بول - بونكور»، الوزير الجديد في الشؤون الخارجية. وقعها، وراجع ساعته الجيبية: كانت عقاربها تشير إلى السابعة مساء! لقد وعد أن يأخذ دنيا إلى المسرح. استعاد بسرعة تكتمه، وسار نحو الباب. عندما همّ بالخروج، سدّت عليه «ماري فايل»، التي احتفظ بها كاتبة، الطريقَ. لاهثة الأنفاس، شاحبة الملامح، بدت على وشك الانهيار.

- إنها مصيبة، يا سيدي، مصيبة.

- ماذا هناك؟

تنحنحت واستعادت نفسها.

- اجتاز الجيش الألماني الحدود الألمانية - النمساوية.

- ماذا؟

- أجل، يا سيدي.

- متى؟

- منذ بضع ساعات.

- غير... غير ممكن.

- ولكنه أمر مؤكد.

- كيف ردّ النمساويون؟

- لم يكن هناك اعتراض، حيث استقبل السكان القوات الألمانية بالهتافات والورود. يبدو في نظرهم أن الأمر ليس سوى إلحاق طبيعي بألمانيا.

تنفس «جان فرنسوا» بصعوبة. هكذا، تجاسر هتلر، غير مبالٍ ببنود اتفاقية فرساي التي تمنع أي شكل من أشكال الوحدة بين ألمانيا والنمسا.

ربّت على كتفي كاتبته.

- جيد. لنحافظ على رباطة جأشنا. سنرى رد فعل الحلفاء. يجب أن أنصرف. تنتظرني زوجتي.

- أنا خائفة، يا سيد «لوفون».

أطرقت «ماري فايل». كانت شفتاها ترتجفان قليلاً عندما همست:

- أنا يهودية، يا سيدي.

لم يألُ جهداً حتى يتقمَّصَ نبرةً مطمئنة.

- هيا، لا تخشي شيئاً. نحن في فرنسا.

أذعنت واهنة.

- أجل، يا سيدي، أنت محقّ.

*

حيفا، ٢ يوليو/ تموز ١٩٣٨

كانت الفكرة الأولى، التي خطرت على بال مراد، هي: «إنها تمطر حصباً». كان يجب أن تنتزعه منى من سباته، حتى يعي أن الأمر يتعلق بطرقات متكررة على الباب.

كان المنبه يشير إلى الساعة الثانية صباحاً.

استوى على سريره، وأمر زوجته.

- اذهبي إلى غرفة الصغير، ولوذي بها.

- لكن...

- افعلي ما آمرك!

فتح الدرج الأول في الصوان، وأخرج من تحت الألبسة مسدس «موزر»، احتفظ به منذ هجوم كيبوتس كفار صوفر، ثم توجه إلى المدخل:

- مَن هنا؟

- افتح. أنا، سامية.

سامية؟ لكن أي مسّ أصاب أخته، لتكون هنا في عزّ الليل، بدل أن تكون قرب زوجها؟ كانت تحمل بين ذراعيها ابنها الذي رأى النور خلال أبريل/ نيسان، وسمي باسم أبيها: حسين. فكّر في الأسوأ.

فتح مصراع الباب. كتم صرخة دهشة. برز وجه عبد القادر من الظلام.

- أغلق الباب. وأطفئ الأنوار. بسرعة!

نفذ مراد الأمر. ما أن غرقت جميع الغرف في العتمة، حتى تساءل:

- إذاً.

أجابت سامية:

- اقتفى البريطانيون أثر عبد القادر في الأجمة. من حسن الحظ، أُخبرنا بذلك.

أراد الفلسطيني أن يطمئنّ.

- لا تخشى شيئاً، يا مراد. بعد بضع دقائق، لن أكون هنا. سيأتون للبحث عني.

بدوره، ظهر سليمان، بعد أن أثاره صخب الأصوات، بعينين ناعستين.

- عبد القادر؟ ما الذي حدث؟

- لا شيء غريب. يطاردني الإنجليز. ليس الأمر جديداً، أليس كذلك؟

صحيح. لقد جدّ البريطانيون في مطاردته، خلال مايو/ أيار ١٩٣٦، بعد هجوم على القاعدة العسكرية، حيث شنوا هجوماً برياً وجوياً على معسكره. في نهاية المعارك العنيفة التي جرح فيها، قبض عليه ونقل إلى المستشفى. بعد ثلاثة أيام، هرب من سجانيه، لاجئا إلى سورية. وما أن أخذ جرحه يلتئم، حتى عاد سرّا إلى فلسطين، مستقدماً معه مئات المتطوعين.

- إلى أين تنوي الذهاب؟ سأل مراد.

- إلى العراق. سأكون آمناً هناك، حيث ينتظرونني بالأحضان.

- من إذاً؟

- رشيد الكيلاني. إنه مستقبلَ العراق.

- رشيد؟ ابن أخ عبد الرحمن؟

- هو بنفسه.

- فيمَ قد يساعدك؟ أعلم أنه لم يعد يفعل أي شيء منذ أن نحّاه هذا العقرب نوري السعيد.

ابتسم عبد القادر ابتسامة ملتبسة.

- أنت على حق. لكن إذا كان عدم الفعل يعني شيئاً، فإن عدم القدرة على الفعل يعني شيئا آخر.

سمع صوت محرك، تلاه أزيز كوابح على الحصى.

- آن الأوان، يا أصدقائي.

عانق عبد القادر صهريه، وأوصاهما:

- أعهد إليكما بزوجتي وابني. إنهما أقدس ما تبقى لي.
- بالطبع. لا تقلق. سنحميهما، ولو عرضنا حياتنا للخطر.
ضمّ الفلسطيني سامية إليه برقة.
- سأعود، يا عزيزتي. سأعود...
ثم قبّل جبهة حسين.
- كن قويا، يا شِبْلي.

*

دمشق، *أول أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٨*

أشعل الخدم المباخرَ، استجابة لطلب سيد البيت هاشم الأتاسي، الوزير الأول في الجمهورية السورية، وأنعشوا مجامر العطور داخل الصالون المخصص للضيوف السامين. وفي المعسل، وُضِع تبغ ذو نكهة عسل وتفاح في كأس قرب نرجيلة. كما وضعت عشرات سجائر «مراد» الشرقية ذات الحاشية المذهبة في صينية فضية منقوشة. لا ينقص شيء. إذ كان الوزير الأول في حكومة فيصل يعرف، منذ زمن بعيد، عادات أي ضيف من ضيوفه.

كان الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، الذي كان وزيره في الشؤون الخارجية، يخشى تيارات الهواء.

ولم يكن شكري القوتلي يدخن سوى المعسل.

كان الفرنسي «جان فرنسوا لوفون» الوحيد الذي لم يرتب له الرئيس أي شيء. كان له في ذلك عذر، حيث لم يلتق به إلا مرة واحدة، قبل عشرين سنة. كانت مقابلتهما قصيرة ومضطربة معا. وقتئذ، كان «لوفون» يشغل منصب الكاتب الأول في الشؤون الشرقية، ويدافع عن الوجود الفرنسي، بكل الوسائل، وبسوء نية مريعة. واليوم، تغير موقفه نوعا ما. إذ تخلى «لوفون» عن دوره

كحامل لواء الاستعمار، حيث بدا مستعداً للعب دور الوسيط بين فرنسا وسورية. من هنا سبب مجيئه.

مدّد هاشم، الذي استراح على أريكة، رجليه ومال قليلاً إلى الوراء، محدقاً في السقف، ومستغرقاً. هل كان ينبغي أن يستقيل أم لا؟ ها قد مضت أسابيع عديدة والسؤال يؤرقه. بدا بديهياً أكثر فأكثر أن مجلس النواب لم يكن ينوي المصادقة على اتفاقية الاستقلال التي التزمت فرنسا، مع ذلك، بالتوقيع عليها. إذاً؟ لِمَ يصلح رئيس محروم من السلطات الأساسية؟

- وصل السيد «لوفون»، فخامة الرئيس.

- أدخله.

دعاه السوري للجلوس، بعد أن صافح نائب منطقة «هو دو سين» بحرارة.

- تصور أنني كنت أفكر فيك بالتحديد، قال مبتسماً.

- وتساءلت عما إذا كنت ستبقى رئيساً أم ستنسحب.

- هل تكون وسيطاً؟

- لا، سيدي الرئيس، أقرأ ذلك في عينيك. وهو ليس بالأمر المماثل.

- جيد، في هذه الحالة...

ظهر الكاتب، الذي أعلن مجيء «جان فرنسوا»، من جديد.

- الدكتور عبد الرحمن الشهبندر. والسيد شكري القوتلي.

تقدم الأتاسي للقاء الرجلين. عانقهما. وقدمهما لـ«فرنسوا».

ما إن جلس الجميع، حتى أمر الرئيس بإشعال النرجيلة المخصصة للقوتلي. وسرعان ما شعَّ وجه هذا الأخير الطويل بابتسامة مضيئة.

- يا هاشم، هتف. أي ساحر أنت! لم أكن أحبذ أن أكون خصمك السياسي.

- أحب أن أمتع أصدقائي، هذا كل شيء.

لم يقتنع القوتلي إلا جزئياً. من يعرف الرئيس السوري المشهور بكرم ضيافته وسخائه الكبير جدا، لعرف، أيضاً، أن هذه الصفات غالباً ما سمحت له بمداهنة خصومه بغية ضمهم إلى صفه.

أما القوتلي، الذي لم يكن لبقاً بما يكفي، فلا يكاد يتضايق من اللف والدوران. كان يكتفي بمعاينة مساره حتى يحصل على الدليل. ففي شبابه، التحق بحزب الفتاة، وهي حركة سياسية عارضت الإمبراطورية العثمانية، ثم سرعان ما سجن بسبب أنشطته التي اعتبرتها السلطات التركية هدّامة. انضم إلى حكومة الملك فيصل، بعد إطلاق سراحه عقب نهاية الحرب العالمية الأولى، إلى جانب صديقه الأتاسي. وعندما أعلن الانتداب الفرنسي في يوليو/ تموز ١٩٢٠، وضعت جائزة لمن يقبض على القوتلي، فأجبر على الفرار إلى مصر، ثم إلى سويسرا حيث أسس - وهو لا يقهر قطعاً - تنظيماً رفقة وطنيين آخرين هو: اللجنة السورية - الفلسطينية.

تناول النرجيلة، ومدها إليه الخادم. زفر سحابة دخان، والتفت إلى «جان فرنسوا»:

- هل تعرف هذا المثل العربي، يا سيد «لوفون»: «أحب الله الطيور، فخلق الأشجار. وأحب الإنسان الطيور، فابتكر الأقفاص». تفهمني، أليس كذلك؟

ابتسم الفرنسي. لقد أدرك كنه المجاز تماماً.

تابع القوتلي بنبرة عذبة:

- إذاً؟ لِمَ لم تفتحوا الباب؟ هل تعلم أن بلدي لا يطمح سوى إلى التحليق؟

- سأفاجئكم. إن فرنسا لم تعترض على ذلك.

- إذاً، لِمَ لَمْ توقع الاتفاقية حتى الآن؟

طرح السؤالَ الرئيسُ الأتاسي، فاستعاده الدكتور الشهبندر.

- لسبب بسيط جداً، يا سادة. فالحرب على أبوابنا، حيث تخشى الحكومة ألا تكون اللحظة مناسبة.

- الحرب؟ لكن ألم يوقع بلدك وإنجلترا، في وقت متأخر أول أمس، على اتفاق يستبعد المواجهة مع ألمانيا؟

- إنها خدعة، يا فخامة الرئيس. خدعة بئيسة. إذ تعرى مبعوثانا، «دالاديي» و«تشامبرلاين»، بشكل مخجل أمام هتلر - سامحوني على هذا الابتذال. لقد قدمنا تشيكوسلوفاكيا التعيسة في صحن مقابل التظاهر بالسلام لبضعة أشهر، إن لم يكن لبضعة أسابيع. وغداً، سترون أن الرايخ سيطلب أن نقدم له صحناً آخر.

- إذاً، ستكون الحرب؛ حرب عالمية! وهتلر ليس مجنوناً إلى هذا الحد!

- أعرف فقط أن طموحه واضح.

- في هذه الحالة، تعجب الدكتور الشهبندر، لِمَ توقيع هذه الاتفاقيات؟

رفع «جان فرنسوا» يديه، وتركهما تسقطان، تعبيراً عن الاستسلام:

- من غير شك لأننا جبناء أو عميان. أريد أن أسلّم بالفرضية الثانية، عندما أقرأ أن المبعوث الإنجليزي «نيفيل تشامبرلاين» أعلن عند نزوله من الطائرة قائلاً: «الفوهرر رجل يعول عليه عندما يتعهد بكلمته». وأثبت تشرتشل أنه صاحب رؤية، وهو يصرخ: «لقد قبلوا العار مقابل السلام. سيحصلون على العار والحرب».

ساد صمت طويل، تتخلله غرغرات الماء الفاتر في كأس النرجيلة.

- خلاصة القول، تدخل شكري القوتلي، لا يجدينا أن تهدهدنا الأوهام، حيث لن تمنحونا الاستقلال، في الوقت الذي التزمتم به.

- لقد قلت لكم إن الخطر سيكون أكبر، عندما سنشهد سقوط بلدكم ولبنان بين يدي ألمانيا.

- سيبقى أصدقاؤكم الإنجليز إذاً في العراق وفلسطين.

- أخشى ذلك، بالفعل.

كانت النوافذ مواربة، حيث بدأت تظهر من خلالها النجوم الأولى.

- ثمة، أيضاً، أشواك منغزرة في القلب، استأنف الرئيس تعلو وجهه خيبة الأمل. تعرف عما أتحدث، أليس كذلك؟

- عن سنجق(١) الإسكندرون(٢).

- تماماً.

- أخبرني مندوبكم السامي أنكم تنوون، في حالة الحرب، ولمداراة تركيا، تسليمها هذا الجزء من ترابكم. بيد أنكم تعرفون حق المعرفة أن هذه المنطقة جزء من لحمنا، منذ أكثر من ستمائة سنة.

- أجل. لكن الأتراك يعيشون فيها أيضاً.

- ثلث! ثلث فقط! بل تنوون نزع اسم السنجق عنه، لتلبسوه اسم جمهورية الحتاي السخيف!

---

(١) اسم أحد الأقسام الأساسية في أقاليم الإمبراطورية العثمانية.

(٢) سنجق الاسكندرون: منطقة إدارية كانت تابعة لولاية حلب وبعد خروج العثمانيين من سورية، فصل عنها وأصبح مستقلاً استقلالاً إدارياً، وعُرِّبت كلمة «سنجق» إلى كلمة لواء وصار يعرف باسم «لواء الاسكندرونة». وقد ضمت تركيا اللواء إليها عام ١٩٣٨ بعد ان دخلته بقوات مسلحة.

- أنا . . .

- هل ترغب في أن أخبرك، يا سيد «لوفون»؟ قاطعه القوتلي. مع كل الاحترام الذي أكنّه لك، أشعر بالغثيان. فأنتم تباركون منح بلاد فلسطين، الأرض العربية، لأقلية آتية من الغرب، وتنزعون جزءاً من وطننا منا، نحن السوريين، لمداهنة الأتراك الذين هم أسوأ خصومكم، لأنكم تخشون أن ينقلبوا مرة أخرى إلى المعسكر الألماني.

سكت، ثم كرر القول:

- أشعر بالغثيان.

أشعل خادم المصابيح، حيث أضاء بريقٌ أصفر الحاضرين، يكاد يجعلهم أشباحاً.

- هل لي أن أطلعك أيضاً على رأيي، يا سعادة الرئيس؟

هزّ الأتاسي كتفيه.

- أتفق مع تحليلك. لا يمكنني سوى أن أؤيد وأشاطر شعورك بالمرارة. أعاهدك إذن أنه ما إن أعود إلى باريس، حتى أرافع عن قضيتكم. أقسم لكم.

- ليتني أصدقك، قال بصوت تشنج فجأة. أصدقك. غير أنه إذا تواصلت مماطلات حكومتكم بخصوص استقلال بلدي وسحب قواتكم، سأستقيل من مهامي، وسأترككم تدبرون ما أحاول تدبيره منذ عامين: غضب الشعب السوري وهياجه.

وقف. نظرته قاسية، تفيد أن اللقاء انتهى.

القسم التاسع

(٢٦)

الشعب اليهودي هو الموجز الرمزي
من العرق البشري.

شاتوبريان

برلين، نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٣٨

هبّت «روث سينغر» جافلة. ألقت نظرة ذاهلة على المنبّه. مَن وراء هذه الجلبة في عزّ الليل؟ حرّكت كتف زوجها بقوة، لكن دون أن تنخدع كثيراً، ذلك أن «دان» قد يبقى نائماً إلى الأبد.

صرخت:

- «دان»! استيقظ!

لم تتلقَّ سوى دمدمة تشبه سهيف دبّ. نهضت حينها. توجهت إلى النافذة، وأزاحت الستار.

في وهلة أولى، لم ترَ أي شيء. كان شارع «سبرينغل» خالياً ينيره ضوء أعمدة باهت. غير أن صرخات تصاعدت في جهة ما، جلبة حادة ناتجة عن انكسار زجاج. كانت برلين تشهد فترات اضطراب. لم يعد أي شيء كما كان من قبل، ولن يصبح مثلما كان.

صرخة أخرى، ممزقة جعلتها تقفز بقوة. ارتمت حينها على «دان».

- شيء ما يحدث! انهض!

فتح الرجل جفنيه.

- ماذا أيضاً؟ شبح ما؟

- لا تكن غبياً! تعالَ.

مالت على ذراع زوجها، وهي تتحدث.

- اهدئي، اهدئي... سنعرف ما الأمر.

قادته إلى النافذة، وباعدت المصراعين.

- اسمع...

مطّ «دان سينغر» أذنيه.

لا شيء. لم تُسمع سوى قطرات مطر تموت على الإسفلت.

- رأيت أيضاً كابوساً...

توجه عائداً إلى سريره، عندما دوى ضجيج في الشارع.

كان هناك رجل يجري، بينما يطارده عشرة أفراد. كان يركض بشق الأنفس، مثل حيوان، وهم في أثره مثل صيادين.

- لكنه «جاكوب»! صرخ «روث». أعرفه. إنه «جاكوب».

- «جاكوب»؟ تقصد «جاكوب فيلتون»؟ صاحب دكان البواكير؟

- هو!

- مازلت تتمتع بنظر جيد. لا أستطيع أن أميز ملامحه من هنا.

ظهرت جماعة أخرى في الجهة الأخرى من الزقاق. وجد «جاكوب» نفسه بين الجماعتين. ارتمى على أول بوابة.

الآن، استطاع «دان» وزوجته أن يميزا زيّ المطاردين الأسود الموحد، زي وحدة الهجوم(١).

---

(١) Sturm Abteilungen يطلق الاسم على وحدة شبه عسكرية كانت تابعة للجيش النازي الألماني في عهد أدولف هتلر. وقد اختار مؤلف النص

أحاط الرهط بـ «جاكوب فيلتون»، على بعد أمتار. حدّق فيهم «جاكوب»، جاحظ العينين. كان يرتجف.

استهزأ أحدهم.

- انظروا إليه. سيتبول على نفسه.

- شجاعة يهودي، تهكم آخر.

في الأعلى، عند النافذة، ضم «دان سينغر» زوجته بين ذراعيه بقوة، كأنه يأمل، وهو يحميها، حماية «جاكوب».

تهاوت الهراوة الأولى على أسفل بطن «جاكوب».

تلتها ضربة ثانية. لكنها لم تصب إلا الفراغ، لأن «جاكوب» كان قد سقط على ركبتيه. وأصابت الضربة الثالثة جمجمته. حينها تهاوى «جاكوب» على وجهه فوق الأرض. وعلى نحو غريب، لم يصرخ، أو يئنّ. لم يزفر ولو زفرة واحدة. بل ظل ينهج مثل حيوان جريح. هل كان يصلي؟ لا. كان يهمس: «لماذا يا «أدوناي»؟ لماذا؟»

صارت الآن ضربات الجُزَم المكتومة ترافق صوت الهراوات الأصمّ.

نزّ خيط دم من جبين «جاكوب». كان يختلط بماء المطر على الإسفلت. كان مزيج الماء والدم يسيل على طول مجرى، ليلتحق بدماء إخوة «جاكوب فيلتون» الذين كانوا يواجهون المصير ذاته، في تلك الساعة، في أحياء برلين الأخرى، وفي مدن الرايخ الأخرى.

همس «دان سينغر» في أذن زوجته:

- تذكري هذا التاريخ. لا تنسي...

= الأصلي أن يوظف الاسم كما هو باللغة الألمانية، لكننا اخترنا ترجمة الاسم إلى العربية تيسيرا للفهم (المترجم).

إنه يوم ٩ نوفمبر/ تشرين الأول ١٩٣٨.

في اليوم التالي، علم أن مئات الرجال والنساء اغتيلوا بالطريقة نفسها. رسمياً، هدم ١٧١ بيتاً و٨١٤ دكاناً، وأحرق ١٩١ معبداً، وقتل ٣٦ شخصاً وجرح كثيرون، وسجن ٢٠ ألف يهودي «على سبيل الاحتياط».

كانت **ليلة البلور**.

*

القاهرة، ٣ مارس/ آذار ١٩٣٩

- الوقت يمضي. والحياة تمضي، قال جمال عبد الناصر. لو كانت كل كلمة حبة رمل، لكنا الآن مدفونين تحت الخطابات المصبوبة علينا منذ عشرين سنة حول القضية العربية وفلسطين.

كان هو ورفيقه في السلاح زكريا محيي الدين في عطلة في القاهرة، حيث جلسا في مقهى معلوم بحي الأزبكية، لأن جمال كان يظن أن هذا المكان يبشره بالحظ السعيد. كانت أغنية لعبد الوهاب يبثها الراديو تغطي على حوارهما.

أومأ زكريا برأسه.

- أنت على صواب، يا جمال، فالخطابات تنوّم الشعب، وتجعله يشعر بالعزلة.

- بالطبع! طالما أننا لا نملك جيشاً للدفاع عنه.

انتفض جمال وزكريا من مكانيهما، كأنهما ضبطا متلبسين بالنشل. رفع أعينهما نحو من اقترب منهما.

- أحمد! هتف زكريا، وهو يحتضن الرجل بين ذراعيه. يا لها من مفاجأة!

استدار نحو جمال، وقدمهما إلى بعضهما:

- هذا أحمد، أحمد ذو الفقار.

ثم أكد بافتخار:

- ابن أخت البطل!

- تقصد...

- نعم! ابن أخت زغلول.

انزاح جمال عن كرسيه بعفوية، وعانق بدوره ذو القفار.

- الفخر بخالك علامة ظاهرة على جبهتك، هتف جمال. لا تدنسه أبداً!

- لا تخشى ذلك، وإلا فدونه الموت.

أشار أحمد إلى رفيقه.

- تيمور لطفي. صديقي، لكنه صهري أيضاً.

- تيمور لطفي، تساءل عبد الناصر. ألست نائباً عن حزب الوفد؟

- تماماً.

- سمعتهم يتحدثون عن مداخلاتك في البرلمان. تبدو جريئاً. وهذا أمر جيد.

دعا الرجلين للجلوس.

- كنت تقول إذاً، استأنف عبد الناصر محدقاً في ذو الفقار: «تماماً! طالما لا نملك جيشاً...».

- لست أنا من أطلق هذا التأكيد، وإنما صديقي تيمور.

- بالفعل، أكّد هذا الأخير. إذ يمكننا أن نطرد الإنجليز من مصر بجيش قوامه ثلاثين رجلاً مدرباً وبضع دبابات. أظن أن الجنرال عزيز المصري، الذي عُيّن مؤخراً رئيساً للأركان العامة للقوات المصرية، يمكنه أن يكوّن هذا الجيش النخبة.

حرّك جمال رأسه.

- لا، يؤسفني أن أختلف معك، ذلك أن الإنجليز لن يدعوه

يفعل. فهذا الخنزير «لامبسون» يخشى تحديداً أن نمتلك جيشاً. وحتى لو رقص أبو الهول، فإنه لن يقبل.

تابع كلامه، وهو يحدّق في حدقتي تيمور لطفي:

- حدثني عن نفسك، يا صديقي.

*

القاهرة، ٤ أبريل/ نيسان ١٩٣٩

تابع واحد وسبعون زوجاً من الأعين الملكة فريدة، وهي تعبر القاعة الضخمة في قصر عابدين، لتمتطي إحدى سيارات «رولس رويس» الحمراء البراقة ذات الواقيات السوداء، وهي ألوان خاصة بالقصر، وتتجه نحو قصر القبة حيث تلتئم مأدبة كبيرة على شرف زيارة وفد سياسي وعسكري تركي.

انتبه الجميع إلى الملاحظة التي أبداها العديد من الحاشية: خمسة عشر شهراً من الزواج، والبطن ما زال مستوياً تماماً.

في الساعة العاشرة مساء، من اليوم ذاته، نزل من سيارة «لينكولن» سوداء أمام حانة «كيتكات» رجلان، أحدهما ضخم ذو مظهر أوربي، والثاني متوسط القامة، يبدو فتى وسيماً أصغر بعشر سنوات، لكنه في أولى مراحل السمنة. دلفا الحانة بسرعة، يرافقهما مديرها شخصياً، واتخذا مكاناً مخصصاً لهما، خلف ستارة تسترهما. كانت حانة «كيتكات» ذائعة الصيت؛ وفي هذا المساء، كانت تستضيف فرقة الرقص الهنغارية «مجانين بودابيست».

طلب الشاب الأصغر عصير برتقال، شرابه المفضل، والثاني و«يسكي» بالماء، ثم استمتعا بحفل الجدائل الدانوبية ذوات تنورات قصيرة وسيقان مكشوفة. بعد هنيهة، طلب الأصغر من جاره بفرنسية بديعة تشوبها نبرة إيطالية خفيفة:

- قل لي، ما رأيك في الثالثة من اليسار؟

- الصهباء، يا سيدي؟

- تماماً.

- إنها مغرية.

هزّ الشاب رأسه. كان مخاطبه يدرك ما سيفعله. كان «أنطونيو بولي»، وهذا اسمه، مهاجراً إيطاليا من الجيل الثاني، يعرف الملك منذ الأزل، حيث كان والده مسؤولاً عن صيانة الدائرة الكهربائية في القصر. ساعده «أنطونيو» في مهمته، ومن الطبيعي جداً أن يؤتى به لإصلاح ألعاب ملك مصر المقبل. يمكن القول إن هذه اللحظة شهدت ميلاد علاقة صداقة بين المراهق والطفل. إذ أصبح «بولي» ظل فاروق الذي لا يفارقه، أناه الأخرى، شقيقه الذي لم تلده أمه.

بعيد انتهاء الحفل، غادر الثنائي الحانة في سرية تامة. لم يكونا وحيدين، بل رافقتهما امرأة صهباء. كانت ابتسامة تعلو وجهها. غدا، ستغتني بمائة جنيه وبعض الذكريات الملكية.

لم تكن صحوة العاهل ذي التسعة عشر عاماً سارّة جداً. لقد خلد منذ ساعتين لنوم مستطاب، عندما أخذ كبير الحجاب حسنين باشاً شخصياً على عاتقه مسؤولية إيقاظه.

- مولاي!

لا ردّ.

- مولاي!

ارتعش الوجه الشبابي المنتفخ جراء النوم.

- مولاي!

فتح فاروق عيناً، ورأى وجهاً غير الذي غادره قبل أن ينام. وجه

نحيل، أسمر، مغضّن يعلوه طربوش. أسفله ربطة عنق حريرية رمادية موضوعة على ياقة بالية. كان بعيداً كل البعد عن الجمال الدانوبي الذي تقاسم معه، منذ بضع ساعات، الفراش الملكي.

- ماذا هناك؟

راجع ساعته اليدوية الذهبية.

- بالكاد تشير الساعة إلى السابعة!

- اغفروا لي، يا مولاي، لأنني أيقظتكم، لكن الملك غازي مات البارحة مساء، وارتأيت أن أخبركم في أقرب وقت ممكن.

رفّت عينا فاروق، ثم جلس.

- بِمَ توفي؟

- يقال إنها حادثة سير. لكن سفيرنا، الذي كلمني في الهاتف، أخبرني أن الإنجليز هم الذين ربما دبروا الحادثة بتواطؤ مع روحهم اللعينة نوري السعيد.

- هل يُعرَف من سيحل محله؟

- ابنه، يا جلالة الملك. فيصل الثاني.

- فيصل؟ بالكاد بلغ سنته الرابعة! أظن أنهم سيلصقون به وصياً على العرش؟

- بحسب المعلومات المتوفرة لدينا، ربما قد عُيّن هذا الأخير. يتعلق الأمر بعمّه الأمير عبد الله، شقيق الراحل الملك غازي.

حمل الخادم، بعد ضغطة جرس، جبة البيت وصحناً به إبريق شاي وفنجان.

- إنه أمر مؤسف. ها قد حصل ما نخشى أن يثير ردود الفعل هنا. فمن الحذر دعم أطروحة الغرب في اللحظة الراهنة.

كان المجلس عديم الجدوى. سرعان ما رفض الشارع تصديق هذا الموت «الفجائي». ألم يمضِ غازي وقته في التنديد بالسياسة

الإنجليزية في الشرق الأوسط؟ ألم يُشَهِّر به أولئك السادة في لندن؟ وسرعان ما سارت الركبان بذكر اسم نوري السعيد، عميل المستعمِر. إذ ظهر جلياً أنه كان الذراع المسلحة في المصالح السرية البريطانية. وفي الأيام التالية، انفجرت انتفاضات في المدن الكبرى. فأثخن قنصل بريطانيا في الموصل جراحاً، ونهبت وأحرقت شركات بريطانيين وبناياتهم.

بعد أربعة أشهر، في يوم ٢٣ أغسطس/ آب ١٩٣٩، دوت أول صاعقة ضمن سلسلة طويلة. إذ فاجأ الألمان والسوفيات العالم، حيث وقعوا على معاهدة عدم تبادل الاعتداء، وهي بشائر تحالف تحسباً لحرب ما.

لم يكن هذا الأمر، كما بدا من القاهرة، فأل خير، لكنه لن يغير الوضع كثيراً. وكان في المقابل مثيراً، كما بدا من دمشق، طالما أن أوربا كانت تتجه، بكل تأكيد، نحو صراع سيجرّ فرنسا حتما إلى ساحته. هل تستطيع، إذا تورطت في مأساة كهذه، الحفاظ على وصايتها على سورية ولبنان؟ فالوضعية هشة، حتى إن هاشم الأتاسي استقال الشهر الماضي، ٧ يوليو/ تموز، وانسحب إلى مدينته حمص، مثلما سمع «جان فرنسوا لوفون»، أمام عدم احترام الالتزامات التي تعهدت بها فرنسا، وكذا التنازل عن الإسكندرون لتركيا. كانت سورية تدفع باب الفوضى. وفي الأخير، كان التقارب بين ستالين وهتلر منذراً بالخطر، كما بدا من بغداد، لأن العراق، وهو واحد من ثلاثة بلدان قريبة من الاتحاد السوفياتي، كان يشهد وجوداً إنجليزيا أقوى. من هنا، يخشى أن تصاب المدن العراقية مباشرة.

بعد أسبوع، في أول سبتمبر/ أيلول، دوّت الصاعقة الثانية، حيث دخلت جيوش الرايخ الثالث بولونيا.

وفي يوم ٣ سبتمبر/ أيلول، حدث الانفجار الثالث، هو الأعنف، حيث أعلنت فرنسا وبريطانيا العظمى الحرب ضد ألمانيا.

وفي القاهرة، أعلن الخبر منتصف النهار؛ وفي دمشق وبغداد، على الساعة الواحدة. وبينما كانت الإذاعة تبث أغاني أم كلثوم، نشرت فرق أمنية لحراسة السفارة الفرنسية في الجيزة، وسفارة بريطانيا العظمى في «غاردن سيتي»، والسفارة الألمانية في قصر الدوبارة.

*

طنطا، ٥ سبتمبر/ أيلول ١٩٣٩

احتضن تيمور ابنه بين يديه، وهمس في أذنه، كأنه يكشف له سرّاً:

- أحبك، يا هشام.

- أنا أيضاً، يا أبي.

تأمل ابنه لحظة. في سن الثالثة عشرة، كان صاحب وجه حاد، بل متمرد، ذا عينين كستنائيتين، وفم واسع بشفتين لحيمتين، تذكران بشفتي جده. كان المراهق يتميز، بوضوح، بروح نقدية وبصيرة نفاذة، وهو يتابع أحاديث الكبار، مثل فأر يتابع حوارات القطط.

- أبي، لماذا لا يطلب الملك رحيل الإنجليز؟

- من سيجيبه؟

قبل أن يجيب والده أو أمه، جاء الجواب على لسان فاضل، الابن الأصغر.

- لأن فاروق كركوز. والكراكيز ليست سوى دمى، والدمى أشياء تسخّر فقط.

استسلم الثلاثة، الذين ذهلوا في البداية، لنوبة ضحك مجنون

منفلت. كان لا بدَّ من وجود طفل ذي عشر سنوات، ليلخص الوضع باختصار شديد.

صفق لطفي باي.

- ممتاز، يا صغيري! كما قال رئيس عمالي، رحمه الله: «تصبح الحقيقة خنجراً في يد طفل».

- إذاً، هتف هشام، لن يصبح فاروق ملكاً حقيقياً أبداً؟

- من يدري؟ ربما سيكتشف ذات صباح أنه يمتلك القدرة على الحكم. في انتظار ذلك، نحن مكرهون، واحسرتاه، على الجمود وإنكار الذات.

في الواقع، ما لم يؤكده تيمور هو أن هواجس ابنيه تعكس مشاعره الخاصة. ها قد مضى زمن وهو يشعر باستخفاف بيّن، إلى حدّ ما، تجاه السلطات والأوساط السياسية.

وعلى نحو غريب، كان نضال الصافي، في بغداد، يشاطر الشعور ذاته. وربما ليس غريباً إلى هذا الحد، على كل حال. إذ عايشا - هو وتيمور - ميلاد وعيهما السياسي لحظةَ الثورة الكبرى؛ أحدهما إبان الحماسة الوطنية التي أثارها سعد زغلول، والثاني في مناخ البطولة الحربية التي كانت تحيط ببعض الشخصيات أمثال فيصل. وما أن دخلا عالم السياسة، حتى واجها، تدريجياً، مؤامرات سياسوية، لا صلة لها بالرؤية التي تحرك رجال الدولة الحقيقيين.

*

باريس، ١٠ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٣٩

فضّ «جان فرنسوا لوفون» الرسالة، وأخبر دنيا:

- رسالة من أخيك. انطلاقاً من تاريخها، فإنها استغرقت أربعة أشهر، لتصل إلينا.

ترك نفسه يتهاوى على الأريكة الأقرب إلى المدفأة، ثم قرأ بصوت مرتفع:

بغداد، ١٠ أغسطس/ آب ١٩٣٩

عزيزي «جان فرنسوا لوفون»، عزيزتي دنيا،

أتساءل أحياناً ما إذا كان الرب لا يتحلى بروح الدعابة، ولا يمنحنا إشارات سرية، لينذرنا بالخطر. وهو ما أحاول استخلاصه عندما أفكر في المعنى الحديث لكلمة «غازي». لقد فقدنا قنينة غاز.

لم يمنع «جان فرنسوا» نفسه من الضحك أمام هذا المجاز، ثم تابع القراءة:

ليس عبد الإله، الوصي على العرش، سوى فتى سيئ. فهو غير موجود ببساطة. تصور أخرقَ كبيراً في سن السادسة والعشرين، ترعرع في النعيم، متوهما أنه ينتمي إلى عائلة حاكمة. يطلب بدلاته وأحذيته من أفضل الصناع في لندن، وعندما تراه يسير، تدرك نصف شخصيته. إذ يحب الرجال. لذلك، اختاره نوري السعيد، حيث يمارس عليه سلطاناً ساحقاً. ويحسب نفسه مدافعا عن العالم العربي، لكن سأفاجأ إذا أصاب حمامة طين على بعد ثلاثة أمتار، شريطة أن نخلي الجميع من حوله إلى مسافة كيلومتر.

قالت دنيا مستلذة:

- لا أذكر أن أخي يتمتع بروح الدعابة هذه.

تابع «جان فرنسوا»:

ليتني أستطيع أن أحمل حكماً واضحاً عن الوزير الأول نوري السعيد، لأن أفكاري متضاربة. فالرجل صاحب ذكاء رهيب وقدرة على المكيدة لا مثيل لها. أتساءل عما إذا كان خبيراً ومناوراً. ثم إنه يلعق أيدي أسياده الإنجليز كثيراً.

تكمن المشكلة، صديقي العزيز، في أن رؤساءنا يتمتعون، منذ أن تحررنا من العثمانيين، برغد عيش يبدو لي محفوفا بالمخاطر. إذ كان فيصل يتنقل على صهوة جواد، مما يتطلب جهداً جسدياً كبيراً، حتى بالنسبة إلى فارس جيد. ولم يكن في حاجة إلى مكبر، ليسمع صوته عشرة آلاف رجل، وكان يسخر بشدة مما ينبغي أن يأكل مساء، حيث تكفيه شربة لحم خروف أو دجاج بالرز. بينما يملك أمراؤنا سيارات ليموزين فارهة، ومطابخ لعشرين شخص، حيث يمضون وقتاً طويلاً على المائدة. آمل أنهم يعرفون قراءة القرآن، لكنني أشك في أنهم يملكون الوقت لذلك. فعندما ينتهون من استقبال المداهنين والمستجدين، يتملون في محظياتهم أو خلاّنهم، ويستيقظون بعد أربع ساعات من صياح الديك.

أما الرجال، أمثال فيصل أو خصمه ابن سعود، فقدا اعتادوا الصحراء، التي تعلم النظر إلى البعيد. بينما لا يرى السياسيون اليوم أبعد من جدران مكاتبهم أو بيوت الساحة حيث يخطبون في الحشود.

كان رؤساؤنا سابقا يحكمون على رفاقهم في السلاح بناء على قدرتهم على استعمال السلاح أو السيف، ومعاناتهم على صهوات الجياد، وحسّهم السليم. لم يعد الأمر كذلك.

أخشى، للأسف، أن كل أحلامنا بالاستقلال، وخيالاتنا الحالمة، ستحزم في الحقائب، مع هذه الحرب التي ستخرب العالم. ربما يفتحها خلَفنا يوما ما، فيأخذ المشعل.

قبلاتي الحارة إلى أختي الحنون. قل لها إني أحبّها.

نضال.

- ما رأيك؟ تساءل «جان فرنسوا».

- أرى أن التشاؤم استقر في قلب أخي، مع تقدمه في السن. سيبلغ نضال عامه الستين عما قريب. إنها لحظة حياتية، يتكدّر فيها المزاج بما يتبقى لك من عمر.

(٢٧)

إن نسيتك يا أورشليم فلتنسني
يميني، ليلتصق لساني بحنكي.

سفر المزامير ١٣٧: ٥ - ٦.

كيبوتس ديغانيا، ١٠ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٠

طوى يوسف مرقس صحيفة *فلسطين بوست*، ووضعها، ساهياً، على فخذيه. ثم نزع نظارته، بعدما استعصى عليه الاقتناع بالمعلومة التي قرأها للتو.

بعد لحظات تأمل، أعاد قراءة المقالة الموسومة بـ«رحلة المعذبين». إذ يروي فيها الكاتب قصة باخرة «إس. إس. سان لويس»، التي غادرت مرفأ هامبورغ قبل ثمانية أشهر، أي يوم ١٣ مايو/ أيار ١٩٣٩، وعلى متنها ٩٣٧ راكباً، من بينهم ٥٥٠ امرأة وطفلاً. كلهم يهود ألمان. يحملون جميعاً تأشيرات إلى هافانا حيث يأمل أن يقيم المنفيون، في انتظار أن يمنحوا الحق في دخول الولايات المتحدة.

وفي يوم ٢٣ مايو/ أيار، وبينما كانت الباخرة على وشك دخول المياه الإقليمية الكوبية، تلقى «غوستاف شرودر»، قبطان «سان لويس»، برقية مرسلة من الحكومية الكوبية تمنعه من ولوج الميناء. وسرعان ما تلقى أَمْرَ رؤسائه بإرجاع «شحنتها» إلى هامبورغ.

كان القبطان واعياً بالمصير المأساوي الذي كان ينتظر ركابه، في حالة العودة إلى نقطة الانطلاق. اتصل بحكومات العالم الحرّ، أملا في أن تشرع أبوابها أمام اللاجئين. إذ رفض روزفلت، الذي كان أول من توسّل إليه، طلبه رفضاً باتاً. وكذلك فعلت كندا، مبينة أن استقبال مسافر واحد يقتضي استقبال الآخرين. وسلكت جميع بلدان أمريكا اللاتينية مسلك الرفض ذاته. وفي برلين، صرخ «غوبلز»، حسب ما قاله بعض الشهود: «أترون؟ لا أحد يريدكم!»

بعد استنفاد جميع الوسائل، حاول القبطان أن يجنح بسفينته بمحاذاة شواطئ فلوريدا، لكن حرس السواحل الأمريكية اعترضوا سبيله، مهددين بإطلاق النار.

في نهاية المطاف، وأمام استحالة ولوج مرسى، اضطر «غوستاف شرودر»، إلى أن يعود أدراجه. من حسن الحظ، سُمح لهؤلاء «الممقوتين»، بفضل رجل أرسله القدر - «موريس تروبر» - بنزول أراضي هولندا، وبلجيكا، وإنجلترا، وفرنسا، بعد أيام من المفاوضات.

والمسألة التي تطرح اليوم، كما تخلص المقالة، هي كالتالي: «إذا احتلت القوات النازية، غداً، أراضي الاستقبال هذه، ماذا سيكون مصير هؤلاء الناجين؟»

طوى يوسف الصحيفة مجدداً.

هل يصدق هذا الأمر؟ أمريكا السيد روزفلت؟ هذه الديمقراطية الكبرى؟ وكندا؟ وبلدان أمريكا اللاتينية جميعها؟

اقشعرّ ظهره.

تجمد في مكانه، وأفكاره تتشابك في دوامة ظلت متواصلة، حتى أعاده صوت ابنته «إرينا» إلى الواقع.

- إذاً، يا أبي؟ أنت تحلم؟

كانت تقف على عتبة المكتبة، وهي تمسك يد ابنها «أفرام»، البالغ من العمر تسع سنوات، ثم أضافت:

- العشاء جاهز!

- نعم، نعم، سآتي.

نزع نظارته.

- إذاً؟

- سآتي.

أثارت نبرة صوته إرينا لأنها، بدل أن تذهب، عبرت القاعة، واقتربت من والدها.

- أنت بخير؟

- بلى، بلى.

داعب شعر حفيده بحنان، وحدّق فيه، تملأ نظرته ومضة متطلعة.

- أبي، أصرَّتْ إرينا. هلا أخبرتني بما يكدر صفوك؟

غضّ الطرف.

- لم أظن يوماً أنني سأضع قناعاتي موضع تساؤل، وأنا أصل إلى هذا العمر. غير أن...

- لم أفهم...

- منذ أكثر من ألفي سنة، كان على أجدادنا، لكي يتملكوا هذه الأرض، أن يشنوا سلسلة طويلة من المعارك والمواجهات. إذ أزاحوا الكنعانيين، واستبعدوا العمالقة[1]، وسحقوا المديانيين[2]،

---

(١) قبيلة من الرحل كانوا يحتلون منطقة جنوب يهودا، التي توجد بين مصر وصحراء سيناء.

(٢) قبيلة من الرحل كانت تعيش شمال شبه الجزيرة العربية. وتقول الأسطورة إن يوسف باعه إخوته لقافلة من أهل مدين (سفر التكوين. ٣٧: ٢٨، ٣٦).

والفلستينيين، وغيرهم ممن نسيت. تسيل الدماء على الدوام. وأنا أصل إلى هنا، اقتنعت أن تكرار التاريخ بالسعي إلى إنشاء دولة على حساب من يعيشون اليوم في هذا البلد لن يكون هرطقة فحسب، بل ظلماً شديداً. لقد أثارني إعلان بلفور دائماً بعمق: ما قيمة التزام من يعطي ما لا يملك؟

انطوى على نفسه صامتاً، قبل أن يتابع:

- واليوم، وأنا أعي، في سنّ السبعين، المصير الذي نذره الرجال لطائفتنا، والامتهان الذي استلهمناه دائماً، ولا زلنا نفعل، أتساءل إن لم أكن حالماً، بل أسوأ من ذلك، إن لم أكن متواطئاً - بعقليتي - مع القتلة.

نظر إلى إرينا مستفهماً.

- لِمَ لا تقولين شيئاً؟

- ماذا تنتظر؟

تجاهل السؤال، وتابع:

- أول أمس، خضت في نقاش طويل مع صديقنا «بن غوريون»، حيث تحدثنا عن المستقبل. أطلعته على تحفظاتي. هل تعلمين ماذا قال؟ «يا مرقس! تتحدث مثل خروف. لطالما كنّا خرافاً، وقادونا إلى المذبح. واليوم، أفضل أن أعيش يوماً واحداً مثل أسد، بدل مائة يوم مثل خروف». وأضاف بصوت مرتجف: «لو عرفت أنه كان من الممكن إنقاذ أطفال ألمانيا جميعهم بنقلهم إلى إنجلترا، أو إنقاذ نصفهم فقط بنقلهم إلى إسرائيل، لاخترت الحلّ الثاني، لأن الأمر لا يتعلق فقط بعدد الأطفال الذي يجب إنقاذهم، بل بمسؤوليتنا التاريخية تجاه الشعب اليهودي برمته».

وضعت إرينا يدها تلقائياً على كتف ابنها.

- أجد هذا القول مرعباً، تمتمت بصوت مكتوم. لكني أدرك ما أراد قوله، وأوافق عليه.

توقفت برهة قبل أن تسأل:

- وأنت؟

دمدم يوسف مرقس:

- بدأت أفهم...

*

القاهرة، سبتمبر/ أيلول ١٩٤٠

ظل أغلب المصريين يعتقدون، لمدة طويلة، أن الصراع الأوربي لا يعنيهم. لطالما هنأ الإنجليز، والفرنسيون، واليونانيون، والإيطاليون، والروس البيض اللاجئون إلى المستعمرة الأوربية على ضفاف النيل، بعضهم بعضاً بما ينعمون به من دفء وأمان، بينما كان إخوتهم يتقاتلون في حمأة، أو بدأوا، في أفضل الأحوال، يعانون نقص حصص الغذاء.

لكن المارشال «غرازياني»، الذي انطلق من ليبيا على رأس الفرقة العاشرة في الجيش الإيطالي، تقدم، يوم ١٣ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٠، بمائة كيلومتر في التراب المصري، واستولى على سيدي براني.

استولى الخوف والحيرة على قلوب الجنود البريطانيين الموجودين في القاهرة، بينما علم العالم العربي، في الآن ذاته، أن قوات المحور كانت تستهدف بلداً شقيقاً. والأسوأ من ذلك أن خطاباً، يعلن فيه «وينستون تشرتشل» أن إيطاليا هاجمت بلدا تحت الانتداب الإنجليزي، أوقع المصريين في غضب مسعور: «تحت الانتداب الإنجليزي! ثم ماذا أيضاً؟» ارتفعت الأصوات في شوارع

القاهرة كلها، في مصر العليا والسفلى، صارخة: «يحيا الإيطاليون!» هل وصل «موسوليني»؟ نعم الأمر! سينظف أوساخ المملكة، مثلما أعاد بناء بلده. هتفت باسمه - الذي حورته قليلاً: «موسى النيلي!»

وأعاد «راديو باري»، المحطة الإذاعية التي تلتقط بشكل جيد في مصر، بث خطاب الدوتشي الذي أعلن فيه نفسه «حامي الإسلام»، بينما كان في طريقه إلى مصر، ليحررها من مضطهديها البريطانيين. هي أقوال لم تكل الساكنة من ترديدها، غير أن بعض الأصوات تساءلت عما يمكن انتظاره من محرّرٍ ذبح الإثيوبيين بلا رحمة.

وعلى نحو غريب، كان فريد لطفي باي واحداً من الأشخاص الأكثر عرضة للوهم الإيطالي. أخيراً، بدا، وهو في بداية سبعينات عمره، متخلصاً من كآبته الطويلة التي غاص فيها منذ شهور. ففي بعض المساءات، كان يلقي خطابات مخيفة، تحت أنظار ابنه وكنّته، يصف فيها «موسوليني» كأنه جبريل نزل من السماء ليحرر العالم العربي.

والحال أن الضرورة اقتضت الاعتراف بأنَّ آمال العجوز الهذيانية كانت تلتقي مع ما يروج على الألسن في مصر. لقد طلب المارشال «غرازياني» جيشا قوامه ٢٥٠ ألف رجل، بينما لا يتعدى الإنجليز ٥٠ ألف رجل على الأكثر. لم تكن عاقبة الحملة الإيطالية موضع أي شك. فتزود السكان، الذين استولى عليهم الخوف، بالفول، والعدس، والرز، والدقيق، والمعكرونة، والزيت، والملح، والصابون، وأشياء أخرى لا يعلمها إلا الله، دون الحديث عن الوقود المخزّن في قنينات الزبدة الفارغة.

وعندما حلّق الطيران الإيطالي، يوم ١٩ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤٠، فوق القاهرة، وفجّر - خطأ - ضاحية المعادي الراقية، خيّم الخوف على المدينة. وهربت عائلات برمتها نحو الجنوب.

لم يكن تيمور يعرف شيئاً غير التفكير فيما يجري، لكن الأصدقاء الذين يحتفظ بهم داخل الحكومة مدّوه بأسباب الاعتقاد أن الوضع كان أقلّ خطورة مما يظهر عليه. ألم يظهر ضباط إنجليز البارحة فقط، كما أفاد الجواسيس، وهم يقهقهون في «نادي تورف»؟ إنه سلوك لا يكشف عن القلق بتاتا.

وفي يوم ٧ ديسمبر/ كانون الأول، حدث حادث لا تربطه أي صلة مباشرة بالحرب، لكنه ترتب عنها. كان تيمور الذي انتهى من تناول العشاء، يرشف القهوة، رفقة أحمد ذو الفقار ورفيقته الجديدة التي يسميها «الماتادور».

كانت نور تقول سرّاً إن التسمية تعود، بلا شك، إلى القرون التي ترتديها. بينما كانت رواية أحمد مختلفة بالطبع. إذ سماها كذلك، ببساطة، لأنها كانت سمراء، قشتالية الأصل. كانت ابنة السفير الإسباني في القاهرة. بالكاد بلغت سنتها التاسعة عشرة. نهداها نافران في جسد طافح، قائم على ساقين لا ينتهيان أبداً. لم تكن «لويلا» - هكذا كانت تدعى - تتحدث سوى اللغة الإنجليزية، لكن بنبرة إيبيرية حتى إن أغلب الكلمات تشبه القرقرة. في البداية، كان تيمور يجد نفسه، من باب التأدب، ملزماً بفك شفرة أقوال الشابة؛ ثم صار الآن يكتفي بطأطأة رأسه، بعد أن تعب. ولمّا أصبح يتضايق، تدريجياً، من خروجه مع «الماتادور»، سأل أحمد ذو الفقار ما إذا كان فارق السن بينه وبين «لويلا» (أربع وعشرون سنة) لم يكن محرجاً نوعاً ما. ردّ ابن أخت المرحوم زغلول، هازًّا كتفيه: «ماذا تريد؟ لقد أصبحت، وأنا أشيخ، شديد التأثر بالبرد، وانتهيت إلى إدراك أن حمى الشباب تقي الجميع - بمن فيهم خادمك - من الموت برداً». كان على تيمور أن يعترف بتماسك هذه الحجة.

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة ليلاً، عندما اقتحمت نور الصالون، مذعورة، دامعة العينين:

- اختفى والدك!

- ماذا تقولين؟

- اختفى والدك! بلا شك، ذهب عندما كنا نتعشى.

- مستحيل!

نهض تيمور من أريكته، مذعوراً.

- كان يجب أن يحدث هذا الأمر، تنهَّدتْ نور. ها قد مضى أسبوع، وهو يتفوه بأقوال غير متماسكة، ويتحدث عن ذهابه لاستقبال المارشال «غرازياني»! ربما ذهب لتنفيذ مشروعه.

- لا يعقل! صرخ أحمد ذو الفقار. ربما قرر ببساطة التجول في المدينة. وربما...

- لا. قال لي الخدم إنه ملأ خزان السيارة بالوقود منذ فجر اليوم. لا توجد السيارة بالمرآب. وهذا ما وجدته قرب المائدة.

أشهرت خريطة طرق، رسم عليها خط ينطلق من القاهرة حتى الحدود الليبية، مروراً بالإسكندرية ومرسى مطروح.

- يا له من جنون! في عمره! هناك أكثر من ثلاثمائة كيلومتر!

انخرطت نور في البكاء.

- إنه خطئي. كان عليَّ أن أراقبه!

- لا، احتج تيمور. لا تعاتبي نفسك. يا أحمد، يجب أن ترافقني. ينبغي أن نلحق به قبل أن يصل الحواجز الإنجليزية. قد تسوء الأمور.

- لن نصل أبداً في الموعد.

- الأمر سيان، يا أحمد، يجب أن أحاول.

- كن عاقلاً. لقد جلسنا إلى المائدة في الساعة الثامنة

والنصف. وهي تشير الآن إلى منتصف الليل إلا ربع. لابد أن يكون والدك على أبواب الإسكندرية في هذه اللحظة.

- إذاً؟ ماذا تقترح؟ لا يمكن أن نبقى مكتوفي الأيدي.

- اهدأ. دعني أجري مكالمة هاتفية. سأعلم ضابطاً مسؤولاً في الشرطة قرب مرسى مطروح. سيبذل قصارى جهده لاعتراض سبيله.

دامت المكالمة الهاتفية وقتاً طويلاً. عشرين دقيقة؟ ثلاثين؟

- أية سيارة يركب صهرك؟ سأل الضابط.

كان على ذو الفقار أن ينقل السؤال إلى الآخرين.

- «بونتياك» سوداء، أجاب تيمور.

- هل تعرف رقم التسجيل؟

- لا.

- نحن في حاجة إليها.

- انسَ الأمر! قال تيمور، متوتر الأعصاب. إننا نهدر الوقت.

- ثِقْ بي، أصرّ أحمد. لابد أنك سجلت الرقم في مكان ما؟

- أعرف أين أعثر عليه، قالت نور.

اندفعت نحو المكتب، وعادت بعد بضع دقائق، تحمل ورقة، سلّمتها لشقيقها. أملى الرقم على الضابط الذي كرّره في الهاتف. بعد ذلك، أمدّه بمعلومات الاتصال، وطلب منه أن يتصل بهم ما أن يستجد لديه جديد. تخيل تيمور، المعذب، والحانق على هدوء صديقه الواثق، أن والده سقط تحت وابل رصاص الإنجليز، وهو يحاول اقتحام حاجز ما.

أخيرا، علق ذو الفقار سماعة الهاتف.

- الآن، لنجلس. لنقدم لأنفسنا كأساً، وننتظر.

- أحمد!

- ثق بي. لا يمكننا أن نقوم بشيء أفضل من ذلك.

أمسك «ماتادوره» من خصرها، وتحت أنظار تيمور المرتبكة، ذهب ليجلس.

*

بُعيد مخرج بحيرة مريوط، سلطت المصابيح أضواءها على شاحنة عسكرية مصرية في عرض الطريق وسيارة «بونتياك» سوداء متوقفة. كان العديد من الجنود المصريين يجادلون رجلاً مدنياً بحدة. إنه فريد لطفي. كان العجوز يستشيط غضباً.

- يا باي، توسل إليه ضابط، أناشدك أن تركب الشاحنة.

- لا داعي! عندي موعد مع المارشال «رودولفو غرازياني»! أنتم خونة! خونة!

حاول العودة إلى سيارته. أخضعه عسكريان. ساندهما اثنان آخران. وبما أنه كان يصيح مثل مسعور، وهو يحاول الانفلات، أمر أحد الضباط:

- قيّدوه بالأصفاد.

- إنها فضيحة! أنا لطفي باي! أنتم لا تعرفون مع من تتعاملون!

ثبّت الجنود معصمي العجوز خلف ظهره.

- أركبوه!

عندما بلغ الجنود فيلا الجيزة، كان عقرب الساعة قد تجاوز الخامسة. اندهش الحارس عندما رأى سيده مكبلاً مثل سوقيّ يقف أمام العدالة.

كان الشقي لطفي في حالة وهن شامل. لم يصدر عنه أي ردّ فعل، عندما حُرّرت يداه، أو وهو يرى «الماتادور».

عندما مدّدوه على سريره، كانت كلماته الوحيدة:

- أريد العودة إلى بيتي.

*

حيفا، ٢٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٠

الساعة التاسعة صباحاً.

كان مراد وسليمان، قرب نافذة مكتب شركة «حسين شهيد وأبنائه شبيشاندلر»، يراقبان منذ لحظات المسافرين الذين يرتقون ببطء سلم سفينة «باتريا» التي يعلوها العلم الفرنسي. رجال ونساء يتقدمون تحت أنظار جنود إنجليز يحملون رشاشات.

- يقال إنه الهدوء الذي يسبق العاصفة، علّق مراد بنبرة قاتمة.

- لا أرى ما قد يلحقهم من سوء.

أشار إلى السفينة.

- في نظرك، كم هم؟

- نحو ١٧٠٠. ربما أكثر، وربما أقل.

- لم يتمكن لطيف من أن يعطيني رقماً محدداً. لكن ما هو مؤكد أنهم مطرودون نهائياً.

- هل يعرف أين يتجهون؟

- جزيرة موريس، حسب لطيف دائماً.

- هل تريد أن أخبرك شيئاً؟ الإنجليز أولاد قحبة فعلاً. في مرحلة أولى، قرروا أن يمنحوا نصف أرضنا لليهود، وهم يتصورون أننا سنُنْهَب دون رد فعل. أما وهم يواجهون اليوم برك الدماء، فهاهم يبدلون رأيهم، ويطردون هؤلاء المساكين الذين وعدوهم باجتراح المعجزات. إنهم أولاد القحبة فعلاً!

- لا تعول علي في الاعتراض عليك. ومع ذلك، لنعترف أنهم ينقذون فلسطين بتصرفهم هكذا. إذاً، لن أشتكي بالتأكيد! و...

توقف مراد فجأة.

زلزل انفجار رهيب الميناء في تلك اللحظة.

اشتعلت سفينة «باتريا» تحت أنظارهما. تصاعدت الصرخات من كل الجهات. صرخات أطفال. اهتزت السفينة، في مشهد رهيب، ثم مالت.

- مستحيل، صرخ مراد. ستغرق!

انتشر دخان خانق في الهواء. وتدفقت الحرارة التي قذفها الانفجار حتى البيوت الأولى، بعيداً عن سور الميناء. كان جنود يتابعون المشهد، عاجزين، بينما بدأت عشرات الجثث تطفو على سطح الماء.

- ثمة ثقب في الخلف، لاحظ سيلمان. انظر!

- رباه! رباه!

تغطى البحر بالحطام، وبالغرقى ذوي الملامح المقطبة.

هرع ابن مراد الذي هالَه الانفجار.

- هل... هل تعتقدان أن العرب هم من ارتكبوا هذا الفعل؟ تمتم الطفل. هل تعتقدان؟

لا. لم يكن للعرب أي دخل هذه المرة. لكن لن تعرف الحقيقة إلا في الغد. كان رجال الهاغانا هم الذين وضعوا متفجرات تحت جسم السفينة، سعياً إلى منع رحيلها، مستخفّين بقوتها. إذ قتل مائتان وخمسون، وجُرِح المئات. يهود قتلوا يهودا.

لا شك أن اللورد «أرثر جيمس بلفور»، فيكونت مقاطعة «ترابان»، مبتهج في قبره. ها قد مضت عشر سنوات منذ وفاته، لكنه شبحه ما زال يخيم على فلسطين.

*

القاهرة، ١٠ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٠

صباح اليوم، أعلنت الصحافة والإذاعات أن الجنرال الإنجليزي «رتشارد أوكونر» استعاد سيدي براني، وهزم الإيطاليين. وأبعد

التهديد الفاشي. أما الآخرون الذين وعدوا باستقبال الإيطاليين كمحررين، فتظاهروا بنسيان الأمر.

في الواقع، سرّ الجميع بهذا الخبر، باستثناء لطفي باي الذي استعاد هدوء أعصابه تدريجياً. إذ بكى طيلة اليوم تقريباً، عندما علم بانهزام الجيش الإيطالي العاشر. غادر سريره في الساعة الحادية عشرة ليلاً، ودخل الصالون حيث كان ابنه يناقش زوجته. ظل لحظة يراقبهما، ثم أخرج فجأة سلاحاً احتفظ به بين مباذله، صوّبه نحو صدغه. أطلق النار، قبل أن يأتي تيمور بأدنى حركة.

تناثرت أشلاء المخ على ثياب نور.

القسم العاشر

(٢٨)

يكمن ضعف الإيديولوجيات الثورية مقارنة بالأديان في كونها تعد بالجنة فوق الأرض، وفي إمكانية التحقق من النتيجة.

دنيس لانغلوا

بغداد، مارس/ آذار ١٩٤١

في يوم ٢٥ مارس/ آذار، زار مقدَّم نضال الصافي، لم يعرفه إلا لماماً. قال له:

- لي رسالة إليك.

أخرج العسكري ظرفاً من جيبه، وسلمه لنضال.

أرجو من المرسل إليه أن يمتثل مباشرة للأوامر التي ينقلها الحامل عني.

توقيع: رشيد الكيلاني.

بهتان؟ تمعن في الورقة. تعرف على خط رشيد وتوقيعه، حيث بديا معاً مطابقين تماماً.

أوضح العسكري:

- ابتداء من الآن، أنتم مدعوون إلى أن تكونوا رهن الإشارة ليل نهار، وفي كل وقت.

تحاشى نضال أن يسأل عمن يجب أن يكون رهن إشارته، لأن الأمر بديهي. كانت عملية تتهيأ. طأطأ رأسه. هكذا، بدا أن رشيد تغلب على صعابه.

- سنعلمكم بواسطة مبعوث أو عبر مكالمة هاتفية. وسنحدد لكم مكان اللقاء وموعده. هل تتوفرون على سلاح ما؟

أجاب نضال بالإيجاب. لقد احتفظ، منذ صغره، بمسدس «لوجر بارابيلوم»، من عيار تسعة ميلمترات. إنه تحفة صغيرة اشتراها خلال إقامة في ألمانيا.

- هل من ذخائر؟

- أكثر من اللازم.

ندّت عن العسكري ابتسامة خفيفة:

- عندما ينام الأسد، يسهل قتله، قال مودعاً.

الأسد؟ لكن العرب يحترمون هذا الحيوان. لا يتعلق الأمر إذاً بالأسد البريطاني.

في الواقع، لم يندهش نضال بهذا الاقتحام الذي يحمل تهديداً. فمنذ زمن غير قصير، بات يهاتفه أصدقاء غابوا عن الأنظار، ليتقصوا أخباره، ويطمئنوا أنه مازال حيّاً، وقادراً على الخدمة. يبقى على نضال أن يتحقق ما إذا حافظ، وهو في سن السابعة والسبعين، على بعض صفاته كواحد من صفوة الرماة السابقين. والحال أنه لو كان عاجزاً عن قراءة الصفحة الأولى في جريدة ما بدون نظارة، لما تراءى له البعيد واضحاً تماماً.

ما كاد الرسول ينصرف حتى اقتحم شمس الردهة.

- سمعت كل شيء، يا أبي. إذاً؟

رفع نضال سبابته، مظهراً لوماً زائفاً.

- لا يحسن التصنت من خلف الأبواب، يا بني.

- ما شعورك؟

- طالما استمعت إلى المحادثة، فأنت أعرف مني.

- هل تنوي الإذعان؟

فجأة، توقف نضال الذي كان متوجها إلى مكتبه.

- ماذا إذاً؟

وضع شمس يديه على وركيه البدينين، وأطلق عبارة ساخرة.

- «أرجو من المرسل إليه أن يمتثل مباشرة للأوامر التي ينقلها الحامل عني». تلقيت الرسالة ذاتها، يا أبي، البارحة مساء.

تفحص نضال وجه ابنه. تابع هذا الأخير:

- هل تظن أنني بقيت مكتوف اليدين طيلة هذه السنوات كلّها؟ إنني أنتمي، مثلك، إلى حزب الإخاء الوطني[١].

أكد بابتسامة مختلسة:

- بل إنني أحد أركانه، يا أبي.

- ماذا؟ لم يخبرني رشيد بأي شيء؟ هو...

- لا جدوى.

- هل أستنتج أنك تعرف بالتحديد ما يجري إعداده؟

طأطأ شمس بالإيجاب.

- ما هو؟

- كن حذرا، كانت إجابته الوحيدة.

*

في أول أبريل/ نيسان، على الساعة السابعة، تلقى نضال المكالمة التي أعلنت عما يلي:

- خلال عشر دقائق أمام بابك.

---

(١) حزب الإخاء الوطني أسسه رشيد الكيلاني.

في الساعة الموعودة، توقفت سيارة «دودج» أمام البيت. انفتحت بوابة. ركب. جلس قرب جنرال يعرف قصته: كان رابع أربعة ضباط سامين ينتمون إلى المربع الذهبي، وهو دائرة عسكرية مخلصة لمبادئ الاستقلال الأصلية. بالنسبة إليهم، لم يطبق بكر صدقي، ولا ياسين الهاشمي، هذه المبادئ حقّاً، بل تخبطوا في مستنقع السياسة السياسوية؛ فيما اعتبروا الوصي على العرش عبد الإله ووزيره الأول نوري السعيد يرقتين ضعيفتين في يد البريطانيين.

ثمة رجلٌ واحد مازال يستحق الإنصات، حيث كانوا يستمعون إليه بشغف. إنه الحاج أمين الحسيني، الذي قدم بغداد العام الماضي. فمنذ بضعة أيام، يتساءل الإنجليز بصراحة، مع ذلك، عما يبرر وجود مفتي القدس الأكبر في بغداد. أليس له عمل في بلاده؟ إنها طريقة للإعلان أنهم لن يتأخروا في ترحيله.

تصافح نضال الصافي والجنرال بحرارة. قبيل إقلاع السيارة، استدار الجالس على يمين السائق، الذي ظل وجهه متخفياً تحت جنح الظلام.

- إذاً، يا صديقي؟ هل أنت مستعد لليوم المشهود؟

- رشيد؟

- نعم! بشحمه ولحمه. هل تتذكر؟ ذات يوم، بعد الانقلاب الفاشل على بكر صدقي، قلت لك: «أطلق بكر صدقي وأعوانه، من حيث لا يدرون، فكرة يخشى أن تخلق منافسين». ثم سألتني: «هل ستحدث إذاً انقلابات في العالم العربي؟»

- نعم. وأتذكر إجابتك: «مع فارق أنه لن تثيرها طائفة من السياسيين، بل الجيش». وأضفت: «يكفي أن يكون هناك رجل مناسب».

ضحك رشيد الكيلاني. وقال:

- ذاكرة رائعة!

أمر السائق بالإقلاع.

سارت في أعقابها عربتان. وعلى مقربة منه، تعرف نضال الصافي، دون أي مفاجأة، على قوام شمس الضخم. لم يبد مضطرباً، ولا قلقاً، بل فخوراً. في المقابل، من كان صاحب الكوفية الجالس قربه؟

سأل رشيد.

- سترى، كان جوابه الوحيد.

بعد نحو نصف ساعة، وصلت القافلة أمام القصر. انفتحت البوابة كأنها بفعل السحر. هل قتل أحد ركاب العربة الأولى الحراس؟ لم يرَ نضال، ولم يسمع أي شيء. أم أن هؤلاء متعاونون؟ ظهر ثلاثون رجلاً، حاملين مسدسات، وارتقوا الأدراج الضخمة التي تقود إلى داخل البناية. عندما وصلوا الطابق الثاني، وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام موظفين مذعورين.

- أين الوصي؟ صرخ شمس.

لم يتعرف نضال على ابنه في هذا المقاتل المصمم صاحب النبرة الجازمة.

- لا أعرف... تلعثم حاجب مرتعب.

- كذاب!

- لا... لا. والله، أقول الحقيقة!

- أين هي أجنحته؟

هذه المرة، طرح السؤالَ صاحب الكوفية الذي لمحه نضال إلى جانب شمس. لا بدّ أن عمره يتراوح بين الثلاثين والخامسة والثلاثين. عيناه سوداوان، ووجهه نضر، يعلو شفته العليا المنثنية شارب أسود.

في هذه اللحظة بالذات، همس الجنرال الذي كان يرافق نضال:

- إنه عبد القادر الحسيني.

- عبد القادر؟ الفلسطيني؟ رئيس جيش الجهاد المقدس؟

- هو بالذات.

- لكني أظنه في فلسطين!

- لقد مضت ثلاث سنوات منذ أن فرّ ليضع نفسه في خدمة صديقنا رشيد.

- تعالوا! أمر هذا الأخير.

انطلق حينها تفتيش منسق للقصر، بينما تولى ثلاثة جنود حراسة المدخل. لم يسلم أي باب، حيث حطمت تلك المغلقة بالرصاص. عثر في إحدى خزانات أجنحة الوصي على ثلاثين زوجا من الأحذية في منتهى اللمعان، وست قنينات ماء خزامى من نوع «ياردلي». لكن لم يعثر في البناية على أي أثر لعبد الإله أو فيصل الثاني.

في النهاية، وبعد ساعتين، وجد رجال الانقلاب أنفسهم، وفي مقدمتهم الكيلاني وعبد القادر، في صالة بالطابق الأرضي. لا بد من التسليم بالأمر. تأكدت أقوال الخدم، حيث كان ملكهم والوصي على العرش قد رحلا، منذ التاسعة صباحاً، إلى وجهة مجهولة.

- بلا حقائب؟ سأل عبد القادر.

- أرسلت الحقائب في وقت سابق...

- متى؟

- منذ يومين.

- إلى أية وجهة؟

- لا أعرف...

أخطرَهما أحدهم.

بصق عبد القادر على الأرض، محتدماً غيظاً.

لم يفلح رشيد في إخفاء غضبه.

لمح نضال فجأة مدنياً من بين أعضاء الانقلاب. كان يعرفه جيداً، هو مصطفى فودة، الطبيب الذي التقاه عدة مرات في أمسيات بيت رشيد الكيلاني.

سأله:

- هل حضرت لتعالج أحدهم؟

- لا. بالصدفة حررنا شهادة وفاة الوصي. كان من اللازم أن أحضر.

- بِمَ كان من المفروض أن يموت؟

- بأزمة قلبية.

*

صباح اليوم التالي، ظهرت الوقائع في بساطتها المحزنة: فرّ عبد الإله، بعد أن علم بالخبر، إلى البصرة، مصطحباً الملك الصغير معه. من هنا، ركب سفينة إنجليزية متجهة إلى مصر. أما نوري السعيد، هذا المرتشي، فقد هرب إلى إيران.

«مهما يكن!» أعلن رشيد الكيلاني. «سنسير إلى آخر المطاف!». عندما كان يعلن نفسه رئيسا للحكومة الجديدة، ويشكل مكتبه الوزاري، حاصرت القوات والحشود سفارة بريطانيا العظمى حيث لجأ نحو ثلاثمائة شخص.

استعاد نضال الصافي منصبه في وزارة الاتصال، لكن هذه المرة بصفة مساعد كاتب الدولة فقط. ذلك أن سنّه قلّل من شأنه.

وفي الوقت نفسه، مدّت القيادة الألمانية العليا المتمردين بست عشرة طائرة «هاينكل» وعشر طائرات «ميسيرشميت»، كأنها انخرطت إلى جانب رشيد الكيلاني والمفتي الأكبر في الانقلاب. لا بد أن

الطائرات ستأخذ على عاتقها الهجوم على القاعدة الجوية الكبرى في الحبانية. وهي عملية بدت سهلة، ما دام أنه لن يقودها سوى بعض الربابنة المعلمين والمتعلمين. كانت عشرون دبابة ألمانية قد اخترقت، قبل يومين، حدود البلاد.

بدا كل شيء، إذاً، مفقوداً بالنسبة إلى الإنجليز. لكن قاعدة الحبانية قاومت، وهي تحبط كل التكهنات. إذ نجح الربابنة الإنجليز الذين أبدوا بطولة استثنائية خلال المعارك الضارية، في دحر أسطول العدو كله تقريباً.

في يوم ١٧ مايو/ أيار، أقلعت طائرة من القدس، في اتجاه بغداد. كان على متنها أعضاء منظمة «إرغون»، بقيادة رئيسها «ديفيد راتزييل» الذي خرج من السجون الإنجليزية لهذه المناسبة. إذ كلفتهم مخابرات جلالتها السرّية بتدمير كل المنشآت النفطية بغية تجنب سقوطها في أيدي رجال الكيلاني، أو أسوأ من ذلك، في أيدي الألمان. في المقابل، سمح لـ«راتزييل» - إذا أتيحت له الفرصة - أن يختطف المفتي الأكبر، ويأتي به إلى القدس. هناك، ستعرف «إرغون» كيف تصفي حساباتها معه.

لكن ما إن وصلوا بغداد، حتى صدر أمر مضاد. إذ علمت السلطات الإنجليزية أن تدمير المصافي البترولية قد يضر بقدراتها في تزويد قواتها في الشرق، وأن إعادة بناء الأنابيب سيستغرق سنوات طويلة. هكذا، أمرت القيادة العليا الإنجليزية كومندو «إرغون» بالنزول في قاعدة الحبانية.

وفي اليوم نفسه، وصل «راتزييل» ورجاله إلى نهر دجلة. لكن لا سبيل إلى عبوره. ذلك أن القارب الوحيد المتاح لن يحمل سوى ستة أشخاص. عاد الرجال إلى عربتهم، بعد أن خاب أملهم، استعداداً

لشقّ طريق بغداد. عندما هدر محركها، ظهرت طائرة ألمانية في السماء، ثم دنت منهم.

ألقت قنابلها.

انشطر «راتزييل» ورفاقه أشلاء.

وفي صباح يوم ٢٨ مايو/ أيار، استردَّ الإنجليز عافيتهم. إذ طوق بغدادَ عددٌ كبير من الكتائب، تحت قيادة الرائد الأسطوري «جون غلوب». لم تدخل القوات المدينة المستعادة فوراً، تاركة هذا الامتياز للوصي على العرش الأمير عبد الإله.

وفي يوم ٣٠ مايو/ أيار، وقع العمدة الهدنة. فانتهى كل شيء.

شُنِق خمسة من المحرضين على الانقلاب. وألقي بالآخرين في السجن. كان من بين هؤلاء شخص ظلَّ حتى تلك اللحظة يعيش في ظل الكيلاني: إنه خير الله طلفاح. هو خال رجل يدعى صدام حسين.

انهار بيت الورق. جمّد رشيد الكيلاني، المنكسر والخائب، أحلامه بالاستقلال، ولجأ إلى برلين رفقة المفتي الأكبر، محبطا الرقابة البريطانية.

وطار عبد القادر الحسيني، بدوره، إلى مصر.

وظل نضال الصافي متردداً.

- لا بد من الرحيل، توسّلتْ إليه زوجته. سيأتون لاعتقالك. إنها لمعجزة كونهم لم يفعلوا ذلك بعد. لا بدّ من الرحيل!

احتج شمس بشدة.

- افعلوا ما تريدون. أما أنا، فلن أغادر بلدي أبداً!

- أطع الأمر! أمر نضال.

- لا أتلقى الأوامر في سن الثامنة والأربعين، حتى ولو كانت من أبي! أرفض.

- مجنون يا ابني! صرخت سلمى، وهي على حافة الهستيريا. ستنتهي كما انتهى الآخرون، مرميا بالرصاص!

- إنه اختياري!

- يا شمس! هدّد نضال. احترس مازال عندي ما يكفي من القوة لـ. . .

كان شمس قد غادر. صفق باب المدخل بقوة.

- مستحيل، تنهدت سلمى. لِمَ يا رب!

انفجرت باكية، واهتز جسدها مرتجفاً.

في اليوم التالي، أخبر جندي إنجليزي الزوجين بإمكانية حضورهما لاستعادة جثمان ابنهما. وبحسب أقوال الضابط، هاجم شمس بسيارته حاجزاً، فلم يجد الجنود خياراً غير إطلاق الرصاص.

في أول يونيو/ حزيران، على الساعة الثالثة بعد الزوال، وبينما كان نضال وزوجته يهمّان بمغادرة المقبرة، فاجأهما ثوار هائجون. قيل إن زوبعة أصابت المدينة.

ماذا يجري؟ أرغى نضال. ألم يفهم هؤلاء المغفلون أن كل شيء قد ضاع؟

كان نضال مخطئاً. لم يكن المتظاهرون يستهدفون الإنجليز.

هذا اليوم، أول يونيو/ حزيران هو يوم عيد العنصرة اليهودية (شافوعوت). إذ انطلقت القلاقل الأولى عندما هاجمت جماعة من أنصار الكيلاني والمفتي ممثلي الطائفة اليهودية التي كانت تعبر جسر الخور، في طريقها لمبايعة الوصي العائد إلى قصره. وفي بضع دقائق، شبّ الحريق. صرخات المهاجمين على الحي اليهودي تتوعد: «فلسطين حرة!» و«يحيى المفتي!»

وفي المساء، بلغ عدد القتلى من اليهود مائتين، من بينهم العديد من الأطفال، وآلاف الجرحى. ودمّر تسعمائة دكان.

كان ذلك بداية هجرة طائفة وجدت في العراق منذ ستة وعشرين قرناً، وهي تضم ١٣٥ ألف شخص.

ربما سمع أحدهم بلفور وهو يسخر في قبره.

*

وفي يوم ٣ يونيو/ حزيران، أخبر نضال سلمى، مستسلماً متأسفاً، أنه حسم اختياره. لقد فكر في لحظة ما في الالتحاق بدنيا و«جان فرنسوا لوفون» في باريس. لكن ابن الشرق لن يتمكن أبداً من التعوذ على ضباب الغرب. لا. سيذهب إلى إسطنبول، حيث يبدي ابن عمّ شقيق له استعداده لاستقباله. فهو يؤكد أنه يمتلك إقامة فارغة في الحي «بيرا - الأبيض» الراقي، ذات شرفات وردية. وهي رهن إشارة الزوجين.

بعد ثمانية أيام، غادر آل الصافي بيتهما في الشمال. وبعد استراحة طويلة في سورية، وصلا إلى اسطنبول يوم ٢٠ يونيو/ حزيران.

بدت المدينة، مقر السلطة المركزية للمحتل السابق، والمطلة على البوسفور، مدينة مرحِّبة مضيافة. في الجبال، بدت أشجار اللوز والفستق مزهرة، بينما تعشق العين منظر المراكب في البوسفور.

ومع ذلك، ورغم مرور الأيام لم ينجح نضال في زحزحة كآبته العنيدة. من سخرية القدر أنه طلب اللجوء إلى الأعداء القدامى. مات ابنه الوحيد، بينما وجوده ينزلق إلى الزوال. يحترق بنار أوهامه الخاصة، كما تحترق الفراشات ليلاً. وربما لن يرى أبداً تلك البلاد، بلاده التي أراد تحريرها.

- باركك الله، وبارك حكمتك!

كانت سلمى تعرف أن نضال، وهو يفضل المنفى في تركيا، قام بالاختيار الأمثل، لأن إيران، التي تخضع لاحتلال مشترك بين الإنجليز والسوفيات، كانت ملجأ تافهاً. وهذا العقرب نوري السعيد، الذي أصبح من جديد الرجل القوي في بغداد، تفرغ للجنود الوطنيين وأعدمهم.

لاحظ نضال أن اسطنبول كانت آخر محطات مغامرة الحاج أمين الحسيني ورشيد الكيلاني الخائبة. ففي يوم ٢٠ أكتوبر/ تشرين الأول، التقى المفتي هتلر في برلين، بطلب من «أدولف أيخمان». أخبره أن العرب والألمان يواجهون ثلاثة أعداء مشتركين: اليهود والإنجليز والشيوعيين. وطلب تدخلاً عسكرياً عاجلاً في فلسطين. وعد هتلر بالمساعدة المادية، لكنه تحاشي أي توضيحات استراتيجية.

فيما بعد، شرح المفتي لمن صدموا بهذا «التحالف» مع النازيين، قائلاً: «إن مصلحة وطني هي التي أملت علي هذا الاختيار. إذ يبدو مصير فرد ما غير ذي معنى ما إن يتعلق الأمر بمستقبل الوطن. وانتصار الإنجليز يعني ضياع فلسطين. لم يكن شعبنا قادراً على الدفاع عن نفسه وحده. هكذا، يجب علينا أن نبحث عن دعم من هو أقوى من عدونا. وفي هذه الفترة، لا تدع انتصارات جيوش المحور أي مجال للشك في موضوع الحرب، ولم أكن أنوي انتظار النصر النهائي لأتصرف وأصبح تحت رحمة المنتصرين. أردت أن أرى العرب يحملون السلاح، لا لصالح دول المحور، بل من أجل قضيتهم، ومن أجل تحرير بلدي. إن الرأي العام يشكَّل بوسائل الإعلام التي تروي الأحداث، وتشوه الواقع في أغلب الأوقات. أما نحن العرب، فلا نتوفر على وسائلنا الخاصة للتعبير؛ ومن ثم، لا نعرض وجهة نظرنا، أو على الأقل، لا نبررها، ولا نوضحها. فتُغَلَّط المبادئ التي تنبني عليها دعايتنا أو دعاياتنا،

فتساهم في هزيمتنا. أخبروني بِمَ أسعفتنا دعايتنا في أوربا؟ الجواب هو: لا شيء. لقد اصطدمت بأوهام أو بصراخ أجشّ، وعندما أقرأ ما كتب عن إقامتي في ألمانيا، أتساءل: أين يريدونني أن أذهب إذاً؟ إلى المنفى؟ إلى السجن؟ أن أسلم نفسي للإنجليز؟ هل يريدون أن أذهب، بملء إرادتي، إلى أعدائي؟ وبأي ثمن؟ ليس الموت ما أخشى، إنما أريد أن أكون مفيداً لبلدي.

لم أزر بلدان المحور لأضع نفسي رهن إشارتها، وإنما لأخدم قضيتي، التي هي قضية أمتي. زرتها مفاوضاً، لا عميلاً. وأملي أن تفيد رحلتي فلسطين على الخصوص، والوطن العربي، والإسلام الذي يقع على عاتقي رفع اسمه عالياً»[1].

بعيد ذلك، حان دور الاستقبال على رشيد الكيلاني، لكن في عرين الفوهرر بمدينة «بيرشتيغادن». هذه المرة، لن يتسرب أي شيء. غير أن كل شيء يحمل على الاعتقاد أن العراقي لا يحمل سوى المرارة والخيبة، طالما علم في الأيام التالية أنه اختار المنفى في العربية السعودية.

في هذا اليوم ٢٨ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤١، كان نضال الذي جلس أمام النافذة المشرعة على حديقة «بوتي شان» (الحقول الصغرى)، يقرأ سورة الفلق، للمرة الثانية، على ضوء خيوط النهار الأولى. بعد اليوم، صار يلتمس السلوى من الله.

«قل أعوذ برب الفلق. من شر ما خلق. ومن شر غاسق إذا وقب. ومن شر النفاثات في العقد. ومن شر حاسد إذا حسد».

عندما دخلت سلمى الصالون، وجدت زوجها نائماً. كان رأسه مائلاً على صدره.

---

(١) *مذكرات الحاج محمد أمين الحسيني*، منشورات الأهالي، دمشق.

(٢٩)

﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها. وأخرجت الأرضُ أثقالها. وقال الإنسانُ ما لها. يومئذ تحدث أخبارها. بأنَّ ربَّكَ أوحى لها﴾.

سورة الزلزلة

القاهرة، نهاية أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٤١

استقال تيمور، بمجرد أن انتحر والده، من وظائفه النيابية، وتحاشى النزول إلى ساحة السياسة، أو الارتباط بأي أحد مهما كان من أساطين السياسة في هذا الوسط. لم يعد يأمل سوى أمر واحد: تكريس حياته لابنيه. فهشام يقترب من سنته السادسة عشرة، بينما أطفأ فاضل شموعه الاثني عشر يوم ١٤ سبتمبر/ أيلول. لقد جعلته ظروف وفاة لطفي يعي عبثية الأشياء. إذ ظل السؤال، الذي طرح ذات يوم على نفسه أمام مرآته، ينتابه بشكل لجوج أكثر من أي وقت مضى: «من أنت؟»

ظنّ أنه استشف الجواب في أعين ابنيه. أليس فيها جزء منه؟ ومن ثم جزء من الأبدية؟ إنهما يمثلان كنزاً فريداً، عليه أن يحضنه، ويحميه، حتى لا يبهت لونه.

سرعان ما تبين أن هشام طفل نجيب، يتمتع بذاكرة مدهشة.

كانت نباهته تثير المشاكل. كان محط إعجاب أساتذته الذين يمتدحونه، لكنه كان يثير غيرة زملائه الذين يسخرون منه، ويرون أن الذاكرة لا تعوض الفهم أبداً. لم يكن الأمر يتعلق بألسنة سوء، حيث كان هشام يمتلك هذه الملَكة فعلاً. فعندما طرح تيمور السؤال الأبدي الذي يطرحه أي والد في يوم ما: «ماذا تحب أن تصبح فيما بعد؟» أجاب الطفل بلا تردد: «جندي».

- جندي؟ جندي؟ لكننا لا نملك جيشاً، أو هو دمية متحركة! لِمَ تريد أن تكون جندياً؟

- لتحرير بلدي.

- هيا! سيتكلف بذلك آخرون عوضاً عنك! فضلا عن ذلك، الجندية ليست مهنة.

أجاب هشام قائلاً: «سأكون جندياً».

لم يعرف فاضل، هو الآخر، أي طريق سيسلك. سألته أمه، في صغره، عن ميوله في المستقبل، فأضحكت إجابته الجميع: «فرس سباق». قال تيمور في نفسه إنها ضحكة تساوي جميع ألقاب الباي والباشا والوزير.

*

يوم الأحد ثاني نوفمبر/ تشرين الثاني، جاء خادم يخبره أن متصلاً اسمه محيي الدين ينتظره على الطرف الآخر من الهاتف.

محيي الدين؟ من يكون غير زكريا، صديق ذو الفقار، هذا الرجل الذي حيّاه في مقهى معلوم. فضلاً عن ذلك، لم يكن وحده يومها. كان يرافقه شخص ذو ابتسامة متحمسة، لم يحفظ سوى اسمه الشخصي: جمال..

انقضت سنتان على الأقل منذ لقائهما. ما الذي يريده؟

أمسك تيمور سماعة الهاتف.

كان زكريا محيي الدين بالفعل.

- أتفهم دهشتك، لكن صديقنا أحمد ذو الفقار كان سعيداً وهو يمدّني برقم هاتفك. سنتغذى في مقهى الحمام، الواقع على طريق الأهرام. سنكون سعداء بأن تلتحق بنا. يمكن أن تصحب زوجتك وابنيك. الطقس رائع. سنكون هناك في الساعة الواحدة زوالا. سننتظرك! مع السلامة!

قبل أن يتمكن تيمور من الإجابة، كان الآخر قد أقفل الخط.

انزعج تيمور في البداية، ثم تردد. فكّر أن الوقت حان، على كل حل، ليجدد اتصاله بالحياة العامة. اقترح على نور أن ترافقه، لكنها رفضت الدعوة، حيث كانت تنتظر بعض الأصدقاء للغذاء تحديداً. قدم الاقتراح ذاته لابنيه. وحده هشام كان يرغب في الاستجابة.

بعد ثلاثة أرباع الساعة، حط الأب والابن الرحال في مقهى الحمام حيث كان زكريا وأحمد جالسين إلى طاولة.

- سعيد برؤيتك! هتف زكريا. بات وجهه أمرد أكثر من ذي قبل. جمال يبلغك تحياته.

- جمال؟

- جمال عبد الناصر. الصديق الذي...

- أجل، أجل. فوجئت فقط لأنه لازال يتذكرني.

أشار زكريا إلى هشام.

- أظنه ابنك! ما شاء الله!

احتضن الطفلَ بحنو، ودعاه للجلوس على يمينه، وهو يواصل كلامه:

- لنعد إلى جمال. اعلم أنه يقدرك كثيراً. إنه رجل مدهش.

سيتاح لك يوماً ما أن تعرفه جيدا. أما أنا، فإني مقتنع أن الأيام ستقوده إلى لعب دور ما في هذا البلد.

- السلام عليكم يا شباب!

التفت تيمور نحو القادم الذي حيّاهم بصوت مدوّ. تفاجأ وهو يرى جنديا يضع نظارة أحادية، هو في الثالثة والعشرين من العمر، ذا شعر مقصوص، وهيأة صلبة فريدة. ظنّه «أوبيرفوهرر»[1] بهيأة إنجليزية.

أعلن زكريا على الفور:

- أنور، صديق قديم. وهذا تيمور لطفي.

دعاه أحمد للجلوس. أجاب أنه كان يودّ أن يجلس عن طيب خاطر، لولا أنه ينتظر زميلاً.

- لا بأس، فليلتحق بنا.

- لم ألتقط اسمك جيداً.

قال تيمور، بينما مضى الآخر مبتعداً...

- أنور. أنور السادات، أو بالأحرى أنور فون السادات[2].

- فون السادات؟ صرح تيمور مندهشاً.

- سأشرح لك لاحقا. ها هو آتٍ.

رفيق أنور جنديٌّ أيضاً. أفصح عن هويته: صلاح سالم. يبدو شابّاً، لكنه يتصرف مثل طفل مهذّب. قال إنه قُبِل في أكاديمية العباسية العسكرية، وينوي أن يرسم مساره في الجيش، شغفه الوحيد.

- أنا أيضاً، قال هشام، نافخاً صدره. أنا أيضاً، سألتحق بالأكاديمية يوما ما.

---

(١) رتبة عسكرية في الجيش الألماني النازي، تعني القائد الأعلى (المترجم).

(٢) Anour von Sadate.

- تهانيّ، يا بني، قال السادات. نحتاج إلى أمثالك من الرجال المستعدين للتضحية بأنفسهم من أجل الوطن.

استدار نحو تيمور، وتابع كلامه:

- رجال يشبهون أباك!

في غمرة ذلك، انطلق هو وصلاح سالم، كأنهما كانا ينتظران فرصة الكلام، يغدقان المديح على سلوك تيمور عندما كان يجلس على مقاعد البرلمان. ختم السادات مشدداً، حتى إن نظارته سقطت جراء ذلك:

- يا صديقي، سنبني مصر بمشاركة أبطال مثلك ومثل ابنك!

حينها، وضع نظارته من جديد.

بدا اقتراحه مفاجئاً: ألم تُبْنَ مصر من قبل؟ تساءل تيمور. لكن حماس الشاب أثّر فيه. شكره على المديح. بدا الضابط متعاطفاً بالفعل.

في السيارة التي أقلّتهم إلى المدينة، شرح زكريا، بابتسامة خفيفة، أن السادات ينتمي إلى دائرة خُلَّص شخص آخر هو الجنرال عزيز المصري، الرئيس السابق في القيادة العليا للقوات المصرية، الذي استبعده الإنجليز اليوم، بعدما اعتبروه، إلى جانب السادات، قريباً جداً من قوات المحور.

- دعوني أعرف، المصري رجل سبعيني! والسادات في العشرين.

- لا تتعلق المسألة بالعمر، بل بالقناعات.

- ولم تصلح تلك النظارة؟ بدا هشام مصمماً في طرح هذا السؤال.

- يضعها ليشهد على جرمانيته. لكن لا تسئ الفهم، فهو أحد ضباط جيل الشباب النشيطين. وهو على صلة كبيرة بحسن البنا،

مؤسس الإخوان المسلمين. أشك أنه حاول أن ينتزع مني بعض المعلومات.

- هل أنت جادّ؟

قال ذو الفقار، بابتسامة خفيفة:

- بفضل مصالحه الاستخباراتية الشخصية. كان يتردد على الراقصة الشهيرة حكمت فهمي، التي كانت تمنحه بين الفينة والأخرى عوامتها على النيل، حيث ينظم سهرات يدعو لها... (تردد في استعمال الكلمة المناسبة، لوجود الطفل بدون شك)... نساء لهن صلة بضباط إنجليز. ينصت، ويلتقط، ويدون كل المعلومات المفيدة في نظره.

- ولمن يسلّمها؟

- للألمان، بالطبع!

أطرق تيمور. نساء لهن صلة بجنود إنجليز؟ جاسوسات يلبسن قناع العاهرات. هل تغير الزمن منذ عهد سعد زغلول؟ أم هو الذي أصبح طهرانياً؟

اقترح زكريا:

- تذكر اسمه، إذا أردت رأيي. رغم أنه شاب، إلا أنك ستسمعهم يتحدثون عنه مستقبلاً.

ثم سرعان ما أضاف:

- مثل صديقي جمال.

*

باريس، ١٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤١

طوت دنيا البرقية. تجمدت في مكانها وسط الصالون. لم تقوَ على الإجابة عن أسئلة «جان فرنسوا» القلقة. شعرت بزوجها يضع

يده على كتفها، حينها فقط أعلنت: «توفي نضال».

لم ينبس «جان فرنسوا» ببنت شفة. ما الفائدة من الكلام؟ ففقدان محبوب ألمٌ لا تواسيه أي كلمة.

تناهت من النافذة أوامر باللغة الإنجليزية، سرعان ما تلاها هدير سيارة. لم يستطع «جان فرنسوا» بعد أن يمحو من ذهنه صورة هذه القوات، بصلبانها المعقوفة، وهي تنزل متبخترة في شارع «شانزيليه». حدث ذلك منذ أكثر من عام ونصف. لكن الإهانة مازالت قائمة.

يا لها من مأساة! وأي هاوية انفتحت تحت جسد فرنسا وأوربا برمتها!

ومن سوء حظ الشعب أن الماريشال «بيتان»، الذي حلّ محل «بول رينو» على رأس الحكومة، سارع إلى الانحناء أمام الفوهرر، وطلب الهدنة. ومن حسن الحظ أنهم التقطوا نداء الجنرال «شارل دوغول»على أثير «بي بي سي»، مناشداً الشعب بأن يرفع هامته. إذ أكد أنه لم يفقد أي شيء، لأن هذه الحرب ستكون حرباً عالمية، وأن أغلبية القوات لم تدخل المعركة بعد، وأنه يجدر بفرنسا أن تكون جاهزة يوم النفير لكسر شوكة العدو.

في يونيو/ حزيران ١٩٤١، دخل البريطانيون والقوات الفرنسية الحرة، بقيادة الجنرال «كاترو»، سورية ولبنان، وعقدوا بعد معارك ضارية هدنة مع قوات «فيشي». وفي يوم ٨ يونيو/ حزيران، أعلن «كاترو» رسمياً استقلال سورية ولبنان، وكذا نهاية الانتداب في الشرق. للأسف، وفي خضم الأحداث، يبقى مسار طويل ينبغي أن يقطع.

غداً... غداً.

*

القاهرة، ٥ فبراير/ شباط ١٩٤٢

لو لم يستولِ على طبرق، التي حاصرها عبثاً، لما تابع المارشال الألماني «روميل» تقدمه الآن نحو مصر. لقد قاوم الإنجليز، الذين شكلوا قوات تضم أستراليين وجنوب أفريقيين ونيوزيلنديين وجنود آخرين قدموا من بلدان الكومنويلث، ودفعوا ثمن ذلك خسائر في الأرواح والعتاد. كان يوم الأحد ٢٣ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤١ يوماً مشهوداً في تاريخ الحرب بأفريقيا، أطلق عليه الألمان «أحد القتلى». في هذا اليوم، تخضّبت صحراء ليبيا بدماء آلاف الأرواح.

عندما علم تيمور باندلاع هذه الحرب، استولى عليه الدوار، وغزته مرارة بسبب التضحية بتلك العشرات من الأرواح الإنجليزية والألمانية والعربية. متى ستتوقف هذه المذبحة؟

تسارعت الأحداث حينها، منذرة بالكارثة، في داخل مصر، كما في الخارج.

في يوم ٢٩ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٢، عُلم أن المارشال «روميل» استعاد مدينة بنغازي من الحلفاء.

وفي أول فبراير/ شباط، اقتحم طلبة جامعة الأزهر شوارع القاهرة، وهم يهتفون: «نحن جنود روميل!» أطلقوا العنان لأنفسهم، وطالبوا باستقالة دمية إنجليزية أخرى، الوزير الأول سري باشا، وتعويضه بعلي ماهر باشا المعروف بتعاطفه مع قوات المحور.

تردد الملك، لكن تردّده لم يدم طويلاً. إذ مدّه القدر بفرصة تفنيد الفكرة التي ظلت سائدة منذ مجيئه: «فاروق يسود، لكنه لا يحكم». إذ في يوم ٣ فبراير/ شباط، خلع حكومة سري باشا، ثم تهيأ لتعيين علي ماهر الذي طالب به شعبه.

هل هي شجاعة؟ أم قصور في الوعي؟

عندما علم المقيم البريطاني «السير مايلز لامبسون»، بخلع سيري - وزيره - كان يتناول وجبة الغذاء، بعد رحلة صيد في الفيوم. بدا رزيناً. وضع الشوكة والسكين. وقف. تناول بندقيته، ثم أعلن للحاضرين، والابتسامة تعلو شفتيه: «يؤسفني أن أترككم، أمامي ملك يجب أن أخلعه».

استقلّ القنصل البريطاني سيارة الإقامة «رولس رويس» إلى العاصمة. كان يجتر غضبه، يتذكر بلا شك ما قاله له سري عن فاروق: «إنه طفل جبان، يجب تخويفه بين الفينة والأخرى».

طبعاً، فهو ذاهب ليزرع الخوف في قلبه.

في نظر الممثل البريطاني، إذا كان هناك من رجل يجب أن يحلّ محلّ سيري، فهو النحاس باشا، عدو فاروق اللذوذ. كان النحاس، المحامي البالغ من العمر ستة وستين عاماً، رمزاً من رموز السياسة المصرية. فهو الذي تحمل، منذ سنة ١٩٢٧، رئاسة حزب الوفد، بعد وفاة سعد زغلول. هكذا، كان «لامبسن» يرى أنه الوحيد القادر على أن يجعل الجماهير المصرية تقبل بالمساهمة في حرب إنجليزية أمريكية محتملة.

ما كاد يعود من رحلة الصيد إلى بيته رقم ١٠ في شارع الطلمبات بحي غاردن سيتي، حتى تناول الهاتف، واتصل بالعاهل الشاب، طالباً منه تقديم أسباب تنحية سري باشا. عندما همّ فاروق بالإجابة، قاطعه «لامبسن» قائلاً:

- جلالة الملك، أدعوك إلى تعيين النحاس باشا رئيساً للحكومة. هو أو لا أحد. أمهلك إلى غاية الغد في الساعة السادسة مساء. إذا حدث العكس، أخشى أن تضطر لتحمل عواقب وخيمة.

في الساعة الخامسة صباحاً، استدعى «لامبسن» لجنة الدفاع

المكونة من الجنرال «ستون»، قائد القوات البريطانية في مصر، و«أوليفر ليتلتون»، وزير الدولة في الشرق الأوسط، و«السير والتر مانكتون»، الرئيس الجديد لمصالح الدعاية والاستخبارات. هذا الأخير هو الذي حرّر عقد تنازل الملك إدوارد الثامن عن عرش إنجلترا. شرح لهم «لامبسن» الوضع، وما ينوي فعله.

جلس «مانكتون» إلى طاولة في المكتب الكبير بالطابق الأول الذي يطل على الحدائق، ثم شرع في تحرير ثاني عقد تنازل في مساره.

تساءل الجنرال «ستون»، وسيماء القلق بادية عليه:

- «السير مايلز»، هل ترى أنه من المناسب، في هذه اللحظة، إجبار الملك على التنازل؟ فالشعب...

- يا جنرال، أعرف هذا الشعب منذ سنوات طوال. لن يفعل أي شيء.

- وبمن تنوي تعويض الملك فاروق؟

- بالأمير محمد علي.

لم يبدُ «ستون» مقتنعاً.

- هل أخبرت وزارة الخارجية بنواياك؟

- أجل. أحظى بدعم وزيرنا «السير أنتوني إيدن».

راقب «لامبسن» ساعته للمرة الثالثة منذ بداية الاجتماع.

في الساعة السادسة والربع مساء، أي بعد ربع ساعة من انتهاء المهلة، أخبره الحاجب بزيارة حسنين باشا، وصي فاروق سابقاً في «وولويتش». دخل إلى مكتب «لامبسن»، وسلمه رسالة موقعة باسم خمسين شخصية.

«نعتبر أن المهلة البريطانية تلحق ضرراً جسيماً بالاتفاقيات

الموقعة بين مصر وإنجلترا، وباستقلال البلد. لهذه الأسباب، وإذ نستند إلى رأينا، فإن جلالة الملك يرفض الخضوع لمطالبكم».

ابتهج «لامبسن». لقد أوقع فريسته! إذ بات لقمة سائغة بين يديه.

أعاد الرسالة إلى حسنين، واكتفى بالقول إنه سيزور الملك في الساعة التاسعة ليلاً.

في الموعد المحدد، كانت كتيبة، تتكون من ستمائة جندي إنجليزي، تحاصر قصر عابدين. كانت الأبواب مقفلة، عندما توقفت سيارة «رولس رويس» أمامها. نزل ضابط، فكسر أقفالها بالرصاص.

لم يُبالِ المندوب السامي باحتجاجات رئيس الحجاب، حيث اندفع إلى داخل مكتب فاروق. ظل حسنين باشا، وصي الملك سابقاً، واقفا إلى جانبه. كتم الإنجليزي غيظه. كانت فكرة خلع الملك تثير حماسته. كان يرى في نفسه حاكما للهند. إنه المنصب الذي ما فتئ يحلم به.

حاول رئيس الحجاب أن يخرج الجنرال «ستون» من مكتب الملك. فوبّخه «لامبسون» بحدة.

احتج فاروق بنبرة مترددة:

- في هذه الحالة، اسمحوا لحسنين بالبقاء إلى جانبي.

هزّ «لامبسن» كتفيه. لم يرَ أي مانع في بقائه. ودون أي تأخير، انطلق في خطبة لاذعة أثار فيها عدم احترام المهلة في آجالها المطلوبة، والتي تأخرت خمس عشرة دقيقة! تحدث أيضاً عن خيانة إنجلترا، وخرق الاتفاقيات السابقة، وعن التواطؤات مع العدو الألماني.

حاول الملك تبرير ذلك، لكن «لامبسن» قاطعه، واضعاً على المكتب العقدَ الذي حرّره «السير والتر مانكتون» صباح اليوم ذاته.

نحن فاروق الأول ملك مصر، تقديراً منا لمصالح بلدنا، فإننا نتنازل عن العرش ونتخلى عن أي حق فيه لأنفسنا ولذريتنا، ونتنازل عن كل الحقوق والامتيازات والصلاحيات التي كانت عندنا بحكم الجلوس على العرش، ونحن هنا أيضاً نحل رعايانا من يمين الولاء لشخصنا.

- وقِّعوا! أمر «لامبسن».

واصل فاروق التحديق في النص الذي حرّر في ورقة عادية لا تحمل عنوان السفارة البريطانية.

تكلّف الملك ابتسامة:

- كان عليكم أن تعثرواَ على ورقة لائقة...

التزم «لامبسن» الصمت، عاقداً يديه. تناول فاروق قلمه. كان يهمّ بالتوقيع. كاد الممثل البريطاني يطير فرحاً. حينها سارع حسنين باشا، ليهمس بضع كلمات في أذن الملك.

- إذاً! قال الإنجليزي بعدما نفد صبره.

وضع فاروق قلمه جانباً.

- موافق. سيكون لك ما تريد. سأعين النحاس باشا.

يبدو أن هذه الكلمات أوحى بها رئيس ديوانه الوفي حسنين. لم يكن أمام «لامبسن» من خيار آخر سوى القبول. بئس أمر الخلع.

تنفس فاروق الصعداء. لقد نجح في إنقاذ عرشه. لكن بأي ثمن؟

عندما اطلع تيمور لطفي على مسار هذه المأساة، ذهب ليرى زوجته، حيث قال لها، بصوت متشنج، وعيناه تغشاهما الدموع:

- ليس لنا أي ملك. لم نكن نملك سوى رجل على رأس مصر. وهذا الرجل لم يعد كذلك...

القسم الحادي عشر

(٣٠)

ماذا لو كانت أشد الإهانات قسوة أن يجبر
المرء على أن يعيش غريباً في وطنه وبين أهله؟

حيفا، يونيو/ حزيران ١٩٤٢

- يا بني، قال مراد، مازلت في الحادية والعشرين. مازلت طفلاً غراً. أنصت إلى نصائح أبيك. ابتعد عن هؤلاء الأشخاص. إنهم خطيرون!

- أبوك على صواب، يا كريم. ابتعد عن هذه المشاكل.

استجمع الشابّ قواه.

- أنتما تتكلمان هكذا؟ أنت، يا أبي، ألم تكرس حياتك للدفاع عن حقوقنا؟

ردّ مراد مشدداً:

- سلمياً! سلمياً!

- كان خيارك. لكنه لم يكن خيار عمّي سليمان الذي عاملته كشاعر وحالم بالأحرى، ولم يكن خيار عبد القادر، زوج عمتي الذي يواصل الكفاح وقيادة الرجال، رغم نفيه إلى مصر!

التزم مراد الصمت. ألقى نظرة فاحصة على ابنه. يا له من تحول طرأ عليه خلال السنتين الأخيرتين! علت وجهه ملامح فريدة من

نوعها، أبرزتها عيناه مختلفتا اللون. ومع مرور الوقت، تطور الأمر إلى مزاج شديد الانفعال، فيقع فريسة غضب شديد، يليه ندم مفاجئ، من حسن الحظ.

- هل تسمعني، يا أبي؟

- أسمعك. إذا كنت تريد أن تفعل ما تشاء، يمكننا أن نتفق على ذلك.

قالت منى مزايدة:

- أجل. أنصت إلى أبيك.

استأنف مراد:

- قبل كل شيء، أرجو أن تشرح لي سبب انخراطك إلى هذا الحد في الأعمال المسلحة. ألم تعد إذاً تملك كلمات من أجل الإقناع؟

قال كريم مستهزئاً:

- كلمات؟ لِمَ تصلح الكلمات عندما نعلم أن سبعة وستين سناتوراً ومائة وثلاثة أربعين نائبا أمريكياً انخرطوا في *اللجنة الأمريكية الفلسطينية*، وأن ألفاً وخمسمائة توقيع يؤيد إنشاء جيش يهودي! لِمَ تصلح الكلمات، عندما يُقال لنا إن اقتراحات دعم المقاولة الصهيونية صادقت عليها المجالس التشريعية في ثلاث وثلاثين دولة، بما فيها *الفدرالية الأمريكية للعمل*؟ لِمَ تصلح الكلمات، عندما تحقق نقابة العمال اليهود[1] انتصاراً بيّناً بتصويت أغلبية أعضاء المؤتمر الدولي لنقابات العمال على اقتراح تأييد برنامج «بيلتمور»...

---

(١) تعرف باسم Histadrout، وهي نقابة أنشئت سنة ١٩٢٠ بتحريض من شخصيات عديدة، من بينها «ديفيد بن غوريون».

- «بيلتمور»؟ تساءلت منى.

- هي مدينة أمريكية احتضنت، منذ نحو عام، انعقاد مؤتمر المنظمة الصهيونية العالمية، للمطالبة بالأغلبية - انتبهوا جيداً - بإنشاء دولة يهودية *على فلسطين كلها*. هل تسمعني، يا أبي؟ لم تعد مسألة وطن، بل دولة! أعطوا غصناً، فأخذوا الشجرة، وهم يطالبون اليوم بالغابة كلّها!

حاولت منى تخفيف انفعال ابنها، إذ تدرك ما يمكن أن يفعله عندما يحتدم ثائراً.

- اهدأ، يا كريم.

لا يبدو أنه سمعها.

- ولتتويج هذا كلّه، زايد حزب العمال الإنجليزي على الأمريكيين، منادياً: «يجب أن يطرد العرب جميعهم من فلسطين!» أنتما...

- توقف! أمر مراد. أنا على علم بذلك! لكني لست مقتنعاً لهذا السبب أن التسلح وقتل الآخر هما الحلّ. لو اقتنعت بذلك عندما كنت في مثل عمرك، لاختلف الواقع اليوم.

تأمل كريم والده للحظات، ثم قال ببرود:

- هذه الأرض أرضي. لن يسرقوها مني، ولو ضحيت من أجلها بحياتي.

*

القاهرة، يناير/ كانون الثاني ١٩٤٣

- كيف حال صديقنا أنور فون السادات؟ سأل تيمور ذو الفقار مساء هذا اليوم من شهر يناير/ كانون الثاني بعد نهاية جولة من لعبة

النرد. ها قد مضت ثلاثة أشهر لم أسمع أحداً يتحدث عنه. لقد أثار هذا الرجل دهشتي منذ ذلك الغذاء في مقهى الحمام.

كان المطر يتهاطل. يسود برد قارس، بينما تأثثت فيلا لطفي بمصابيح الكاز.

أجاب ذو الفقار بلهجة غامضة، وهو يمد كأس عرق:

- لا يخرج كثيراً هذه الأيام.

- ماذا تقصد؟ هل هو مريض؟

- لا، أجاب ذو الفقار. في السجن.

- ماذا؟

- إنها قصة محزنة. ألم أروِ لك أنه كان ينظم أمسيات على متن عوامة الراقصة حكمة فهمي؟

ردّ تيمور بالإيجاب.

- والحال أن المرأة موضوع النقاش كانت مرتبطة برجلين يسكنان البيت العائم المجاور، يقال إن اسمهما حسين جعفر و«بيتر مونكاستر». في الحقيقة، اسم جعفر الحقيقي هو «جان إبلر». وهو ألماني رأى النور في الإسكندرية. تزوجت والدته مصرياً. بينما كان «موكاستر»، الذي ادعى أنه أمريكي، يسمى «ساندي». وكلاهما دخلا مصر سرّاً، يرتديان أزياء عسكرية إنجليزية، ويحملان معهما ٢٥ ألف جنيه استرليني، وهما ينتميان إلى المخابرات الألمانية.

- لست جاداً، أليس كذلك؟

- آه، أجل! ذات صباح، أخبرت الجميلة حكمت، السادات أن صديقيها يواجهان مشاكل مع جهاز الإرسال. وبما أنه كان يملك بعض الخبرة في هذا المجال، رجتْه أن يساعد المتآمريْن على إصلاح جهازهما.

- جهاز الإرسال؟

- لقد فهمت جيداً. هكذا، زار السادات الألمانيين اللذين تمكنا، في غضون ذلك، من تسلم جهاز آخر. استأنفا إرسالهما، إلى أن حدث عطب جديد. فاستدعيا السادات مرة ثانية. أخذ الجهاز إلى بيته في شارع حسين بدر، حينما ارتأى أن الأفضل أن يعكف على إصلاحه هناك.

أصاخ تيمور السمع متسليّاً، وفي الآن ذاته قلقا على نحو غامض. إذ لم ينبس واحد من محيطه السياسي، الذي ما فتئ يهدر بضجيج العالم كلّه، بكلمة من هذه القصة الخيالية.

- نسيت أن أوضح لك أن الإنجليز التقطوا الرسائل خلال الأسابيع الماضية، لكنهم لم ينجحوا في فك شفرتها، ولا في تحديد مكان إرسالها بدقة.

- أتخيل البقية...

- أشكّ في ذلك! في يوم ١٠ يوليو/ تموز، أوقف البريطانيون في الصحراء أعضاء فريق الاستقبال اللاسلكي التابع لـ«روميل»، وعثروا في حوزتهم على نسختين من كتاب «ريبيكا» للروائية الإنجليزية «دافني دو موريي»[1]. والحال أن الألمانيين المعتقلين خانتهما اللغة الإنجليزية. ثمة تفصيل طريف هو أن النسختين مذيلتان بشروح.

استعجل تيمور متابعة الكلام، تعلوه بهجة طفولية:

- اكتشفوا الشفرة السرية التي سمحت للألمان بفك ألغاز رسائلهما!

---

(١) ألهمت الواقعة الكاتب الويلزي «كين فوليت» في روايته «مفتاح ريبيكا» (The Key to Rebecca)، التي صدرت سنة ١٩٨١ ضمن منشورات «نيو أمريكان لايبريري»، ونشرت في فرنسا تحت عنوان «شفرة ريبيكا» (Code Rebecca)، وحولت إلى فيلم في مصر بعنوان «الجاسوسة» سنة ١٩٩٤.

- تماماً. تذكر حينها الرائد «سانسون»، المكلف بالتحقيق، معلومة سابقة، موضحاً أن زوجة الملحق العسكري الألماني في لشبونة اشترت، قبل بضعة شهور، خمس نسخ من الكتاب. ولم يرَ أحد، حينها، أي تفسير لهذه المشتريات.

ابتسم تيمور. كانت «ريبيكا» واحدة من الروايات التي تفضلها نور.

- لكن ما صلة ذلك بالسادات؟

- سآتي على ذكر ذلك. ظل اكتشاف الجاسوسين أمراً مستحيلاً، حيث واصلا عملهما مدة طويلة. غير أنهما كانا يجهلان أن الجنيهات الإسترلينية، التي كانا ينفقانها على مخبريهما، العاهرات في هذه الحالة، كانت مزورة، حيث لم ترَ المخابرات الألمانية فائدة في تحذيرهما. إذ شرعت الشرطة العسكرية الإنجليزية، وهي تعاين هذا السيل من الأموال المزورة، في إجراء تحقيق، انتهى إلى أن مصدرها «نادي تورف» و«كيت - كات». ولم تستغرق زمناً طويلاً لكشف هوية الجاسوسين الثريين. وعندما اعتقلتهما، عثرت على نسخة أخرى من رواية «ريبيكا» على متن عوامة حكمت فهمي[1].

- وأنور؟

امتعض ذو الفقار:

- تأرجح بين الألمانيين. لقد عثرت الشرطة، بعد مداهمة بيته، على جهاز الإرسال مخبأ تحت سريره. في البداية، سجن صديقنا في سجن «الأجانب» الذي يقال عنه إنه مخصص للمعتقلين السياسيين، قبل اقتياده إلى معتقل ماقوسة في محافظة المنيا.

---

(١) اعتقلت حكمت فهمي بدورها، حيث أدينت بسنتين سنجا نافذا.

أتى الرجلان على العرق بكامله.

- الخلاصة أن صديقنا فون السادات يقبع، في ساعتنا هاته، في سجن المنيا.

ردّ ذو الفقار بعبارة موجزة. وبعد صمت لم يدم طويلاً، قال تيمور ملاحظاً:

- للأسف. رغم تصرفاته الساخرة أحياناً، إلا أنه يمثل روح حركة الضباط.

- تُب إلى رشدك. الروح شخصية أخرى أكثر حزماً.

- من هي إذا؟

افتر ثغر تيمور عن ابتسامة مغيظة، قبل أن يجيب:

- ابحث عنها، يا صديقي. ابحث جيداً.

*

باريس، ٧ يونيو/ حزيران ١٩٤٤

دلف «جان فرنسوا» إلى غرفة النوم، مطلقا صرخات مدوية، حتى إن دنيا، التي كانت غافية، اعتقدت أن شرّاً ما قد نزل:

- كفى! لقد نجحوا! لقد نجحوا!

ارتمى على السرير مثل طفل، وغمر زوجته المندهشة بالقبل.

- لكن... عمَّ تتكلم؟ وعمّن؟

- أتكلم عن الحلفاء!

- من؟

- ألا تفهمين إذاً؟

هزّت دنيا رأسها مشككة.

- نزل الحلفاء أرض فرنسا البارحة صباحاً!

- أين!

- أرض فرنسا! هنا! في نورماندي. حسب آخر الأخبار، لم ينجحوا في بلوغ جميع الأهداف المحددة، لكنهم تمكنوا من ترسيخ أقدامهم بقوة.

أطلق صرخة جديدة، ورفع يديه إلى الأعلى، راسماً علامة النصر V بأصبعيه.

استوت دنيا، تحت تأثير الدهشة، في جلستها غير مصدقة.

- من أين أتيت بهذه الأخبار؟ هل هي مؤكدة؟ أليست مجرد إشاعات؟

- أبداً. إنها أخبار مؤكدة. لقد نزل الحلفاء أرض فرنسا البارحة صباحاً على الساعة السادسة والنصف. وهي تتحدث عن أكثر من مائتي ألف رجل على الأرض.

- لم تجبني. من أين أتيت بهذه الأخبار؟

حدج «جان فرنسوا» دنيا بنظرة مريبة. ثم قال:

- لنفترض أن شخصاً موثوقاً نقلها إليّ.

اخترقت ومضة قلق عيني المرأة.

- هل تشرح الأمر جيداً؟

- ليس الآن.

- «جان فرنسوا»!

- في الأيام المقبلة. أعدك بذلك. ستعرفين كل شيء في الأيام المقبلة.

حدقت فيه طويلاً. خطر بباله تعليق غريب صدر عنه غداة النداء الذي ألقاه ذلك الجنرال المنفي عبر قناة «بي بي سي»: «من لم يمت دفاعاً عن شرفه، عاش ذليلاً».

*

القاهرة، ٢٦ أغسطس/ آب ١٩٤٤

شرب «جان ويندهام» جرعة طويلة من نبيذه المنشط، وألقى نظرة على شرفة فندق «شيفردز» المزدحمة، رغم الحرارة الخانقة. جلس بعض أبناء جلدته إلى أغلب الموائد. جميعهم تقريبا يرتدون الزي الموحد. غمره شعور بالفخر، وهو ينظر إلى جيش الإمبراطورية. شعور مزدوج منذ أن علمت الجماعة الإنجليزية بالخبر السارّ القادم من أوربا: ففي الأمس، دخلت قوات الحلفاء باريس، بعد معارك ضارية! تحررت باريس! أولى العواصم الأوربية الكبرى تتخلص من نير النازية! لقد بدّل الحظ وجهته. بات الكل يعتقد أن وجهته ستكون صحيحة.

وصل «ويندام» إلى مصر منذ ثلاثة أيام. لم يحسب أنه سيتوقف في أحد عشر مطاراً، قادماً من لندن الواقعة تحت رحمة التفجيرات والحصص الغذائية المحددة، ما عدا حصص الماء والجزر. كان «ويندام» ينغمر في هذا السحر الغريب المألوف لدى خدّام الإمبراطورية الكبار. كانت عيناه مازالتا تخزنان صور الأواني النحاسية اللامعة المبثوثة في دكاكين خان الخليلي، وأنفه يستشنق عبير أكياس التوابل المعروفة والمجهولة.

ألقى نظرة مشوبة بالدهاء على سكرتير الشؤون الشرقية في السفارة «ألستير بارنز». قاده في جولة في شوارع العاصمة.

- عزيزي «بارنز»، يبدو أن الشرق والغرب سيلتقيان في القاهرة، رغم نبوءة «كيبلينغ» القائلة بعكس ذلك. أليس كذلك؟

كان تكتيك «ويندام»، وسياسته أيضاً، يقتضيان بغث الطمأنينة في مخاطبيه، عبر ملاحظات بسيطة، حتى يبدو مغفلاً، مستحثاً فيهم الحماس بذلك البوح. لقد انتدبته وزارة الخارجية بصفة مبعوثاً

خاصاً، قصد تحرير تقرير موثوق حول وضع منفلت، كما تصفه معلومات وزير الدولة والسفير. في الواقع، تفيد معلومات مصالح الاستخبارات أن التوترات في مصر كانت أكثر شراسة مما وصفه السيد «لامبسن»، الذي بات يلقب بـ«لورد كيليرن»، و«السير ليتلتون».

خاطبه الآخر بنبرة مشوبة بالسخرية:

- السيد «ويندهام»، أعرف جيداً أنك حذر جدّاً إزاء الحكم على ميدالية ما من وجه واحد.

طعّم «ويندهام» إعجابه بهذا السكرتير الذي سمعه صباح هذا اليوم في خان الخليلي، يتكلم عربية جديرة بحوذي، ثم بعد ذلك في مقهى، باليونانية كأنه ترعرع بين صبية أثينا[١].

- وكيف هو الوجه الآخر؟ تساءل «ويندهام».

هزّ «بارنز» كتفيه:

- بائس.

- مرة أخرى؟

- السيد «ويندهام»، نصف الطبقة السياسية المصرية مستعدة لإطلاق النار على النصف الثاني، خاصة حزب الوفد. بينما يأمل الجيش وبقية البلد بحماسة أن يفتك بنا مرض خاص بالإنجليز.

- والملك؟

- أراهنك بخمسين جنيهاً أنه يحلم، في عزلته، بأن يقطع سفيرنا ووزيره الأول إلى شرائح، ليطعم كلابه لحمهما. أمتلك بعض المبررات التي تسمح لي بأن أمدّه ببضعة مشاريع جهنمية.

---

(١) يستعمل الكاتب هنا كلمة «بيرية» (المشتقة من كلمة «بيرايوس» الإغريقية) وهي تحيل على أهم ميناء في مدينة أثينا. لكننا فضلنا استعمال اسم المدينة لغاية توضيح الإحالة (المترجم).

- هل يعلم «لورد مايلز» و«السير أوليفر» بذلك؟

أجابه «ألستير بارنز» بنبرة ضجرة:

- أجل، أخبرا بذلك، لكني أخشى أن ينسيا. إذا سمحت لي بالحديث صراحة، يتعلق الأمر، في نظرهما، بخصومات وضيعة لا ينبغي لرجل نبيل أن يأخذها على محمل الجد.

- لكن ألا ترى أن الوضع أصبح خطيراً جداً؟

- قد يصبح كذلك، سيصبح كذلك حتماً عاجلاً أو آجلاً. لا تغرب الشمس، سيدي «ويندهام»، أبداً عن غضب العرب، مثلما لا تغرب عن الإمبراطورية البريطانية.

صيغة جميلة، تأمل المبعوث الخاص.

- ماذا يمكن أن نفعل حيال ذلك؟

- لا شيء. فهم يمقتوننا. وسيمقتوننا ما بقينا هنا. ما العمل؟ المغادرة ما إن استطعنا إليها سبيلاً، وترك المكان للأمريكيين، حيث يبدو أنهم يتعجلون أن يحلوا محلنا.

- هل تصدّق ذلك؟

- لا يخفى على أحد أن رئيسهم «روزفلت» يستهجن سياستنا تجاه العرب. إذ يرى أنها تنتن برائحة الكولونيالية الخبيثة. ليته يستفيد.

استدار نحو «ويندهام»:

- رغم أن المصريين يتشاجرون فيما بينهم، فإنهم لا ينسون الإهانة التي ألحقها بهم «لامبسن»، وهو يحاصر القصر الملكي بالمدرعات. ويرى العرب كلّهم أن فلسطين التي تقع مسؤوليتها على عاتقنا، تنتقل إلى أيدي اليهود. بلا شك، ستحرز تقريراً حول جولتك في الشرق الأوسط، يا سيد «ويندهام». أرجوك أن تمعن النظر في أهمية المشكلة الفلسطينية.

فوجئ «ويندهام» بهذه الصراحة اللاذعة المنهمرة. انفجر ضاحكاً.

- حسنا، السيد «بارنز»، أشكرك على حديثك الصريح جداً!

كرع ما تبقى من نبيذه المنشط، وختم بعد تفكير:

- في كل الأحوال، كان «كيبلينغ» إذاً محقاً. *الشرق شرق، والغرب غرب*...

- *ولن يلتقيا*[1]. ختم «بارنز».

*

صباح اليوم التالي، هاتف «جان ويندهام»، بناء على اقتراح وزير الدولة، لكن دون علم «لامبسن»، حسنين باشا كاتم أسرار فاروق. هل يبحث مبعوث الخارجية المتجول عن مناسبة المثول أمام الملك؟

- بالتأكيد، السيد «ويندهام». سأكلم الملك، وأتصل بك.

لم يدم الحديث طويلاً، لأن حسنين اتصل، بالفعل، بعد نصف ساعة، بغية تحديد موعد اللقاء. كان ذلك منتصف اليوم ذاته.

شاب وسيم. قال «ويندهام» في قرارة نفسه، بعدما بلغ مكتب الملك. وجه ممتلئ، وثغر باسم، وعين فاتنة. لكن بطنه منتفخ، للأسف.

- اجلسوا، السيد «ويندهام»، قال فاروق باللغة الإنجليزية.

عندما عرض ضيفه موضوع مهمته، بعبارات في منتهى

---

(١) جاءت هذه العبارة في النص الأصلي باللغة الإنجليزية، كما يوظفها صاحبها الكاتب الإنجليزي «راديرد كيبلينغ» في كتابه موشح *الشرق والغرب* (المترجم).

الدبلوماسية؛ أي حسب الغاية الفعلية من جولته، قال له الملك ساخراً:

- أهنئ نفسي بزيارتكم، السيد «ويندهام». قلت أيضاً إن مصالح الاستخبارات البريطانية كانت في حاجة إلى المدد والعون.

اتسعت حدقتا «ويندهام». استأنف فاروق:

- يجب فعلاً ألا تبلغوا في لندن بالمعلومات الكافية لتحتفظوا هنا بمندوب سامٍ غير مناسب مثل «السير مايلز لامبسن»، والأنكى من ذلك، أن ترقّوه إلى مرتبة النبلاء، وتجعلوا منه «لورد كيليرن».

لم يمنع الإنجليزي نفسه من الابتسام. ولم يتمالك الملك نفسه عن الضحك. فتكسر طوق الجليد. وبعد أحاديث بينهما، راجع الملك ساعته.

- تقترب ساعة الغذاء. هل أمامكم التزام مستعجل؟ أم ترغبون في تناول الغذاء معنا؟

كبت «ويندهام» شعوره بالمفاجأة. أجاب أنه يتشرف بالدعوة ويقبلها. لقد بعثر فاروق، هذا الشيطان، الأوراق كلّها، ليحول لقاءً دبلوماسياً في القصر إلى موعد في نادٍ لندني.

جاء الخدم بصينية بها كؤوس وقنينة شراب الليمون، وأخرى بها ويسكي «سكوتش» ومكعبات ثلج. قدموا للملك شرابه المفضل، ولـ«ويندهام» كأس «سكوتش». شرب فاروق نخب ضيفه. حينها قدّم شخصاً غريباً، متصنعاً وحذراً، يبدو أنه لا يشغل أي منصب رسمي، لأن الملك لم يذكر سوى اسمه: إلياس أندراوس. حدّد «ويندهام» هويته على الفور، باعتباره من حاشية الملك، وهو بلا شك رجل كل المهمات، ولِمَ لا يكون نذلاً من رعاع الساعة. ثم ظهر رجل آخر هو الطبيب رشاد، الذي يحكي مظهره ووجهه قصة مختلفة تماماً. وقف الملك، وتوجه الجميع نحو الصالون.

استعاد «ويندهام» حينها حاسته النقدية، حيث أدرك موضوع الحفاوة الملكية المفاجئة، وهو توجيه التقرير الذي سيقدمه لدى عودته إلى لندن.

كان الغذاء ملكياً بالفعل، والنبيذ الفرنسي جيداً - لكن من أين جيء به؟ - غير أن «ويندهام» احترس من شربه، فاكتفى بجرعة واحدة.

- في الوقت الحاضر الذي تبدو فيه الحرب تقترب من نهايتها، هل ستقودكم جولتكم إلى فلسطين، السيد «ويندهام»؟ تساءل فاروق.

- بالفعل، يا سيدي.

- إذًا سأتظلم إليكم.

تساءل «ويندهام» عن النزوة التي تنتظره. استأنف الملك كلامه:

- يمكنكم أن تعاينوا بأم عيونكم حجم الخراب الذي حاق بالشرق بسبب السياسة البريطانية. لقد كلفت لندن بحفظ نظام هذا البلد ورفاهيته، لكنها ستطرد منه. كان بلداً هادئاً، فجعلت منه قنبلة ستنفجر، عاجلاً أم آجلاً، في وجه إنجلترا والغرب برمته.

ألجمت الدهشة لسان «ويندهام» أمام هذه الخلاصة الفنائية للوجود الإنجليزي في المنطقة. لم يستطع إبعاد عينيه عن فاروق، حيث لمعتا فجأة إعجاباً به.

أضاف الملك قائلاً:

- اذهبوا لتروا بأم أعينكم، السيد «ويندهام». سترون مدى إصرار إنجلترا على قطع الغصن الذي تجلس عليه.

لم يدْرِ الإنجليزي ما الجواب، واكتفى بالسؤال:

- عن أي غصن تتحدثون، سيدي؟

- عن المصالح في العالم العربي، وعن قناة السويس.

شرب «جان ويندهام» ما تبقى من ماء في كأسه. لم يبدُ له أن هذا الملك يشبه في شيء الرجل الذي وصف له في السفارة.

- أنشأتم جيشاً يهودياً قوامه ثلاثون ألف رجل، السيد «ويندهام»، وأنتم تعتقدون أنه سيبقى يهوديا. لقد أخطأتم. إنه جيش صهيوني. وهو يدعى «الهاغانا»، وقد انشقَّ إلى جماعات إرهابية متعددة.

- لقد قاتل في صفنا ضد الألمان، يا سيدي. قال الإنجليزي معترضاً.

- أجل. ردّ فاروق بابتسامة عريضة. وبأسلحتكم سيلقي بكم في البحر.

(٣١)

ما أن تبشر مصلحة ما بوعد ما، حتى تغتصب مصلحة أكبر هذا الوعد، إذ لم يعد الأمر يتعلق باغتصابه دون عقاب: فالمورد طبيعي، حيث نتخفى ونكذب.

روسو

قناة السويس، ١٤ فبراير/ شباط ١٩٤٥

على جسر العبارات، انغرز الرئيس «روزفلت» في كرسيه المتحرك، وبطانية تغطي ركبتيه. بدا أقرب إلى الطيف منه إلى الرئيس الثاني والثلاثين لأعظم قوة على الأرض.

بسط يدا مرتجفة نحو الرجل المتلفع بجلباب بدوي التحق به على متن سفينة «إس. إس. كوينسي» التي ترسو في مياه قناة السويس منذ يومين.

- سعيد بلقائكم! بِمَ أساعدكم؟[١]

أضاءت ابتسامة غريبة ملامح المضيف، الذي أجاب بسخرية:

- لكن أنتم من طلب رؤيتي. لذلك، أفترض أنكم ستطلبون مني شيئاً؟

---

(١) وردت العبارتان في النص الأصلي باللغة الإنجليزية (المترجم).

أخفى «روزفلت» دهشته من هذا الجواب الذي لم يكن ينتظره.

لم يكن الشخص الذي دعاه إلى زيارته على متن هذه السفينة الحربية أيّاً كان. إذ يدعى عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن سعود. وهو حفيدُ حفيدِ محمد بن سعود الذي أنشأ المملكة العربية السعودية، بتعاون مع محمد بن عبد الوهاب، مؤسس الوهابية.

يسمّيه الجميع ابن سعود.

يبلغ من العمر أربعة وستين عاماً. ذو لحية وشارب. يضع غترة[1] على رأسه دائماً. وهو رجل أقرب إلى فقيه منه إلى محارب.

اليوم، ها هي المملكة التي يحكمها تتسلم مفتاح الطاقة في العالم المعاصر. إذ يختبئ تحت رمال صحرائها أضخم كنز: النفط. وهذا هو الرجل الذي تجاهله لورنس، واستهزأ به الإنجليز، مفضلين المراهنة على خصمه المرحوم الشريف حسين، الذي طاردته قوات ابن سعود، ومات مجهولاً منذ أربع عشرة سنة في عمّان.

تحدث الرجلان طيلة ساعتين. وسرعان ما تحولت نقاشاتهما نحو فلسطين، والمسائل الاقتصادية التي سويت العام الماضي بإنشاء الشركة العربية الأمريكية (أرامكو)، التي عهد إليها باستغلال النفط السعودي تحت سمع البريطانيين وبصرهم.

تنهّد روزفلت.

- في نظركم، جلالة الملك، كيف نسوّي مأساة هؤلاء اللاجئين التعساء الذين طردوا من بيوتهم في أوربا؟

لم يتردد ابن سعود في الجواب.

- الأمر ليس صعباً، السيد الرئيس. على اليهود أن يعودوا من حيث طردوا. إذ يفرض المنطق الأقوم أن يمنحوا جزءاً من ألمانيا.

---

(١) ما يعادل الكوفية عند السعوديين.

ألم يكن الألمان مصدر معاناتهم كلها؟ لا يخفى أننا، نحن العرب، لا صلة لنا بهذه المأساة.

لم يبدُ على روزفلت أنه رفض الحجة. بل لاحظ أنه يمكن أن يستشهد بمثال بولونيا؛ ذلك أن النازيين قتلوا أكثر من ثلاثة ملايين يهودي بولوني، ومن ثم وجب أن يكون هناك متسع لإعادة إسكان اللاجئين المشردين.

استأنف الملك:

- في الحالات كلّها، كونوا على يقين أن اليهود والعرب لن يتعاونوا أبداً فيما بينهم. لا في فلسطين، ولا خارجها. ويمثل تقسيم فلسطين تهديداً متزايداً يلقي بثقله على وجود العرب. سيختار إخوتي الموت على تسليم أرضهم للأجانب.

التزما الصمت لحظة. ظل الرجلان ينظران إلى بعضهما. هزّ الأمريكي رأسه، بينما أضاف ابن سعود قائلاً:

- لا نخشى أي شيء، بالطبع. ألم يقم أمل العرب على كلمة شرف من الحلفاء، وعلى حب العدالة الذي يغذي الولايات المتحدة الأمريكية؟ يمكننا أن نعتمد على دعمكم، أليس كذلك؟

تنحنح الرئيس الأمريكي:

- جلالة الملك، اعلموا أنني لن أبذل أي جهد لدعم اليهود ضد العرب، ولن أقوم بأي عمل عدواني ضد الشعب العربي. لكن يجب أن تعلموا، جلالة الملك، أنني لن أستطيع، في أي حال، الحيلولة دون إلقاء الخطابات وتوقيع القرارات في الكونغرس، أو منع مقالات الصحافة. ألا ترون أننا ديمقراطيون؟ وفي المقابل، تتأسس الضمانة التي أمنحكم على سياستي الخاصة المقبلة بصفتي رئيس الجهاز التنفيذي في حكومة الولايات المتحدة الأمريكية.

وافق ابن سعود، وشكر مخاطبه على هذا الإعلان، ثم اقترح

إرسال بعثة عربية إلى أمريكا وبريطانيا بغية بسط الأطروحة العربية حول فلسطين.

- فكرة ممتازة، يا جلالة الملك! أنتم على صواب، ذلك أن أغلب مواطنينا لا يعرفون الكثير عن الموضوع.

- بلا شك. سأتصل بكم ما أن تكون البعثة جاهزة. ويبقى الأهم هو الالتزام الذي أقدمتم على اتخاذه، بصفتكم رئيساً.

وافق روزفلت مبتهجاً. هل كان صادقاً في هذه اللحظة؟ لن يعرف ذلك أبداً.

افترق الرجلان.

أقدمت العربية السعودية على منح الولايات المتحدة الأمريكية حق استغلال مواردها النفطية. هكذا، ظل الأمريكيون، طوال ستين سنة، يرون أنهم ضمنوا امتياز الولوج إلى النفط في المملكة مقابل حماية عسكرية في حالة الاقتضاء، مع ما يتبع ذلك من نتائج على ساحة الشرق الأوسط. لماذا قام ابن سعود بهذا الاختيار؟ كانت كراهيته لإنجلترا بلا حدود، لأنه لم يحتمل فظاظة «تشرتشل» الذي أمضى كامل وقته، خلال لقائهما الوحيد، في نفث دخان سيجاره على وجهه، ولأن الولايات المتحدة تبقى القوة الوحيدة التي لم تقم بأي خطوة استعمارية في المنطقة.

للأسف، لم يلمس الملك أبداً حسن نية «روزفلت»، حيث توفي الرئيس الأمريكي شهرين بعد ذلك، يوم ١٣ أبريل/ نيسان ١٩٤٥، فبقيت نواياه النهائية حول مصير القضية الفلسطينية يكتنفها الغموض. وفي المقابل، سرعان ما تأكدت نوايا خليفته «هاري س. ترومان».

سقطت برلين يوم ٨ مايو/ أيار ١٩٤٥، أي بعد مرور ثلاثة أشهر على هذا الحوار. إذ زرعت انتصارات الحلفاء في أوربا وآسيا في العالم العربي إحساساً بقوة الأمريكيين العسكرية الكاسحة. لم

يكن الواقع ينصح برفع الأصوات أمام هؤلاء الجبابرة، الذين أرهقتهم المعركة. لن يأتي هتلر، ولا موسوليني، لتحرير العرب.

تضاعفت خيبة الأمل من اعتبار «الشؤون الشرقية»، مثلما يقول مستشار في سفارة شارع طلمبات بالقاهرة مزدرياً، شؤوناً إقليمية. كانت بريطانيا تشرع القوانين دائماً في أغلب بلدان الشرق الأوسط. أما فرنسا، فكان تأثيرها يتراجع. في سوريا، فاز المعسكر الوطني بالانتخابات قبل سنتين، حيث أعلن مرشّحه شكري القوتلي الذي انتخب رئيسا للجمهورية، عن أولويته، وهي إجبار فرنسا على الانسحاب. وفي الآن ذاته تقريبا، يوم ٢ سبتمبر/ أيلول ١٩٤٣، أصبح بشارة الخوري، وهو مسيحي ماروني، رئيس الجمهورية اللبنانية الناشئة. لكن سرعان ما رمي بهذا الاستقلالي الجامح خلف القضبان بأمر من ممثل فرنسا، الذي كان يصر على ضبط الوقت على ساعة متوقفة. كان على وزيره بالوصاية أن يوبخه، طالما أن فرنسا قررت، يوم ٢٢ نوفمبر/ تشرين الثاني، في خطوة عقلانية وبراغماتية، إطلاق سراح بشارة ومنح بلاده استقلالها الكامل.

أما أمريكا، فكانت توسّع هيمنتها على شبه الجزيرة العربية.

*

قال جمال عبد الناصر ذات مساء، أواخر سنة ١٩٤٥، في فيلا لطفي:

- كل ما تركوه لنا هو الحديث بلا فائدة وتحريك الرياح.

كان هشام، الذي سمحوا له بالجلوس معهم، يتشرب كلماته، كأنه ينصت إلى صوت رباني. كان يلتهم، بكل جوارحه، هذا العملاق ذا الابتسامة السرمدية، حتى عندما يتحدث عن الأحزان، فهو ينضح بطاقة غير محدودة.

قبل تيمور وزوجته، تحت إصرار أحمد ذو الفقار، بإقامة مأدبة

العشاء هذه، احتفالاً بترقية جمال مؤخراً إلى رتبة قائد. حدث ذلك في سن السابعة والعشرين! جاء رفقة صديقه الحميم زكريا، لكن بمعية عسكري آخر، يبدو أنه يكنُّ له إعجاباً أعمى، هو عبد الحكيم عامر. صعيدي مثل عبد الناصر. وجهه وسيم. شعره أسود. ملامحه حزينة. يبدو دافئ المشاعر، لكنه مندفع.

تساءل هشام متلهفاً:

- إذاً، أيها القائد، ما العمل لمعالجة الوضع؟

فوجئ عبد الناصر بسؤال الفتى البالغ من العمر تسع عشرة سنة. بدا متأثراً، من غير شك، بنيته الصادقة. مال نحوه، ثم قال:

- نفعل مثل القط أمام حفرة الفأر. ننتظر حتى يتهور. ونهوي عليه بمخالبنا من فوق.

- ماذا لو كان في الحفرة قط آخر؟

ألقى عبد الناصر الذي استمتع حتماً بسؤال الطفل، نظرة على الحضور، كأنه يشهدهم.

- فطن هذا الطفل! لا. سيكون فأراً. صدقني.

أشعل سيجارة، من نوع «كرافن أ» المفضل عنده. استأنف كلامه دون أن تغادر عيناه هشام:

- اعلم أن خصمك سينتهي عاجلاً أو آجلاً، ما إن تمنحه الانطباع بالخضوع، إلى سلوك متهور. يجب فقط أن تحترس! إذا لم تنتهز الفرصة حين تتاح لك، فأنت من سيرتكب الخطأ.

بدأ عبد الحكيم عامر يضحك:

- احذروا صديقي. فهو لاعب شطرنج محترف. نازلناه في جولات عدّة منذ تعرفنا عليه، لكننا لم نفز بأية واحدة منها!

تساءل تيمور:

- قل لي أيها القائد. . .

- ادعني جمال، يا صديقي. لسنا في الجيش!

- جمال. قل لي. ما رأيك في بلدنا؟ هل هو منذور لأن يعيش في هذا السبات؟ ما هو الحل؟

- الحل؟

سحب عبد الناصر جرعة دخان. ثم قال:

- تصفية الاستعمار البريطاني، القضاء على الفيودالية، إنهاء هيمنة الرأسمال على السلطة، تأسيس العدالة الاجتماعية، تشكيل جيش مندمج وقوي، تأسيس حياة ديمقراطية سليمة. هذا هو الحلّ.

كاد تيمور يقسم أن الجواب لم يكن مرتجلاً، بل نضج منذ شهور، إن لم يكن سنوات. حدّق في ناظري عبد الناصر بانتباه. لن ينسى أبداً ما قرأه في عينيه في تلك اللحظة.

*

كان الأصدقاء يشيخون، والأشجار تهب فواكهها. بينما لم يغادر الإنجليز بعد.

صدم الرأي العربي بإطلاق أول قنبلة ذرية على هيروشيما يوم ٦ أغسطس/ آب ١٩٤٥. كان العراقيون والفلسطينيون والسوريون والمصريون وآخرون يناقشون، لا فكرياً، بل عاطفياً، أن الأمريكيين لا يصنعون أفلام رعاة البقر والسيارات المنمقة فحسب، بل أيضاً أسلحة جهنمية.

بالطبع، لم يكن لاسمي هيروشيما وناغازاكي أي صدى في القرى حيث يمتلك شيخ القرية وحده مذياعاً، في أفضل الحالات، ولا أحد يعرف القراءة ليقرأ الصحف. أدرك تيمور ذلك، عندما توقف ذات يوم، في طريقه إلى الضيعة، في طنطا لتناول الغذاء. بعد

انتهائه من الوجبة، جاءه النادل بفاتورة الحساب، فاستغل الفرصة ليسأله عما جرى في «هَرْشَما»، التي حسبها النادل مدينة يهودية.

ومازال الإنجليز هنا إلى الآن.

*

دير ياسين، ٢١ يوليو/ تموز ١٩٤٦

انصرمت أربع سنوات منذ أن قال كريم شهيد لأبويه: «هذه الأرض أرضي. لن يسرقوها مني، ولو ضحيت من أجلها بحياتي».

في اليوم التالي، كان عليه، هو وعائلته، أن يواجهوا غمّاً لا صلة له بالسياسة: وفاة نادية. كان رحيلها قاسياً ومفاجئاً مثل رحيل زوجها. بعد العشاء، داعبت حفيدها. شربت قهوة بيضاء. ثم توجهت إلى غرفة نومها، لكنها لم تستيقظ.

كانت الصدمة مروعة للجميع، ولكريم خصوصاً. لم يكن يحب جدّته فحسب، بل يبجّلها. كانت الوحيدة القادرة على كبح جنونه وطيشه.

أياما بعد هذه الوفاة، زار سرّاً من أصبح، في غياب عبد القادر، أمير جيش الجهاد، وانخرط في صفوف التنظيم. وفي وقت قصير، نسج علاقات مع شباب آخرين، مثله، اختاروا الكفاح المسلح. كان قاسم طربوش واحداً منهم. كان في مثل عمره، في الخامسة والعشرين، ينحدر من أسرة تعنى بزراعة الزيتون في قرية دير ياسين الصغيرة، التي تقع غرب القدس على بعد خمسة كيلومترات. يسكنها أربعمائة شخص.

هنا وجد كريم نفسه نهاية هذا المساء من شهر يوليو/ تموز ١٩٤٦. وصل البارحة، يوم ٢٠. ما أن يتحرر من العمل، حتى يسعى إلى أن يشحن نفسه بالقرب من أسرته. كانت هوايته تقتضي

حينها - بمشاركة قاسم المتحمس - تدمير العالم افتراضياً، بغية بناء تصور آخر أكثر عدلاً. في الواقع، لم تفسر له الرغبة في لقاء صديقه ثانية انتظام زياراته فحسب، ذلك أن سحر ليلى، أخت قاسم الصغرى، لم يكن بالأمر الغريب. إذ بدت له السعادة في الإقامة في دير ياسين مضاعفة، عندما انتهز فرصة اللقاء، وجها لوجه مع الفتاة لبضع دقائق.

وضعت المائدة في الخارج، تحت شجر الزيتون. جلس مروان الأب، الرجل الغليظ الطباع، سخي اليد، أولاً، والتحق به ابناه الآخران: ياسمينة ذات الواحد والعشرين ربيعاً، ووسام ذو السبعة عشر.

- إذاً! ماذا تنتظران؟ صاح وهو يومئ إلى كريم وقاسم بالاقتراب.

كان جو الشفق رطباً، والهياج الذي استبدَّ بفلسطين بعيداً جداً. ظنوا أن السلام عائد لا محالة.

- كيف حال والدك؟ سأل مروان. هل تسير شؤونه كما يأمل؟

- لا، للأسف. يبذل قصارى جهده، لكن الزمن صار أكثر قسوة.

- كلّنا في الهمّ سواء. لقد قضم المهاجرون الجدد المزيد من الأرض وحقول الزيتون. والمنافسة شرسة.

ضرب بيديه على المائدة.

- لكن مهما يكن الأمر، سنتأقلم! الصمود هو الأساس. الزيتونة موجودة منذ خمسة آلاف عام. ونحن أيضاً، سنوجد لأكثر من خمسة آلاف عام.

- أنت على حق. يجب أن نقاوم مهما كان الثمن.

تدخلت ليلى فجأة:

- فيما يخص المقاومة، هل يعلم أحدكم أين لجأ المفتي؟

- نعم، قال قاسم. بعد سقوط برلين، نجح في الفرار إلى سويسرا حيث طلب اللجوء. لكن السلطات رفضت طلبه، وأنذرته بمغادرة ترابها. انتقل بعدها إلى فرنسا، حيث اعتقل ووضع رهن الإقامة الجبرية في الضاحية الباريسية. وعندما علم بحملة تطالب بمحاكمته باعتباره مجرم حرب، فرّ مستعملاً جواز سفر طالب سوري.

- وماذا؟

- حسبما قيل لي، يقيم حاليا في القاهرة.

- ألم يعتقله الإنجليز؟ اندهش مروان طربوش. فهم مازالوا أسياد مصر، أليس كذلك؟

- بلى. لكن يبدو أنهم يتركون له حرية العمل، قصد موازنة صعود الصهيونية.

- ليغفر لي الله؟ دمدت لبنى. لكن هؤلاء الناس شياطين حقّاً! لقد دمروا كل شيء بلعبتهم المزدوجة!

- أجل، سيدتي، ردّ زوجها. لكنهم لن يحملوها إلى الفردوس.

فجأة، ارتفع صوت وسام، الابن الأصغر:

- تذكروا ما قاله الله تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون. ولا أنتم عابدون ما أعبد. ولا أنا عابد ما عبدتم. ولا أنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دينِ﴾.

تفرّس فيه الجميع، متفاجئين.

تحدث بصوت رخيم، قصيّ، كأنه يُسمع من آلاف الأمكنة من هناك. لكن قبضة يده المشدودة كانت تسترعي الانتباه.

*

القدس، في اليوم التالي

شمس فاتنة تغمر المدينة.

كيلوغرمات TNT الخمسون جاهزة الآن في مكانها.

غادر «إسرائيل ليفي» فندق «كينغ ديفيد» متمهلاً. الساعة الثانية عشرة والربع. التقت نظراته بنظرات شابة، بدا أنها تنتظر في زاوية الشارع. أومأت إليه سرّاً. وسرعان ما اندفعت داخل دكّان على بعد مائتي متر من هناك. ركّبت رقم هاتف مكتب الاستقبال في فندق «كينغ ديفيد» وقالت منذرة: «هنا المقاومة اليهودية! لقد فخّخنا المكان بالقنابل. أفرغوا البناية!»

في الساعة ١٢,٣٥، تطايرت شظايا نوافذ القنصلية الفرنسية العامة في كل اتجاه نتيجة الانفجار الرهيب. تهاوى الجناح الجنوبي من ذلك الفندق الفخم وسط سحابة غبار هائلة.

مات واحد وتسعون شخصاً، من بينهم سبعة عشر يهودياً، وأربعون عربياً، وثمانية وعشرون بريطانيا، بالإضافة إلى مئات الجرحى.

في المساء ذاته، اقترب من الأنقاض رجل أصلع في الرابعة والثلاثين من العمر، ذو فكّ ناتئ قليلاً إلى الأمام، مثل فكّ قرد. لم يبد على وجهه أثر أي انفعال. ذلك أن العمل الذي نسّقه تمّ بطريقة جيدة.

لم تمضِ ثلاث سنوات على وصول الزعيم السابق لحركة «بيطار»(١) ببولونيا إلى فلسطين، محمولاً في أمتعة كتيبة من كتائب الجيش البولوني الوفي لحكومة لندن. وبعد فراره، التحق بمنظمة «إرغون»، وتسلق فيها الرتب، حتى أدرك القيادة.

(١) هي حركة صهيونية للشباب اليهودي، تأسست سنة ١٩٢٢ في ليتوانيا.

ثم ابتعد، بعد أن ألقى نظرة أخيرة على ما تبقى من الجناح الجنوبي من فندق «كينغ ديفيد».

اسمه «ميناحيم بيغن».

- أياماً قليلة قبل ذلك، شنق هو ورفاقه في «إرغون» جنديين بريطانيين، وفخخوا جسديهما، ثأراً لأحدهم. ففي نظر هؤلاء المتطرفين، يعتبر تقسيم فلسطين المرتقب بتراً غير مقبول. إذ يطالبون بكامل الإقليم الذي كان ذات يوم مملكة إسرائيل التوراتية، ويريدون أن يكون هذا الإقليم خالياً تماماً من العرب.

عاد «بيغن» إلى بيته، مطمئناً.

القسم الثاني عشر

(٣٢)

وأعطيتكم أرضاً لم تتعبوا فيها، ومدناً
لم تبنوها لتسكنوها، وكروماً وزيتوناً لم
تغرسوها لتأكلوها

إشعياء ٢٤: ١٣.

القاهرة، ١٨ فبراير/ شباط ١٩٤٧

الإنجليز يغادرون فلسطين!

كان هذا الخبر الذي يصعب تصديقه مفاجئاً. سرى الذهول بين الجميع. لا، قال البعض. إنهم يهربون، تاركين وراءهم طائفتين تُهيِّجهما لعبة مكيافيلية بيادقها من هؤلاء وأولئك. بدأ جنود جلالته المهابة جدّاً جورج السادس يحزمون الحقائب، بعد أن عجزوا عن التحكم في الوضع الذي صمَّموه بكل ما أتيح لهم من القطع، وأنهكتهم تفجيرات الصهيونيين.

في مقر الجامعة العربية، تبادل المندوبون النظرات في ذهول، وأجمعوا على نتيجة واحدة: «هو الفناء الذي ينتظرنا!»

تتابعت الأحداث حينها بسرعة ساعة رملية مهشمة، انسكب محتواها فجأة.

في يوم ٢٠ أبريل/ نيسان، بات على الأمم المتحدة، خليفة

عصبة الأمم التي أسندت الانتداب للإنجليز، أن تقرر مستقبل هذه الأرض ذات القدسية الثلاثية.

وفي بحر شهو يوليو/ تموز، منعت سفينة على متنها أربعة آلاف وخمسمائة ناجٍ من معسكرات النازية، وطردت من السواحل الفلسطينية نحو أوربا. سيجري اسمها «إكزودوس» على كل لسان، كإهانة لكرامة الإنسان. كان ذلك آخر إشارة متجردة للبريطانيين قبل رحيلهم.

وفي يوم ٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧، أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرار تقسيم فلسطين إلى دولتين، على أن تخضع القدس لمراقبة دولية.

ومن بين الدول الثلاثة والثلاثين التي صوتت لصالح القرار: الولايات المتحدة الأمريكية، الاتحاد السوفياتي، فرنسا، بلجيكا، كندا وبولونيا. وأعلنت ثلاث عشرة دولة رفضها القرار: كل الدول الإسلامية واليونان وكوبا. وامتنعت ثلاث عشرة دولة، خاصة بريطانيا. اعتُمِد القرار بأغلبية الثلثين.

أعلنت إنجلترا أنها ستسحب قواتها عند انتهاء انتدابها، أي في ١٤ مايو/ أيار ١٩٤٨، ولن تتعاون في مخطط التقسيم.

وها هو حلم «ثيودور هرتزل» بتأسيس دولة يهودية يتحقق.

في الأحياء اليهودية، كانت السماء شاهدة على ساحات الفرح الغامر. رقص الجميع، وبكوا، وضحكوا، وشكروا الربّ.

في ديغانيا، شهقت «إرينا برونشتاين»، ابنة مرقس، وزوجها «صامويل» في أحضان بعضهما. ظل ابنها «أفرام»، البالغ من العمر أربع عشرة سنة، يراقبهما متأثراً، لكن دون أن يدرك معنى هذه النشوة. هو ولد هنا. أليس هذا البلد وطنه منذ الأزل؟

كما سالت دموع على خدّي يوسف مرقس. في هذه اللحظة

بالذات، خطر على باله، بغرابة، صديقه حسين شهيد، ومراد وسليمان وسامية. أشار إلى حفيده بالاقتراب، واحتضنه بقوة. ولولا هذه الموسيقى والأغاني الصادحة في أرجاء الكيبوتسات كلّها، لسمعوا همسه في أذن «أفرام»: «ليحمِك الربّ. ليحمِك أنت وأبناءك والأجيال التي ستأتي».

*

في الأحياء العربية، لم يعكس الشهيق المتصاعد السعادة والفرح، بل الحداد.

في اليوم التالي، أشرق الفجر على جرح غائر، انبعث منه مزيج من الألم والفرح.

في الساعة الثامنة صباحاً، اعترض مقنعون عرب حافلة تربط بين القدس وتل أبيب. وقتلوا سبعة يهود.

من حيفا إلى تل أبيب، ومن يافا إلى رام الله، ومن هضاب جزريل إلى رمال صحراء النقب، كان ينبعث من أعماق أرض فلسطين دوي الانفجارات. غض الجيش البريطاني الطرف عنها.

في أول ديسمبر/ كانون الأول، قررت اللجنة العربية العليا إضراباً عاماً لمدة ثلاثة أيام.

لم يتخيل أحد حينها أن رياح الحقد التي بدأت تهب، ستهب طيلة ستين سنة بعد ذلك، وستبقى كذلك طيلة ستين قرناً آخر، ما لم تحدث معجزة.

*

حيفا، ٣٠ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤٧

جثا عبد القادر الحسيني على ركبتيه أمام ابنه حسين. تأمله كأنه إحدى عجائب الدنيا.

منذ أن دخل هذا المقاتل بيت آل شهيد، لم ينبس ببنت شفة. غلبته العاطفة، فانحبس صوته. روى الرجل الذي يرافقه للعائلة المجتمعة بأكملها كيف نجحوا، وهما راجعان من مصر، في مراوغة حراسة الجيش الإنجليزي لدخول فلسطين.

وقف عبد القادر أخيراً. نظر إلى المحيطين به.

كان هناك مراد ومنى وابنهما كريم، وسليمان الشاعر السابق أيضاً، وزوجة عبد القادر طبعاً.

قال رئيس جيش الجهاد:

- أصدقائي، أموت عطشاً.

استدار نحو سامية، ثم قال:

- شاي بالنعناع سيكون جيّداً.

جلس متربعاً على السجاد. فعل الآخرون مثله. وخلف الأبواب الموصدة، علم الجميع الشائعات الأولى الرائجة اليوم.

- قضي الأمر، أعلن عبد القادر. لم يتركوا لنا أي خيار.

كان كريم أول من تفاعل مع كلامه:

- سنقاتل.

عضّت والدته على شفتيها، حتى سال الدم منهما.

- أجل، استأنف سليمان بعزم أكبر. سنقاتل حتى الموت.

- أحسنتم، يا أبنائي. قال عبد القادر موافقاً.

حدّق في مراد، ثم قال:

- ابنك وأخوك أسدان. بفضلهما، سنحاصر القدس.

أمسك مراد يد منى. كان قلبه يخفق اضطراباً. لم ينبس ببنت شفة.

*

الحي الشرقي في القدس، ٥ يناير/ كانون الثاني ١٩٤٨

انفجر فندق «سميراميس» للتو. كانت عصابة الهاغانا قد تلقت أمس معلومات تؤكد وجود مسؤولين عسكريين عرب. لكن الانفجار خلف ستة وعشرين قتيلاً من المدنيين فقط.

وفي يوم ٩ يناير/ كانون الثاني، هاجمت وحدات جيش الجهاد، بقيادة عبد القادر الحسيني، كيبوتس «دان» وكيبوتس «سولد» في الجليل الأعلى. تقدم صفوف المقاتلين سليمان وابن أخيه كريم. وقد قتلا تسعة يهود أثناء هذه العملية.

وفي يوم ٢٢ فبراير/ شباط، ركَنَ فوزي القطب، محترف الأسلحة النارية في جيش عبد القادر - كان قد تدرّب في ألمانيا على يد النازيين - شاحنة مفخخة بالمتفجرات في قلب حي اليهود في القدس. تناثرت أربع عمارات. قتل ثمانية وخمسون، وجرح العشرات.

*

خرجت دنيا من الدش. جففت جسدها. انتقلت، وهي ملتحفة فوطتها، إلى المرآة الكبرى التي وضعت في زاوية من الحمام.

تردَّدت. تركت الفوطة تسقط أرضاً، وتسمرت عارية أمام المرآة.

لم تعد رشاقة فخذيها ونحافتهما كما كانتا من قبل. نهداها الآبنوسيان المتصلبان والنافران فقدا تكورهما واكتنازهما. اندهشت. هل دقت إذاً ساعة الانكسار في سن الستين؟ هل انسحق الجسد، وبدأ يتملص من مفاتنه؟ سرت قشعريرة في ظهرها بكامله. مررت بلطف طرف الفوطة تحت نهديها، وحولهما، ثم فوقهما. من أين جاءت هذه الكآبة التي لم تغادرها منذ أسابيع؟ هل من خراب الزمن الذي يمضي؟ أم من العمر الذي كان يحاصر جمالها؟

في تلك الأثناء، سمعت طرقاً على الباب. التحفت ثيابها بسرعة، كأنها شعرت بالذنب.

- نعم؟

- الغذاء جاهز، يا حبيبتي.

وقع نظرها من جديد على قوامها.

لا. لا يتعلق الأمر بوقت يمضي، بل بالشوق إلى الشرق.

*

القسطل، ٧ أبريل/ نيسان ١٩٤٨

أدرك عبد القادر أن مفتاح القدس لا يكمن في الاستيلاء على بضعة بيوت أو احتلال حيّ معزول، بل في الطريق المغبرة الصاعدة نحو المدينة المقدسة عبر التلال المشرفة على قرية القسطل. هنا مصير المدينة. لذلك صرخ متعجباً، عندما عاد من المنفى، أمام سليمان وكريم: «سنخنق القدس».

في منتصف يناير/ كانون الثاني، انتقل المقاتل الفلسطيني ورجاله إليمرحلة الفعل. قاد عبد القادر شخصياً رجاله، الذين جنّدهم سليمان وكريم، في الهجوم الأول. أدار بندقيته، وهو يطلق صرخة الحرب. كان النصر ضرورياً، حيث بات تسيير القوافل نحو القدس بالنسبة إلى اليهود مغامرة خائبة كل يوم. إذ كان بقاء مائة ألف يهودي محاصر في المدينة المقدسة يعتمد على الشاحنات الثلاثين، حيث كان ينبغي على الهاغانا أن تنتزعها يومياً، واحدة تلو الأخرى، من بين مخالب عبد القادر ورجاله. في النهاية، نجحت في ذلك. ففي الشهر السابق، وبعد تضحيات جسام، سقطت قرية القسطل. واليوم، في يوم ٨ أبريل/ نيسان، ظل المحور الاستراتيجي خاضعاً لمراقبة العدو، رغم ضربات رجال عبد القادر العنيفة.

جلس القائد الفلسطيني فوق صخرة. مال فجأة نحو سليمان شهيد، وسأله:

- هل تملك عدّة تكتب؟

وافق سليمان مبتسماً، ثم أجاب:

- يملك الشاعر دائماً عدّة يكتب.

كتب عبد القادر.

عندما انتهى من الكتابة، دسّ الورقة في ظرف، وعهد به لسليمان.

- إنها رسالة إلى سامية. سلمها إياها إذا حصل لي أي مكروه.

بصق سليمان على الأرض على الفور، متظاهراً بالغضب.

- كفّ عن هذا الكلام. ادفع عنك هذا التشاؤم! ماذا دهاك؟

لم يعترض عبد القادر.

أوقف بهجت أبو غربية، وهو واحد من ملازميه، وقال له:

- إنه أمر بسيط، يا بهجت، يجب منذ الآن أن نختار احتمالاً من احتمالات ثلاثة: إما أن نفر إلى العراق ونختبئ فيه؛ وإما ننتحر؛ وإما نموت هنا ونحن نقاتل من أجل استعادة القسطل.

تنفس قليلاً، ثم أضاف:

- سأقود الهجوم بنفسي.

انتصب واقفاً، ثم قال لرجاله:

- أصدقائي، إخوتي! ليمت من رضوا بالتضحية بحياتهم والقتال في سبيل الله، أو لينتصروا. سيجزون الجزاء الحسن!

لبوا نداءه صائحين.

نزل من صخرته. أمسك بندقيته. عدّل كوفيته، ثم أصدر أمره:

- اتبعوني! سنستعيد القسطل!

*

دير ياسين، ٩ أبريل/ نيسان ١٩٤٨

تلعثم كريم شهيد. وجهه تكتسحه الكآبة.

- اهدأ، تمتم كريم طربوش. اهدأ، فألمك لن يرجعه إلى الحياة.

جلست ليلى في زاوية من الغرفة. تتمنع عليها الكلمات. لم تحتمل أن تعاين، وهي عاجزة، ألم الرجل الذي أحبته سرّاً. ما العمل؟ وكيف السبيل إلى الكلام؟

مات عبد القادر.

مات عبد القادر، رددت الجدران وبساتين الزيتون.

عادت القسطل قرية عربية، لكن عبد القادر مات.

تحولت المأساة إلى نصر خلال الجنازة.

كان عبد القادر قد نزل من التلة في غزوته الأخيرة، على محمل، يرافقه القرويون الذين قادهم مراراً في ساحة المعارك. كانوا ينوحون بلا كلل.

- *الله أكبر، الله أكبر!*

هزّ كريم رأسه، وطلب ماء. كان قد غادر القسطل منذ تباشير الفجر. لم يأكل ولم يشرب شيئا منذ يومين.

سارعت ليلى إلى خدمته.

اعتقدت أنها سمعت صراخاً بالعبرية، وهي تمر أمام نافذة المطبخ المواربة. لكنها ظنّت أنها تحلم.

(٣٣)

يجب أن نفعل كلَّ ما في وسعنا حتى نتأكد
أن الفلسطينيين لن يعودوا أبداً. إن الكبار
سيموتون، والصغار سينسون

مذكرات، «ديفيد بن غوريون»

دير ياسين، ٩ أبريل/ نيسان ١٩٤٨، الساعة العاشرة صباحاً

لا. لم تكن ليلى تحلم.

انطلقت عملية «ناكسون»، وهو الاسم الإنجيلي لأول من عبر البحر الأحمر أثناء خروج اليهود من مصر. اتخذ مائتان وثلاثون رجلاً من رجال «إرغون» وجماعة «ستيرن»[١] مواقعهم حول قرية دير ياسين.

صرخ صوت عربي: «اليهود هجموا علينا!»

بالفعل، كانت الكومندوهات، التي جاءت من وجهتين مختلفتين، عبر الجنوب والشمال، تحاصر القرية.

---

(١) تسمى أيضاً «ليهي» (LEHİ) «التي تقاتل من أجل حرية إسرائيل». وهي جماعة يمينية متطرفة أنشأها «أفرام ستيرن» سنة ١٩٤٠. كانت غايتها طرد الإنجليز وإنشاء دولة يهودية على كامل تراب فلسطين والأردن الحالي.

- ماذا يحدث؟ صرخت لبنى طربوش، وعيناها تتسعان من الخوف.

- لا... لا أعرف، تمتم مروان.

أدرك كريم الأمر. استلّ سلاحه، وهو يصيح:

- يا أولاد! احتموا يا أولاد!

اندفعت ليلى، وهي عائدة من المطبخ، نحو أخيها وأختها، وأخذتهما إلى غرفة النوم.

- تحت السرير، أمر كريم، اختبئوا تحت السرير! تحت الموائد!

ركض نحو نافذة، ليكمن قربها، قابضاً على السلاح. حذا حذوَه صديقُه قاسم.

على بعد بضعة أمتار من مدخل دير ياسين، مالت العربة المصفحة الحاملة لمكبر الصوت في خندق يشطر طريق القرية.

- بئس الأمر! دمدم «غيورا»، قائد كومندو «إرغون»، فما ينذرهم موجود هنا.

ثبّت رشّاشه، وأطلق النار هو الأول.

- يهود!

ترددت الصرخة في أزقة القرية النائمة، كأنها جرس إنذار.

تطايرت شظايا نوافذ بيت آل طربوش. شرطت قطعة زجاج خدّ لبنى التي رأت دماءها تنزف متدفقة. ما أن أخذت تشعر بألم جرحها حتى اخترقت رصاصة جبهتها. انهارت على الأرض مثل دمية من خِرَق.

في الخارج، استعاد العرب رباطة جأشهم، فاحتدمت المعركة.

بدا الكومندو مرتبكاً. لم يتوقع مثل تلك المقاومة. استغرق وصوله إلى وسط دير ياسين أكثر من ساعتين. لم يتخيل أحد أن الاستيلاء على قرية مزارعين سيكون صعباً إلى هذا الحد. انتابت الهستيريا الكومندو، بينما أخذت قوة هجومه تضعف. انطلق الرجال، في حركة مجنونة، يطلقون النار في الاتجاهات كلها.

أخرج رجال الكومندو زوجين شابين وثلاثة وثلاثين من جيرانهم من بيوتهم، وصفُّوهم أمام حائط، وأمطروهم بوابل رصاص عن قرب. انتشل مقاتلٌ جارةً لآل طربوش، حامل في الشهر الثامن، من فوق جثة زوجها. بقر بطنها، وأخرج الجنين من أحشائها.

جرت هذه المشاهد المرعبة مرات ومرات. جرت اغتصابات، ومجازر.. مشاهد تعجز الكلمات عن وصفها. استدعوا نحو خمسة وعشرين رجلاً. شحنوهم في شاحنات. نقلوهم إلى مقلع، وقتلوهم بدم بارد.

قرر «مردخاي رعنان»، قائد «إرغون» في القدس، الذي وصل إلى المكان عند الضحى، دكّ ما تبقى من البيوت التي مازالت تحتضن مقاومة العرب. لهذا الغرض، لجأ إلى التقنية التي استعملها تنظيمه ضد مراكز الشرطة البريطانية، حيث نسف كل بناية ينطلق منها الرصاص.

بعيد الظهيرة، حلّ صمت رهيب على دير ياسين. لم يبقَ الآن من القرية الباسمة بالأمس سوى أنقاض.

حرّك كريم جفنيه.

مسح بكمّه المثني جزءاً من الغبار والدم اللذين يلطخان وجهه. تفرس في المشهد المحيط به.

لم يتبقّ من بيت آل طربوش سوى أطلال جدارين. اعتدل في

جلسته بتمهل. انتزعت منه حركته صرخة ألم. كانت رصاصة قد اخترقت فخذه، وأخرى أعلى وركه لم يشعر بوقعها.

رأى تحت الأنقاض جثة مروان طربوش هامدةً، ممددة فوق جثة زوجته.

أين ليلى؟ وقاسم؟ والأولاد؟

حاول قدر جهده أن يزحف نحو ما تبقى من حجرة النوم، لكن ستاراً كثيفاً حجب عنه الرؤية. ثم انقلب في هوة سحيقة مثل الليل.

(٣٤)

شفتاي ضفتان لجرح حارق.

بيير لويس

إنها النكبة. يتأهب ٧٥٠ ألف رجل وامرأة وطفل للهجرة. لقد استولى الرعب على القرى. أخذت الفرائص ترتعد. يهمس البعض للبعض الكلمة التي أصبحت رمزية: «دير ياسين، دير ياسين».

مع ذلك، لم تكن العلامات غائبة. لكن العرب كانوا يأملون. يأملون ماذا؟

غداة المجزرة، في القاهرة، أمام جامعة الأزهر، صعد شاب في الثانية والعشرين فوق طاولة، وخطب في الحشد:

- لقد ثبتت الحجة أن الغرب يتعاون مع أعدائنا طالما لم تصدر أي إدانة! لم ترتفع صرخة استنكار واحدة من هذه البلدان التي كانت، إلى وقت قريب، تجلد اليهود! إذا كانت الدماء ما زالت تجري في عروقنا، وإذا كنا نزعم أننا ما زلنا رجالاً، عرباً وأتباعاً للنبي، فإنه يجب أن نطلب من حكوماتنا تدخلاً عسكرياً فورياً! لن نكون أكباش فداء للصهاينة!

انفجرت تصفيقات مدوية في الساحة، مشجعة الشاب على مواصلة كلامه:

- عندما أحرق الإسبانُ اليهودَ لأنهم اعتقدوا أنهم وكلاء

الشيطان، من منحهم المأوى؟ والحق في ممارسة شعائر دينهم؟ إلى أين التجأوا فراراً من اضطهاد الغربيين، والمذابح المنظمة، والإهانات، والغيتوهات؟

استرجع أنفاسه. شعر الجميع أن عاطفته سيطرت عليه.

- تعاملنا، نحن العرب، معهم مثل أناس متحضرين، بينما تعامل معهم من يزعمون أنهم يعطوننا الدروس في الحضارة مثل الوحوش الضارية.

تصفيقات أخرى تعلو المكان. حتى رجال الشرطة شاركوا الحشد بحماسة. ثم تابع الخطيب الحديث عن أشكال الخزي والعار التي تحملتها مصر طيلة ما يزيد عن ستين عاماً. إذ رسم لوحة دقيقة على نحو مدهش عن الوضع، ليختم خطابه هاتفاً، ورافعاً قبضة يده:

- تحيا مصر! تحيا مصر!

علت تصفيقات مدوية أخرى. رغب الجمهور في حمله على الأكتاف، لكنه رفض.

بعد لأي، شقّ تيمور لطفي طريقه نحو الشاب المفوّه. عندما نجح أخيراً في الوصول إليه، قال له ببساطة:

- أحبك، يا هشام. أحبك، يا ابني.

ثم تعانقا.

*

حيفا، ١٥ أبريل/ نيسان ١٩٤٨

مدَّت ليلى طربوش فنجاناً من زهر الليمون.

- اشرب، سيفيدك هذا المشروب.

تململ كريم، ثم مال على مقدمة السرير.

- سلمت يداك.

مررت يدها على جبهته بلطف، وقالت:

- لن أتعود على عينيك أبداً. إحداهما بنية، والثانية زرقاء. إنه أمر غريب جداً.

لم ينبس ببنت شفة. في مخيلته ما يزال المشهد الفظيع الذي عاشه يطنّ. يؤرقه منظر جثث قاسم ووسام وياسمينة. عندما حمله عنصران من الصليب الأحمر الدولي نحو سيارة إسعاف، كان أمامه الوقت الكافي ليري الجثث الثلاث الممزقة بين الأنقاض.

دخل مراد ومنى الغرفة.

- تبدو في حال أفضل، قالت أم كريم.

سعت جاهدة إلى تلطيف نبرتها، لكن ظهر جلياً أن القلب لم يكن كذلك. ملامحها ظلت منقبضة، والعبارة مملة. لم يدرك هو منطق الحياة الذي يدفع أبوين إلى دفن ابنهما، وهي لم تسلم من هذا الخوف الذي لا يفارقها.

- أين سليمان؟ تساءل كريم.

- في القدس؟ أجاب مراد.

- والقسطل؟ هل ما زالت قواتنا صامدة في القسطل؟

صمت والده قليلاً قبل أن يجيب:

- لا. للأسف. في اليوم ذاته الذي غزوتم فيه القرية، وما إن انتشر خبر وفاة عبد القادر، حتى عاد الرجال إلى القدس بغية مرافقة جثمانه إلى مثواه الأخير. فانتهز اليهود الفرصة لردّ الهجوم في الليل. ومنذ ذلك الحين، صاروا أسياد القرية.

- مات عبد القادر إذًا من أجل لا شيء.

هزّ رأسه متأسفاً.

- وسامية؟ لقد كتب لها عبد القادر رسالة ساعات قبل وفاته. عهد بها لسليمان. وهو...

- أجل. لا تشغل بالك بذلك. لقد سلَّمها سليمان الرسالة ما إن عاد من القسطل.

أمسك مراد بيد ابنه، وتأمله في صمت، بقلب منقبض. تألم لحاله. تألم لهذه الطفلة، ليلى، التي يتّمتها الحرب. تألم على الخصوص لأنه ما زال على قيد الحياة.

في اللحظة ذاتها، كانت سامية، التي افترشت الأرض، تقرأ كلمات عبد القادر للمرة العاشرة:

سندوّن صفحة ناصعة ومجيدة من التاريخ. لن تتخيلي ما بذلناه، بين النهار والليل، من تضحيات وجهود جبارة. لكن الرجال أنفسهم ينسون، وهم في ساحة الوغى. ينسون الأكل، والشرب، والنوم. ينسون آباءهم وأبناءهم. العدو قوي، يا سامية، لكننا سنحقق النصر في النهاية، إن شاء الله!

أدس في ظرف الرسالة قصيدة ألفتها البارحة مساء، إلى ابننا حسين. لن ينساها. لن ينساها أبداً!

هذا البلد للرجال الشجعان
هو بلد أجدادنا.
على هذه الأرض،
لا حقّ لليهود.
كيف أنام
وهو في قبضة العدو؟
ثمة شيء يلمع في قلبي
إنه وطني الذي يناديني.

طوت سامية الرسالة، ودسّتها بين ثنايا فستانها، فوق نهدها. لم تتصور أبداً أن يكون المحارب شاعراً أيضاً.

*

قاعدة رمات غان، ضاحية تل أبيب، ٢٥ أبريل/ نيسان ١٩٤٨

تأكد «مناحيم بيغن» أن الميكروفون في حالة جيدة، ثم أعلن:

«رجال الإرغون! سنحتلّ يافا. سنشنُّ معركة من المعارك الحاسمة في استقلال إسرائيل. اعرفوا من تستقبلون، وتذكروا من خلفتم وراءكم! إنكم تواجهون عدواً همجياً يريد تدميرنا. وخلفتم وراءكم آباء، وإخوة، وأبناء! اضربوا العدو بقوة! صوبوا جيداً! اقتصدوا في استعمال الذخيرة! وفي المعركة، لا تظهروا الشفقة على العدو الذي لا يشفق على شعبنا! لكن لا تقتلوا النساء والأطفال! ومن رفع يديه واستسلم تسلم حياته. لا تقتلوه! سيقودكم إلى المعركة الملازم «جيدي». ليس أمامكم سوى وجهة واحدة تتبعونها: إلى الأمام!»[١].

بدأت معركة يافا في الغد.

قصفت المدينة طيلة اثنتي عشرة ساعة.

وفي يوم ١٣ مايو/ أيار، سقطت المدينة. لم يكن أمام السكان سوى الفرار. ولم يبقَ من بين سبعين ألف قاطن سوى نحو أربعة آلاف.

*

---

(١) مناحيم بيغن، *الثورة*، اقتباس «شارل إندرلين» في كتابه *بالنار والدم*، منشورات ألبان ميشيل.

تل أبيب، ١٤ مايو/ أيار ١٩٤٨

في الصالة المزدحمة داخل متحف الفن المعاصر، واجه طلاب مدرسة الضباط في الهاغانا صعوبة بالغة في احتواء الحشد. فهذا اليوم، الجمعة ١٤ مايو/ أيار ١٩٤٨، لم يكن عادياً مثل الأيام الأخرى. إذ هو، بالنسبة إلى اليهود، يوم ٥ أيار من سنة ٥٧٠٨ من التقويم العبري. وهو أيضاً يوم انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين. ففي منتصف الليل، وجد العرب واليهود أنفسهم وجها لوجه، في غياب جنود جلالته للفصل بينهما.

تزينت جدران الصالة بلوحات فنية. كان العبرانيون يعرفون لوحة *موسى على منبر القانون* للفنان «مارك شاغال» أو لوحة *المذبحة* للفنان «مينكوفسكي». لكن الجميع كانوا، بلا استثناء، يعرفون الرجل الملتحي، صاحب البورتريه الذي يتوسط الجدار الأكبر، المحاط بعلَمَين أبيضين ذوي الشريطين الأزرقين ونجمة داود. إنه «تيودور هرتزل»، أب الصهيونية.

اتخذ «ديفيد بن غوريون» مقعده تحت إطار البورتريه. إلى جانبيه اجتمع أربعة عشر عضواً من أعضاء المجلس الوطني اليهودي وكل نخبة الدولة العبرية المقبلة. في الساعة الرابعة عصرا بالضبط، وقف وقرأ بصوت يكاد يكون صامتاً:

«أرض إسرائيل هو المكان الذي شهد ميلاد الشعب اليهودي. هنا تأسست هويته الروحية والدينية والوطنية. هنا حقق استقلاله وبنى ثقافة ذات دلالة وطنية وكونية. هنا كتب الكتاب المقدس، ومنحه للعالم. لقد ظل الشعب اليهودي الذي أجبر على المنفى، وفيا لأرض إسرائيل في كل البلدان التي تشتت فيها، حيث لم يتوقف أبداً عن الصلاة والأمل في العودة إليها لاستعادة حريته الوطنية.

لقد كافح اليهود، يحفزهم هذا الرابط التاريخي، على امتداد قرون ليعودوا إلى أرض أجدادهم ويستعيدوا دولتهم. وقد عادوا خلال العقود الأخيرة بكثافة، وأصلحوا الأراضي غير الصالحة للزراعة، وأحيوا لغتهم، وشيدوا المدن والقرى، وأنشأوا جماعة مقاولة آخذة في التطور، تمتلك حياتها الاقتصادية والثقافية الخاصة. سعوا إلى السلام، وهم يستعدون للدفاع عن نفسه. جلبوا فوائد التقدم لكل سكان البلد، واستعدوا للاستقلال السيادي. ففي سنة ١٨٩٧، نادى أول مؤتمر صهيوني، وهو يستلهم رؤية «تيودور هرتزل» إلى الدولة اليهودية، بحق الشعب اليهودي في النهضة الوطنية داخل بلده الخاص...».

حلّق صوت «بن غوريون» بعيداً عن تل أبيب، بعيدا عن الدولة الجديدة، إلى العالم العربي المصاب بالدوار.

لم يكد ينتهِ الخطاب حتى هجم المتظاهرون في دمشق وبغداد والإسكندرية وبيروت والقاهرة على متاجر اليهود، حيث لم تأخذهم الرحمة في نهبها وإحراقها.

وفي صباح يوم ١٥ مايو/ أيار، أعلنت سورية ولبنان والأردن ومصر والعراق الحربَ على إسرائيل.

*

القاهرة، ١٦ مايو/ أيار ١٩٤٨

باستثناء الرواد الليليين الراسخين وبعض موظفي البيت الملكي، قليل جداً من الناس في القاهرة كانوا يعرفون «إدمون غاهلان». حتى عناصر الشرطة الذين يحرسون سفارة الاتحاد السوفياتي لم يعيروه أي اهتمام عندما تخطى عتبتها.

كان على موعد مع الملحق العسكري، صاحب الوجه الكئيب.

استقبله من خلف مكتب معدني، بحضور شخص ثالث لم يكلف نفسه عناء تعريفه به.

- أنا مبعوث ملك مصر، أوضح «غاهلان». نحن في حاجة إلى أسلحة وذخيرة.

حرّك السوفياتي رأسه. كان على علم بالوضع. فمنذ البارحة، وقعت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى مرسوم حظر تصدير الأسلحة إلى الشرق الأوسط.

ظهرت الخطوة الملكية مفهومة؛ ذلك أن مصر لم تستطع الإخلال بالحظر بشكل صريح، خشية إثارة رد فعل عنيف من الأمريكيين والإنجليز. كانت بلدان المعسكر الشيوعي الوحيدة القادرة على بيعها ما تحتاجه من أسلحة.

- ما هي الأسلحة التي تحتاجونها؟ سأل السوفياتي.

أخرج «غاهلان» من جيبه ورقتين محررتين باللغة الإنجليزية. فحص الملحق العسكري اللائحة بعناية، ثم قطب حاجبيه.

- هذا يعني الكثير من المواد. من سيؤدي الثمن؟

- الدولة المصرية.

- نحتاج إلى التزام من حكومتكم.

- سيكون لكم ذلك. لكن الأمر مستعجل.

هزّ السوفياتي رأسه من جديد. فهذا الطلب سيمنح الاتحاد السوفياتي فرصة اقتحام المشهد في الشرق الأوسط، والتي طالما حلم بها.

قال بنبرة قاطعة:

- الحديث عن العربات المصفحة غير وارد.

- لماذا؟

- مدرعاتنا ذائع صيتها. سنبدو كأننا نشارك في النزاع.

تفهم «غاهلان» هذا التحفظ. فهو مبرر على كل حال.

- السلاح الثقيل مستثنى أيضاً. لا نستطيع تجاوز مدافع الهاون من نوع ٦,٧٣.

- أذكركم أنها مسألة وقت كذلك.

- إذا كنتم في عجلة من أمركم، يجب عليكم، فيما يخص بعض التجهيزات، مخاطبة دول صديقة، مثل تشيكوسلوفاكيا وألمانيا الديمقراطية. فهما تمتلكان مخزوناً سيكون جاهزا في أقرب وقت.

وضع الورقتين على المكتب، ثم أشار بأصبعه إلى بعض فقراتهما، معددا المواد التي يمكن أن يسلمها الاتحاد السوفياتي وألمانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا في أقرب وقت.

- ما هو الأجل؟ تساءل «غاهلان».

- سيتطلب الأمر عمليا المدة التي يستغرقها النقل، أي ثلاثة أيام برّاً وخمسة أيام بحراً.

اندهش «غاهلان» لسرعة التسليم هذه، لكن لم يظهر اندهاشه. والحق أنه كان يجهل أي شيء عن الأسلحة.

- من أي ميناء سيتمّ الشحن؟

- بولا.

بما أن الاسم لم يكن يعني، ظاهرياً، أي شيء لمخاطبه، أكد السوفياتي قائلاً:

- يقع في يوغوسلافيا، في عمق البحر الأدرياتيكي.

- في أية ناقلة؟

- تركية أو يوغوسلافية. لا تقلق. لكن يجب، بالطبع، أن أحدث سفيرنا عن هذه الأمور كلها. سأتصل بك بالهاتف.

- لا. أخبرني عبر ساعٍ إلى قصر عابدين.

وافق السوفياتي، وفي عينيه نظرة ماكرة. كان يعرف أن الإنجليز يتنصتون على مكالمات السفارة.

- سأبلغك رسالة وزارة الجيش ما أن تحصل على موافقة سفيرك.

ما أن رحل «غاهلان»، حتى تبادل الملحق العسكري والشاهد الغريب الابتسامات. ضرب الملحق المكتب براحة يده، وهزت ضحكة صامتة جسده.

في الشارع، نادى «غاهلان» المبتهج سيارة أجرة أقلته إلى سفارة تشيكوسلوفاكيا، ثم إلى سفارة جمهورية ألمانيا الديمقراطية. عندما غادرهما، كان شديد الابتهاج. لقد عقد صفقة العمر التي تساوي ثلاثمائة ألف جنيه. إذ سيتقاضى، حسب الاتفاق الموقع مع رئيس القيادة العامة حيدر باشا، عشرة في المائة من هذه الصفقة السرية. بالطبع، لا يليق به أن يرشي بعض الأشخاص يساراً ويميناً، لكن «غاهلان» لم يكن بخيلاً. ذلك أن ثلاثة أو أربعة في المائة كافية لتعويضه عن جهوده.

كان يجهل أن الإسرائيليين عقدوا، ساعات قبل ذلك، صفقة مماثلة مع السفارات ذاتها، لكن في بلدان أخرى، في باريس وبون وروما... لم تكن الأسلحة، وخصوصا الذخيرة، التي اشترتها مصر عبر وسيطها سوى خردة. ذلك أن العدو تسلم ما هو أفضل...

(٣٥)

تغذي الشجاعةُ الحروبَ، لكن
الخوف هو من يولدها.

آلان

١٨ مايو/ *أيار* ١٩٤٨

في قطار مزدحم بالجنود، بسط عبد الحكيم عامر وزكريا محيي الدين وجمال عبد الناصر خريطة القيادة العامة.

كانت القافلة تهتز متجهة نحو العريش، الخطوة الأولى على طريق غزة.

أشار عبد الناصر بأصبعه إلى الخريطة:

«مش معقول! إلى أين يرسلنا؟ إلى أي جحيم يرمينا هذا الملك الدمية؟ فاليهود مدججون بأسلحة تفوق أسلحتنا ألف مرّة. ماذا أقول؟ سلاحنا منعدم! ينتظرنا أشخاص متعلمون، قدموا من أوربا، حيث عاشوا حياة صعبة في الغيتوهات. أما رجالنا، فلا يملكون أي تجربة عسكرية! جيشنا البائس لم يخض أية حرب أبداً. وطوال الحرب العالمية، وما عدا بعض المدفعيات المكلفة بالدفاع الجوي، ظل الجيش في حالة ترقب، حيث لم يطلق أي رصاصة أبدا!»

بحركة متعبة، أشار إلى المتكدسين حوله من رفاقه في السلاح، بعين شبه ناعسة.

- هل يمكن القول إن هؤلاء البؤساء سيؤدون مهمة احتلال مئات الكيلومترات في الأرض الفلسطينية وطرد سكان الكيبوتسات؟

أومأ عبد الحكيم عامر وزكريا برأسيهما. لقد أصاب رفيقهما في قوله. كانوا يطوون المسافات نحو الهزيمة، إن لم يكن نحو الموت.

في الساعة الحادية عشرة ليلاً، دخلت القافلة محطة العريش. نزل الرجال على رصيف خالٍ. هنا لا أحد. غادر جمال ورجاله المحطة بحثاً عن الحي العام. لم يجدوا سوى ضابط بسيط تابع للقيادة العامة، يبحث عن الغذاء.

*

غزة، مايو/ أيار ١٩٤٨

ازدحمت المدينة الشاطئية بالجرحى الذين نقلوا من مستوطنة دير سنيد اليهودية التي هجم عليها المشاة المصريون نهاراً في غياب دعم المدرعات. طبعاً، انتهت المعركة بالاستيلاء على موقع دير سنيد، لكن بأي ثمن! ثمة ما هو أسوأ. فمنذ المناوشات الأولى، أدرك الجنود أن الذخيرة المتوفرة لا تناسب عيار سلاحهم. كانت المدافع تنفجر بلا سبب على رؤوس المدفعيين، فيتمزقون إلى أشلاء متناثرة. كانوا بلا مؤونة. أما الخدمة الصحية، فكانت مزرية.

رحل عبد الناصر إلى أسدود رفقة الكتيبة السادسة، ليواجه فوضى أخرى. قابل هناك جندياً كان يفكك خيمته للمرة الثانية عشرة منذ مطلع النهار، تلبية للأوامر والأوامر المضادة. كان الجندي يندب حظه بصوت خفيض: «يا للعار! يا للعار!»

في يوم ١١ يونيو/ حزيران، انتزع مجلس الأمن من المقاتلين هدنة لمدة شهر. وفي يوم ١٢، قدم إلى فلسطين وفد الأمم المتحدة برئاسة «الكونت برنادوت»، الشخصية السويدية المهيبة ذي الوجه

الشاحب، يرافقه مئات المراقبين الأمريكيين والبلجيكيين والفرنسيين والسويديين. وفي الأيام التالية، أرسل تقريراً إنذارياً: «إنني مقتنع، بصفتي وسيطاً، أن جهودنا لن تستأنف بنجاح إلا إذا وجد حلٌّ مستعجل لمشكلة المأساة الإنسانية الكبرى التي تؤثر في سبعة آلاف لاجئ فلسطيني جُرّدوا من كل شيء. فوضع هؤلاء اللاجئين ميؤوس منه. ثلاثون في المائة منهم أطفال دون سنّ الخامسة يكادون يحرمون من الغذاء، إلا من بعض إمدادات الدقيق الضعيفة».

وفي يوم ١٧ سبتمبر/ أيلول، اغتيل «برنادوت» الذي اتهم بمعاداة السامية، في القدس على يد عضو من جماعة «ستيرن».

ثبت أن هدنة الأمم المتحدة كانت قاتلة بالنسبة إلى الجيوش العربية، بينما كان الجيش الأردني يحاصر القدس تماماً، عجزت خزّانات اللطرون ومضخاتها عن تموين المدينة، وبات سقوطها مسألة أيام فقط. إذ سمح توقف المعارك للإسرائيليين بالحصول على إمدادات السلاح والمؤن، بينما اكتفت الجيوش العربية، في الآن ذاته، باسترجاع الأنفاس.

شارفت الهدنة على نهايتها.

في العمق، لم ينخدع أحد، وعبد الناصر بالطبع. مهما حصل، فإن الحرب خاسرة لا محالة. ستكون كذلك بالتأكيد.

(٣٦)

إنها جرأة الخوف.

ميشيلي

طنطا، يناير/ كانون الثاني ١٩٥٠

توقف أحمد ذو الفقار. أشعل سيجارة، وأعاد الولاعة إلى تيمور لطفي.

بدت «لويلا» الجميلة، مصارعة الثيران الجالسة وسط الرجلين، مستغرقة في أحلام اليقظة.

- وفي النهاية، استأنف ذو الفقار، فتّشت الشرطة العسكرية صديقنا عبد الناصر. وبعد أن أطلعته على أمر الاعتقال، قادته إلى الوزير الأول إبراهيم عبد الهادي شخصياً.

قطّب تيمور جبهته.

- بماذا اتهمته الشرطة؟

- بالانتماء إلى الإخوان المسلمين والتآمر ضد النظام. ظاهرياً، بدأت شعبية صديقنا داخل الجيش تمثل مشكلة بالنسبة إليهم. لكن من يزعجونهم على الخصوص هم الضباط الأحرار.

- الضباط الأحرار؟ كرّر فاضل.

- يبدو أنهم أعضاء في جمعية سرية تتألف من ضباط ثائرين على طريقة قيادة الحرب في فلسطين وسياسة الحكومة.

- هل عبد الناصر عضو فيها؟

بدأ ذو الفقار يضحك.

- ذلك أفضل. كل شيء يحمل على الاعتقاد أنه رئيسها. ربما تتكون هذه الدائرة من اثني عشر شخصاً، من بينهم عزيزنا فون السادات الذي أطلق سراحه، كما تعلم.

- هل تُعرَف نواياهم؟

أومأ ذو القفار برأسه نافياً.

عبر النافذة المفتوحة ينبعث صياح تاجر الفصول الأربعة، مادحاً سلعته.

فجأة، راجع هشام ساعته، ثم وقف فوراً. أعلن قائلاً:

- علي أن أغادركم، للأسف.

- إلى أين أنت ذاهب؟ تساءل والده. سيقدّم العشاء بعد قليل.

- ليس بالأمر الهامّ. تعشوا بدوني. لست جائعاً.

غادر الغرفة، دون أن يقدم شرحاً آخر، كأنه هارب من حريق ما.

دمدم تيمور قائلاً لفاضل:

- أصبح أخوك غريب الأطوار، بلا شك. فمنذ أن غادر الأكاديمية العسكرية، والتحق بالجيش، وهو يتصرف كأنه يتناول الحشيش في الفطور. بل إني أشك في أنه مدمن التدخين.

- لا، يا أبي! أبداً. ليس هشام. بل إنه ينفر من السيجارة.

- مع ذلك، يجب أن أتحرى الأمر. سلوكه ليس عادياً.

في المساء، عندما بث الراديو لحن عايدة المظفر، كما جرت العادة بعد نشرة الأخبار، اختلط الأمر على تيمور.

عايدة. الأوبرا التي ألفها «فيردي»[١] خصيصاً لافتتاح أوبرا القاهرة، خلال سنة افتتاح قناة السويس، تستلهم تاريخ مصر القديمة.

نعم، قال تيمور، وهو يندسُّ في السرير إلى جانب نور النائمة ملء جفنيها. أجل، فالفراعنة ينشغلون بعظمة بلادهم.

كيف استطاع أن يحدس أن ابنه منشغل بها كذلك؟ هشام الذي فرغ، في هذه اللحظة بالذات داخل بيت مجهول يقع في هليوبوليس بضاحية القاهرة، من تدوين ملاحظاته، تحت أنظار عبد الناصر والسادات وعشرة ضباط آخرين. . .

*

أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥١

لم يعد تيمور إلى هذه النقطة. كرر المعلومة على أسماع مخاطَبه سلامة باشا، عميد البرلمان.

- طالما أقول إن الأمر صحيح، فرافقني، وسترى بنفسك. سيدلي بخطابه بعد عشرين دقيقة. في الساعة الحادية عشرة بالضبط.

نظر تيمور لطفي إلى السماء، وهو يطأطئ رأسه عدة مرّات. إذ يكاد يكون ما تناهي إلى سمعه غير قابل للتصديق! لقد قرر الملك فاروق فجأة أن يلغي المعاهدة الموقعة بين مصر وإنجلترا، أملاً في

(١) «جوسيبي فورتونينو فرنسيسكو فيردي» ملحن رومانسي إيطالي، ولد يوم ١٠ أكتوبر/ تشرين الأول ١٨١٣، وتوفي يوم ٢٧ يناير/ كانون الثاني ١٩٠١ في ميلانو. تجمع أعماله، المؤلفة من الأوبرا خصوصاً، بين سلطة اللحن والعمق النفسي والأسطوري. وهي تعتبر أفضل الأعمال وأهمها في تاريخ المسرح الموسيقي. (المترجم).

استعادة مشروعيته المفقودة، وهو ما يؤيده نحاس باشا، رئيس مجلس الشعب. فهذا النص الذي يعود إلى خمس عشرة سنة خلت يجعل من الكتيبة الإنجليزية المتمركزة في منطقة قناة السويس محتلّاً «قانونياً». وقد ظل المصريون يرون في هذه الوثيقة، الموقعة في أغسطس/ آب ١٩٣٦، خزياً شنيعاً.

سدّد الحساب.

- جيّد، هيا بنا!

بعد عشر دقائق، دخل الرجلان قبة البرلمان حيث يسود جو مشحون. كانا يشعران أنَّ شيئاً استثنائياً ما سيحدث.

حلّ صمت رهيب عندما اعتلى نحاس باشا المنبر. شرع يقرأ نصاً يرسم مختلف الخطوات التي قادت إلى توقيع المعاهدة المشؤومة. أنهى العرض. التزم الصمت، وجال ببصره في القاعة، كأنه يرغب في أن يعبر بطريقة أفضل عن جلال هذه اللحظة. ثم قال بصوت قوي:

- من أجل مصر وقعت المعاهدة سنة ١٩٣٦، ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها!

صاح بقوة، وهو يمزق البروتوكول:

- في الوقت الحاضر، انتهى كل شيء! على الإنجليز أن يغادروا فوراً!

اندهش تيمور. وقف النواب المائتان وأربعة عشر. وقف هو الآخر. كانت القاعة تهتزّ بالتصفيقات.

عندما غادر المكان، كان يترنح تحت أشعة الشمس، إن لم يكن بفعل عاطفته؟

في السيارة التي أقلّته إلى الفيلا، التزم الصمت. كان يتساءل:

ماذا لو كان الأمر في النهاية مجرد بداية لكل شيء؟ ماذا لو كانت مصر وجدت زعيماً غير متوقع في شخص فاروق نفسه؟ ماذا لو. . .

ما كاد يصل البيت، حتى بدأ يتنقل من غرفة إلى أخرى، صائحاً: «نور! هشام! فاضل!»

حضر ابناه بسرعة، مذعورين.

- ماذا يجري؟ هل الأمور بخير؟

ظهرت نور بدورها، وعبرت عن قلقها كذلك:

- هل أنت مريض، يا حبيبي؟ هل أنت بخير؟

على كل حال، لم يعد زوجها يتمتع بمظهره الشبابي. لقد راح ضحية ذبحة حادة خلال الخريف الماضي، أجبرته على وقف عدد من أنشطته، إن لم يكن التخلي عنها.

- اطمئنوا! لم أشعر أبداً أنني بأفضل حال مثلما أنا اليوم.

كان يتمايل ببطء إلى الأمام والخلف، على نحو غريب. قال في النهاية:

- ألغى نحاس باشا معاهدة سنة ١٩٣٦، بناء على أمر الملك!

- ماذا؟

- انتظروا! ليس هذا كل شيء! لقد قال نحاس. . .

حدّق في ابنيه وزوجته.

- قال إن على الإنجليز المغادرة!

ألقى هشام بنفسه في حضن أخيه. عانق هذا الأخير بدوره والدته التي ارتمت بين أحضان زوجها.

- رائع! هتف هشام. سنحتفل بهذا العمل الجريء بتنظيم مظاهرة لمساندة الحكومة!

- أجل، وافق فاضل! ما أن يعلن الملك التزامه! يجب أن نتبعه وندعمه!

رحّب البلد برمته بهذه الخطوة. لكن للأسف، سرعان ما حلّت الخيبة محل الفرحة، حيث واجه المفاوضون الإنجليز الإرادةَ المصرية بالبرودة التي تميزهم. إذ من غير الوارد أن يتخلوا عن شبر واحد. ازدادت حدة التوتر. فأصرّ الشارع على مطالبته بإجلاء القوات البريطانية. وكان المعلمون والأساتذة والأئمة يدعون إلى الجهاد في المدارس والجامعات والمساجد. شنَّ شباب متحمسون، انضم إليهم هشام وفاضل، هجومات مفاجئة، لكن بلا فائدة.

وردّاً على تهديدات الشارع، اختارت بريطانيا زيادة ضغطها، حيث رفعت عدد جنودها من ستين ألفاً إلى ثمانين ألفاً.

ما العمل؟ إنها مواجهة بين قدر فخار وقدر معدن[١].

بدأت تتضاعف الحوادث. ذات صباح، أطلقت سيارات مصفحة بريطانية النار على جماعة تمرّ قرب معسكر. قتلت خمسة عشر شخصاً، وجرحت تسعة وعشرين. ارتكبت خطأً فادحاً، حيث لم تكن الجماعة سوى موكب جنازة متوجهة نحو مقبرة.

تمضي الأيام، والحكومة متمسكة برفضها، ثابتة الجأش.

دخل الأمريكيون حينها على الخط، وهم يعلنون دعم أصدقائهم الإنجليز. أليس هذا دأبهم؟ كانوا يعولون على القوات البريطانية الموجودة في مصر لتدعم بالمناسبة تحركاتهم الخاصة، مما يعفيهم من إرسال جنودهم إلى تلك المنطقة. وفي كل الأحوال، لم يختلف

---

(١) صورة مجازية وظفها الأديب الفرنسي «جان دولافونتين» في نص حكائي يحمل «قدر فخار وقدر معدن»، تعبيرا عن عجز الضعيف أمام القوي. لكن القصة تتضمن إحالة إلى الحكمة التي يتحلى بها الضعيف لمواجهة القوي. هذه الصورة البلاغية تنطبق على حالة المصريين في مواجهة الاستعمار الإنجليزي خلال أربعينيات القرن الماضي. ونحن نحتفظ بها هنا كما وردت في النص الأصلي. (المترجم).

الأمريكيون عن البريطانيين، في نظر العرب، إلا أن الأوائل أقل سوءاً من الأواخر، وينجزون أفلاماً جيدة.

بعد يومين من حادثة الجنازة، كانت شاحنة على متنها عناصر من الشرطة المصرية تتقدم أخرى على متنها جنود إنجليز. انفجر عادم الشاحنة الأولى. وسرعان ما شرع الإنجليز، الذين اعتقدوا أنهم عرضة لهجوم، يطلقون النار على المارة المصريين. لم يعلن عدد الضحايا.

لم تتحرك السلطة.

حينها خرج الجنرال «إرسكين»، القائد العام للقوات الإنجليزية في مصر الذي يدعى «جورج القوي»، عن صمته، ليؤنب المصريين:

«أعلنت الصحافة المصرية أن متطوعين شباباً يستعدون لمغادرة القاهرة، ربما بموافقة الحكومة، بغية مهاجمة القوات التي تعمل تحت إمرتي في منطقة القناة. إذا ثبتت صحة هذه التقارير، وإذا حدثت هجمات، سأكون مضطرّاً إلى سحق هؤلاء المتمردين بوسائلي الخاصة التي لم أستعملها حتى الآن. آمل أن يكبح جميع المسؤولين عن هذا البلد، وخاصة آباء هؤلاء الأولاد قليلي الأدب، نوازعهم الإجرامية. فمن الأجدر أن يتهيأ هؤلاء الشباب، ليصبحوا مواطنين صالحين في مصر».

كان لتحذير «جورج القوي» أثر معاكس تماماً لما توقعه. إذ تزينت واجهات الجامعات، منذ اليوم التالي، بلافتات كتب عليها:

يا إرسكين، الشباب المصري بيقول لك طز!

في يوم ٢٣ يناير/ كانون الثاني ١٩٥٢، هاجم كومندو المعسكر البريطاني في التل الكبير، والذي كان يحتوي على أهمّ مخزن للعتاد والذخيرة في الشرق الأوسط.

وفي فجر يوم ٢٤ يناير/ كانون الثاني، تحركت مدرعات

«إرسكين» نحو مدينة الإسماعيلية، وحاصرت الثكنتين اللتين تتحصن بهما قوات الشرطة. ظنّ «إرسكين» أن المسؤول الحقيقي عن الهجوم على التل الكبير هي هذه الشرطة التي لم تحاول اعتراض طريق الكومندو.

تناول النقيب رفعت، القائد العام لقوات الشرطة النظامية، الهاتف بعدما جنّ جنونه، واتصل بفؤاد سراج الدين، وزير الداخلية. لم يكن رجال الدرك القليلون، الذين يعملون تحت إمرته، يفتقدون إلى العُدَّة الكافية فحسب، بل لم يكونوا مدربين على خوض معركة ضد جنود من طينة البريطانيين. فهل يستسلم أم يصمد؟

كان جواب سراج الدين قاطعاً: «اصمد! يجب أن تصمد إلى آخر رمق. فالاستسلام سيشوِّه سمعة الحكومة، وسيفقدها الثقة في نظر الشعب».

في هذه الأثناء، اتصل «إرسكين» بالنقيب رفعت، قائلاً:

- ستحظى بمعاملة طيبة خلال الموعد!

تقدم رفعت، الذي تلقى تدريباً قبل ستة أشهر في فرقة الإجرام بـ«اسكتلند يارد»، بثبات إلى مدخل الثكنة.

- عشت جزءاً من حياتي في إنجلترا. اعتبرت الإنجليز بمثابة جنتلمان. لكن أنتم الإنجليز الذين تحاربوننا هنا لستم جنتلمان. لقد حشدتم الدبابات ضد مصريين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

- أدرك أن وضعكم حرج، ردّ «جورج القوي»، لكننا اتخذنا قرارنا. أمامكم ربع ساعة.

بعدما رفض رفعت المهلة، أمر «إرسكين» بإطلاق النار. اخترقت دبابات «سنتوريون» البناية بقذائف من عيار عشرين ملم. دافع الدرك، الذين تسلحوا ببنادقهم الخفيفة، عن أنفسهم ما استطاعوا. لكن حدثت مذبحة.

بعد معركة دامت ساعتين، جدّد «إرسكين» إنذاره.

خرج حينها النقيب رفعت من البناية. كانت يداه وملابسه ملطخة بالدماء.

- انظروا إلى هذه الدماء على يدي! إنها دماء ضحاياكم. لستم جنوداً، أنتم قتلة!

أجاب «جورج القوي» بهدوء:

- سنوفر لكم سيارات الإسعاف. وسنعيد لكم شرفكم. أنتم شجعان، ونحن نحترم الشجاعة!

هزّ رفعت كتفيه، ثم قال قبل أن يعود إلى داخل البناية المشتعلة:

- بعد قليل، ستأتون للبحث عن جثثنا!

استأنفت المعركة. في منتصف النهار، أطلقت المدافع الإنجليزية كرات نارية.

بعد ربع ساعة، لم يكن أمام رفعت من خيار سوى أن يرفع الراية البيضاء. أسفرت المعركة عن ٤٦ قتيلاً و٧٦ جريحاً من الجانب المصري، و٣ قتلى و١٣ جريحاً من الجانب الإنجليزي.

«إنه الجنون بعينه!» قال القائد «إرسكين».

انتشر خبر المذبحة في القاهرة بعد ساعة، ثم في باقي البلاد، فانفلت الغضب من عقاله من النيل الأعلى إلى الأسفل. قرر مجلس الوزراء، الذي اجتمع خلال الليل، قطع العلاقات الدبلوماسية مع إنجلترا، والدعوة إلى اجتماع مجلس الأمن بالأمم المتحدة.

وخلال الفجر، احتجزت أربع وعشرون شخصية بريطانية بالقاهرة كرهائن. ونظم شباب حزب الوفد - من بينهم ابن تيمور - تظاهرة حاشدة احتجاجاً على الطاغية الغاشم. وقررت النقابات العمالية مقاطعة المقاولات البريطانية فوراً. وخلال المساء ذاته من

يوم ٢٥، منع موظفو مطار القاهرة الولوج إلى مكاتب شركة الخطوط الجوية الدولية البريطانية BOAC[١].

وفي يوم السبت ٢٦ يناير/ كانون الثاني، اتصل أحمد ذو الفقار بتيمور:

- لا تذهب إلى المدينة، ولا يفعل أي من عائلتك.

- لماذا؟

- ثق بي، ابق في بيتك.

سارع إلى إغلاق الهاتف.

فكّر تيمور منذ الوهلة الأولى في ابنيه. نادى باسميهما: فاضل! هشام! أين أنتما؟ هشام!

لم يأته أي جواب. أدرك الأمر حينها.

عندما ظهرت نور، قال بصوت خفيض:

- ليحمهما الله... ليساعدهما جلّ جلاله.

كان صياح الإخوان المسلمين، وهو يحثون المؤمنين على الجهاد، يتعالى من كل الزوايا.

في منتصف النهار، تجمع آلاف المتظاهرين في الشوارع. التحقت بهم جماعة من طلبة جامعة الأزهر، مطالبين بمدّهم بالسلاح.

كانت الشرطة الحاضرة في المكان، تتابع المتظاهرين بهدوء. لقد قتل منهم أربعون عنصراً في الإسماعيلية، حيث يبقى التدخل غير وارد بالنسبة إليها. غير أن قوات حفظ النظام غيرت وجهة موكب المتظاهرين، عندما أخذ يسير نحو قصر عابدين. دخل حينها شارع إبراهيم باشا، ووصل إلى ميدان الأوبرا. مرّ المتظاهرون أمام ملهى

(١) British Overseas Airways Corporation.

بديعة حيث حفلات هزّ الخصر والسهرات الماجنة للأغنياء والغربيين اللاهثين وراء لحظات غرائبية. على شرفة الملهى جلس ضابط مصري.

خاصمه أحد المتظاهرين قائلاً:

- أنت هنا، تشرب، بينما إخوتك يذبحون في القناة؟ ألا تخجل من نفسك؟

ردّ الضابط بازدراء. ما الذي دهاه؟ سرعان ما انهالت عليه الحشود، التي حاصرت الملهى. كان البعض يحمل قنينات بنزين. كدسوا الكراسي بعضها فوق بعض. رشوها، ثم أحرقوها. بعد نصف ساعة، أصبح ملهى بديعة طعماً للنيران.

أحرقت الأوبرا بدورها. بعيد ذلك، لقيت القاعتان السينمائيتان الفاخرتان في القاهرة المصير ذاته.

في نادي السباق الشهير الواقع في شارع عدلي باشا حيث كان الجواسيس يلعبون أدوارهم المزيفة، تساءل إنجليز مذعورون عن الخطوة المطلوبة في هذه الحالة، عندما ظهر المتظاهرون في زاوية الشارع. قبضوا على أولئك الذين حاولوا الفرار، وألقوا بهم أحياء في نيران متأججة وسط الشارع. لقي اثنا عشر منهم حتفهم.

وفي بنك «باركلي» بشارع عماد الدين، توفي موظفون بريطانيون مذعورون اختناقاً بعدما لجأوا إلى قاعة خزانات الأموال.

وفي الفندق الوطني بشارع سليمان باشا، أنقذ مديره «كلوميريس»، وهو مواطن يوناني، حياة زبائن أنجلوساكسونيين، بعدما أخفاهم في صناديق القمامة في الطابق الأرضي.

وفي الساعة الواحدة بعد الزوال، خرّبت صالة الشاي «غروبي» بدورها. وفي الساعة الحادية عشرة ليلاً، احترق فندق «شيفردز» هو

الآخر، حيث هرب أعضاء فرقة الأوبرا الإيطالية، الذين كانوا يقيمون فيه، خائفين إلى الحدائق المجاورة بالبيجامات.

هجم المتظاهرون على تجار الأسلحة على حين غرة. إذ استولى يافع في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة على مسدس، وأطلق بضع رصاصات على شرفات العمارات.

استحوذت رغبة مجنونة في التدمير على الشعب، بعدما استثارته رائحة الحرائق التي عمت العاصمة.

بلغت الثورة العربية الكبرى ذروتها، بعدما تأخرت ستا وثلاثين سنة. لكن تيمور لم يكن يبالي بها. ذلك أن همّه الوحيد، في هذه الساعة، يقتصر على معرفة أحوال ابنيه.

(٣٧)

لا ينبغي أن يغتني الملوك إلا بحب شعوبهم.

القاهرة، ٢٠ يونيو/ حزيران ١٩٥٢

عاد فاضل وهشام سالمين إلى البيت عشية هذا السبت، الذي أطلق عليه المصريون اسم *السبت الأسود*. لكن الأخوين رفضا قطعاً إطلاع أبويهما عن المكان الذي أمضيا فيه هذا اليوم ٢٦ يناير/ كانون الثاني. اكتفيا بنفي مشاركتهما في المظاهرات في أي لحظة من اللحظات.

إنها بداية الصيف.

كان فاروق، المسكون بغزيرة البقاء، يشكل «مربعاً أخيراً» من شخصيات مختلفة، لكن بلا أفق. وفي أغلب الأوقات، لم تعد الإرادة الملكية تعبر عن ذاتها عبر القناة الرسمية، بل عبر جماعة صغيرة من الخدم الذين يشكلون ما يسمى بـ«ديوان المطبخ». لقد استسلمت مصر لمصيرها.

ففي صباح يوم ٢٢ يوليو/ تموز، دقّ مدني جرس فيلا لطفي، وطلب التحدث مع هشام. على الفور، قاد هذا الأخير الزائر، تحت أنظار والده، إلى مكتبه. وقبل أن يغلق الباب، طلب عدم إزعاجهما.

يدعى الرجل أحمد أبو الفتح. صحافي رئيس تحرير جريدة

حزب الوفد المصري، وهو صهر الملازم الأول عكاشة، أحد الأعضاء المؤسسين لدائرة الضباط الأحرار.

- يؤسفني أن أزعجك في بيتك، يا هشام، لكن خطورة الوضع تقتضي ذلك.

- كلي آذان صاغية.

- كما تعرف، سقطت الحكومة الثالثة في ظرف ستة أشهر. وقد عرفت البارحة، عبر مصدر موثوق، اسم الشخصية التي ينوي الملك تعيينها في منصب وزير الحرب. يتعلق الأمر بالجنرال حسين سيري.

أعلن أحمد الخبر، بجدّية ظاهرة.

- مستحيل!

من بين الشخصيات السياسية جميعها، كان سري يبدو من بعيد الأشنع عند عبد الناصر و«دائرة الضباط الأحرار»، شخصية تمثل الخطر الأكبر المحدق بسلامتهم جميعاً.

- انتظر، استأنف أحمد. الأسوأ هو الآتي. وعلى إثر ذلك، أمر الملك باعتقال عسكريين متآمرين على شخصه.

أصبح هشام شاحباً.

- اعتقال عسكريين؟ هل تقصد أنه يعرف بعض الأسماء؟

- لا أعرف شيئاً. لكن في غمرة هذا الشك، وجب علي أن أخبرك. لقد شرفني ثروت بالحديث عنك، وعن انخراطك في الدائرة. لذلك فضلت المجيء إلى هنا بدل الذهاب إلى بيته، حتى لا أثير الشكوك. فبيته خاضع للمراقبة.

- يجب أن أحذر عبد الناصر، بدون تأخير!

- بالطبع. والجنرال نجيب؟

تردد هشام.

لقد أثار محمد نجيب انتباه عبد الناصر ورفاقه منذ وقت غير

يسير. ففي نظرهم، يمثل هذا العسكري، الذي أصيب ثلاث مرات في معارك فلسطين، البطل المثالي. بينما كان يتعافى من جروحه في المستشفى، تحدث عن الجنرال لأول مرة عبد الحكيم عامر، صديق عبد الناصر الحميم. عرض العسكري بين يديه الخطوط العريضة للمخطط الطموح، الذي ستتبعه دائرة الضباط الأحرار. وبعد زمن، بينما كان نجيب يقدم دروسه بمدرسة القيادة العامة، جاءه يطلب مشورته مجدداً. جاءه عامر كما العادة. لكن يرافقه عبد الناصر هذه المرة. ذهب الرجلان أبعد في بوحهما، وهما يصفان تطلعاتهما بالتفصيل. وأقنع نجيب نفسه بها. في الواقع، سرعان ما أدرك هشام ذلك، حيث أنه إذا كان عبد الناصر ورفاقه يلجأون إلى هذا الرجل، فلأنهم في حاجة إلى شخصية موثوقة، يعرفها ويحترمها الجميع، إلى وجه رمزي بارز يبعث الطمأنينة في القلوب، وإلى شخص ينصت للشعب. وما أن يتم خلع الملك من عرشه، حتى يغادر نجيب ربما من الباب الضيق.

- أجل، قال هشام بعد استغراق في التفكير، سأعلم الجنرال نجيب أيضاً.

وقف. أمسك بذراع الصحافي، واندفع به نحو السيارة، تحت أنظار والده الحائرة.

- إلى أين ذهب ثانية؟ تساءلت نور.

- هل تظنين أن ابنك يتفضل بإخباري بتحركاته؟ هكذا هو منذ كان عسكرياً بسيطاً. أما الآن، وقد صار موعوداً برتبة كولونيل، فالأمر أسوأ!

هزّت نور كتفيها، تعبيراً عن استسلامها للقدر.

- في كل الأحوال، لم يعد طفلاً، بعد أن بلغ سن السادسة والعشرين.

- حسنا، قال تيمور مستنكراً، كنت أظن العكس تماماً! من حسن الحظ أن أخاه يبدو هادئاً.

- أجل، أعرف. لقد أخبرني بنيته متابعة دراساته في مجال التواصل حتى النهاية. سنرى ذلك.

تأمل تيمور زوجته لحظة قبل أن يدمدم:

- هل تريدين معرفة الحقيقة؟ لم يعد الشباب كما كان من قبل!

*

بعد ساعات من زيارة الصحافي، اجتمع قادة دائرة الضباط الأحرار، عقب إنذار هشام، في فيلا الجنرال نجيب، غير بعيد من ملهى ميدان الحلمية. ركن المتآمرون سياراتهم في هذا المكان العمومي قرب سيارات الزبائن حتى لا يثيروا انتباه الشرطة.

كانوا عشرة. ورغم أن هشام لم يكن عضواً في الدائرة، رغب عبد الناصر في حضوره بينهم.

- من هنا، خلص هذا الأخير، يجب أن نغير مخططاتنا. سنقدم ما كان مخططاً لنهاية شهر أغسطس/ آب موعدنا منتصف الليل. الوضع مناسب. والحكومة غائبة، وأغلب رجال السياسة والدبلوماسيين في عطلهم بأوربا أو في مصطافات الإسكندرية. والطرق خالية. يجب أن نعجل بإنذار رفاقنا خارج القاهرة، من بينهم أنور السادات الذي يعسكر في قاعدة العريش الجوية.

استدار نحو هشام.

- هل يمكن أن تتكفَّلَ بالأمر؟

- بالطبع. يمكنك أن تعتمد علي.

بعد ذلك، عرض عبد الناصر مخططه.

*

٢٣ يوليو/ تموز.

في الساعة السادسة والنصف صباحاً، كسر رنين الهاتف هدوء الفيلا.

ردّ تيمور التعيس على المكالمة. في البداية، لم يستطع أن يتعرف على صوت ذو الفقار، لأنه كان منفعلاً، وبدت نبرته متسارعة.

- تيمور، تيمور، أنصت إلي! لقد احتل عسكريون متمردون القاهرة. استولوا على كل شيء، على الوزارات، ومركز الهواتف، والإذاعة، ومحطات القطار والمطارات، كل شيء... وتمرّ الدبابات في الشوارع.

- و... والإنجليز؟

- لم يتحركوا حتى اللحظة؟

في هذه الأثناء، خرج الطباخ من المطبخ، مثل المجنون:

- الإذاعة! بسرعة... سيتلى بلاغ...

نقل تيمور المعلومة، ووضع سماعة الهاتف.

رفع صوت مذياع الصالون إلى حدّه الأعلى، وسمع صوتاً يقول بنبرات مجلجلة:

- «اجتازت مصر فترة عصيبة من تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم. وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش، وتسبب المرتشون المغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين. وأما فترة ما بعد هذه الحرب، فقد تضافرت فيها عوامل الفساد وتآمر الخونة على الجيش وتولى أمره إما جاهل أو خائن أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش...».

التحقت نور بزوجها.

خرج فاضل بدوره من غرفته، بعدما استيقظ بسبب الجلبة. تساءل قائلاً:

- من هذا المتحدث؟

- اصمت!

- «وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا، وتولى أمرنا داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خلقهم وفي وطنيتهم، ولا بد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب. أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر وسيطلق سراحهم في الوقت المناسب».

والتحق البستانيان بالخدم المجتمعين.

- «وإني أؤكد للشعب المصري أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح الوطن في ظل الدستور مجرداً من أي غاية. وأنتهز هذه الفرصة لأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة بأن يقوم بأعمال التخريب أو العنف لأن هذا ليس في صالح مصر وأي عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل، وسيلقى فاعله جزاء الخائن في الحال. وسيقوم الجيش بواجبه هذا بتعاون مع البوليس. وإني أطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم ويعتبر الجيش نفسه مسؤولاً عنهم. والله ولي التوفيق!»

- استمعتم للتو للكولونيل أنور السادات، أعلن المذيع بعد ذلك.

انقلب تيمور على ظهره. أهو السادات؟ فون السادات؟ السادات الذي تعرف عليه؟

لمعت ابتسامة عريضة على محيا فاضل.

- مبروك! هتف. لقد نجحوا!

*

بعد نصف ساعة، سمعت أصوات تصرخ في الشارع، ومن وراء أبواب الفيلا: *«تحيا الثورة!»*

- كل هذا جيد جداً، قال تيمور، لكن من سيحكم مصر؟ ونحن لا نعرف أي شيء عن رد فعل الإنجليز، ولا ردّ فعل فاروق. أما السؤال الشاغل، فهو: هل يستطيع أحدكم أن يخبرني أين ابني؟

لم يكد يكمل طرح السؤال حتى رنّ الهاتف مجدداً، منتزعا إياه من جفلته.

- مساء الفلّ، يا أبي.

- هشام، يا ابني؟ أين أنت؟

- لا يهم! أعتقد أنك سمعت الخبر؟

- أجل، ولكن...

انفجرت ضحكته مجلجلةً.

- أقبلكم جميعا بحرارة! تحيا مصر. أحبكم!

- هل سمعت ضحكته؟ سأل فاضل مبتهجاً.

*

تناوبت الصحافة والإذاعة في هذا اليوم ٢٣ يوليو/ تموز على التعريف بأسماء القادة الأساسيين للضباط الأحرار.

في تلك الأثناء، كان الجميع، من سائق التاكسي حتى النواب والوزراء، يتساءلون عن سبب عدم احتجاج الإنجليز. وفي الأيام التالية، تذكر تيمور دعابة فاروق اللاذعة، بينما كان يلعب ذات مساء الورق في نادي السيارات الملكي:

- عما قريب، لن يكون هناك سوى خمسة ملوك: ملك النَفَل، وملك البستوني، وملك القلب، وملك المربع[١]، وملك إنجلترا.

---

(١) أسماء ملوك توظف في لعبة ورق شهيرة.

وفي يوم ٢٦ يوليو/ تموز، أعلن هشام:

- تم الأمر. لقد تنازل.

- تقصد أن الملك غادر سدة الحكم؟ تساءل فاضل.

- أجل، لقد تخلى عن العرش. وهو راحل على متن اليخت الملكي *المحروسة* بعد ساعتين. لقد تركنا له الوقت الكافي ليأخذ بعض الملابس.

- والملكة والمولود الجديد؟

- سيرافقانه بالطبع.

*

عندما تلطفت أصداء ذلك اليوم المشهود سادس وعشرين يوليو/ تموز، برزت المشكلات، وربما بحدة أكبر من ذي قبل، حيث ظلت القوات الإنجليزية متمركزة في منطقة القناة. ولم يؤدِّ تنازل الملك عن العرش إلى استقلال مصر في الواقع.

- كلما تغير الأمر، ظل الحال كما هو، قال تيمور مستشهداً بالصيغة الفرنسية المعروفة في لغتها الأصل.

حدث ذلك بعد ستة أشهر من تنازل فاروق عن عرشه.

في العراق الذي احتُلّ لاستغلال نفطه، ظلّ الوزير الأول نوري السعيد، هذا الوغد، متواطئاً مع الإنجليز.

ففي أبريل/ نيسان ١٩٥٠، وحّد الملك عبد الله الأردن وفلسطين العربية (القدس الشرقية والضفة) تحت اسم المملكة الهاشمية الأردنية. وبعد سنة، اغتيل الملك على يد منفي فلسطيني كان يؤاخذه على مواقفه التي تسترضي إسرائيل كثيراً. وفي يوم ١١ أغسطس/ آب ١٩٥٢، بويع حفيده الحسين ملكاً. كان فتى في سنّ السادسة عشرة، ذا تربية إنجليزية، لأنه تعلم في «هاراو». وهكذا، ظل البلد تحت السلطة البريطانية.

وفي سورية، سادت الفوضى.

بعد انتصار إسرائيل سنة ١٩٤٨، ظل الاستياء العام يزداد حدة، حتى شهر مارس/ آذار ١٩٤٩، تاريخ انقلاب الكولونيل حسني الزعيم على شكري القوتلي. وبعد فترة سجن قصيرة، لجأ الرئيس المخلوع إلى القاهرة، في انتظار فرصة العودة إلى بلده.

وماذا عن العربية السعودية؟ والكويت؟ بالنظر إلى اعتمادهما المطلق على البترول منذ تلك الفترة، باتا تحت القبضة الأمريكية. أما البحرين، فكانت ما تزال تحت الوصاية الإنجليزية.

قارب عدد اللاجئين الفلسطينيين المليون. . .

- سنرى ما سيفعله عبد الناصر، هتف تيمور ذات يوم.

لم يكن يؤمن إلا بالنصف، تقريبا ربما. بالثلث؟ لا، أكثر قليلاً. لكن من ذا الذي يستطيع أن يزن مشاعره؟

القسم الثالث عشر

(٣٨)

الجرأة مُلْك بلا تاج.

التلمود

الإسكندرية، ٢٦ يوليو/ تموز ١٩٥٦ ، الساعة السابعة مساء

غاص ميدان المنشية، أو محمد علي سابقاً، بالحشود. والجو هنا في غاية الاعتدال في هذا الوقت من شهر يوليو/ تموز. صبر الحشود ينفد. فهي تريد أن ترى الرجل الذي بدأ لعبة لي الذراع مع العالم الغربي. إنه بطل بالنسبة إليها.

لم يرد تيمور، ولا نور وهشام وفاضل، أن يفوتوا الحدث.

فجأة، علت صرخة. أشار فاضل إلى المنصة المرتفعة. ها هو! الريس هنا! عبد الناصر! شرع الجميع في ترديد اسم الرئيس، والزغاريد تتعالى إلى السماء حيث بدأت تلمع النجوم الأولى.

أجل. إنه عبد الناصر.

بدا هادئاً تماماً. حيّا الحشود بيده، ثم تناول الميكرفون.

- «أيها المواطنون.. .نحتفل اليوم باستقبال العيد الخامس للثورة.. باستقبال السنة الخامسة للثورة، بعد أن قضينا أربع سنوات نكافح ونجاهد ونقاتل؛ للتخلص من آثار الماضي البغيض.. للتخلص من آثار الماضي الطويل.. للتخلص من آثار الاستعمار

الذي استبد بنا قروناً طويلة، وللتخلص من آثار الاستبداد الذي تحكم فينا، وللتخلص من آثار الاستغلال الأجنبي والاستغلال الداخلي. إننا اليوم ونحن نستقبل العام الخامس للثورة نستقبله أشد عزماً، وأمضى قوة، وأشدّ إيماناً».

دوّت التصفيقات في المكان. ثم استأنف عبد الناصر كلامه:

- «حينما نتجه إلى المستقبل نشعر أن معاركنا لم تنته، فليس من السهل.. ليس من السهل أبداً.. مش سهل أبداً إن إحنا نبني نفسنا في وسط الأطماع.. الأطماع الدولية المتنافرة، والاستغلال الدولي، والمؤامرات الدولية.. مش سهل أبداً إن إحنا نبني نفسنا.. نبني وطناً، ونحقق استقلالنا السياسي، ونحقق استقلالنا الاقتصادي. قدامنا معارك طويلة سنكافح فيها.. قدامنا معارك طويلة لنعيش أحرار، لنعيش كرماء، لنعيش أعزاء»[1].

رددت الحشود: «عبد الناصر! عبد الناصر! نحن معك!»

ابتسم. لم تكن ابتسامته أكثر مكراً مما هي عليه في هذه اللحظة.

تابع كلامه:

- «منذ أن أعلنت مصر سياستها الحرة المستقلة، وبدأ العالم ينظر إلى مصر ويعمل لها حساب.. بقوا يعملوا لنا حساب.. اللي كانوا زمان ما بيعبروناش وما بيحسبوش حسابنا، بقوا النهارده يعملوا لنا حساب، بدأوا يعملوا للعرب حساب، وللقومية العربية حساب. كنا زمان نتلطع على مكاتبهم؛ مكاتب المندوب السامي والسفير

(١) الاقتباسات المستعملة هنا مأخوذة من الخطاب الأصلي للرئيس جمال عبد الناصر. لذلك، لا بد من التوضيح أن العبارات الدارجة موجودة في نص الخطاب الأصلي. (المترجم).

البريطاني، النهارده بعد تحقيق حريتنا السياسية وبعد إعلان مبادئنا، وبعد تكاتفنا وإقامة جبهة وطنية متحدة من جميع أبناء هذا الشعب ضد الاستعمار، وضد الطغيان، وضد التحكم، وضد السيطرة، وضد الاستغلال، وضد التدخل الأجنبي؛ بيعملوا لنا حساب، وبيعرفوا إن إحنا دولة لها قيمتها، تستطيع أن تفعل ما تريد. النهارده قيمة مصر في المجال الدولي كبرت، وقيمة العرب - الأمة العربية - في المجال الدولي كبرت وعظمت».

وقد أعدّ البكباشي[1] تقريراً حول مشاركته في المؤتمر الأخير المنعقد في بريوني بيوغوسلافيا. أشار فيه إلى انضمام الرئيسين نهرو وتيتو إلى سياسته القاضية بعدم الانحياز. وعالج مشكلات الاقتصاد في مصر، ومشكلات الإنتاج، والدخل القومي، ورغبة البلاد في الانخراط في طريق أخرى غير طريق التوسل والتسول. ثم تناول مسألة شراء الأسلحة.

- «ابتدينا في سنة ٥٢ نتكلم على تموين الجيش المصري بالأسلحة. . . قالوا لنا: ما نديكمش سلاح إلا إذا وقعتوا معنا ميثاق الأمن المتبادل. تعرفوا ميثاق الأمن المتبادل معناه إيه؟ معناه إنه تيجي بعثة أمريكية تقعد في مصر هنا تمشي أمور الجيش المصري. . . قلنا لهم إن إحنا لنا تجارب، وإحنا كناس عسكريين كنا موجودين في الجيش لنا تجارب كبيرة بهذا الخصوص. . لنا تجارب مع البعثات العسكرية. . . وكنا بنحتك بهم، وكنا بنجد أن هدفهم الأول هو إضعاف الجيش المصري. . هدفهم الأول هو بث روح الهزيمة وبث روح عدم الثقة في الجيش المصري. . . قلنا لهم:

---

(١) رتبة تركية تعني «مقدم فرقة العسكر»، لكنها استعملت بعد ذلك لتعني كولونيل الجيش المصري.

مستعدين نشتري أسلحة بفلوس، ما بنطلبش منكم معونة. . . ما رضيوش يدونا أبداً أي حاجة، لا مجاناً ولا بالفلوس إلا أن نمضي صكوك تمكنهم مننا وتعتبرنا في هذه البلد غرباء لا نستطيع أن نقرر سياستنا».

خيّم الصمت لحظات. ثم ارتفع صوته بنبرة حادة:

- «وبعدين استطعنا أن إحنا نشتري سلاح من روسيا. . باقول من روسيا مش من تشيكوسلوفاكيا. . . وبعدين حصلت ضجة كبرى. . إيه الغرض من الضجة دي؟ بيقولوا: دا السلاح الشيوعي، مش عارف أنا فيه سلاح شيوعي وسلاح غير شيوعي؟! أنا أعرف السلاح اللي ييجي هنا في مصر يبقى سلاح مصري. هم قالوا: إنهم عاملين خطة للحفاظ على ميزان التسلح في الشرق الأوسط - زي ما هم فاهمين هذا الكلام - سبعين مليون عربي ومليون صهيوني. . أما يدوا الـ ٧٠ مليون عربي بندقية، حيدوا للمليون صهيوني بندقيتين. . . ومين اللي عملوكم أوصياء علينا علشان تحققوا التوازن في هذه المنطقة؟ هل إحنا طلبنا منكم الوصاية؟!»

اهتاجت الحشود.

اندهش تيمور ونور.

لم تكن لنبرته، ولا للغة الموظفة، أية صلة بما كان يعرفه المصريون حتى تلك اللحظة. فهذا الرجل من أرضهم ولحمهم. ها هو مصري يقود الشعب المصري للمرة الأولى منذ قرون. مصري يتحدث كما يتحدثون. ابن بلدهم. لغته هي لغة رجل الشارع، الحداد، والبواب، والحمال. . هي لغة الإنسان المهمش.

في هذا المساء، عثرت فيالق المهمشين على مترجمهم. ففي نظرهم، لم يكن عبد الناصر رئيساً فحسب، وإنما والدهم وشقيقهم؛ ذلك الذي حمل معاناتهم وإحباطاتهم ليلقي بها في وجه العالم.

حرّك يده، ليحل الصمت، ثم تابع خطابه:

- وبعد هذا بدأ الكفاح في القنال... قتال مرير ماتوا فيه ناس كانوا بيؤمنوا بالنصر... واستطاعوا إنهم يخلوا القوة الإنجليزية. فيه معارك في الوطن العربي كله.. الاستعمار عاون فرنسا في الجزاير وفي تونس وفي مراكش. لقد استطاعت القومية العربية في الجزائر أن تهزم فرنسا وتوقع بها أشد الهزائم، واستطاعت القومية العربية في الجزائر أن تهزم حلفاء فرنسا اللي بيصرحوا لها بالأسلحة؛ أمريكا وبريطانيا ودول الأطلنطي كلها... ولكن الجنس يبقى والقومية تبقى.

ثم توقف عند موضوع السدّ العالي[1]:

- «حينما وصل «بلاك» - اللي هو مدير البنك الدولي[2] - وابتدا يتكلم معايا في تمويل السد العالي وقعد يقول: ان احنا بنك دولي، إحنا ما احناش بنك سياسي... وابتدأت أنظر إلى «مستر بلاك» - اللي هو قاعد على الكرسي - وكنت أتخيل أن أنا قاعد وقاعد قدامي «فرديناند ديلسبس»... كان علي أن ألطف لهجتي. في الواقع، كان السيد بلاك وبنكه يأتمر بأوامر الأمريكيين والإنجليز! من إهانة إلى إهانة. طلبوا أن نركع لإسرائيل. وعندما أظهرت أنني مستعد للنزول عند مطالبهم، تصوروا كيف كان ردّهم؟ لقد رفضوا القرض! هل التاريخ يعيد نفسه تاني بالخداع والتضليل؟! وهل يكون الاستقلال الاقتصادي.. هل يكون الاستقلال أو التحكم الاقتصادي

---

(١) شكل بناء هذا السدّ مسألة بقاء بالنسبة إلى مصر. كانت الغاية منه التحكم في فيضانات نهر النيل، وتوليد الكهرباء وتوفير خزان من مياه الريّ. لقد تسول عبد الناصر - بالمعنى الحرفي للكلمة - من الأمريكيين الإمكانيات المالية الضرورية لبناء هذا الصرح، ليتلقى رفضاً مهيناً جداً.

(٢) البنك الدولي لإعادة البناء والتنمية.

والسيطرة الاقتصادية سبباً في القضاء على حريتنا السياسية واستقلالنا السياسي؟! لا يمكن مطلقا أن يعود التاريخ مرة أخرى. إحنا النهارده ما بنكررش اللي فات، إحنا النهارده بنقضي على اللي فات، إحنا النهارده بنبني بلدنا بناء قوي سليم جديد، وفي نفس الوقت حينما نتجه إلى الخلف إنما نتجه لنقضي على آثار الماضي».

سكت فجأة. ألقى نظرة على الحشود. شعر الجميع أن الكلمات التالية تحمل معانٍ تنمّ عن خطورة:

ضغطت أصابع عبد الناصر أكثر على الميكروفون، ثم أعلن:

- قناة السويس أصبحت دولة داخل الدولة. مش عيب أبداً إن أنا أبقى فقير وأحاول أستلف وأبني بلدي، أو أحاول أن أجد مساعدة لأبني بلدي، ولكن العيب إن أنا أمتص دماء الشعوب وأمتص حقوق الشعوب.. دا العيب. إحنا لن نكرر الماضي أبداً، ولكن سنقضي على الماضي؛ سنقضي على الماضي بإننا نستعيد حقوقنا في قنال السويس. هذه الأموال أموالنا، هذه القنال ملك لمصر؛ لأنها شركة مساهمة مصرية، حفرت قنال السويس بواسطة أبناء مصر، ١٢٠ ألف مصري ماتوا وهم بيحفروها. ٣٥ مليون جنيه كل سنة بتاخدها شركة القنال.. ناخدها إحنا لمنفعة مصر. إحنا النهارده في الـ٤ سنين اللي فاتوا، وإحنا النهارده بنستقبل العام الخامس للثورة وزي ما طلع فاروق، النهارده بتطلع قنال السويس في نفس اليوم. والآن يتجه إخوة لكم من أبناء مصر ليديروا شركة القنال، ويقوموا بعمل شركة القنال، الآن...».

استولت الهستيريا على الحشود.

حينها، تحت أنظار تيمور، انفجر عبد الناصر ضاحكاً، حيث نقل الميكروفون قهقهاته المجلجلة إلى الجموع المندهشة.

*

باريس، خلال المساء ذاته،

أطفأ «جان فرنسوا لوفون» المذياع، وسأل دنيا:

- ما رأيك؟

- ماذا تريدني أن أقول؟ لقد طرد الرجل الإنجليز الذين كانوا يحتلون بلده منذ سبعين سنة، ومد يده إلى الأمريكان الذين أحالوه إلى الإنجليز، وإلى الغرب، وعاملوه مثل رجل وضيع. لهذا، لست مندهشة اليوم من كونه يبعث الفاتورة إلى الغرب.

- ستكون الحرب، أليس كذلك؟

مدَّت دنيا كأس نبيذ لـ«جان فرنسوا». ثم ملأت كأساً لنفسها.

- الحرب؟ يا لها من فكرة! لأي سبب؟

- سمعت مثلي أنا أنه سيؤمم قناة السويس!

- وماذا بعد؟ أين المشكلة؟ ما الذي ستخسره فرنسا وأصحاب الأسهم؟ سيتلقون تعويضات سخية. وماذا عن حرية الملاحة؟ من مصلحة مصر أن تضمنها إذا كانت تريد أن تستمر في الاستفادة من المداخيل الناتجة عنها. وإلى أن يثبت العكس، لا تقتضي هذه العملية إلحاق إقليم، ولا سفك دماء. فضلاً عن ذلك، اسمح لي أن أذكرك أن «دوغول» أمم موارد الطاقة الفرنسية ومعامل «رونو». وفي الضفة الأخرى من بحر المانش، ألم يتم تأميم بنك إنجلترا ومناجم الفحم والطيران المدني؟ لذلك... لا أظن أن فرنسا وإنجلترا مختلتان حتى تشنَّا عملية عسكرية. أبداً و...

رن جرس الباب. ذهبت لتفتح.

- هذه رسالة مستعجلة إلى السيد «لوفون»، أعلن الزائر.

مدَّ ظرفاً يحمل عنوان وزارة الشؤون الخارجية. فض الرسالة على الفور.

تعالَ إلى مكتبي فورا.

إمضاء: «كريستيان بينو».

أطلع «جان فرنسوا» دنيا على الرسالة، معلقا عليها بابتسامة تخفي حنقاً.

- أخطأت يا عزيزتي. إنهم مجانين.

*

لندن، في اللحظة ذاتها

في ١٠ داونينغ ستريت، انتهى ضيوف «أنتوني إدن» من تناول العشاء. كان هناك ملك العراق فيصل الثاني، وروحه اللعينة نوري السعيد وعدد من الساسة والقادة العسكريين البريطانيين. تحدثوا طويلاً عن الشرق الأوسط. كما تساءلوا عن ردود فعل عبد الناصر بعد رفض طلبه الحصول على الأموال لمساعدته في بناء السد العالي.

- فاشل وخاسر! قال «إيدن» وهو يبتسم. عقيدنا الوضيع فاشل وخاسر.

وافق فيصل الثاني على قوله، لكنه كان مندهشاً من التأييد الغريب الذي يتمتع به في العالم العربي. ثم قال معلقاً:

- أتساءل عمن سيحل محله بعد الإطاحة به.

لكن وصول الكاتبة غير المتوقع حال دون إتمام كلامه. اختلطت الأمور في الأذهان. اقتربت من «أنتوني إيدن»، وسلمته برقية. أصبح وجه الوزير الأول شاحباً على نحو مخيف.

- ماذا يحدث؟ تساءل أحد الضيوف. هل هناك خبر سيّئ؟

التزم «إدن» الصمت لحظة قبل أن يقول بلهجة غاضبة:

- كيف يجرؤ على ذلك؟ كيف؟

تساءل الملك فيصل الثاني بدوره:

- ماذا يجري، يا سيدي؟

- ما يحدث، يا جلالة الملك، هو أن عبد الناصر أعلن أنه سيؤمم القناة!

استولى الشك على الضيوف. مستحيل! أكد «إدن» الخبر. مرَّت لحظات الذهول الأولى. مال الوزير الأول الإنجليزي نحو نوري السعيد، وسأله:

- ما رأيك؟

- ثمة مجال للعمل ينفتح أمامكم، رد العراقي. اضربوا بسرعة، واضربوا بقوة، وإلا سيفوت الوقت. وإذا نجح في خطوته، فإن شعبيته الواسعة ستزداد.

- في كل الأحوال، إنه الجنون، أعلن «إدن» وهو يظهر طبعه الإنجليزي البارد. فمصر عاجزة تماماً عن الاستثمار في القناة. فهي لا تتوفر على الربابنة، ولا على الموظفين الأكفاء. ستنهار في بضعة أشهر.

أخطأ «إدن». بعد ثلاثين دقيقة، توصل ببرقية ثانية تخبره أن عبد الناصر أمر جميع الخبراء الأجانب المكلفين بتدبير القناة ألا يغادروا مناصبهم مهما كانت الذريعة.

- ها نحن أمام سلوك لا أستطيع وصفه! قال بنبرة حادة. إنه يحتجز المواطنين الإنجليز رهائن!

وقف. اعتذر من ضيوفه، وأسرع إلى الهاتف.

عندما عاد إلى صالة الأكل، بدا وجهه مسترخياً أكثر. لقد استدعى وزراءه من أجل اجتماع عاجل.

- سننال منه! قال مبتسماً. سيدرك أنه لا مجال للارتجال في السياسة.

وافق نوري السعيد على قوله، وقد علت ملامحه سحابة سوداء:

- آمل ذلك، لأنكم إذا تركتموه على هواه، فسيقضي علينا جميعاً!

لو قرأ «أنتوني إدن» أفكار عبد الناصر، لما تلفظ أبداً بكلمة «ارتجال» أبداً. خلافا لذلك، فقد نضجت خطوة البكباشي على نار هادئة، حيث تمت دراستها وتحليلها من جميع الزوايا. إذ بدأ يفكر فيها منذ أن أطلعه سفيره على الشروط المهينة التي سعى البيت الأبيض إلى فرضها. وحتى الإشارات المتكررة إلى «ليسيبس» في خطابه ليست مجرد مصادفة.

منذ عودته من بريوني، انعزل في مكتبه. حرر لائحة نتائج يحتملها تأميم قناة السويس.

عَنْوَنها بـ«لو كنت إدن».

*

سيفر، ٢٢ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥٦

اجتمع «سيلوين لويد»، الممثل البريطاني، و«كريستيان بينو»، وزير الشؤون الخارجية الفرنسية، و«بن غوريون» و«موشي دايان» سرّاً داخل فيلا بحي سيفر. إذ يلخص المخطط الذي بلوروه في ثلاث نقاط:

- في يوم ٢٩ أكتوبر/ تشرين الأول، يهجم الإسرائيليون أولا على مصر في عملية «قادش».

- تتدخل فرنسا والمملكة المتحدة شكلياً من أجل وقف إطلاق النار.

- تهجم فرنسا وبريطانيا بدورهما وتحتلان منطقة القناة.

ستعرف العملية باسم «الفارس».

كانت الدولة العبرية، الوفية لإستراتيجية «الحرب الوقائية»، مستعدة للانخراط في هذه العمليات.

في يوم ٢٥ أكتوبر/ تشرين الأول، وكأنه لم يكن هناك أي اتفاق سري، طرحت مسألة قناة السويس على أنظار مجلس الأمن في الأمم المتحدة. وبعد نقاش دام أربعة أيام متتابعة، تبنى المجلس بالإجماع ستة مبادئ تمهيداً لتسوية معينة. وانعقدت مائدة مستديرة في جنيف يوم ٢٩ أكتوبر/ تشرين الأول. وبعد مغادرة المؤتمر، اقترب «داغ هامرسكولد»، الكاتب العام لمنظمة الأمم المتحدة، من الدكتور فوزي، وزير الشؤون الخارجية المصرية، وهمس في أذنه:

- إنه لأمر سعيد أن تتجاوز القاطرة المحطة بعد أن وصل إليها قطار العدوان العسكري الذي جهزه البريطانيون ضدكم.

كان «هامرسكولد» مخطئاً. لقد وصل القطار إلى المحطة للتو. ففي يوم ٢٩ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥٦، على الساعة الثامنة والنصف، بدأت عملية «الفارس»، حيث انطلقت الدبابات الإسرائيلية لتتوغل داخل الأراضي المصرية.

(٣٩)

إن الحضارة التي تثبت أنها عاجزة عن
حلّ المشكلات التي يثيرها اشتغالها هي
حضارة منحطة.

إيمي سيزير

القاهرة، ٢٩ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥٦ ، الساعة التاسعة ليلاً

بينما كان عبد الناصر يحتفل في بيته بعيد ميلاد أحد أبنائه، بلغته رسالة قصيرة: هجمت *إسرائيل*.

ترك أسرته، واستدعى معاونيه.

صدر الأمر للقوات المصرية المكلفة بحماية قناة السويس بترك مواقعها والتوجه نحو سيناء. فوجدت منطقة القناة نفسها بلا حماية.

في يوم ٣٠ أكتوبر/ تشرين الأول، أعلن «أنتوني إدن» و«غي مولي»[١]، بعد الاتفاق بينهما، لبرلماني بلديهما بعد الزوال أنهما وجها للمتحاربيْن إنذاراً بالانسحاب مسافة خمسة عشر كيلومتراً عن ضفتي قناة السويس، يسمح لهما بوضع عملاء فرنسيين وبريطانيين في بورسعيد والإسماعيلية والسويس، وإلا ستُحتل هذه القواعد بالقوة.

---

(١) رئيس الحكومة الفرنسية.

كانت المهلة تنتهي بعد نصف يوم.

لم يفهم عبد الناصر أي شيء. لماذا هذا الإلحاح، بينما كان الإسرائيليون ما يزالون - في هذه المرحلة من العمليات - على بعد نحو ستين كيلومتراً من مجرى الماء؟ يرمي تنفيذ هذه الشروط إلى حشد القوات المصرية المرابطة في سيناء، ونقلها عبر قناة السويس، ووضعها على بعد خمسة عشرة كيلومتراً من ضفتها الغربية. أما بالنسبة إلى الإسرائيليين، فإن المهلة تدعوهم ببساطة وصراحة إلى متابعة سيرهم إلى حدود تبعد عن القناة بعشرة أميال. إنه العبث!

لم يفهم عبد الناصر أي شيء، لأنه كان يجهل تماماً علاقات باريس السرّية.

في كل الأحوال، لم يكن الاستسلام وارداً، لأنه سيكون كارثة.

كانت القوات الفرنسية والبريطانية قد خططت ليومين من التفجيرات المكثفة لشلّ الطيران المصري. لكن يوماً واحداً يكفي. ذلك أن مصر لا تتوفر سوى على ثلاثين طائرة، أغلبها معطلة.

كان المؤذنون يدعون الناس، من أعلى مآذن جوامع البلد، إلى الجهاد.

وفي واشنطن، انتابت الرئيس أيزنهاور نوبة غضب باردة، معتبراً أنه تعرض للخديعة.

وفي الأمم المتحدة، سرعان ما أحبط اقتراح أمريكي بسبب الفيتو الفرنسي والبريطاني، رغم أنه حصل في تصويت يوم ٣٠ أكتوبر/ تشرين الأول على سبعة أصوات.

«هل نحن في حرب أم لا مع مصر؟» سأل النواب العماليون السيد «إدن» الذي أعلن: «لست مؤهلاً على الإطلاق لتقديم تفاصيل في هذا الاجتماع». لكنه اعترف تحت سيل الأسئلة أن الأعمال العدوانية بدأت.

صرخ السيد «هـ. غايتسكيل»، زعيم المعارضة العمالية، قائلاً: «لقد ارتكبت الحكومة، وهي تتخذ هذا القرار، عملا جنونياً مأساوياً، سنندم على عواقبه الوخيمة طيلة سنوات. أجل، سنندم جميعاً، لأنه سيلحق ضرراً بالغاً بهيبة وسمعة بلدنا. بهذا الفعل، يا سيدي، لم تهملوا المبادئ الثلاثة التي وجهت السياسة الخارجية البريطانية (التضامن مع الكومنويلث، والتحالف الإنجليزي - الأمريكي، واحترام ميثاق الأمم المتحدة) فحسب، بل هاجمتموها...».

لكن العمليات العسكرية كانت تتوالى، عندما كان النقاش يجري في البرلمان البريطاني. تفجيرات مكثفة للمطارات المصرية، والمعسكرات، والنقط الاستراتيجية، ومنشآت الإذاعة قصد إسكات «صوت العرب»، و«تنظيف» أحياء بورسعيد.. كانت مهمة المظلّيين تروم احتلال مينائه حيث وجهة الأرمادا الفرنسية - البريطانية.

وتنفيذا لمخطط التدخل، هبطت القوات البريطانية والفرنسية بالمظلات في بورسعيد. لكن المدينة قاومت بضراوة، مخالفة كل التوقعات، مجبرة المظليين على خوض حرب الشوارع. لكنها لم تكن، للأسف، سوى معركة يائسة. ذلك أن هزيمة مصر كانت حتمية.

في «وايتهال» و«ماتينيون»، كان الجميع يترقب مكالمة هاتفية من القاهرة تعلن أن الشعب المصري أسقط الطاغية.

لكن، ومثلما توالى التدخل الفرنسي - البريطاني، باتت الردود الدولية تعترض عليه أكثر فأكثر. وصارت العملة البريطانية عرضة للهجوم في جميع البورصات، حيث سمحت الولايات المتحدة بذلك.

وفي يوم ٥ نوفمبر/ تشرين الثاني، اقتحم الاتحاد السوفياتي اللعبة، معلنا أنه سيعمل على إنهاء التدخل الفرنسي - البريطاني،

حتى وإن اقتضى الأمر استعمال السلاح النووي، كما أعلن الكريملين. حينها، خرجت واشنطن عن صمتها، حيث كان أيزنهاور صريحاً حينما قال إن «المزحة دامت طويلاً». كان «أنتوني إدن» الذي صار معزولاً تدريجياً، يرى أن أزمة سياسية خطيرة بدأت ترتسم في الأفق.

وفي يوم ٦ نوفمبر/ تشرين الثاني، بينما كانت الأرمادا الفرنسية - البريطانية تتهادى أمام بروسعيد، قبل «إدن» بوقف إطلاق النار. وأجبر الفرنسيون على القبول به أيضاً. فحزم الجنود حقائبهم، وعادوا أدراجهم بخفي حنين. وأذعن «بن غوريون» بدوره، تحت ضغط الولايات المتحدة الأمريكية، لسحب دباباته من سيناء وغزة.

كان نصر الرئيس الكولونيل كاسحاً.

سرى الارتياح في البلاد. تضخم تدريجياً، ليتحول إلى أغنية انتصار.

عانق هشام وفاضل أباهما في صمت.

قال تيمور:

- الآن، يا ابناي، أسلمكما المشعل. كل شيء قد بدأ.

كلمة شكر

أنا ممتن لـ «جيرالد ميساديي» الذي ساعدني على شقّ طريقي في متاهة الشرق الأوسط الرهيبة، وعلى ربح وقت ثمين جداً.

وأشكر أيضاً أميرة الوكيل، «المصرية»، لإعادتها قراءة المخطوط، ولملاحظاتها القيمة (جداً) حول تقاليد المجتمع المصري في تلك الفترة.

كما أشكر الصديقة «طُهرة» عن دقة تحليلاتها وتشجيعاتها.

ببليوغرافيا

A la recherche d'une identité, Anouar el-Sadate, Éditions Fayard.

Du rêve à la réalité, David Ben Gourion, Éditions Stock.

Entre le socialisme de Nasser et l'infitah de Sadate (1952-1981), Mohamed H. Heikal, Éditions L'Harmattan.

Fayçal, roi d'Arabie, Jacques Benoist-Méchin, Éditions Albin Michel.

Gamal Abdel Nasser et son équipe, Georges Vaucher, tomes I et II, Éditions Julliard.

Ibn Séoud, ou la naissance d'un royaume, Jacques Benoist-Méchin, Éditions Albin Michel.

L'Egypte en mouvement, Jean et Simone Lacouture, Éditions du Seuil.

L'Identité palestinienne, Rashid Khalidi, Éditions la Fabrique.

La Formation de l'Irak contemporain, Pierre-Jean Luizard, Éditions du CNRS.

Le Grand Aveuglement, Charles Enderlin, Éditions Albin Michel.

Le Grand Mufti et le nationalisme palestinien, Louis Denisty, Éditions L'Harmattan.

Le Proche-Orient éclaté, Georges Corm, Éditions Gallimard.

Le Retour des exilés, Henry Laurens, Éditions Robert Laffont.

Le Rêve brisé, Charles Enderlin, Éditions Fayard.

Les Arabes et la Shoah, Gilbert Achcar, Éditions Sindbad/Actes Sud.

Les Documents du Caire, Mohamed H. Heikal, Éditions Flammarion.

Les Sept Piliers de la sagesse, T.E. Lawrence, Éditions Phébus.

Mémoires du grand mufti, Éditions EL-Ahali. (مذكرات المفتي، دار الأهالي)

Nasser, Jean Lacouture, Éditions du Seuil.

Ô Jérusalem, Dominique Lapierre et Larry Collins, Éditions Robert Laffont.

Palestine, 1948, l'Expulsion, Les Livres de la *Revue d'études palestiniennes*, Elias Sanbar.

Palestine, histoire d'un Etat introuvable, Rashid Khalidi, Éditions Actes Sud.

Par le feu et par le sang, Charles Enderlin, Éditions Albin Michel.

Suez, Marc Ferro, Éditions Complexe.

The Letters of Gertrude Bell, Lady Gertrude, Ernest Benn.

Too Rich, William Stadiem, Éditions Carroll & Graf, New York.

Un printemps arabe, Jacques Benoist-Méchin, Éditions Albin Michel.

Winston Churchill, Martin Gilbert, Dial Press Inc.

هذا الكتاب

في يوم ٢٥ أكتوبر/ تشرين الأول، وكأنه لم يكن هناك أي اتفاق سري، طرحت مسألة قناة السويس على أنظار مجلس الأمن في الأمم المتحدة. وبعد نقاش دام أربعة أيام متتابعة، تبنى المجلس بالإجماع ستة مبادئ تمهيداً لتسوية معينة. وانعقدت مائدة مستديرة في جنيف يوم ٢٩ أكتوبر/ تشرين الأول. وبعد مغادرة المؤتمر، اقترب «داغ هامرسكولد»، الكاتب العام لمنظمة الأمم المتحدة، من الدكتور فوزي، وزير الشؤون الخارجية المصرية، وهمس في أذنه:

ـ إنه لأمر سعيد أن تتجاوز القاطرة المحطة بعد أن وصل إليها قطار العدوان العسكري الذي جهزه البريطانيون ضدكم.

كان «هامرسكولد» مخطئاً.

ISBN 978-9933351670



